

الميزان

في تفسير القرآن

ج ١٥

الجزء الخامس عشر

مُكَابَر

الميزان

في تفسير القرآن

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

شبكة كتب الشيعة

طبع الطبع ونشر

الشيخ محمد الجواد

مطبع

دار الكتب الإسلامية

طهران سوق السلطاني

١٣٨٦ هـ

مطبعة الحيدري بطهران

shiaabooks.net

رابط بديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمنون مكية وهي مائة وثمانية عشر آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) الْأَعْلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ
لَأَمَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)
أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) .

﴿ بيان ﴾

في السورة دعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وتمييز المؤمنين من الكفار
بذكر ما لهؤلاء من جميل صفات العبودية ومالا ولئك من رذائل الأخلاق وسفاسف
الأعمال ، و تعقيب ذلك بالتبشير والإنذار ، وقد تضمن الإنذار ذكر عذاب الآخرة
وما غشي الأمم المكذبين للدعوة الحقّة من عذاب الاستئصال في مسير الدعوة آخذاً
من زمن نوح إلى زمن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

و السورة مكية ، و سياق آياتها يشهد بذلك .

قوله تعالى: « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » قال الراغب : الفلح - بالفتح فالتحسين فالتحسين .

الشقّ ، و قيل : الحديد بالحديد يفلح أي يشقّ ، و الفلاح الظفر و إدراك بغية و ذلك ضربان : دنيويّ و أخرويّ فالدنيويّ الظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة الدنيا و هو البقاء و الغنى و العزّ ، و الأخرويّ أربعة أشياء بقاء ، بقاء ، و غنى ، بقاء ، و عزّ بلاذلّ و علم بلاجهل و لذلك قيل : لا عيش إلاّ عيش الآخرة . انتهى ملخصاً . فتسمية الظفر بالسعادة فلاحاً بعناية أنّ فيه شقاً للمانع و كشفاً عن وجه المطلوب .

و الإيمان هو الإذعان و التصديق بشيء بالالتزام بلوازمه فالإيمان بالله في عرف القرآن التصديق بوحدانيّته و رسله و اليوم الآخر و بما جاءت به رسله مع الاتّباع في الجملة ولذا نجد القرآن كلّما ذكر المؤمنين بوصف جميل أو أجز جزيل شفع الإيمان بالعمل الصالح كقوله : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى و هو مؤمن فلنحييّنّه حياة طيبة » النحل : ٩٧ ، و قوله : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم و حسن مآب » الرعد : ٢٩ إلى غير ذلك من الآيات و هي كثيرة جداً .

و ليس مجرد الاعتقاد بشيء إيماناً به حتّى مع عدم الالتزام بلوازمه و آثاره فإنّ الإيمان علم بالشيء مع السكون و الاطمئنان إليه و لا ينفكّ السكون إلى الشيء . من الالتزام بلوازمه لكنّ العلم ربّما ينفكّ من السكون و الالتزام ككثير من المعتادين بالأعمال الشنيعة أو المضرة فإنّهم يعترفون بشناعة عملهم أو ضرره لكنّهم لا يتركونها معتذرين بالاعتناء و قد قال تعالى : « و جحدوا بها و استيقنّتها أنفسهم » النمل : ١٤ .

و الإيمان و إن جاز أن يجتمع مع العصيان عن بعض لوازمه في الجملة لصارف من الصوارف النفسانيّة يصرف عنه لكنّه لا يتخلّف عن لوازمه بالجملة .

قوله تعالى : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » الخشوع تأثر خاصّ من المقهور قبالة القاهر بحيث ينقطع عن غيره بالتوجّه إليه و الظاهر أنّه من صفات القلب ثمّ ينسب إلى الجوارح أو غيرها بنوع من العناية كقوله وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ - على ما روي - فيمن يعث بلحيثه في الصلاة : أمّا إنّ لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، و قوله تعالى : « و خشعت الأصوات للرحمان » طه : ١٠٨ .

و الخشوع بهذا المعنى جامع لجميع المعاني التي فسّر بها الخشوع في الآية كقول بعضهم : هو الخوف وسكون الجوارح ، وقول آخرين غضّ البصر و خفض الجناح ، أو تنكيس الرأس ، أو عدم الالتفات يمينا و شمالا ، أو إعظام المقام وجمع الاهتمام ، أو التذلل إلى غير ذلك .

و هذه الآية إلى تمام ثمانى آيات تذكر من أوصاف المؤمنين ما يلزم كون وصف الإيمان حيا فعا لا يترتب عليه آثاره المطلوبة منه ليتربّ عليه الغرض المطلوب منه وهو الفلاح فإنّ الصلاة توجهه بمن ليس له إلا الفقر والذلّة إلى ساحة العظمة والكبرياء و منبع العزّة و البهاء و لازمه أن يتأثّر الإنسان الشاعر بالمقام فيستغرق في الذلّة و الهوان و ينتزع قلبه عن كلّ ما يلهوه و يشغله عما يهّمّه و يواجهه فلو كان إيمانه إيمانا صادقا جعل همّه حين التوجه إلى ربّه همّا واحدا و شغله الاشتغال به عن الالتفات إلى غيره فما ذا يفعل الفقير المحض إذ التقى غنى لا يقدر بقدره ؟ والذليل إذا واجه عزّة مطلقة لا يشوبها ذلّة و هوان ؟

وهذا معنى قوله ﷺ في حديث الحارثة بن النعمان المروي في الكافي وغيره : إنّ لكلّ حقّ حقيقة ولكلّ صواب نورا . الحديث .

﴿ كلام فى معنى تأثير الإيمان ﴾

الدين - كما تقدّم مرارا - السنّة الاجتماعية التي يسير بها الإنسان في حياته الدنيوية الاجتماعية ، والسنن الاجتماعية متعلّقة بالعمل مبنيا على أساس الاعتقاد في حقيقة الكون و الإنسان الذي هو جزء من أجزائه ، و من هنا ما نرى أنّ السنن الاجتماعية تختلف باختلاف الاعتقادات فيما ذكر .

فمن يثبت للكون ربّا يبتدىء منه و سيعود إليه و لا للإنسان حياة باقية لا تبطل بموت و Lafناء يسير في الحياة سيرة راعى في الأعمال الجارية فيها سعادة الحياة الباقية و التنعم في الدار الآخرة الخالدة .

و من يثبت له إلها أو آلهة تدبّر الأمر بالرضا و السخط من غير معاد إليه يعيش

عيشة نظمها على أساس التقرب من الآلهة وإرضائها للفوز بأمّعة الحياة و الظفر بما يشتهي من نعم الدنيا .

و من لا يهتم " بأمر الربوبية ولا يرى للإنسان حياة خالدة كالماديّين و من يحذو حذوهم يبني سنّة الحياة والقوانين الموضوعة الجارية في مجتمعه على أساس التمتع من الحياة الدنيا المحدودة بالموت .

فالدين سنّة عملية مبنية على الاعتقاد في أمر الكون و الإنسان بما أنّه جزء من أجزائه ، وليس هذا الاعتقاد هو العلم النظري " المتعلّق بالكون و الإنسان فإنّ العلم النظري " لا يستتبع بنفسه عملاً وإن توقّف عليه العمل بل هو العلم بوجود الجري على ما يقتضيه هذا النظر وإن شئت فقل : الحكم بوجود اتباع المعلوم النظري " و الالتزام به ، و هو العلم العملي " كقولنا : يجب أن يعبد الإنسان الإله تعالى و يراعي في أعماله ما يسعد به في الدنيا و الآخرة معا .

و معلوم أنّ الدعوة الدينية متعلّقة بالدين الذي هو السنّة العملية المبنية على الاعتقاد فالإيمان الذي يتعلّق به الدعوة هو الالتزام بما يقتضيه الاعتقاد الحقّ في الله سبحانه و رسله و اليوم الآخر و ما جاءت به رسله و هو علم عمليّ .

و العلوم العملية تشدّ و تضعف حسب قوّة الدواعي وضعفها فإنّا لسنا نعمل عملاً قطّ إلّا طمعا في خير أو نفع أو خوفاً من شرّ أو ضرر ، و ربّما رأينا وجوب فعل لداع يدعو إليه ثمّ صرفنا عنه داع آخر أقوى منه و أثر ، كمن يرى وجوب أكل الغذاء لرفع ما به من جوع فيصرفه عن ذلك علمه بأنّه مضرّ له منافع لصحته فبالحقيقة يقيّد الداعي المانع بما معه من العلم إطلاق العلم الذي مع الداعي الممنوع كأنّه يقول مثلاً إنّ " التغيّث لرفع الجوع ليس يجب مطلقاً بل إنّما يجب إذا لم يكن مضرّاً بالبدن مضاداً لصحته .

و من هنا يظهر أنّ الإيمان بالله إنّما يؤثر أثره من الأعمال الصالحة والصفات الجميلة النفسانية كالخشية و الخشوع و الإخلاص و نحوها إذا لم يغلّبه الدواعي الباطلة و التسويات الشيطانية و بعبارة أخرى إذا لم يكن إيماناً مقيداً بحال دون

حال كما قال تعالى : «ومن الناس من يعبد الله على حرف» الحج : ٦١ .
فالمؤمن إنما يكون مؤمنا على الإطلاق إذا جرت أعماله على حاق ما يقتضيه
إيمانه من الخشوع في عبادته و الإعراض عن اللغو ونحوه .

قوله تعالى : « و الذين هم عن اللغو معرضون » اللغو من الفعل هو ما لا فائدة
فيه ويختلف باختلاف الأمور التي تعود عليها الفائدة فرب فعل هو لغو بالنسبة إلى
أمر و هو بعينه مفيد مجد بالنسبة إلى أمر آخر .

فاللغو من الأفعال في نظر الدين الأعمال المباحة التي لا ينفع بها في الآخرة
أو في الدنيا بحيث ينتهي أيضا إلى الآخرة كالأكل و الشرب بداعي شهوة التغذي
الذين يتفرغ عليهما التقوي على طاعة الله و عبادته فإذا كان الفعل لا ينفع به في
آخرة ولا في دنيا تنتهي بنحو إلى آخرة فهو اللغو وبنظر أدق هو ما عدا الواجبات
و المستحبات من الأفعال .

ولم يصف سبحانه المؤمنين بترك اللغو مطلقا فإن الإنسان في معرض العثرة و
مزلّة الخطيئة وقد عفا عن السيئات إذا اجتنبت الكبائر كما قال : « إن تجتنبوا كبائر
ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » النساء : ٣١ .

بل وصفهم بالإعراض عن اللغو دون مطلق تركه والإعراض يقتضي أمرا بالفعل
يدعو إلى الاشتغال به فيتتركه الإنسان صارفا وجهه عنه إلى غيره لعدم اعتداده به و
اعتناؤه بشأنه ، ولارمه ترفع النفس عن الأعمال الخسيسة و اعتلاؤها عن الاشتغال بما
ينافي الشرف والكرامة و تعلقها بعظائم الأمور و جلائل المقاصد .

و من حق الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإن فيه تعلقا بساحة العظمة والكبرياء
و منبع العزة والمجد والبهاء و المتصف به لا يهتم إلا بحياة سعيدة أبدية خالدة فلا
يشغل إلا بما يستعظمه الحق ولا يستعظم ما يهتم به سفلة الناس وجهلتهم ، وإذا خاطبهم
الجاهلون قالوا سلاما ، وإذا مروا باللغو مروا كراما .

و من هنا يظهر أن وصفهم بالإعراض عن اللغو كناية عن علو همّتهم و
كرامة نفوسهم .

قوله تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون » ذكر الزكاة مع الصلاة قرينة على كون المراد بها الإيفاق الماليّ دون الزكاة بمعنى تطهير النفس بالزكاة أو زائل الأثام خلق عنها ولعلّ المراد بالزكاة المعنى المصدريّ وهو تطهير المال بالإيفاق منه دون المقدار المخرج من المال فإنّ السورة مكّية وتشريع الزكاة المعهودة في الإسلام إنّما كان بالمدينة ثمّ صار لفظ الزكاة علماً بالغلبة للمقدار المعيّن المخرج من المال .

و بهذا يستصحّ تعلّق « للزكاة » بقوله : « فاعلون » والمعنى : الذين هم فاعلون للإيفاق الماليّ ، و أمّا لو كان المراد بالزكاة نفس المال المخرج لم يصحّ تعلّقه به إذ المال المخرج ليس فعلاً متعلّقاً بفاعل ، ولذا قدّر بعض من حمل الزكاة على هذا المعنى لفظ التأدية فكان التقدير عنده و الذين هم لتأدية الزكاة فاعلون ، ولذا أيضاً فسّر بعضهم الزكاة بتطهير النفس عن الأخلاق الرذيلة فراراً من تعلّق « للزكاة » بقوله : « فاعلون » .

و في التعبير بقوله : « للزكاة فاعلون » دون أن يقول : للزكاة مؤدّون أو ما يؤدّي معناه دلالة على عنايتهم بها كقول القائل : إنّي شارب لمن أمره بشرب الماء فإذا أراد أن يفيد عنايته به قال : إنّي فاعل .

و من حقّ الإيمان بالله أن يدعو إلى هذا الإيفاق الماليّ فإنّ الإنسان لا ينال كمال سعادته إلّا في مجتمع سعيد ينال فيه كلّ ذي حقّ حقّه ولا سعادة لمجتمع إلّا مع تقارب الطبقات في التمتع من مزايا الحياة وأمتعة العيش ، و الإيفاق الماليّ على الفقراء والمساكين من أقوى ما يدرك به هذه البغية .

قوله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون » إلى آخر الآيات الثلاث الفروج جمع فرج وهو - على ما قيل - ما سواه ذكره من الرجال و النساء ، و حفظ الفروج كناية عن الاجتناب عن المواقعة سواء كانت زناً أو لو اطمأؤباً بتيان البهائم وغير ذلك . و قوله : « إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم » فإنّهم غير ملومين ، استثناء عن حفظ الفروج ، و الأزواج الحلال من النساء ، و ما ملكت أيماهم الجوّاري المملوكة فإنّهم غير ملومين في مسّ الأزواج الحلال والجوّاري المملوكة .

و قوله : « فمن ابتغى وراء ذلك فأُولَئِكَ هم العادون » تفرّيع على ما تقدّم من الاستثناء ، والمستثنى منه أي إذا كان مقتضى الإيمان حفظ الفروج مطلقاً إلا عن طائفتين من النساء هما الأزواج و ما ملكت أيماهن فمن طلب وراء ذلك أي مس غير الطائفتين فأُولَئِكَ هم المتجاوزون عن الحدّ الذي حدّه الله تعالى لهم .

و قد تقدّم كلام ما فيما يستعقبه الزنا من فساد النوع في ذيل قوله : « ولا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة وساء سبيلاً » أسرى : ٣٢ في الجزء الثالث عشر من الكتاب .

قوله تعالى : « والَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » الأمانة مصدر في الأصل وربما أُريد به ما ائتمن عليه من مال و نحوه ، وهو المراد في الآية ، ولعلّ جمعه للدلالة على أقسام الأمانات الدائرة بين الناس ، وربما قيل بعموم الأمانات لكلّ تكليف إلهيّ أوّتمن عليه الإنسان و ما أوّتمن عليه من أعضائه و جوارحه و قواه أن يستعملها فيما فيه رضى الله و ما ائتمنه عليه الناس من الأموال و غيرها ، و لا يخلو من بعد بالنظر إلى ظاهر اللفظ وإن كان صحيحاً من جهة تحليل المعنى و تعميمه .

و العهد بحسب عرف الشرع ما التزم به بصيغة العهد شقيق النذر و اليمين ، و يمكن أن يراد به مطلق التكليف المتوجّه إلى المؤمن فإنّ الله سبحانه سمّى إيمان المؤمن به عهداً و ميثاقاً منه على ما توجّه إليه من تكليفه تعالى بقوله : « أو كلّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم » البقرة : ١٠٠ و قوله : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار » الأحزاب : ١٥ ، ولعلّ إرادة هذا المعنى هو السبب في إفراد العهد لأنّ جميع التكليف يجمعها عهد واحد بإيمان واحد .

و الرعاية الحفظ و قد قيل : إنّ أصل الرعي حفظ الحيوان إمّا بغذائه الحافظ لحياته أو بذبّ العدو عنه ثمّ استعمل في الحفظ مطلقاً انتهى و لعلّ العكس أقرب إلى الاعتبار .

و بالجملة الآية تصف المؤمنين بحفظ الأمانات من أن تخان و العهد من أن ينتقض ، ومن حقّ الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإنّ في إيمانه معنى السكون والاستقرار و الاطمئنان فإذا آمن أحداً في أمانة أو دعها عنده أو عهد عاهده و قطع على ذلك

استقرّ عليه و لم يتزلزل بخيانة أو نقض .

قوله تعالى : «والَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» جمع الصلاة وتعليق المحافظة عليه دليل على أن المراد المحافظة على العدد فهم يحافظون على أن لا يفوتهم شيء من الصلوات المفروضة و يراقبونها دائماً و من حقّ إيمانهم أن يدعّوهم إلى ذلك .
و لذلك جمعت الصلاة ههنا و أفردت في قوله : « في صلاتهم خاشعون » لأنّ الخشوع في جنس الصلاة على حدّ سواء فلا موجب لجمعها .

قوله تعالى : « أولئك هم الوارثون الَّذِينَ يرثون الفردوس هم فيها خالدون » الفردوس أعلى الجنان ، وقد تقدّم معناها و شيء من وصفها في ذيل قوله تعالى : « كانت لهم جنّات الفردوس نزلاً » الكهف : ١٠٧ .

و قوله : « الَّذِينَ يرثون » الخ بيان لقوله : « الوارثون » و وراثتهم الفردوس هو بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشار كهم فيها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت إليهم ، و قد ورد في الروايات أنّ لكلّ إنسان منزلاً في الجنّة و منزلاً في النار فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنّة منزله و ستوافيك إن شاء الله في بحث روائي .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القميّ و قوله : « الَّذِينَ هم في صلاتهم خاشعون » قال : غضك بصرك في صلاتك و إقبالك عليها .

أقول : و قد تقدّم أنّه من لوازم الخشوع فهو تعريف بلازم المعنى ، و نظيره ما رواه في الدر المنثور عن عدّة من أصحاب الجوامع عن عليّ عليه السلام : أنّ لا تلتفت في صلاتك .

و في الكافي بإسناده عن مسمع بن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق .

أقول : و روى في الدر المنثور عن عدّة من أصحاب الجوامع عن أبي الدرداء .

عنه ﷺ ما في معناه ولفظه : استعيزوا بالله من خشوع النفاق . قيل له : و ما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعا و القلب ليس بخاشع .

و في المجمع في الآية روي أن النبي ﷺ رأى رجلا يعث بلحيمته في صلاته فقال : أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه .

وفيه وروي أن رسول الله ﷺ كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته فلمّا نزلت الآية طأطأ رأسه و رمى ببصره إلى الأرض .

أقول : و رواهما في الدر المنثور عن جمع من أصحاب الكتب عنه ﷺ . وفي معنى الخشوع روايات أخر كثيرة .

و في إرشاد المفيد في كلام لأمر المؤمنين ﷺ : كل قول ليس فيه لله ذكر فهو لغو .

و في المجمع في قوله : « و الذين هم عن اللغو معرضون » روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أن يتقوّل الرجل عليك بالباطل أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه الله و في رواية أخرى أنه الغناء و الملاهي .

أقول : ما في روايتي المجمع من قبيل ذكر بعض المصاديق و ما في رواية الإرشاد من التعميم بالتحليل .

و في الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه ﷺ قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : تحلّ الفروج بثلاثة وجوه : نكاح بميراث و نكاح بلاميراث و نكاح بملك يمين .

و في الكافي بإسناده عن إسحاق بن أبي سارة قال : سألت أبا عبد الله ﷺ عنها يعني المتعة فقال لي : حلال فلا تزوج إلا بعقبة إن الله عزّ و جلّ يقول : « و الذين هم لفروجهم حافظون » فلا تضع فرجك حيث لا تأمن على درهمك .

أقول : وفيه تعميم لمعنى حفظ الفروج بحيث يشمل ترك نكاح غير العقيقة . و الروايتان كما ترى تعدّان المتعة نكاحا و ازدواجا و الأمر على ذلك فيما لا يحصى من روايات أئمة أهل البيت ﷺ و على ذلك مبنى فقهم .

و الأمر على ذلك في عرف القرآن و في عهد النبي ﷺ و ذلك أنه ليس وراء

ملك اليمين إلّا نوعان : نكاح على الزوجية وزنا وقد حرّم الله الزنا وأكّد في تحرّمه في آيات كثيرة في السور المكّيّة والمدنيّة كسورتي الفرقان والإسراء وهما مكّيتان وسورتي النور والممتحنة وهما مدنيّتان .

ثمّ سمّاه سفاحاً وحرّمه في سورتي النساء والمائدة ثمّ سمّاه فحشاء ومنع عنه وذمّه في سور الأعراف والعنكبوت ويوسف وهي مكّيّة وفي سور النحل والبقرة والنور وهي أو الأخيرتان مدنيّتان .

ثمّ سمّاه فاحشة ونهى عنها في سور الأعراف والأنعام والإسراء والنمل والعنكبوت والشورى والنجم وهي مكّيّة وفي سور النساء والنور والأحزاب والطلاق وهي مدنيّة .

ونهى عنه أيضاً بالتكنية في آية المؤمنون : « فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » ونظيره في سورة المعارج وكان من المعروف في أوّل البعثة من أمر ألاّ سلام أنّه يحرم الخمر والزنا ^(١) .

فلو لم يكن التمتع ازدواجا و المتمتع بها زوجا مشمولة لقوله : « إلّا على أزواجهم » لكان زنا ومن المعلوم بالضرورة أن التمتع كان معمولاً به في مكّة قبل الهجرة في الجملة وكذا في المدينة بعد الهجرة في الجملة ولازم ذلك أن يكون زنا أباحه النبي ﷺ لضرورة اقتضته لو أغضنا عن قوله تعالى : « فما استمتعتم به منهنّ فاتوهنّ أجورهنّ » النساء : ٢٤ ولازم ذلك أن تكون آية سورة المؤمنون « إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم - إلى قوله - العادون » ناسخة لإباحة التمتع السابقة ثمّ يكون تحليل النبي ﷺ أو تحليل آية سورة النساء ذلك ناسخاً لجميع الآيات المكّيّة الناهية عن الزنا وبعض المدنيّات ممّا نزلت قبل التحليل ، وخاصة على قول من يقول : « إن النبي ﷺ حلّله ثمّ حرّمه مرّة ^(٢) بعد مرّة فإنّ لازمه نسخ

(١) على ما رواه ابن هشام في السيرة وقد أوردنا الرواية في بحث روائى في ذيل

قوله تعالى : « انما الخمر والميسر ، الآية من سورة المائدة ج ٦ ص ١٤٦ من الكتاب .

(٢) وقد أوردنا الروايات الدالة على ذلك في البحث الروائى الموضوع في ذيل

قوله تعالى : « فما استمتعتم به منهنّ فاتوهنّ أجورهنّ » الآية النساء : ٢٤ ج ٤ ص ٣٠٨ .

الآيات الناهية عن الزنا ثم "إحكامها ثم نسخها ثم" إحكامها مرات و لم يقل أحد من المسلمين بكونها منسوخة فضلاً عن النسخ بعد النسخ وهل هذا إلا لعب بكلام الله تجل عنه ساحة النبي ﷺ ؟

على أن "الآيات الناهية عن الزنا آية بسياقها و ما فيه من التعليل آب عن النسخ و كيف يعقل أن يسمي الله سبحانه فعلاً من الأفعال فاحشة فحشاء وسبيل سوء و يخبر أن من يفعله يلقي أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ثم "يجوز ارتكابه ثم يمنع ثم" يجوز .

على أن أصل نسخ القرآن بالحديث لا معنى له (١) .

على أن "عدة من المرتكبين لنكاح المتعة في عهد النبي ﷺ كانوا من معارف الصحابة وهم على ما هم عليه من حفظ ظواهر الأحكام فكيف استجازوا النبي ﷺ في الفحشاء ؟ و كيف لم يستخبئوه ؟ و كيف رضوا بالعار و الشار و قد تمتع زبير من أسماء بنت أبي بكر فولدت له عبدالله بن زبير وأخاه عروة بن زبير وورثاه بعد قتله وهم جميعاً من الصحابة .

على أن الروايات الدالة على نهي النبي ﷺ عن المتعة منهافة ، وما تسلموا عليه من قول عمر بن الخطاب حينما نهى أيام خلافته عن المتعة وما ورد عنه حول القصة يكذب هذه الروايات ويدفع حديث النسخ . وقد مر "شطر من الكلام في هذا المعنى في تفسير قوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » النساء : ٢٤ .

و من لطيف الدلالة على كون المتعة نكاحاً غير سفاح اقتران جملة «فما استمتعتم» الخ بقوله قبله متصلاً به «محصنين غير مسافحين» .

فقد تبين بما ذكرنا أن "المتعة في الشرع وفي عرف القرآن نكاح وزوجية لازنا و سفاح سواء قلنا بكونها منسوخة بعد بكتاب أو سنة كما عليه معظم أهل السنة

(١) و قد بين ذلك في علم الأصول بما لا مزيد عليه .

أو لم نقل كما عليه الشيعة تبعا لأئمة أهل البيت عليهم السلام .

فالنكاح ينقسم إلى نوعين : نكاح دائم له أحكامه من العدد والإرث والإحصان و النفقة والفراش والعدة وغير ذلك . ونكاح مؤقت مبني على التسهيل له من أحكام النكاح الدائم اختصاص المرأة بالرجل ولحوق الأولاد والعدة .

و بذلك يظهر فساد ما ذكره جمع منهم أن المتعة ليست بزوجة ولو كانت زوجية لجرت فيها أحكامها من العدد والميراث والنفقة والإحصان وغير ذلك وذلك أن الزوجية تنقسم إلى دائمة لها أحكامها وموقتة مبنيّة على التسهيل يجري فيها بعض تلك الأحكام كما تقدّم .

والإشكال بأنّ تشريع الأزواج إنّما هو للتناسل بدوام الزوجية والغرض من المتعة مجرّد دفع الشهوة بصب الماء وسفحه فهي سفاح وليست بنكاح . فيه أن التوسّل إلى النسل حكمة لأعلة يدور مدارها التشريع وإلا لم يجز نكاح العاقر واليائسة والصبي والصبيّة .

على أن المتعة لا تنافي الاستيلاد ومن الشاهد على ذلك عبد الله وعروة ابن زبير أولداه من أسماء بنت أبي بكر من المتعة .

وكذا الإشكال بأنّ المتعة تجعل المرأة ملعبة يلعب بها الرجال كالكرة الدائرة بين الصوالج ذكره صاحب المنار وغيره .

فيه أن هذا يرد أوّل ما يرد على الشارع فإنّ من الضروري أن المتعة كانت دائرة في صدر الإسلام برهة من الزمان فما أجاب به الشارع كان هو جوابنا . وثانيا أن جميع ما يقصد بالمتعة من لذّة أو دفع شهوة أو استيلاد أو استئناس أو غير ذلك مشتركة بين الرجل والمرأة فلامعنى لجعلها ملعبة له دون العكس إلا أن يكابر مكابر .

و للكلام تتمّة ستوافيك في بحث مستقلّ إن شاء الله تعالى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه عن ابن أبي مليكة قال : سألت عائشة عن متعة النساء قالت : بيني وبينكم كتاب الله و

قرأت : « و الذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » فمن ابتغى وراء ما زوج به الله أو ملكه فقد عدا .

أقول : و روى نظيره عن القاسم بن محمد ، و قد تبين بما قد منا أن الممتنع بها زوج و أن الآية تجيزها على خلاف ما في الرواية .
و في تفسير القمي « فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » قال : من جاوز ذلك .

و فيه : « و الذين هم على صلواتهم يحافظون » قال : على أوقاتها و حدودها .
و في الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « و الذين هم على صلواتهم يحافظون » قال : هي الفريضة قلت : « و الذين هم على صلواتهم دائمون » قال : هي النافلة .

و في المجمع روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : ما منكم من أحد إلا له منزلان : منزل في الجنة و منزل في النار فان مات و دخل النار ورث أهل الجنة منزله .
أقول : و روى مثله القمي في تفسيره بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث مفصل و تقدم نظيره في قوله تعالى : « و أنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر » مريم : ٣٩ في الجزء السابق من الكتاب .

﴿ بحث حقوقى اجتماعى ﴾

لا ريب أن الذي يدعو الإنسان و يبعثه نحو الاستئنان بالسنن الاجتماعية أو وضع القوانين الجارية في المجتمع البشري تنبئه لحوائج الحياة و توسله بوضعها و العمل بها إلى رفعها .

و كلما كانت الحاجة أبسط و إلى الطبيعة الساذجة أقرب كان التوسل إلى رفعها أوجب و الإهمال في دفعها أدهى و أضر فما الحاجة إلى أصل التغذية و الحياة تدور معه كالحاجة إلى التمتع بألوان الطعام و أنواع الفواكه و هكذا .

و من الحوائج الأولية الإنسانية حاجة كل من صنفه : الذكور و الإناث

إلى الآخرين بالنكاح والمباشرة ، ولا ريب أن المطلوب بالنظر إلى الصنع والإيجاد بذلك بقاء النسل وقد جهّز الإنسان بغريزة شهوة النكاح للتوسّل به إلى ذلك .
ولذلك نجد المجتمعات الإنسانية التي نشاهدها أو نسمع بأخبارها مستنّة بسنة الأزواج وتكوين البيت وعلى ذلك كانت منذ أقدم عهودها فلم يضمن بقاء النسل إلا الأزواج .

ولا يدفع هذا الذي ذكرنا أن المدنية الحديثة وضعت سنة الأزواج على أصل الاشتراك في الحياة دون أصل التناسل أو إرضاء الغريزة فإنّ هذا البناء على كونه بناء محدثا غير طبيعي لم يبعث حتّى الآن شيئا من المجتمعات المستنّة بها على شيوخ هذه الحركة الحيوية بين الرجال أنفسهم أو النساء أنفسهن وليس إلا لمباينته ما تبعث إليه الطبيعة الإنسانية .

وبالجملة الأزواج سنة طبيعية لم تنزل ولا تزال دائرة في المجتمعات البشرية ولا يزاحم هذه السنة الطبيعية في مسيرها إلا عمل الزنا الذي هو أقوى مانع من تكوّن البيوت وتحمل كلفة الأزواج وحمل أثقاله بانصراف غريزة الشهوة إليه المستلزم لانهدام البيت وانقطاع النسل .

ولذا كانت المجتمعات الدينية أو الطبيعية الساذجة تستشنعها وتعدّها فاحشة منكرة وتوسّل إلى المنع عنه بأي وسيلة ممكنة ، والمجتمعات المتمدّنة الحديثة وإن لم تسدّ سبيله بالجملة ولم تمنع عنه ذلك المنع لكنها مع ذلك لا تستحسنه لما ترى من مصادته العميقة لتكوّن البيوت وازدياد النفوس وبقاء النسل ، وتحثّال إلى تقليله بلطائف الحيل وتروّج سنة الأزواج وتدعو إلى تكثير الأولاد بجعل الجوائز وترفع الدرجات وغير ذلك من المشوّقات .

غير أنّه على الرغم من كون سنة الأزواج الدائم سنة قانونية متبّعة في جميع المجتمعات الإنسانية في العالم وتحريض الدول عليها واحتياها لتضعيف أمر الزنا وصرف الناس لاسيما الشبان والفتيات عنه لا يزال يوجد في جميع البلاد صغيرتها وكبيرتها معاهد لهذا العمل الهادم لبنية المجتمع علنية أو سرّية على اختلاف السنن

الجارية فيها .

و هذا أوضح حجة على أن سنة الازدواج الدائم لا تقى برفع هذه الحاجة الحيوية للنوع ، وأن الإنسانية بعد في حاجة إلى تتميم نقيصتها هذه ، وأن من الواجب على من بيده زمام التقنين أن يتوسّع في أمر الازدواج .

و لذلك شفع شارع الإسلام سنة الازدواج الدائم بسنة الازدواج الموقّت تسهيلا للأمر و شرط فيه شروطا ترتفع بها محاذير الزنا من اختلاط المياه واختلال الأنساب و الموارد و انهدام البيوت و انقطاع النسل و عدم لحوق الأولاد و هي اختصاص المرأة بالرجل والعدة إذا افترقا و لحوق الأولاد ثم لها ما اشترطت على زوجها وليس فيه على الرجل شيء من كلفة الازدواج الدائم ومشقته .

و لعمر الحق إنها لمن مفاخر الإسلام في شريعته السهلة السمحة نظير الطلاق و تعدد الزوجات و كثير من قوانينه ولكن ما تغني الآيات و النذر عن قوم لا يسمعون يقول القائل : لأن أزني أحب إليّ من أن أنمتع أو أمتع .





وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ
مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مِصْغَةً فَخَلَقْنَا الْمِصْغَةَ عِظَامًا
فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)
ثُمَّ أَنْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِيَّتُونَ (١٥) ثُمَّ أَنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَبْعُثُونَ (١٦) وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَانزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ
بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً
تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلْأَكْلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ
لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)
وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢).

﴿ بيان ﴾

لما ذكر سبحانه فلاح المؤمنين بما عندهم من الأوصاف الجميلة عقبه بشرح
خلقهم وخلق ما أنعم عليهم من النعم مقرونا بتدبير أمرهم تدبيراً مخلوطاً بالخلق
لينكشف به أنه هو ربّ الإنسان و لكل شيء الواجب أن يعبد وحده لا شريك له .
قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » قال في المجمع :

السلالة اسم لما يسلم من الشيء، كالكساحة اسم لما يكسح انتهى و ظاهر السياق أن المراد بالإنسان هو النوع فيشمل آدم و من دونه و يكون المراد بالخلق الخلق الابتدائي الذي خلق به آدم من الطين ثم جعل النسل من النطفة ، و تكون الآية و ما بعدها في معنى قوله : « و بدء خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » الم السجدة : ٨ .

و يؤيده قوله بعد : « ثم جعلناه نطفة » إذ لو كان المراد بالإنسان ابن آدم فحسب و كان المراد بخلقه من طين انتهاء النطفة إلى الطين لكان الظاهر أن يقال : ثم خلقناه نطفة كما قيل : ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة الخ . و بذلك يظهر أن قول بعضهم : إن المراد بالإنسان جنس بني آدم ، و كذا القول بأن المراد به آدم عليه السلام غير سديد .

و أصل الخلق - كما قيل - التقدير يقال : خلقت الثوب إذا قسته لتقطع منه شيئاً من اللباس فالمعنى و لقد قدرنا الإنسان أو لا من سلالة من أجزاء الأرض المخلوطة بالماء .

قوله تعالى : « ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » النطفة القليل من الماء وربما يطلق على مطلق الماء ، و القرار مصدر أريد به المقر مبالغة والمراد به الرحم التي تستقر فيها النطفة ، و المكين المتمكن وصفت به الرحم لتمكّنها في حفظ النطفة من الضيعة و الفساد أو لكون النطفة مستقرة متمكنة فيها .

و المعنى ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر متمكن هي الرحم كما خلقناه أو لا من سلالة من طين أي بد لنا طريق خلقه من هذا إلى ذاك .

قوله تعالى : « ثم خلقنا النطفة علقه - إلى قوله - فكسونا العظام لحما » تقدم بيان مفردات الآية في الآية ٥ من سورة الحج في الجزء السابق من الكتاب و في قوله : « فكسونا العظام لحما » استعارة بالكناية لطيفة .

قوله تعالى : « ثم أنشأناه خلقاً آخر ، الإنشاء - كما ذكره الراغب - إيجاد الشيء و تربيته كما أن النشاء و النشأة إحداثه و تربيته كما يقال للشاب

الحديث السنّ ناشئ .

و قد غيّر السياق من الخلق إلى الإنشاء فقال : « ثمّ أنشأناه خلقاً آخر » دون أن يقال : ثمّ خلقناه الخ للدلالة على حدوث أمر حديث ما كان يتضمنه ولا يقارنه ما تقدّمه من مادة فإنّ العلقه مثلاً وإن خالفت النطفة في أوصافها و خواصّها من لون وطعم وغير ذلك إلّا أنّ في النطفة مكان كلّ من هذه الأوصاف و الخواصّ ما يجانسها وإن لم يماثلها كالبياض مكان الحمرة وهما جميعاً لون بخلاف ما أنشأه الله أخيراً وهو الإنسان الذي له حياة و علم و قدرة فإنّ ماله من جوهر الذات و هو الذي نحكي عنه بأنّا لم يسبق من سنخه في المراحل السابقة أعني النطفة و العلقه و المضغة و العظام المكسوّة لحماً شياً ، و لاسبق فيها شيء ينظر ماله من الخواصّ و الأوصاف كالحياة و القدرة و العلم فهو منشأ حادث مسبوق بالعدم .

و الضمير في « أنشأناه » على ما يعطيه السياق - للإنسان المخلوق عظاماً مكسوّة باللحم فهو الذي أنشئ . و أحدث خلقاً آخر أي بدّل و هو مادة ميتة جاهلة عاجزة موجوداً ذاهية و علم و قدرة ، فقد كان مادة لها صفاتها و خواصّها ثمّ برز و هو يفاير سابقته في الذات و الصفات و الخواصّ فهو تلك المادة السابقة فإنّها التي صارت إنساناً ، و ليس بها إذ لا يشاركها في ذات و لاصفات ، و إنّما له نوع اتّحاد معها و تعلّق بها يستعملها في سبيل مقاصدها استعمال ذي الآلة للآلة كالكتّاب للقلم . و هذا هو الذي يستفاد من مثل قوله : « وقالوا أئذا ضللنا في الأرض إنّنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربّهم كافرون قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم » الم السجدة : ١١ ، فالمتوفّى و المأخوذ عند الموت هو الإنسان ، والمتلاشي الضالّ في الأرض هو البدن و ليس به .

و قد اختلف العطف في مفردات الآية بالفاء و ثمّ ، و قد قيل في وجهه أنّ ما عطف بشمّ له بينونة كاملة مع ما عطف عليه كما في قوله : « ثمّ جعلناه نطفة » ثمّ خلقنا النطفة علقه « ثمّ أنشأناه خلقاً آخر » ، و ما لم يكن بتلك بينونة و البعد عطف بالفاء كقوله : « فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً » .

قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » قال الراغب : أصل البرك - بالفتح فالسكون - صدر البعير . قال : و برك البعير ألقى ركبته واعتبر منه معنى اللزوم . قال : و سمي محبس الماء بركة - بالكسر فالسكون - و البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء قال تعالى : لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض ، و سمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة ، و المبارك ما فيه ذلك الخير . قال : و لما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس و على وجه لا يحصى و لا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة . انتهى .

فالتبارك منه تعالى اختصاصه بالخير الكثير الذي يجود به ويفيضة على خلقه و قد تقدم أن الخلق في أصله بمعنى التقدير فهذا الخير الكثير كله في تقديره وهو إيجاد الأشياء و تركيب أجزائها بحيث تتناسب فيما بين أنفسها و تناسب ماوراءها و من ذلك ينتشر الخير الكثير .

و وصفه تعالى بأحسن الخالقين يدل على عدم اختصاص الخلق به وهو كذلك لما تقدم أن معناه التقدير و قياس الشيء من الشيء لا يختص به تعالى ، و في كلامه تعالى من الخلق المنسوب إلى غيره قوله : « و إذ تخلق من الطين كهيئة الطير » المائدة : ١١٠ و قوله : « و تخلقون إفكا » العنكبوت : ١٧ .

قوله تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك لميئون » بيان لتمام التدبير الإلهي وأن الموت من المراحل التي من الواجب أن يقطعها الإنسان في مسير التقدير ، وأنه حق كما تقدم في قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت و نبلوكم بالشر و الخير فتنة » الأنبياء : ٣٥ .

قوله تعالى : « ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » و هذا تمام التدبير وهو أعني البعث آخر مرحلة في مسير الإنسان إذا حل بها لزمها و لا يزال قاطنا بها .

قوله تعالى : « و لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق و ما كنا عن الخلق غافلين » المراد بالطرائق السبع بقرينة قوله : « فوقكم » السماوات السبع و قد سماها طرائق - جمع طريقة - و هي السبيل المطروقة لأنها ممر الأمر النازل من عنده تعالى إلى

الأرض قال تعالى : « يتنزل الأمر بينهن » الطلاق : ١٢ وقال : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ، ألم السجدة : ٥ . والسبل التي تسلكها الأعمال في صعودها إلى الله و الملائكة في هبوطهم و عروجهم كما قال : « إليه يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه » فاطر : ١٠ و قال : « و ما ننزل إلا بأمر ربك » مريم : ٦٤ .

و بذلك يتضح اتصال ذيل الآية « و ما كنا عن الخلق غافلين » بصدرها أي لستم بمنقطعين عنا ولا بمعزل عن مراقبتنا بل هذه الطرائق السبع منصوبة بيننا و بينكم ينظر قها رسل الملائكة بالنزول و الصعود وينزل منها أمرنا إليكم و تصعد منها أعمالكم إلينا .

و بذلك كله يظهر ما في قول بعضهم : إن الطرائق بمعنى الطباق المنضودة بعضها فوق بعض من طرق النعل إذا وضع طاقاتها بعضها فوق بعض ، و قول آخرين إنها بمعنى المبسوطات من طرق الحديد إذا بسطه بالمطرقة .

على أن اتصال ذيل الآية بصدرها على القولين غير بين .

قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض وإننا على ذهاب به لقادرون » المراد بالسماء جهة العلوفان ما علاك وأظلك فهو سماء ، والمراد بالماء النازل منها ماء المطر .

و في قوله : « بقدر » دلالة على أن الذي نزل إنما نزل على حسب ما يقتضيه التدبير التام الإلهي الذي يقدره بقدر لا يزيد قطرة على ما قدر ولا ينقص ، و فيه تلميح أيضاً إلى قوله : « و إن من شيء إلا عندنا خزائنه و ما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

و المعنى و أنزلنا من جهة العلو ماء بقدر و هو ماء المطر فأسكنناه في الأرض و هو الذخائر المدخرة من الماء في الجبال و السهول تتفجر عنه العيون و الأنهار و تكشف عنه الآبار ، و إننا لقادرون على أن نذهب بهذا الماء الذي أسكنناه في الأرض نوعاً من الذهاب لا تهتدون إلى علمه .

قوله تعالى : « فأنشأنا لكم به جنات من نخيل و أعناب » ، إلى آخر الآية إنشاء الجنات إحداثها و تربيتها ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « و شجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن و صبغ للآكلين » معطوف على « جنات » أي وأنشأنا لكم به شجرة في طور سيناء ، و المراد بها شجرة الزيتون التي تكثر في طور سيناء ، و قوله : « تنبت بالدهن » أي تثمر ثمرة فيها الدهن و هو الزيت فهي تنبت بالدهن ، و قوله : « و صبغ للآكلين » أي و تنبت بصبغ للآكلين ، و الصبغ بالكسر فالسكون الإدام الذي يؤتدم به ، و إنما خص شجرة الزيتون بالذكر لعجيب أمرها ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و إن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها » الخ . العبرة الدلالة يستدل بها على أنه تعالى مدبراً لما خلقه حين بهم رؤف رحيم ، و المراد بسقيه تعالى مما في بطونها أنه رزقهم من ألبانها ، و المراد بالمنافع الكثيرة ما ينتفعون من صوفها وشعرها و وبرها و جلودها وغير ذلك ، و منها يأكلون .

قوله تعالى : « و عليها وعلى الفلك تحملون » ضمير « عليها » للأنعام والحمل على الأنعام هو الحمل على الإبل ، و هو حمل في البر و يقابله الحمل في البحر و هو الحمل على الفلك فالآية في معنى قوله : « و حملناهم في البر والبحر » أسرى : ٧٠ . و الفلك جمع فلكة و هي السفينة .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال : إذا تمت النطفة أربعة أشهر بعث إليها ملك فنقح فيها الروح في الظلمات الثلاث فذلك قوله : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » يعني نفخ الروح فيه .

و في الكافي بإسناده عن ابن فضال عن الحسن بن الجهم قال : سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول : قال أبو جعفر عليه السلام : إن النطفة تكون في الرحم أربعين يوماً . ثم تصير علقة أربعين يوماً . ثم تصير مضغة أربعين يوماً فإذا كمل أربعة أشهر بعث الله

ملكين خلّاقين فيقولان : يا ربّ ما نخلق ذكرا أو أنثى ؟ فيؤمنان فيقولان : يا ربّ شقيّ أو سعيد ؟ فيؤمنان فيقولان : يا ربّ ما أجله وما رزقه و كل شيء من حاله ؟ وعدّ من ذلك أشياء ، و يكتبان الميثاق بين عينيه .

فإذا كمل الأجل بعث الله إليه ملكا فزجره زجرة فيخرج و قد نسي الميثاق فقال الحسن بن الجهم : أفيجوز أن يدعو الله فيحوّل الأنثى ذكرا أو الذكر أنثى ؟ فقال : إن الله يفعل ما يشاء .

أقول : و الرواية مروية عن أبي جعفر عليه السلام بطرق أخرى و ألفاظ متقاربة . و في تفسير القميّ قوله عزّ و جلّ : « و شجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن و صبغ للآكلين » قال : شجرة الزيتون ، و هو مثل رسول الله صلى الله عليه و آله و مثل أمير المؤمنين عليه السلام فالطور الجبل و سيناء الشجرة . و في المجمع « تنبت بالدهن و صبغ للآكلين » و قد روي عن النبيّ صلى الله عليه و آله أنّه قال : الزيت شجرة مباركة فائتموها منه و ادّهنوا .





وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَاذًا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَازِينَ وَاهْلِكِ الْآلَ مِنْ سَبْقِ عَلَيْهِ الْقَوْلَ مِنْهُمْ وَلَا تَخَاطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَاذًا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَ أَنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَاتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا

وَعَظَمًا أَنْكُمْ مَخْرُجُونَ (٣٥) هَيِّاتَ هَيِّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَاخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلَهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَإِخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا إِنَّا نَحْنُ الْبَشَرُ مِثْلُكُمْ قَوْمَهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَامَةَ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنَّا نَرْبُكُم فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) .

﴿ بيان ﴾

بعد ما عدّ نعمه العظام على الناس عقبه في هذه الآيات بذكر دعوتهم إلى توحيد عبادته من طريق الرسالة و قصّ إجمال دعوة الرسل من لدن نوح إلى عيسى ابن مريم عليه السلام ، و لم يصرّح من أسمائهم إلا باسم نوح و هو أوّل الناهضين لدعوة التوحيد و اسم موسى و عيسى عليهما السلام و هما في آخرهم و أبهم أسماء الباقيين غير أنّه صرّح باتصال الدعوة و تواتر الرسل ، و أنّ الناس لم يستجيبوا إلا بالكفر بآيات الله و الكفران لنعمه .

قوله تعالى : « و لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلاتتقون » قد تقدّم في قصص نوح عليه السلام من سورة هود أنّه أوّل أوّلي العزم من الرسل أصحاب الكتب و الشرائع المبعوثين إلى عامّة البشر و الناهضين للتوحيد و نفى الشرك فالمراد بقومه أمّته و أهل عصره عامّة .

و قوله : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » دعوة إلى عبادة الله و رفض عبادة الآلهة من دونه فإنّ الوثنيين إنّما يعبدون غيره من الملائكة و الجنّ و القدّيسين بدعوى ألوهيتهم أي كونهم معبودين من دونه .

قال بعض المفسّرين : إنّ معنى « اعبدوا الله » اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله في سورة هود : « ألاّ تعبدوا إلاّ الله » و ترك التقييد به للإيذان بأنّها هي العبادة فقط و أمّا العبادة مع الإشراف فليست من العبادة في شيء رأسا . انتهى .

و فيه غفلة أو زهول عن أنّ الوثنيين لا يعبدون الله سبحانه أصلا بناء على أنّ العبادة توجه من العابد إلى المعبود و الله سبحانه أجلّ من أن يحيط به توجه متوجه أو علم عالم فالوجه أن ينقرّب إلى خاصّة خلقه من الملائكة وغيره ليشفعوا عنده و يقرّبوا منه ، و العبادة بإزاء التدبير و أمر التدبير مفوّض إليهم منه تعالى فهم الآلهة المعبودون والأرباب من دونه .

و من هنا يظهر أنّه لو جازت عبادته تعالى عندهم لم يجز إلاّ عبادته وحده لأنهم

لا يرتابون في أنه تعالى ربّ الأرباب موجد الكلّ و لو صحت عبادته لم تجز إلاّ عبادته وحده و لم تصحّ عبادة غيره لكنهم لا يرون صحتها بناء على ما زعموه من الوجه المتقدم .

فقوله ﷺ لقومه الوثنيين : «اعبدوا الله» في معنى أن يقال : اعبدوا الله وحده كما ورد في سورة هود « أن لاتعبدوا إلاّ الله » ، وقوله : «مالك من إله غيره» في معنى أن يقال : ما لكم من معبود سواء لأنّه لا ربّ غيره يدبّر أمركم حتّى تعبدوه رجاء لرحمته أو خوفا من سخطه ، و قوله بالتفريع على ذلك : «أفلاتتقون» أي إذا لم يكن لكم ربّ يدبّر أموركم دونه أفلا تتقون عذابه حيث لا تعبدونه و تكفرون به ؟

قوله تعالى : « قال الملأ الذين كفروا من قومهما هذا إلاّ بشر مثلكم - إلى قوله - حتّى حين » ملأ القوم أشرافهم ، و وصفهم بقوله : « الذين كفروا من قومهم » وصف توضيحي لا احترازي إذ لم يؤمن به من ملأ قومهم أحد بدليل قولهم على ما حكاه الله : « و ما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي » هود : ٢٧ .

و السياق يدلّ على أن الملأ كانوا يخاطبون بمضمون الآيتين عامّة الناس لصرف وجوههم عنه و إغرائهم عليه و تحريضهم على إيذائه و إسكاته ، و ما حكاه تعالى من أقاويلهم في الآيتين وجوه أربعة أو خمسة من فرية أو مغالطة لفقوها و احتجوا بها على بطلان دعوته .

الأوّل قولهم : « ما هذا إلاّ بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » و محصله أنّه بشر مثلكم فلو كان صادقا فيما يدّعيه من الوحي الإلهي و الاتصال بالغيب كان نظير ما يدّعيه متحققا فيكم إذ لا تنقصون منه في شيء من البشرية و لوازمها ، و لم يتحقق فهو كاذب و كيف يمكن أن يكون كمال في وسع البشر أن يناله ثم لا يناله إلاّ واحد منهم فقط ثمّ يدّعيه من غير شاهد يشهد عليه ؟ فلم يبق إلاّ أنّه يريد بهذه الدعوة أن يتفضل عليكم و يتراأس فيكم ويؤيده أنّه يدعوكم إلى اتّباعه و طاعته و هذه الحجّة تنحلّ في الحقيقة إلى حجتين مخنلتين .

و الثاني قولهم : « ولو شاء الله لآنزل ملائكة » و محصله أن الله سبحانه لو شاء أن يدعونا بدعوة غيبية لاختار لذلك الملائكة الذين هم المقرَّبون عنده و الشفعاء الروابط بيننا و بينه فأرسلهم إلينا لأبشراً ممتنَّين لانسبة بينه و بينه . على أن في نزولهم و اعترافهم بوجوب العبادة له تعالى وحده و عدم جواز اتخاذهم أرباباً و آلهة معبودين آية بيّنة على صحّة الدعوة و صدقها .

و التعبير عن إرسال الملائكة بأنزالهم إنما هو لكون إرسالهم يتحقق بالإنزال ، و التعبير بلفظ الجمع دون الأفراد لعلَّه لكون المراد بهم الآلهة المتخذة منهم وهم كثيرون .

و الثالث قولهم : « ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » و محصله أنه لو كانت دعوته حقّة لاتفق لها نظير فيما سلف من تاريخ الإنسانية ، و آبائنا كانوا أفضل منّا و أعقل و لم يتفق لهم و في أعصارهم ما يناظر هذه الدعوة فليست إلا بدعة و أحدثة كاذبة .

و الرابع قولهم : « إن هو إلا رجل به جنّة فتربصوا به حتّى حين » الجنّة إمّا مصدر أي به جنون أو مفرد الجن أي حلّ به من الجنّ من يتكلّم على لسانه لأنّه يدّعي ما لا يقبله العقل السليم و يقول ما لا يقوله إلا مصاب في عقله فتربصوا و انتظروا به إلى حين ما لعلّه يفيق من حالة جنونه أو يموت فنستريح منه .

و هذه حجج مختلفة ألقتها ملائكة قومهم إلى عامتهم أو ذكر كلاً منها بعضهم ، و هي و إن كانت حججاً جدليّة مدخولة لكنّهم كانوا ينتفعون بها حينما يلقونها إلى الناس فيصرفون وجوههم عنه و يغرونهم عليه و يمدّون في ضلالهم .

قوله تعالى : « قال رب أنصرني بما كذبون » سؤال منه للنصر والباء في قوله : « بما كذبون » للبدليّة والمعنى انصرني بدل تكذيبهم لي أو للآلة و عليه فالمعنى انصرني بالذي كذبوني فيه و هو العذاب فإنّهم قالوا : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » هود : ٣٢ ، ويؤيده قول نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » نوح : ٢٦ ، و فصل الآية لكونها في معنى جواب السؤال .

قوله تعالى : « فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » إلى آخر الآية .
متفرّع على سؤال النصر ، و معنى صنع الفلك بأعينه صنعه بمرئى منه و هو كناية
عن كونه تحت مراقبته تعالى و محافظته ، و معنى كون الصنع بوحيه كونه بتعليمه
الغيبى " حالاً بعد حال .

و قوله : « فإذا جاء أمرنا وفار التنور » المراد بالأمر - كما قيل - حكمه
الفصل بينه وبين قومه وقضاؤه فيهم بالغرق ، و السياق يشهد على كون فوران التنور
بالماء أمانة نزول العذاب عليهم و هو أعني فوران الماء من التنور و هو محل النار
من عجب الأمر في نفسه .

و قوله : « فاسلك فيها من كل زوجين اثنين » القراءة الدائرة « من كل »
بالتنوين و القطع عن الإضافة ، و التقدير من كل نوع من الحيوان ، و السلوك
فيها الإدخال في الفلك و الظاهر أن « من » لابتداء الغاية و المعنى فأدخل في الفلك
زوجين اثنين : ذكر و أنثى من كل نوع من الحيوان .

و قوله : « وأهلك إلامن سبق عليه القول منهم » معطوف على قوله : « زوجين »
و ما قيل : إن « أهلك » على « زوجين » يفسد المعنى المراد لرجوع التقدير
حينئذ إلى قولنا : و اسلك فيها من كل نوع أهلك فالأولى تقدير « اسلك » ثانياً قبل
« أهلك » و عطفه على « فاسلك » . يدفعه أن « من كل » في موضع الحال من « زوجين »
فهو متأخر عنه رتبة كما قدّمنا تقديره فلا يعود ثانياً على المعطوف .

و المراد بالأهل خاصته ، و الظاهر أنهم أهل بيته و المؤمنون به فقد ذكرهم
في سورة هود مع الأهل و لم يذكر ههنا إلا الأهل فقط .

و المراد بمن سبق عليه القول منهم امرأته الكافرة على ما فهم نوح عليه السلام و هي
و ابنه الذي أبى ركوب السفينة و غرق حينما أوى إلى جبل ، و سبق القول هو
القضاء المحتوم بالغرق .

و قوله : « و لا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » النهي عن مخاطبته
تعالى كناية عن النهي الشديد عن الشفاعة لهم بدليل تعليق المخاطبة بالذين ظلموا

و تعليل النهي بقوله : « إنَّهم مغرقون » فكأنَّه قيل : أنْهاك عن أصل تكليمي فيهم فضلا أن تشفع لهم فقد شملهم غضبي شمولاً لا يدفعه دافع .

قوله تعالى : « فإِذا استويت أنت و من معك على الفلك فقل » إلى آخر الآيتين . علَّمه أن يحمده الله بعد الاستواء على الفلك على تنجيته تعالى من القوم الظالمين و هذا بيان بعد بيان لكونهم هالكين مغرقين حتماً ، و أن يسأله أن ينجيه من الطوفان و ينزله على الأرض إنزالاً مباركاً ذاخير كثير ثابت فإنَّه خير المنزلين .

و في أمره ﷺ أن يحمده و يصفه بالجميل دليل على أنَّه من عباده المخلصين فإنَّه تعالى منزّه عمّا يصفه غيرهم كما قال : « سبحان الله عمّا يصفون إلاّ عباد الله المخلصين » الصافات : ١٦٠ .

و قد اكتفى سبحانه في القصة باخباره عن حكمه بغرقهم و أنَّهم مغرقون حتماً ولم يذكر خبر غرقهم إيماء إلى أنَّهم آل بهم الأمر إلى أن لاخبر عنهم بعد ذلك ، و إعظاماً للمقدرة و تهويلاً للسخطة و تحقيراً لهم واستهانة بأمرهم ، فالسكوت في هذه القصة عن هلاكهم أبلغ من قوله في القصة الآتية : « فجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون » من وجوه .

قوله تعالى : « إنَّ في ذلك لآيات و إن كنَّا لمبتليين » خطاب في آخر القصة للنبي ﷺ ، و بيان أن هذه الدعوة مع ما جرى معها كانت ابتلاءً أي امتحاناً و اختباراً إلهياً .

قوله تعالى : « ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » إلى آخر الآية الثانية . القرن أهل عصر واحد ، و قوله : « أن اعبدوا الله » تفسير لرسال الرسول من قبيل تفسير الفعل بنتيجته كقوله تعالى : « تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا » السجدة : ٣٠ .

قوله تعالى : « قال الملائكة من قومهم الذين كفروا و كذبوا بقاء الآخرة و أترفناهم في الحياة الدنيا » هؤلاء أشرفهم المتوغلون في الدنيا المخلدون إلى الأرض يغرون بقولهم هذا عامتهم على رسولهم .

وقد وصفهم الله بصفات ثلاث وهي الكفر بالله بعبادة غيره والتكذيب بلقاء الآخرة - أي بقاء الحياة الآخرة بقرينة مقابلتها لقوله : « في الحياة الدنيا » - ول كفرهم بالمبدء والمعاد انقطعوا عما وراء الدنيا فانكبوا عليها ثم لما اترفوا في الحياة الدنيا وتمكنوا من زخارفها وزيناتها الملهمة اجتذبتهم الدنيا إلى نفسها فاتبعوا الهوى ونسوا كل حق و حقيقة ، ولذلك تقو هوا تارة بنفي التوحيد والرسالة وتارة بانكار المعاد وتارة ردوا الدعوة باضرارها دنياهم وحرمتهم في اتباع هواهم .

فتارة قالوا لعوامهم مشيرين إلى رسولهم إشارة المستحق للمستحقين بأمره : « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » يريدون به تكذيبه في دعوته ودعواه الرسالة على ما مر من تقرير حجبتهم في قصة نوح السابقة .
و في استدلالهم على بشريته ومساواته سائر الناس بأكله وشربه مثل الناس وذلك من خاصة مطلق الحيوان دليل على أنهم ما كانوا يرون للإنسان إلا كمال الحيوان ولافضيلة إلا في الأكل والشرب ولاسعادة إلا في التمكن من التوسع والاسترسال من اللذائذ الحيوانية كما قال تعالى : « أولئك كالأفاعيل » الأعراف : ١٧٩ ، وقال : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » سورة محمد : ١٢ .

وتارة قالوا : « ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذ الخاسرون » وهو في معنى قولهم في القصة السابقة : « يريد أن يتفضل عليكم » يريدون به أن في اتباعه وإطاعته فيما يأمركم به مع كونه بشرا مثلكم من غير فضل له عليكم خسرانكم وبطلان سعادتكم في الحياة إذ لا حياة إلا الحياة الدنيا ولا سعادة فيها إلا الحرية في التمتع من لذائذها ، وفي طاعة من لا فضل له عليكم رقيتكم وزوال حرمتكم وهو الخسران .
وتارة قالوا : « أيعدكم أنكم إذا متمم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون » أي مبعوثون من قبوركم للحساب والجزاء « هيهات هيهات لما توعدون » وهيهات كلمة استبعاد وفي تكراره مبالغة في الاستبعاد « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا »

أي يموت قوم منّا في الدنيا و يحيا آخرون فيها لانزال كذلك « وما نحن بمبعوثين »
للحياة في دار أخرى وراء الدنيا .

و يمكن أن يحمل قولهم : « نموت و نحيا » على التناسخ و هو خروج الروح
بالموت من بدن و تعلّقها ببدن آخر إنسانيّ أو غير إنسانيّ فإنّ التناسخ مذهب شائع
عند الوثنيين و ربّما عبّروا عنه بالولادة بعد الولادة لكنّه لا يلائم سياق الآيات
كثير الملائمة -

و تارة قالوا : « إن هو إلّا رجل افترى على الله كذبا و ما نحن له بمؤمنين »
يريدون به تكذيب دعواه الرسالة مع ما احتوت عليه دعوته وقد أنكروا التوحيد و
المعاد قبل ذلك .

و مرادهم بقولهم « نحن » أنفسهم و عامّتهم أشرّ كوا أنفسهم عامّتهم لئلاّ يتهمهم
العامّة فيما يأمرّونهم به من الكفر بالرسول و يمكن أن يكون المراد به أنفسهم خاصّة
دون العامّة و إنّما أخبروا بعدم إيمانهم ليقنّدوا بهم فيه .

و قد نشأت هذه الأقاويل من اجتماع الصفات التي وصفهم الله به في أوّل
الآيات و هي إنكار التوحيد والنبوة و المعاد و الإتراف في الحياة الدنيا .

و اعلم أنّ في قوله في صدر الآيات : « و قال الملأ من قومه الذين كفروا
و كذبوا بقاء الآخرة و أترفناهم » قدّم قوله : « من قومه » على « الذين كفروا »
بخلاف ما في القصّة السابقة من قوله : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه » لأنّه
لو وقع بعد « الذين كفروا » اختلّ به ترتيب الجمل المتوالية « كفروا » « و كذبوا »
« و أترفناهم » و لو وقع بعد الجميع طال الفصل .

قوله تعالى : « قال ربّ انصرني بما كذبون » تقدّم تفسيره في القصّة السابقة .

قوله تعالى : « قال عمّا قليل ليصبحنّ نادمين » استجابة لدعوة الرسول و

صيورتهم نادمين كناية عن حلول عذاب الاستئصال بهم ، و قوله : « عمّا قليل » عن
بمعنى بعد و « ما » لتأكيد القلّة و ضمير الجمع للقوم ، و الكلام مؤكّد بلام القسم
و نون التأكيد و المعنى أقسم لتأخذنّهم الندامة بعد قليل من الزمان بمشاهدة

حلول العذاب .

قوله تعالى : « فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين »
الباء في « بالحق » للمصاحبة و هو متعلق بقوله : « فأخذتهم » أي أخذتهم الصيحة
أخذنا مصاحبا للحق ، أو للسببية و الحق وصف أقيم مقام موصوفه المحذوف و
التقدير فأخذتهم الصيحة بسبب الأمر الحق أو القضاء الحق كما قال : « فأذا جاء
أمر الله قضي بينهم بالحق » المؤمن : ٧٨ .

و الغثاء بضم الغين و ربما شددت الناء ما يحمله السيل من يابس النبات و
الورق والعيذان البالية ، وقوله : « فبعدا للقوم الظالمين » إبعاد ولعن لهم أودعاء عليهم .
و المعنى فأنجزنا للرسول ما وعدناه من عذابهم فأخذتهم الصيحة السماوية و
هي العذاب فأهلكناهم وجعلناهم كغثاء السيل فليبعد القوم الظالمون بعدا .

و لم يصرح باسم هؤلاء القوم الذين أنشأهم بعد قوم نوح ثم أهلكهم ولا باسم
رسولهم ، و ليس من البعيد أن يكونوا هم ثمود قوم صالح عليه السلام فقد ذكر الله سبحانه
في قصتهم في مواضع من كلامه أنهم كانوا بعد قوم نوح و قد أهلكوا بالصيحة .

قوله تعالى : « ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من أمة أجلها
و ما يستأخرون » تقدم توضيح مضمون الآيتين كرارا .

قوله تعالى : « ثم أرسلنا رسلنا تنرا كلما جاء أمة رسولها كذبوه » إلى آخر
الآية يقال : جاؤا تترى أي فرادى يتبع بعضهم بعضا ، ومنه التواتر وهو تتابع الشيء
وترا وفرادى و عن الأصمعي : و اتترت الخبر أتبع بعضها بعضا و بين الخبرين
هنيئة انتهى .

و الكلام من تمة قوله : « ثم أنشأنا من بعدهم قرونا » و « ثم » للتراخي
بحسب الذكر دون الزمان ، و القصة إجمال منزع من قصص الرسل و أممهم بين
أمة نوح و الأمة الناشئة بعدها و بين أمة موسى .

يقول تعالى : « ثم أنشأنا بعد تلك الأمة الهالكة بالصيحة بعد أمة نوح قرونا
و أمما آخرين و أرسلنا إليهم رسلا متتابعين يتبع بعضها كلما جاء أمة رسولها

المبعوث منها إليها كذبوه فأتبعنا بعضهم أي بعض هذه الأمم بعضا أي بالعذاب و جعلناهم أحاديث أي صيّرناهم قصصا و أخبارا بعد ما كانوا أعيانا ذوات آثار فليبعد قوم لا يؤمنون .

و الآيات تدلّ على أنّه كان من سنة الله إنشاء قرن بعد قرن و هدايتهم إلى الحق . بإرسال رسول بعد رسول و هي سنة الابتلاء و الامتحان ، و من سنة القرون تكذيب الرسول بعد الرسول ثمّ من سنة الله ثانيا - وهي سنة المجازاة - تعذيب المكذّبين و إتباع بعضهم بعضا .

و قوله : « و جعلناهم أحاديث » أبلغ كلمة تفصح عن القهر الإلهي الذي يغشى أعداء الحقّ و المكذّبين لدعوته حيث يمحو العين و يعفو الأثر و لا يبقى إلّا الخبر .

قوله تعالى : « ثمّ أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا و سلطان مبين » الآيات هي العصا و اليد البيضاء و سائر الآيات التي أرسلها موسى فرعون و قومه ، و السلطان المبين الحجّة الواضحة ، و تفسير بعضهم السلطان بالعصا غير سديد .

قوله تعالى : « إلى فرعون و ملائجه فاستكبروا و كانوا قوما عالين » قيل : إنّما ذكر ملاّ فرعون و اكتفى بهم عن ذكر قومه لأنّهم الأشراف المتبوعون و سائر القوم أتباع يتبعونهم .

و المراد بكونهم عالين أنّهم كانوا يعلنون على غيرهم فيستعبدونهم كما علوا على بني إسرائيل و استعبدوهم فالعلو في الأرض كناية عن التناول على أهلها و قهرهم على الطاعة .

قوله تعالى : « فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا و قومهما لنا عابدون » المراد بكونهما بشرين مثلهم نفى أن يكون لهما فضل عليهم ، و بكون قومهما لهم عابدين فضلمهم عليهما كما فضّلوا على قومهما فإذا كان الفضل لهم عليهما كان من الواجب أن يعبداهم كما عبدهم قومهما لا أن يؤمنوا بهما كما قال فرعون لموسى : « لأن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين » ثمّ ختم تعالى القصة بذكر هلاكهم

فقال : « فكذبوهما فكانوا من المهلكين » ثم قال : « و لقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم يهتدون » و المراد بهم بنو إسرائيل لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وملائه .

قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية و آويناها إلى ربوة ذات قرار و معين » تقدّم أن الآية هي ولادة عيسى عليه السلام الخارقة للعادة و إذ كانت أمرا قائما به و بأمه معاً عدّا جميعا آية واحدة .

و الإيواء من الأويّ و أصله الرجوع ثمّ استعمل في رجوع الإنسان إلى مسكنه و مقرّه ، و آواه إلى مكان كذا أي جعله مسكنا له و الربوة المكان المرتفع المستوى الواسع ، و المعين الماء الجاري .

و المعنى وجعلنا عيسى بن مريم وأمه مريم آية دالة على ربوبيتنا و أسكنناهما في مكان مرتفع مستو و سيع فيه قرار و ماء جار .

قوله تعالى : « يا أيّها الرسل كلوا من الطيبات و اعملوا صالحا إنّي بما تعملون عليم » خطاب لعامة الرسل بأكل الطيبات و كان المراد بالأكل كل منها الارتزاق بها بالتصرف فيها سواء كان بأكل أو غيره و هو استعمال شائع .

و السياق يشهد بأنّ في قوله : « كلوا من الطيبات » امتنانا منه تعالى عليهم ففي قوله عقيبهِ : « و اعملوا صالحا » أمر بمقابلة المنّة بصالح العمل و هو شكر للنعمة و في تعليمه بقوله : « إنّي بما تعملون عليم » تحذير لهم من مخالفة أمره و بعث إلى ملازمة التقوى .

قوله تعالى : « إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتّقون » تقدّم تفسير نظيرة الآية في سورة الأنبياء .

قوله تعالى : « فتقطّعوا أمرهم بينهم زبرا كلّ حزب بما لديهم فرحون » في المجمع أنّ التقطّع و التقطيع بمعنى واحد ، و الزبر بضمّتين جمع زبور و هو الكتاب ، و الكلام متفرّع على ما تقدّمه ، و المعنى أنّ الله أرسل إليهم رسلا تنرا و الجميع أمة واحدة لهم ربّ واحد دعاهم إلى تقواه لكنّهم لم يأتروا بأمره و

قطّعوا أمرهم بينهم قطعاً وجعلوه كتباً اختصّ بكلّ كتاب حزب وكلّ حزب بما لديهم فرحون .

و في قراءة ابن عامر « زبرا » بفتح الباء ، وهو جمع زبرة وهي الفرقة والمعنى و تفرّقوا في أمرهم جماعات وأحزاباً كلّ حزب بما لديهم فرحون ، وهي أرجح .

قوله تعالى : « فذرهم في غمرتهم حتّى حين » قال في المفردات : الغمرة معظم الماء الساترة لمقرّها وجعل مثلاً للجهالة التي يغمر صاحبها ، انتهى و في الآية تهديد بالعذاب ، و قد تقدّمت إشارة إلى أنّ من سنّته تعالى المجازاة بالعذاب بعد تكذيب الرسالة ، و في تنكير « حين » إشارة إلى إتيان العذاب الموعد بغنة .

﴿ بحث روائي ﴾

في نهج البلاغة يأيتها الناس إنّ الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم ولم يعذكم من أن يبتليكم و قد قال جلّ من قائل : « إنّ في ذلك لآيات و إنّ كنهاً لمبتليين » .
وفي تفسير القميّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « فجعلناهم غنّاء » الغنّاء اليابس الهامد من نبات الأرض .

و فيه في قوله تعالى : « إلى ربوة ذات قرار ومعين » قال : الربوة الحيرة ، و ذات قرار ومعين الكوفة .

و في المجمع « و آويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » قيل : حيرة الكوفة و سوادها ، و القرار مسجد الكوفة ، والمعين الفرات عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام .

أقول : و روى في الدر المنثور عن ابن عساكر عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله أن الربوة هي دمشق الشام ، و روى أيضاً عن ابن عساكر وغيره عن مرّة البهزيّ عنه صلى الله عليه وآله أنّها الرملة ، والروايات جميعاً لا تخلو من الضعف .

و في المجمع : « يا أيّها الرسل كلوا من الطيبات » روي عن النبي صلى الله عليه وآله : أن الله طيب لا يقبل إلّا طيباً وإنّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « يا

أَيُّهَا الرِّسْل كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ « وَقَالَ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » .

أَقُول : وَرَوَاهُ فِي الدَّرِّ الْمُنْثُورِ عَنْ أَحْمَدَ وَمُسْلِمَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِمْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَفِي تَفْسِيرِ الْقَمِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ » قَالَ : عَلَى مَذْهَبِ وَاحِدٍ .
وَفِيهِ فِي قَوْلِهِ : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » قَالَ : كُلٌّ مِنْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ دِينًا فَهُوَ فَرِحَ بِهِ .





يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ
بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ
مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ
بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ
دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ
يَجْتُرُونَ (٦٤) لَا تَجْتُرُوا الْيَوْمَ أَنْكُمْ مِنْهُ لَا تَنْصُرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلُو
عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)
أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا
رُسُلَهُمْ فهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَهُمُ
لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَ
مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ
خُرُوجًا فَنُخْرِجُهُمْ وَهُوَ خَيْرٌ خَيْرِ الرَّاغِبِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٌ (٧٣) وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّراطِ لَنُكَفِّرُنَّ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُودِ فِي طَغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ (٧٥) وَ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْهَبَ فِيهِ مَبْلُوسُونَ (٧٧) .

﴿ بيان ﴾

الآيات متصلة بقوله السابق : « فذرهم في غمرتهم حتى حين » ، فإنّه لمّا عقب قصص الرسل باختلاف الناس في أمر الدين و تحزّبهم أحزابا كلّ حزب بما لديهم فرحون أو عدهم بعذاب مؤجل لا مناص لهم عنه و لا مخلص منه فليتيهوا في غمرتهم ما شاؤا فسيغشاهم العذاب و لا محالة .

فنبّههم في هذه الآيات أنّ توهّمهم أنّ ما مدّهم الله به من مال و بنين مسارعة لهم في الخيرات خطأ منهم و جهل بحقيقة الحال ، و لو كان ذلك من الخير لم يأخذ العذاب مترفيهم بل المسارعة في الخيرات هو ما وفق الله المؤمنين له من الأعمال الصالحة و ما يترتّب عليها من جزيل الأجر و عظيم الثواب في الدنيا و الآخرة فهم يسارعون إليها فيسارع لهم فيها .

فالعذاب مدرّكهم لا محالة و الحجّة تامّة عليهم و لا عذر لهم يعتذرون به كعدم تدبّر القول أو كون الدعوة بدعا لا سابقة له أو عدم معرفة الرسول أو كونه مجنونا مختلا القول أو سؤاله منهم خرجا بل هم أهل عناد و لجاج لا يؤمنون بالحقّ حتى يأتيهم عذاب لا مردّ له .

قوله تعالى : « أيحسبون أنّ ما نمدّهم به من مال و بنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » « نمدّهم » بضمّ النون من الإمداد و المدّ و الإمداد بمعنى واحد وهو تتميم نقص الشيء و حفظه من أن ينقطع أو يتقدّ قال الراغب : و أكثر ما يستعمل

الإمداد في المحبوب و المدّ في المكروه فقلوه : « نمدّهم » من الإمداد المستعمل في المكروه و المسارعة لهم في الخيرات إفاضة الخيرات بسرعة لكرامتهم عليه فيكون الخيرات على ظنّهم هي المال و البنون سورع لهم فيها و المعنى أظنّ هؤلاء أن ما نعطيهم في مدّة المهلة من مال و بنين خيرات نسارع لهم فيها لرضانا عنهم أوجبنا لأعمالهم أو كرامتهم علينا ؟ لا ، بل لا يشعرون أي إن الأمر على خلاف ما يظنون و هم في جهل بحقيقة الأمر و هو أن ذلك إملاء منا و استدراج و إنّما نمدّهم في طغيانهم يعمهون كما قال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون و أملي لهم إن كيدي متين » الأعراف : ١٨٣ .

قوله تعالى : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون » إلى آخر الآيات الخمس . يبيّن تعالى في هذه الآيات الخمس بمعونة ما تقدّم أن الذي يظنّ هؤلاء الكفّار أن المال و البنين خيرات نسارع لهم فيها خطأ منهم فليست هي من الخيرات في شيء ، بل استدراج و إملاء و إنّما الخيرات التي يسارع فيها هي ما عند المؤمنين بالله و رسله و اليوم الآخر الصالحين في أعمالهم .

فأفصح تعالى عن وصفهم فقال : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون » قال : الراغب : الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأنّ المشفق يحبّ المشفق عليه و يخاف ما يلحقه قال تعالى : « وهم من الساعة مشفقون » فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر و إذا عدّي بفي فمعنى العناية فيه أظهر قال : « إنّنا كنّا قبل في أهلنا مشفقين » مشفقون منها انتهى .

و الآية تصفهم بأنهم اتّخذوا الله سبحانه ربّاً يملّكهم و يدبّر أمرهم ، و لازم ذلك أن يكون النجاة و الهلاك دائريّن مدار رضاه و سخطه يخشونه في أمر يحبّونه و هو نجاتهم و سعادتهم فهم مشفقون من خشيته و هذا هو الذي يبعثهم إلى الإيمان بآياته و عبادته ، و قد ظهر بما مرّ من المعنى أن الجمع في الآية بين الخشية و الإشفاق ليس تكراراً مستدركا .

ثم قال : « و الذين هم بآيات ربهم يؤمنون » وهي كل ما يدل عليه تعالى بوجه و من ذلك رسله الحاملون لرسالته و ما اُتدوا به من كتاب و غيره و ما جاؤا به من شريعة لأنّ إشفاقهم من خشية الله يبعثهم إلى تحصيل رضاه و يحملهم على إجابته إلى ما يدعوهم إليه و ائتمارهم لما يأمرهم به من طريق الوحي و الرسالة .
ثم قال : « و الذين هم برّبهم لا يشركون » و الايمان بآياته هو الذي دعاهم إلى نفي الشركاء في العبادة فإنّ الايمان بها إيمان بالشريعة التي شرعت عبادته تعالى و الحجج التي دلّت على توحيده في ربوبيّته و ألوهيته .

على أنّ جميع الرسل و الأنبياء عليهم السلام إنّما جاؤا من قبله و إرسال الرسل لهداية الناس إلى الحق الذي فيه سعادتهم من شؤون الربوبية ، و لو كان له شريك لأرسل رسولا ، و من لطيف كلام علي عليه أفضل السلام قوله : لو كان لربك شريك لأنتك رسله .

ثم قال : « و الذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم و جلة أنهم إلى ربهم راجعون » الوجل الخوف ، و قوله : « يؤتون ما آتوا » أي يعطون ما أعطوا من المال بالا نفاق في سبيل الله و قيل : المراد بايتاء ما آتوا إتيانهم بكل عمل صالح ، و قوله : « و قلوبهم و جلة » حال من فاعل « يؤتون » .

و المعنى و الذين ينفقون ما أنفقوا أو يأتون بالأعمال الصالحة و الحال أنّ قلوبهم خائفة من أنهم سيرجعون إلى ربهم أي إنّ الباعث لهم على الانفاق في سبيل الله أو على صالح العمل ذكرهم رجوعهم المحتوم إلى ربهم على وجل منه .

و في الآية دلالة على إيمانهم باليوم الآخر و إتيانهم بصالح العمل و عند ذلك تعيّن صفاتهم أنهم الذين يؤمنون بالله وحده لا شريك له و برسله و باليوم الآخر و يعملون الصالحات .

ثم قال : « أولئك يسارعون في الخيرات و هم لها سابقون » الظاهر أنّ اللام في « لها » بمعنى « إلى » و « لها » متعلّق بسابقون ، و المعنى أولئك الذين وصفناهم هم يسارعون في الخيرات من الأعمال و هم سابقون إليها أي يتسابقون فيها لأنّ ذلك

لازم كون كل منهم مريداً للسبق إليها .

فقد بين في الآيات أن الخيرات هي الأعمال الصالحة المبتنية على الاعتقاد الحق الذي عند هؤلاء المؤمنين وهم يسارعون فيها وليست الخيرات ما عند أولئك الكفار وهم يعدونها بحسبانهم مسارعة من الله سبحانه لهم في الخيرات .
قال في التفسير الكبير : وفيه يعني قوله : « أولئك يسارعون في الخيرات » وجهان :

أحدهما أن المراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاخترام .

و الثاني أنهم يتعجلون في الدنيا أنواع النفع ووجوه الإكرام كما قال :
« فاتاهم الله ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخرة » « و آتيناها في الدنيا أجره و إنّه في الآخرة لمن الصالحين » لأنهم إذا سارع لهم بها فقد سارعوا في نيلها و تعجلوها وهذا الوجه أحسن طباقاً للآية المتقدمة لأن فيه إثبات ما نفى عن الكفار للمؤمنين . انتهى .

أقول : إن الذي نفى عن الكفار في الآية المتقدمة هو مسارعة الله للكفار في الخيرات و الذي أثبت للمؤمنين في هذه الآية هو مسارعة المؤمنين في الخيرات ، و الذي وجهه في هذا الوجه أن مسارعته في الخيرات مسارعة من الله سبحانه بوجه فيبقى عليه أن يبين الوجه في وضع مسارعته في الآية موضع مسارعته تعالى و تبديلها منها ، و وجهه بعضهم بأن تغيير الأسلوب للإيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ، و هو كما ترى .

و الظاهر أن هذا التبديل إنما هو في قوله في الآية المتقدمة : « نسارع لهم في الخيرات » و المراد بيان أنهم يحسبون أن ما نمدّهم به من مال و بنين خيرات يتسارعون إليها لكرامتهم و هم كافرون لكن لما كان ذلك باعطاء من الله تعالى لا بقدرتهم عليها من أنفسهم نسبت المسارعة إليه تعالى ثم نفيت بالاستفهام الإنكاري ، و أثبت ما يقابله على الأصل للمؤمنين .

فمحصل هذا النقي والإثبات أن المال والبنين ليست خيرات يتسارعون إليها ولا هم مسارعون إلى الخيرات بل الأعمال الصالحة وآثارها الحسنة هي الخيرات والمؤمنون هم المسارعون إلى الخيرات .

قوله تعالى : « ولا نكلف نفساً إلا وسعها » ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ، الذي يعطيه السياق أن الآية ترغيباً وتحضيضاً على ما ذكره من صفات المؤمنين ودفعاً لما رُبما ينصرف الناس بتوهمهم عن التلبس بكرامتها من وجهين أحدهما أن التلبس بها أمر سهل في وسع النفوس وليس بذاك الصعب الشاق الذي يستوعره المترفون ، والثاني أن الله لا يضيع عملهم الصالح ولا ينسى أجرهم الجزيل .
فقوله : « ولا نكلف نفساً إلا وسعها » نفي للتكليف الحرجي الخارج عن وسع النفوس أمّا في الاعتقاد فإنّه تعالى نصب حججاً ظاهرة وآيات باهرة تدلّ على ما يريد الإيمان به من حقائق المعارف وجهز الإنسان بما من شأنه أن يدركها وصدق بها وهو العقل ثم راعى حال العقول في اختلافها من جهة قوة الإدراك وضعفه فأراد من كلّ ما يناسب مقدار تحمّله وطوقه فلم يرد من العامّة ما يريده من الخاصة ولم يسأل الأبرار عمّا سأل عنه المقرّبين ولا ساق المستضعفين بما ساق به المخلصين .

وأمّا في العمل فإنّما ندب الإنسان منه إلى ما فيه خيره في حياته الفردية والاجتماعية الدنيوية وسعادته في حياته الآخروية ، ومن المعلوم أن خير كلّ نوع من الأنواع ومنها الإنسان إنّما يكون فيما يتمّ به حياته وينتفع به في عيشته وهو مجهّز بما يقوى على إتيانه وعمله ، وما هذا شأنه لا يكون حرجاً خارجاً عن الوسع والطاقّة .

فلا تكليف حرجي في دين الله بمعنى الحكم الحرجي في تشريعه مبنيّاً على مصلحة حرجية ، وبذلك امتنّ الله سبحانه على عباده ، وطيب نفوسهم ورغبهم إلى ما وصفه من حال المؤمنين .

والآية « ولا نكلف نفساً إلا وسعها » تدلّ على ذلك وزيادة فإنّها تدلّ على

نفى التكليف المبنى على الحرج في أصل تشريعه كتشريع الرهبانية والتقرب بذبح الأولاد مثلاً ، و نفى التكليف الذي هو في نفسه غير حرجي لكن اتفق أن صار بعض مصاديقه حرجياً لخصوصية في المورد كالقيام في الصلاة للمريض الذي لا يستطيعه فالجميع منفي بالآية وإن كان الامتنان والترغيب المذكوران يتمان بنفي القسم الأول .

و الدليل عليه في الآية تعلّق نفى التكليف بقوله : «نفساً» وهو نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، وعليه فأى نفس مفروضة في أيّ حادثة لا تكلف إلا وسعها و لا يتعلّق بها حكم حرجي سواء كان حرجياً من أصله أو صار حرجياً في خصوص المورد . و قد ظهر أن في الآية إمضاء لدرجات الاعتقاد بحسب مراتب العقول ورفعا للحرج سواء كان في أصل الحكم أو طارئاً عليه .

و قوله : « و عندنا كتاب ينطق بالحق » و هم لا يظلمون » ترغيب لهم بتطبيب نفوسهم بأن عملهم لا يضيع و أجرهم لا يتخلّف و المراد بنطق الكتاب إعرابه عما أثبت فيه إعراباً لالبس فيه و ذلك لأن أعمالهم مثبتة في كتاب لا ينطق إلا بما هو حق فهو مصون عن الزيادة و النقيصة و التحريف ، و الحساب مبنى على ما أثبت فيه كما يشير إليه قوله : « ينطق » و الجزء مبنى على ما يستنتج من الحساب كما يشير إليه قوله : « و هم لا يظلمون » فهم في أمن من الظلم بنسيان أجرهم أو بترك إعطائه أو بنقصه أو تغييره كما أنهم في أمن من أن لا يحفظ أعمالهم أو تنسى بعد الحفظ أو تتغير بوجه من وجوه التغير .

قال الرازي في التفسير الكبير فإن قيل : هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلك الكتاب إمّا أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو مجوّزين ذلك عليه فإن أحواله عليه فإنّهم يصدّقونه في كل ما يقول سواء وجد الكتاب أو لم يوجد ، وإن جوّزه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجويزهم أنّه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل فعلى التقديرين لا فائدة في ذلك الكتاب .

قلنا : يفعل الله ما يشاء ، وعلى أنّه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من

الملائكة . انتهى .

أقول : و الذي أجاب به مبني على مسلكه من نفي الغرض عن فعله تعالى و تجويز الإرادة الجزائية تعالى عن ذلك ، و الإشكال مطرد في سائر شؤون يوم القيامة التي أخبر الله سبحانه بها كالحشر و الجمع و إظهار الشهود و نشر الكتب و الدواوين و الصراط و الميزان و الحساب .

و الجواب عن ذلك كله أنه تعالى مثل لما يجري على الإنسان يوم القيامة في صورة القضاء و الحكم الفصل ، و لا غنى للقضاء بما أنه قضاء عن الاستناد إلى الحجج و البيّنات كالكتب و الشهود و الأمارات و الجمع بين المتخاصمين و لا يتم دون ذلك البتة .

نعم لو أغمضنا النظر عن ذلك كان ظهور أعمال الإنسان له في مراحل رجوعه إلى الله سبحانه بأذنه فافهمه .

قوله تعالى : « بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون » المناسب لسباق الآيات أن يكون « هذا » إشارة إلى ما وصفته الآيات السابقة من حال المؤمنين ومسارعتهم في الخيرات ، ويمكن أن يكون إشارة إلى القرآن كما يؤيده قوله بعد : « قد كانت آياتي تنلى عليكم » و الغمرة الغفلة الشديدة أو الجهل الشديد الذي غمرهم ، و قوله : « و لهم أعمال من دون ذلك الخ أي من غير ما وصفناه من حال المؤمنين و هو كناية عن أن لهم شاغلا يشغلهم عن هذه الخيرات و الأعمال الصالحة وهو الأعمال الرديئة الخبيثة التي هم لها عاملون .

و المعنى بل الكفّار في غفلة شديدة أو جهل شديد عن هذا الذي وصفناه به المؤمنين و لهم أعمال رديئة خبيثة من دون ذلك هم لها عاملون فهي شاغلهم وما نعتهم . قوله تعالى : « حتّى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون » الجؤار بضم الجيم صوت الوحش كالظباء و نحوها عند الفرع كني به عن رفعهم الصوت بالاستغاثة و التضرّع ، و قيل : المراد به ضجّتهم و جزعهم و الآيات التالية تؤيد المعنى الأوّل .

وإنما جعل مترفيهم متعلق العذاب لأن الكلام فيمن ذكره قبلا بقوله :
« أychسبون أنما نمدهم به من مال وبنين » وهم الرؤساء المتنعّمون منهم و غيرهم
تابعون لهم .

قوله تعالى : « لا تجأرا اليوم إنكم منا لا تنصرون » العدول عن سياق
الغبة إلى الخطاب لتشديد التوبيخ والتقريع ولقطع طمعهم في النجاة بسبب الاستغاثة
وأي رجاء و أمل لهم فيها فإن إخبار الوسائط أنهم لا ينصرون لدعاء أو شفاعاة لا
يقطع طمعهم في النصر كما يقطعه إخبار من إليه النصر نفسه .

قوله تعالى : « قد كانت آياتي تتلى عليكم - إلى قوله - تهجرون » النكوص
الرجوع القهقري ، و السامر من السمر وهو التحديث بالليل قيل : السامر كالحاضر
يطلق على المفرد و الجمع ، و قرىء « سَمَرًا » بضم السين و تشديد الميم جمع سامر
وهو أرجح و قرىء أيضا « سَمَارًا » بالضم و التشديد ، و الهجر الهذيان .

و الفصل في قوله : « قد كانت آياتي » الخ لكونه في مقام التعليل والمعنى إنكم
منا لا تنصرون لأنه قد كانت آياتي تتلى و تقرأ عليكم فكنتم تعرضون عنها وترجعون
إلى أعقابكم القهقري مستكبرين بنكوصكم تحدثون في أمره في الليل تهجرون و
تهذون ، و قيل : ضمير « به » عائد إلى البيت أو الحرم وهو كما ترى .

قوله تعالى : « أفلم يدبّروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين »
شروع في قطع أعذارهم في الإعراض عن القرآن النازل لهدايتهم و عدم استجابتهم
للدعوة الحقّة التي قام بها النبي ﷺ .

فقوله : « أفلم يدبّروا القول » الاستفهام فيه للإيثار واللام في « القول » للعهد
و المراد به القرآن المتلو عليهم ، و الكلام متفرّع على ما تقدّمه من كونهم في
غفلة منه و شغل يشغلهم عنه ، و المعنى هل إذا كانوا على تلك الحال لم يدبّروا هذا
القول المتلو عليهم حتى يعلموا أنه حق من عند الله فيؤمنوا به .

و قوله : « أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » « أم » فيه و فيما بعده منقطعة
في معنى الإضراب ، و المعنى بل أجهلهم شيء لم يأت آباءهم الأولين فيكون بدعاً

ينكر ويحترز منه .

و كون الشيء بدعا محدثا لا يعرفه السابقون و إن لم يستلزم كونه باطلا غير حقّ على نحو الكليّة لكنّ الرسالة الإلهيّة لمّا كانت لغرض الهداية لو صحتّ وجبت في حقّ الجميع فلولم يأت الأوّلين كان ذلك حجة قاطعة على بطلانها .

قوله تعالى . « أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون » المراد بمعرفة الرسول معرفته بنسبه وحسبه وبالجملة بسجاياء الروحانيّة وملكاته النفسيّة من اكتسابيّة و موروثيّة حتّى يتبيّن به أنّه صادق فيما يقول مؤمن بما يدعو إليه مؤيد من عند الله وقد عرفوا من النبي ﷺ سوابق حاله قبل البعثة ، وقد كان يتيما فاقدًا للأبوين لم يقرأ و لم يكتب و لم يأخذ أدبا من مؤدّب ولا تربية من مربّ ثمّ لم يجدوا عنده ما يستقبحه عقل أو يستنكره طبع أو يستهجنه رأي و لاطمعا في ملك أو حرصا على مال أو ولعا بجاه ، و هو على ما هو سنين من عمره فاذا هو ينادي للفلاح و السعادة و يندب إلى حقائق معارف تبهر العقول و يدعو إلى شريعة تحيّر الألباب و يتلو كتابا . فهم قد عرفوا رسولهم ﷺ بنعوته الخاصّة المعجزة لغيره ، و لولم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذرا في إعراضهم عن دينه و استنكافهم عن الإيمان به لأنّ معنى عدم معرفته لذلك وجدانه على غير بعض هذه النعوت أو عدم إحرازه فيه ، و من المعلوم أنّ إلقاء الزمام إلى من هذا شأنه ممّا لا يجوزّه العقل .

قوله تعالى : « أم يقولون به جنّة بل جاء بالحقّ » وأكثرهم للحقّ كارهون ، و هذا عذر آخر لهم تشبّثوا به إذ قالوا : « يا أيّها الذي نزل عليه الذكر إنّك لمجنون » الحجر : ٦ ذكره وردّه بلازم قوله : « بل جاء بالحقّ » .

فمدلول قوله : « بل جاء بالحقّ » وأكثرهم للحقّ كارهون « إضراب عن جملة محذوفة و التقدير إنّهم كاذبون في قولهم : « به جنّة » و اعتذارهم عن عدم إيمانهم به بذلك بل إنّما كرهوا الإيمان به لأنّه جاء بالحقّ وأكثرهم للحقّ كارهون .

و لازمه ردّ قولهم بحجّة يلوّح إليها هذا الإضراب ، و هي أنّ قولهم : « به جنّة » لو كان حقا كان كلامه مختلّا بالنظم غير مستقيم المعنى مدخولا فيه كما هو

مدخول في عقله ، غير رام إلى مرمى صحيح ، لكن كلامه ليس كذلك فلا يدعوا إلا إلى حق ، ولا يأتي إلا بحق ، و أين ذلك من كلام مجنون لا يدري ما يريد ولا يشعر بما يقول .

و إنما نسب الكراهة إلى أكثرهم لأن فيهم مستضعفين لا يعبؤ بهم أرادوا أو كرهوا .

قوله تعالى : « و لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض و من فيهن » بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ، لما ذكر أن أكثرهم للحق كارهون و إنما يكرهون الحق لمخالفته هواهم فهم يريدون من الحق أي الدعوة الحقّة أن يتبع أهواءهم و هذا ممّا لا يكون البتّة .

إذ لو اتبع الحق أهواءهم فتركوا و ما يهوونه من الاعتقاد والعمل فعبدوا الأصنام و اتخذوا الأرباب ونفوا الرسالة و المعاد واقترفوا ما أرادوه من الفحشاء و المنكر و الفساد جاز أن يتبعهم الحق في غير ذلك من الخليفة و النظام الذي يجري فيها بالحق إذ ليس بين الحق و الحق فرق فأعطي كل منهم ما يشتهي من جريان النظام و فيه فساد السماوات و الأرض و من فيهن و اختلال النظام و انتقاض القوانين الكليّة الجارية في الكون ، فمن البين أن الهوى لا يقف على حدّ و لا يستقرّ على قرار .

و بتقرير آخر أدقّ و أوفق لما يعطيه القرآن من حقيقة الدين القيم أن الإنسان حقيقة كونية مرتبطة في وجودها بالكون العامّ وله في نوعيته غاية هي سعاده و قد خطّ له طريق إلى سعاده و كماله ينالها بطي الطريق المنسوب إليها نظير غيره من الأنواع الموجودة ، و قد جهّزه الكون العامّ و خلقته الخاصّة به من القوى و الآلات بما يناسب سعاده و الطريق المنسوب إليها و هي الاعتقاد و العمل اللذان ينتهيان به إلى سعاده .

فالطريق التي ينتهي بالإنسان إلى سعاده أعني الاعتقادات و الأعمال الخاصّة المتوسطة بينه و بين سعاده و هي التي تسمى الدين و سنّة الحياة متعيّنة حسب

اقتضاء النظام العام الكوني" و النظام الخاص الانساني الذي نسميه الفطرة و تابعة لذلك .

و هذا هو الذي يشير تعالى إليه بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » سورة الروم : ٣٠ .
فسنة الحياة التي تنتهي بسالكها إلى السعادة الانسانية طريقة متعينة يقتضيها النظام بالحق و تكشف عنها تجهيزات وجوده بالحق ، و هذا الحق هو القوانين الثابتة غير المتغيرة التي تحكم في النظام الكوني الذي أحد أجزائه النظام الانساني و تدبره و تسوقه إلى غاياته و هو الذي قضى به الله سبحانه فكان حتما مقضيا .

فلو اتبع الحق أهواءهم فاقنضى لهم من الشرع ما تجازف به أهواؤهم لم يكن ذلك إلا بتغيير أجزاء الكون مما هي عليه و تبدل العلل و الأسباب غيرها و تغيرت الروابط المنظمة إلى روابط جزائية مختلفة متدافعة توافق مقتضياتها مجازفات أهوائهم ، وفي ذلك فساد السماوات و الأرض و من فيهن في أنفسها و التدبير الجاري فيها لأن كينونتها و تدبيرها مختلطان غير متمايزين ، و الخلق و الأمر متصلان غير منفصلين .

و هذا هو الذي يشير إليه قوله : « ولواتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض و من فيهن » .

و قوله : « بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » لا ريب أن المراد بالذكر هو القرآن كما قال : « و هذا ذكر مبارك » الأنبياء : ٥٠ . وقال : « وإنه لذكر لك و لقومك » الزخرف : ٤٤ إلى غير ذلك من الآيات ، و لعل التعبير عنه بالذكر بعد قوله : « أم يقولون به جنّة » نوع مقابلة لقولهم : « يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » الحجر : ٦ .

و كيف كان فقد سمّي ذكرا لأنّه يذكرهم بالله أو يذكر لهم دين الله من الاعتقاد الحقّ و العمل الصالح ، و الثاني أوفق لصدر الآية بما تقدّم من معناه ، و إنما أضيف إليهم لأن الدين أعني الدعوة الحقّة مختلفة بالنسبة إلى الناس

بالأجمال والنفصيل والذي يذكره القرآن آخر مراحل التفصيل لكون شريعته آخر الشرائع .

و المعنى لم يتبع الحق أهواهم بل جئناهم بكتاب يذكرهم - أو يذكرون به - دينهم الذي يختص بهم ويتفرع عليه أنهم عن دينهم الخاص بهم معرضون .
و قال كثير منهم إن إضافة الذكر إليهم للتشريف نظير قوله : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » الزخرف : ٤٤ و المعنى بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبال فهم بما فعلوه من النكوص عن فخرهم وشرفهم أنفسهم معرضون .

و فيه أنه لا ريب في أن القرآن الكريم شرف للنبي ﷺ إذ أنزل عليه و لأهل بيته إذ نزل في بيتهم ، و للعرب إذ نزل بلغتهم وللامة إذ نزل لهدايتهم غير أن الإضافة في الآية ليست لهذه العناية بل لعناية اختصاص هذا الدين بهذه الامة و هو الأوفق لصدر الآية بالمعنى الذي تقدمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « أم تسألهم خراجاً ربك خير وهو خير الرازقين » قال في مجمع البيان : أصل الخراج و الخرج واحد و هو الغلة التي يخرج على سبيل الوظيفة انتهى .

و هذا رابع الأعداء التي ذكرت في هذه الآيات و ردت و وبخوا عليها وقد ذكره الله بقوله : « أم تسألهم خراجاً أي مالا يدفعونه إليك على سبيل الرسم و الوظيفة ثم ذكر غنى النبي ﷺ بقوله : « فخراج ربك خير وهو خير الرازقين » أي إن الله هو رازقك و لاجابة لك إلى خراجهم ، و قد تكرر الأمر بإعلامهم ذلك في الآيات « قل لا أسألكم عليه أجراً » الأنعام : ٩٠ الشورى : ٢٣ .

و قد تمت بما ذكر في الآية أربعة من الأعداء المردودة إليهم و هي مختلفة فأولها « أفلم يدبّروا القول » راجع إلى القرآن ، و الثاني « أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين » إلى الدين الذي إليه الدعوة ، و الثالث « أم يقولون به جنة » إلى نفس النبي ﷺ ، و الرابع « أم تسألهم خراجاً » إلى سيرته .

قوله تعالى : « و إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّا كِبُونَ » النكب و النكوب العدول عن الطريق و الميل عن الشيء .

قد تقدّم في تفسير سورة الفاتحة أنّ الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا يختلف و لا يتخلف في حكمه و هو إيصاله سالكيه إلى الغاية المقصودة ، و هذه صفة الحقّ فإنّ الحقّ واحد لا يختلف أجزاءه بالتناقض والتدافع ولا يتخلف في مطلوبه الذي يهدي إليه فالحقّ صراط مستقيم ، وإذ ذكر أنّ النبيّ ﷺ يهدي إلى الحقّ كان لازمه هذا الذي ذكره أنّه يهدي إلى صراط مستقيم .

ثمّ إنّ الذين كفروا لما كانوا كارهين للحقّ كما ذكره فهم عادلون عن الصراط أي الصراط المستقيم مائلون إلى غيره .

و إتما أورد من أوصافهم عدم إيمانهم بالآخرة واقترع عليه لأنّ دين الحقّ مبنيّ على أساس أنّ للإنسان حياة خالدة لا تبطل بالموت و له فيها سعادة يجب أن تقتنى بالاعتقاد الحقّ و العمل الصالح و شقاوة يجب أن تجتنب ، و هؤلاء لنقيهم الحياة الآخرة يعدلون عن الحقّ والصراط المستقيم .

و بتقرير آخر : دين الحقّ مجموع تكاليف اعتقاديّة و عمليّة و التكليف لا يتمّ إلّا بحساب و جزاء ، و قد عيّن لذلك يوم القيامة ، وإذ لا يؤمن هؤلاء بالآخرة نفى الدين عندهم فلا يرون من الحياة إلّا الحياة الدنيا الماديّة و لا يبقى من السعادة عندهم إلّا نيل اللذائذ الماديّة و هو التمتع بالبطن فما دونه ، و لازم ذلك أن يكون المتبّع عندهم الهوى وافق الحقّ أو خالفه .

فمحصل الآيتين أنّهم ليسوا بمؤمنين بك لا أنّك تدعو إلى صراط مستقيم وهم لا همّ لهم إلّا العدول و الميل عنه .

قوله تعالى : « و لَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ » إلى قوله - « و مَا يَنْضَرُّونَ » اللجاج التعادي و العناد في تعاطي الفعل المزجور عنه ، و العمه التردّد في الأمر من التحير ، ذكرهما الراغب ، وفي المجمع : الاستكانة الخضوع و هو استعمل

من الكون و المعنى ما طلبوا الكون على صفة الخضوع . انتهى .

و قوله : « و لو رحمتهم » بيان و تأييد لنكوبهم عن الصراط بأنالو رحمتهم و كشفنا ما بهم من ضرّ لم يرجعوا بمقابلة ذلك لشكر بل أصرّوا على تمرّدهم عن الحقّ و تمادوا يتردّدون في طغيانهم فلا ينفعهم رحمة بكشف الضرّ كما لا ينفعهم تخويف بعذاب و نقمة فإنّا قد أخذناهم بالعذاب فما خضعوا لربّهم و ما يتضرّعون إليه فهؤلاء لا ينفعهم و لا يرّكبهم صراط الحقّ لارحمة بكشف الضرّ و لالنقمة و تخويف بالأخذ بالعذاب .

و المراد بالعذاب العذاب الخفيف الذي لا ينقطع به الإنسان عن عامّة الأسباب بقرينة ما في الآية التالية فلا يرد أنّ الرجوع إلى الله تعالى عند الاضطراب و الانقطاع عن الأسباب من غريزيّات الإنسان كما تكرر ذكره في القرآن الكريم فكيف يمكن أن يأخذهم العذاب ثمّ لا يستكينوا ولا يتضرّعوا ؟

و قوله في الآية الأولى : « ما بهم من ضرّ » و في الثانية : « و لقد أخذناهم بالعذاب » يدلّ على أنّ الكلام ناظر إلى عذاب قد وقع و لمّا يرتفع حين نزول الآيات ، و من المحتمل أنّه الجذب الذي ابتلي به أهل مكّة و قد ورد ذكر منه في الروايات .

قوله تعالى : « حتّى إذا فتحنا عليهم باباذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون » أي هم على حالهم هذه لا ينفع فيهم رحمة و لا عذاب حتّى إذا فتحنا عليهم باباذا عذاب شديد و هو الموت بما يستتبعه من عذاب الآخرة - على ما يعطيه سياق الآيات و خاصّة الآيات الآتية - فيفاجئهم الإبلاس و اليأس من كلّ خير .

و قد ختم هذا الفصل من الكلام أعني قوله : « أفلم يدبّروا القول » الخ بنظير ما ختم به الفصل السابق أعني قوله : « أيحسبون أنّهم نمدّهم به من مال و بنين » إلى آخر الآيات و هو ذكر عذاب الآخرة ، و سيعود إليه ثانيا .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : «والذين هم من خشية ربهم مشفقون - إلى قوله - يؤتون ما آتوا» قال : من العبادة والطاعة .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله قول الله : «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة» أهوال الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله ؟ قال : لا ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يقبل منه .

وفي المجمع في قوله : « وقلوبهم وجلة » قال أبو عبد الله عليه السلام : معناه خائفة أن لا يقبل منهم ، وفي رواية أخرى : أتى وهو خائف راج .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة «حتى إذا أخذنا مترفيم بالعذاب» قال ذكر لنا أنها نزلت في الذين قتل الله يوم بدر . أقول : وروى مثله عن النسائي عن ابن عباس ولفظه قال : هم أهل بدر ، و سياق الآيات لا ينطبق على مضمون الروايتين .

وفيه أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد أشدك الله والرحم فقد أكلنا العلمن يعني الوبر بالدم فأنزل الله : « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » .

أقول : والروايات في هذا المعنى مختلفة وما أوردناه أعدها وهي تشير إلى جذب وقع بمكة وحواليها بدعوة النبي ﷺ ، وظاهر أكثرها أنه كان بعد الهجرة ، ولا يوافق ذلك الاعتبار .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولواتبع الحق أهواءهم » قال : الحق رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : هو من البطن بالمعنى الذي تقدم في بحث المحكم و المتشابه و نظيره ما أورده في قوله : « و إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » قال : إلى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ، وكذا ما أورده في قوله : « عن الصراط لنا كبون » قال : عن الإمام لحادون .

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « أم تسألهم خرجا فخرج ربك خير وهو خير الرازقين » يقول : أم تسألهم أجرا فأجر ربك خير .
و في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل : « فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » فقال : الاستكانة هي الخضوع ، و التضرع رفع اليدين و التضرع بهما .

و في المجمع و روي عن مقاتل بن حيان عن الأصمغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال النبي ﷺ : رفع الأيدي من الاستكانة . قلت : وما الاستكانة قال : أما تقر هذه الآية : « فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » ؟ أورده الثعلبي و الواحدي في تفسيريهما .

وفيه قال أبو عبد الله عليه السلام : الاستكانة الدعاء ، و التضرع رفع اليدين في الصلاة .
و في الدر المنثور أخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب في قوله : « و ما استكانوا لربهم و ما يتضرعون » أي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا لو خضعوا لله لاستجاب لهم .

و في المجمع في قوله تعالى : « حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد » قال أبو جعفر عليه السلام هو في الرجعة .



وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨)

وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١)

قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧)

قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِي تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَكَذِبُونَ (٩٠)

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِّنْ آلَةٍ إِذَا تَذَكَّرَ كُلُّ آلَةٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ أَمَّا تُرِينِي مَا يُوْعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَ أَنَا عَلَىٰ أَن تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السِّتَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُوا (٩٨).

﴿ بيان ﴾

لمّا أوعدهم بعذاب شديد لا مردّ له ولا مخلص منه ، وردّ عليهم كلّ عذر يمكنهم أن يعتذروا به ، وبيّن أنّ السبب الوحيد لكفرهم بالله و اليوم الآخر هو اتباع الهوى و كراهة اتباع الحقّ . تمّم البيان بإقامة الحجّة على توحّده في الربوبية و على رجوع الخلق إليه بذكر آيات بيّنة لا سبيل للإنكار إليها .
وعقب ذلك بأمر النبي ﷺ أن يستعذبه من أن يشمل العذاب الذي أوعدوا به ، و أن يعوذ به من همزات الشيطان و أن يحضروه كما فعلوا بهم .

قوله تعالى : « و هو الذي أنشأ لكم السمع و الأبصار و الأفتدة قليلا ما تشكرون » افتتح سبحانه من نعمه التي أنعمها عليهم بذكر إنشاء السمع و البصر و هما نعمتان خصّ بهما جنس الحيوان خلقتا فيه إنشاء و إبداعا لعن مثال سابق إذ لا توجدان في الأنواع البسيطة التي قبل الحيوان كالنبات و الجماد و العناصر .
و بحصول هذين الحسنيين يقف الوجود المجهّز بهما موقفا جديدا و يتسع مجال فعاليّته بالنسبة إلى ما هو محروم منهما اتّساعا لا يتقدّر بقدر فيدرك خيره و شرّه و نفعه و ضارّه و يعطى معهما الحركة الإرادية إلى ما يريد و عما يكرهه ، و يستقرّ في عالم حديث طريّ فيه مجالي الجمال و اللذة و العزّة و الغلبة و المحبة ممّا لاخير عنه فيما قبله .

و إنّما اقتصر من الحواسّ بالسمع و البصر - قيل - لأنّ الاستدلال يتوقّف عليهما و يتمّ بهما .

ثمّ ذكر سبحانه الفؤاد و المراد به المبدء الذي يعقل من الإنسان و هو نعمة خاصّة بالإنسان من بين سائر الحيوان و مرحلة حصول الفؤاد مرحلة وجوديّة جديدة هي أرفع درجة و أعلى منزلة و أوسع مجالا من عالم الحيوان الذي هو عالم الحواسّ فيتمسّع به أو لا شعاع عمل الحواسّ ممّا كان عليه في عامّة الحيوان بما لا يتقدّر بقدر فاذا الإنسان يدرك بهما ما غاب و ما حضر و ما مضى و ما غير من أخبار

الآشياء و آثارها و أوصافها بعلاج و غير علاج .

ثم يرقى بفؤاده أي بتعقله إلى ما فوق المحسوسات و الجزئيات فيتعقل الكليات فيحصل القوانين الكلية ، و يغور متفكراً في العلوم النظرية و المعارف الحقيقية ، و يتفقد بسلطان التدبير في أقطار السماوات و الأرض .
ففي ذلك كله من عجب التدبير الإلهي " بإ نشاء السمع و الأبصار والأفدة ما لايسع الإنسان أن يستوفي شكره .

و قوله : « قليلاً ما تشكرون » فيه بعض العتاب ومعناه تشكرون شكراً قليلاً
فقوله : « قليلاً » وصف للمفعول المطلق قائم مقامه .

قوله تعالى : « و هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون » قال الراغب :
الذرة إظهار الله تعالى ما أبداه يقال : ذره الله الخلق أي أوجد أشخاصهم . و قال :
الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم و إزعاجهم عنه إلى الحرب و نحوها . انتهى .
فالمعنى أنه لما جعلكم ذوي حس و عقل أظهر وجودكم في الأرض متعلقين بها ثم يجمعكم و يرجعكم إلى لقاءه .

قوله تعالى : « و هو الذي يحيي و يميت وله اختلاف الليل و النهار أفلا تعقلون » معنى الآية ظاهر ، و قوله : « و هو الذي يحيي و يميت » مترتب بحسب المعنى على الجملة التي قبله أي لما جعلكم ذوي علم وأظهر وجودكم في الأرض إلى حين حتى تحشروا إليه لزمتم ذلك سنة الإحياء و الإماتة إذ العلم متوقف على الحياة و الحشر متوقف على الموت .

و قوله : « وله اختلاف الليل و النهار » مترتب على ما قبله فإن الحياة ثم الموت لا تتم إلا بهمرور الزمان و ورود الليل بعد النهار و النهار بعد الليل حتى ينقضي العمر ويحل الأجل المكتوب ، هذا لو أريد باختلاف الليل و النهار ورود الواحد منها بعد الواحد ، و لو أريد به اختلافهما في الطول و القصر كانت فيه إشارة إلى إيجاد فصول السنة الأربعة المتفرقة على طول الليل و النهار و قصرهما وبذلك يتم أمر أرزاق الحيوان و تدبير معاشها كما قال : « و قد ر فيها أقواتها في أربعة أيام

سواء للسائلين ، حم السجدة : ١٠ .

فمضامين الآيات الثلاث مترتبة مستتبعة بعضها بعضاً فإِنْشاء السمع و البصر والفؤاد و هو الحس والعقل للإنسان يستتبع حياة متعلّقة بالمادّة و سكونا في الأرض إلى حين ، ثم الرجوع إلى الله ، و هو يستتبع حياة وموتا ، و ذلك يستتبع عمر امتقضيًا بانقضاء الزمان و رزقا يرزق به .

فالآيات الثلاث تتضمّن الإشارة إلى دور كامل من تدبير أمر الإنسان من حين يخلق إلى أن يرجع إلى ربّه ، والله سبحانه هو مالك خلقه فهو مالك تدبير أمره لأنّ هذا التدبير تدبير تكويني لا يفارق الخلق و الإيجاد و لا ينحاز عنه ، و هو نظام الفعل و الانفعال الجاري بين الأشياء بما بينها من الروابط المختلفة المفعولة بالتكوين فالله سبحانه هو ربّهم المدبّر لأمرهم وإليه يحشرون وقوله : « أفلا تعقلون » توبيخ لهم و حثّ على التنبّه فالإيمان .

قوله تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الأولون » إضراب عن نفي سابق يدلّ عليه الاستفهام المتقدّم أي لم يعقلوا بل قالوا كذا وكذا .

و في تشبيه قولهم بقول الأولين إشارة إلى أنّ تقليد الآباء منهم عن اتباع الحقّ وأوقعهم فيما لا يبقى معه للمدين جدوى وهو نفي المعاد ، والإخلال إلى الأرض و الانغمار في الماديّات سنة جارية فيهم في آخريهم وأوليهم .

قوله تعالى : « قالوا ، إذ امتنا و كنّا ترابا و عظما ، إنّنا لمبعوثون » بيان لقوله : « قالوا » في الآية السابقة والكلام مبنى على الاستبعاد .

قوله تعالى : « لقد وعدنا نحن و آبائنا هذا من قبل إنّ هذا إلّا أساطير الأولين » الأساطير الأباطيل و الأحاديث الخرافيّة و هي جمع أسطورة كأكاذيب جمع كذوبة و أعاجيب جمع أعجوبة و إطلاق الأساطير و هو جمع على البعث وهو مفرد بعناية أنّه مجموع عدات كلّ واحد منها أسطورة كالإحياء و الجمع والحشر و الحساب و الجنّة و النار وغيرها ، و الإشارة بهذا إلى حديث البعث و قوله : من قبل ، متعلّق بقوله : « وعدنا » على ما يعطيه سياق الجملة .

و المعنى أن " وعد البعث وعد قديم ليس بحدث نقسم لقد وعدناه من قبل نحن و آباؤنا ليس البعث الموعود إلا أحاديث خرافية وضعتها و نظمها الأناسي الأولون في صورة إحياء الأموات و حساب الأعمال و الجنة و النار و الثواب والعقاب .
و الدليل على كونها أساطير أن الأنبياء من قديم الدهر لا يزالون يعدوننا و ينخوفوننا بقيام الساعة ولو كان حقاً غير خرافي لوقع .

و من هنا يظهر أو لا أن قولهم : « من قبل » لتمهيد الحجّة على قولهم بعده « إن هذا إلا أساطير الأولين » .

و ثانياً أن الكلام مسوق للترقي فالآية السابقة : « إذا كنّا تراباً و عظاماً ، إنّا لمبعوثون » مبنية على الاستبعاد وهذه الآية متضمنة للإقرار مبنياً على حجة واهية .

قوله تعالى : « قل لمن الأرض و من فيها إن كنتم تعلمون » لماذا كراستبعادهم للبعث ثم إنكارهم له شرع في الاحتجاج على إمكانه من طريق الملك و الربوبية و السلطنة ، و وجه الكلام إلى الوثنيين المنكرين للبعث و هم معترفون به تعالى بمعنى أنه الموجد للعالم و ربّ الأرباب و الآلهة المعبودون دونه من خلقه ، و لذا أخذ وجوده تعالى مسلماً في ضمن الحجّة .

فقوله : « قل لمن الأرض و من فيها » أمر للنبي ﷺ أن يسألهم عن مالك الأرض و من فيها من الولي العقل من هو ؟ و معلوم أن السؤال إنما هو عن الملك الحقيقي الذي هو قيام وجود شيء بشي . بحيث لا يستقل الشيء المملوك عن مالكه بأي وجه فرض دون الملك الاعتباري الذي وضعناه معاشر المجتمعين لمصلحة الاجتماع و هو يقبل الصحة و الفساد ويقع مورداً للبيع و الشرى ، و ذلك لأن الكلام مسوق لإثبات صحة جميع التصرفات التكوينية و ملاكها الملك التكويني الحقيقي دون التشريعي الاعتباري .

قوله تعالى : « سيقولون لله قل أفلا تدّكرون » إخبار عن جوابهم و هو أن الأرض و من فيها مملوكة لله ، و لا مناص لهم عن الاعتراف بكونها لله سبحانه فإن

هذا النوع من الملك لا يقوم إلا بالعلّة الموجودة لمعلولها حيث يقوم وجود المعلول بها قياما لا يستقل عنها بوجه من الوجوه ، و العلة الموجودة للأرض ومن فيها هو الله سبحانه وحده لا شريك له حتى باعتراف الوثنيين .

و قوله : « قل أفلا تذكرون » أمر بعد تسجيل الجواب أن يوبخهم على عدم تذكّرهم بالحجّة الدالّة على إمكان البعث ، و المعنى قل لهم فإذا كان الله سبحانه مالك الأرض ومن فيها لم لا تذكرون أن له - لمكان مالكيتته - أن يتصرّف في أهلها بالإحياء بعد الاماتة .

قوله تعالى : « قل من ربّ السماوات السبع و ربّ العرش العظيم » أمره ثانيا أن يسألهم عن ربّ السماوات السبع و ربّ العرش العظيم من هو ؟ و المراد بالعرش هو المقام الذي يجتمع فيه أزمنة الأمور و يصدر عنه كل تدبير ، و تكرار لفظ الربّ في قوله : « ربّ العرش العظيم » للإشارة إلى أهميّة أمره و رفعة محلّه كما وصفه الله بالعظمة ، وقد تقدّم البحث عنه في تفسير سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب .

ذكروا أن قولنا : لمن السماوات السبع و قولنا : من ربّ السماوات السبع بمعنى واحد كما يقال : لمن الدار و من ربّ الدار فقوله تعالى : « من ربّ السماوات السبع » سؤال عن مالِكها ، و لذا حكى الجواب عنهم بقوله : « سيقولون لله » على المعنى و لو أنّه أجيب عنه فقليل : « الله » كما في القراءة الأخرى كان جوابا على اللفظ .

و فيه أن الذي ثبت في اللغة أن ربّ الشيء هو مالِكه المدبّر لأمره بالتصرّف فيه فيكون الربوبية أخص من الملك ، و لو كان الربّ مرادفا للمالك لم يستقيم ترتّب الجواب على السؤال في الآيتين السابقتين « قل لمن الأرض و من فيها - إلى قوله - سيقولون لله » إذ كان معنى السؤال : من ربّ الأرض و من فيها ، و من المعلوم أنّهم كانوا قائلين بربوبية آلهتهم من دون الله للأرض و من فيها فكان جوابهم إثبات الربوبية لآلهتهم من غير أن يكونوا ملزمين بتصديق ذلك لله سبحانه و هذا بخلاف

السؤال عن مالك الأرض و من فيها فإنّ الجواب عنه تصديقه لله لأنهم كانوا يرون الإيجاد لله و الملك لازم الإيجاد فكانوا ملزمين بالاعتراف به .

ثمّ على تقدير كون الربّ أخصّ من المالك يمكن أن يتوهم توجهه الاشكال إلى ترتيب الجواب على السؤال في الآية المبحوث عنها « قل من ربّ السماوات السبع - إلى قوله - سيقولون لله » فإنّ جلّ الوثنيين من الصابئين وغيرهم يرون للمساوات و ما فيها من الشمس والقمر وغيرهما آلهة دون الله فلو أجابوا عن السؤال عن ربّ السماوات أجابوا بإثبات الربوبية لأنهم دون الله فلا يستقيم قوله : « سيقولون لله » إذ لا ملزم يلزمهم على الاعتراف به .

و الذي يحسم أصل الاشكال أنّ البحث العميق عن معتقدات القوم يعطي أنهم لم يكونوا يبنون آراءهم في أمر الآلهة على أصول منظمة مسلمة عند الجميع فأمثال الصابئين و البرهمنيين و البوذيين كانوا يقسمون أمور العالم إلى أنواع و أقسام كأمر السماء و الأرض و أنواع الحيوان و النبات و البرّ و البحر و غير ذلك و يثبتون لكلّ منها إلها دون الله يعبدونه من دون الله و يعدّونه شفيعا مقرّبا ثمّ يتخذون له صنما يمثله .

و أمّا عاينهم من الهمجيتين كأعراب الجاهلية و القاطنين في أطراف المعمورة فلم يكن معتقداتهم في ذلك مبنية على قواعد مضبوطة و ربّما كانوا يرون للمعمورة من الأرض و سكّانها آلهة دون الله لها أصنام و ربّما رأوا نفس الأصنام المصنوعة آلهة ، و أمّا السماوات و السماويات و كذا البحار فكانوا يرونها مربوبة لله سبحانه و الله ربّها كما يلوّح إليه قوله تعالى حكاية عن فرعون : « يا هامان بن لي صرحا لعليّ أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى » المؤمن : ٣٧ فإنّ ظاهره أنّه كان يرى أنّ الذي يدعو إليه موسى - و هو الله تعالى - إله السماء و بالجملة السماوات و ما فيهنّ و من فيهنّ من الملائكة عندهم مربوبون لله سبحانه ثمّ الملائكة أرباب لما دون السماوات .

و أمّا الصابئون و من يحدوحدوهم فإنّهم - كما سمعت - يرون للمساوات و

ما فيهنّ من النجوم والكواكب وآلهة وأربابا من دون الله وهم الملائكة والجنّ وهم يرون الملائكة والجنّ موجودات مجردة عن المادّة ظاهرة عن لوث الطبيعة ، وحينما يعدّونهم ساكنين في السماوات فإنّما يريدون باطن هذا العالم وهو العالم السماوي العلوي الذي فيه تتقدّر الأمور ومنه ينزل القضاء وبه تستمدّ الأسباب الطبيعيّة ، وهو بما فيه من الملائكة وغيرهم مريبوب لله سبحانه وإن كان من فيه آلهة للعالم الحسّي وأربابا لمن فيه والله ربّ الأرباب .

إذا تمهّدت هذه المقدّمة فنقول : إن كان وجه الكلام في الآية الكريمة إلى مشرّكي العرب كما هو الظاهر ، كان السؤال عن ربّ السماوات السبع والجواب عنه باعترافهم أنّه الله في محلّه كما عرفت .

وإن كان وجه الكلام إلى غيرهم ممّن يرى للسماء إلها دون الله كان المراد بالسماء العالم السماوي بسكنته من الملائكة والجنّ دون السماوات المادّيّة ، ويؤيّدّه مقارنته بالسؤال عن ربّ العرش العظيم فإنّ العرش مقام صدور الأحكام المتعلقة بمطلق الخلق الذي منهم أربابهم وآلهتهم ، ومن المعلوم أن لاربّ لمقام هذا شأنه إلّا الله إذ لا يفوقه شيء دونه .

وهذا العالم العلوي هو عندهم عالم الأرباب والآلهة لاربّ له إلّا الله سبحانه فالسؤال عن ربّه والجواب عنه باعترافهم أنّه الله في محلّه كما أُشير إليه .

فمعنى الآية - والله أعلم - قل : من ربّ السماوات السبع التي منها تنزل أقدار الأمور وأقضيتها وربّ العرش العظيم الذي منه يصدر الأحكام العامّة ما في العالم من الملائكة فمن دونهم ؟ فإنّهم وما يملكونهم باعتقادكم مملوكة لله وهو الذي ملّكهم ما ملّكوه .

قوله تعالى : « سيقولون لله قل أفلا تتقون » حكاية لجوابهم بالاعتراف بأنّ السماوات السبع والعرش العظيم لله سبحانه .

والمعنى سيحيونك بأنّها لله قل لهم تبكيئا وتوبيخا : فإذا كان السماوات السبع منها ينزل الأمر والعرش العظيم منه يصدر الأمر لله سبحانه فلم لا تتقون

سخطه إذ تنكرون البعث وتعدّونه من أساطير الأولين و تسخرون من أنبيائه الذين وعدوكم به ؟ فإنّ له تعالى أن يصدر الأمر ببعث الأموات وإنشاء النشأة الآخرة للإنسان و ينزل الأمر به من السماء ،

و من لطيف تعبير الآية التعبير بقوله : «لله» فإنّ الحجة تتمّ بالملك و إن لم يعترفوا بالربوبية .

قوله تعالى : « قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجبر ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون » الملكوت هو الملك بمعنى السلطنة و الحكم ، و يفيد مبالغة في معناه و الفرق بين الملك بالفتح و الكسر و بين المالك أن المالك هو الذي يملك المال و الملك يملك المالك وماله ، فله ملك في طول ملك و له التصرف بالحكم في المال و ماله .

و قد فسرّ تعالى ملكوته بقوله : « إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء » يس : ٨٣ فملكوت كل شيء هو كونه عن أمره تعالى بكلمة كن و بعبارة أخرى وجوده عن إيجاده تعالى .

فكون ملكوت كل شيء بيده كناية استعارية عن اختصاص إيجاد كل ما يصدق عليه الشيء به تعالى كما قال : « الله خالق كل شيء » الزمر : ٤٢ فملكه تعالى محيط بكل شيء و نفوذ أمره و مضي حكمه ثابت على كل شيء .

ولما كان من الممكن أن يتوهّم أن عموم الملك و نفوذ الأمر لا ينافي إخلال بعض ما أوجده من الأسباب و العلل بأمره فيفعل ببعض خلقه ما لا يريد أو يمنعه عما يريد تمّم قوله : « بيده ملكوت كل شيء » بقوله : « و هو يجبر ولا يجار عليه » و هو في الحقيقة توضيح لاختصاص الملك بأنّه بتمام معنى الكلمة فليس لشيء شيء من الملك في عرض ملكه و لو بالمنع و الإخلال و الاعتراض فله الملك وله الحكم .

و قوله : « و هو يجبر ولا يجار عليه » من الجوار ، و هو في أصله قرب المسكن ثمّ جعلوا للجوار حقاً و هو حماية الجار لجاره ممّن يقصده بسوء لكرامة الجار على الجار بقرب الدار واشتقّ منه الأفعال يقال : استجاره فأجاره أي سأل الحماية فحماه

أي منع عنه من يقصده بسوء .

و هذا جار في جميع أفعاله تعالى فما من شيء يخصه الله بعطيّة حدوثا أو بقاء
إلا و هو يحفظه على ما يريد و بمقدار ما يريد من غير أن يمنعه إذ منع المانع - لو
فرض - إنّما هو بإذن منه و مشيئة فليس منعاً له تعالى بل منعاً منه و تحديداً لفعل
منه بفعل آخر ، و ما من سبب من الأسباب يفعل فعلاً إلا وله تعالى أن يتصرف فيه
بما لا يريد له لأنّه تعالى هو الذي ملكه الفعل بمشيئته فله أن يمنعه منه أو من بعضه .
فالمراد بقوله : « و هو يجبر و لا يجار عليه » أنّه يمنع السوء عمّن قصد به و
لا يمنعه شيء إذا أراد شيئاً بسوء عمّا أراد .

ومعنى الآية قل لهؤلاء المنكرين للبعث : من الذي يختصّ به إيجاد كل شيء
بماله من الخواصّ و الآثار و هو يحمي من استجار به و لا يحمي عنه شيء إذا أراد شيئاً
بسوء ؟ إن كنتم تعلمون .

قوله تعالى : « سيقولون لله قل فأنّى تسحرون » قيل : إنّ المراد بالسحر
أن يخيّل الشيء للإنسان على خلاف ما هو عليه فهو من الاستعارة أو الكناية .
و المعنى سيجيبونك أنّ المملوك لله قل لهم تبكيئا و توبيخا : فإلى منى يخيّل
لكم الحقّ باطلا فإذا كان الملك المطلق لله سبحانه فله أن يوجد النشأة الآخرة ويعيد
الأموات للحساب و الجزاء ، بأمر يأمره و هو قوله : « كن » .

و اعلم أنّ الاحتجاجات الثلاثة كما تثبت إمكان البعث كذلك تثبت توحيده
تعالى في الربوبية فإنّ الملك الحقيقي لا يتخلّف عن جواز التصرفات ، و المالك
المتصرّف هو الربّ .

قوله تعالى : « بل أتيناهم بالحقّ و إنهم لكاذبون » إضراب عن النقيض المفهوم
من الحجج التي أقيمت في الآيات السابقة ، والمعنى فإذا كانت الحجج المبيّنة تدلّ
على البعث و هم معترفون بصحتها فليس ما وعدهم رسلنا باطلا بل جئناهم بلسان
الرسل بالحقّ و إنهم لكاذبون في دعواهم كذبهم و نقيضهم للبعث .

قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد و ما كان معه من إله إذا لذهب كلّ

إله بما خلق و لعلا بعضهم على بعض ، الخ القول بالولد كان شائعاً بين الوثنيين
يعدّون الملائكة أو بعضهم وبعض الجنّ وبعض القدّيسين من البشر أولاداً لله سبحانه
و تبعهم النصارى في قولهم : المسيح ابن الله ، وهذا النوع من الولادة والبنوة مبنيّ
على اشتغال الابن على شيء من حقيقة اللاهوت و جوهره و انفصاله منه بنسوع من
الاشتقاق فيكون المسمّى بالابن إلها مولوداً من إله .

وأما البنوة الادّعائية بالتبنيّ و هو أخذ ولد الغير ابناً لتشريف أو لغرض
آخر فلا يوجب اشتغال الابن على شيء من حقيقة الأب كقول اليهود نحن أبناء الله
و أحبّاءه ، و ليس الولد بهذا المعنى مراداً لأنّ الكلام مسوق لنفي تعدّد الآلهة
ولا يستلزم هذا النوع من البنوة الوهيّة و إن كان التسمي و التسمية بهامنعاً .
فالمراد باتّخاذ الولد إيجاد شيء بنحو التبعض و الاشتقاق يكون مشتملاً
بنحو على شيء من حقيقة الموجود لا تسمية شيء موجوداً بنا وولداً لغرض من الأغراض
كما ذكره بعضهم .

و الولد - كما عرفت - أخصّ مصداقاً عندهم من الإله فإنّ بعض آلهتهم
ليس بولد عندهم فقولهم : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله » ترقّ من نفي
الأخصّ إلى نفي الأعمّ و لفظة « من » في الجملتين زائدة للتأكيد .
و قوله : « إذا لذهب كلّ إله بما خلق » حجة على نفي التعدّد ببيان محذوره
إذ لا يتصور تعدّد الآلهة إلّا ببيئونها بوجه من الوجوه بحيث لا تتحدّ في معنى
الوهيّيّتها و ربوبيّتها ، و معنى ربوبيّة الإله في شطر من الكون و نوع من أنواعه
تفويض التدبير فيه إليه بحيث يستقلّ في أمره من غير أن يحتاج فيه إلى شيء غير
نفسه حتّى إلى من فوّض إليه الأمر ، ومن البين أيضاً أنّ المتباينين لا يترشّح منهما
إلّا أمران متباينان .

و لازم ذلك أن يستقلّ كلّ من الآلهة بما يرجع إليه من نوع التدبير و
تنقطع رابطة الاتحاد و الاتصال بين أنواع التدابير الجارية في العالم كالنظام الجاري
في العالم الإنسانيّ عن الأنظمة الجارية في أنواع الحيوان والنبات والبرّ والبحر

و السهل و الجبل و الأرض و السماء و غيرها و كل منها عن كل منها ، و فيه فساد السماوات و الأرض و ما فيهن ، و وحدة النظام الكوني و القيام أجزائه و اتصال التدبير الجاري فيه يكذب به .

و هذا هو المراد بقوله : « إذا لذهب كل إله بما خلق » أي انفصل بعض الآلهة عن بعض بما يقرشح منه من التدبير .

و قوله : « ولعلا بعضهم على بعض » محذور آخر لازم لتعدد الآلهة تتألف منه حجة أخرى على النقي ، بيانه أن التدابير الجارية في الكون مختلفة منها التدابير العرضية كالتدبيرين الجارين في البر و البحر و التدبيرين الجارين في الماء و النار ، و منها التدابير الطولية التي تنقسم إلى تدبير عام كلي حاكم و تدبير خاص جزئي محكوم كتدبير العالم الأرضي و تدبير النبات الذي فيه ، و كتدبير العالم السماوي و تدبير كوكب من الكواكب التي في السماء ، و كتدبير العالم المادي برمته و تدبير نوع من الأنواع المادية .

فبعض التدبير وهو التدبير العام الكلي معلو بعضا بمعنى أنه بحيث لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه لتقوّمه بما فوقه كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضي أو التدبير الذي يجري فيه بالعموم لم يكن عالم إنساني و لا التدبير الذي يجري فيه بالخصوص .

و لازم ذلك أن يكون الإله الذي يرجع إليه نوع عال من التدبير عاليا بالنسبة إلى الإله الذي فوّض إليه من التدبير ما هو دونه و أخص منه و أخس و استعلاء الإله على الإله محال .

لأن استعلاء المذكور يستلزم كون الإله مغلوبا لغيره أو ناقصا في قدرته محتاجا في تمامه إلى غيره أو محدودا و المحدودية تفضي إلى التركيب ، و كل ذلك من لوازم الإمكان المنافي لوجوب وجود الإله فيلزم الخلف - كما قرره المفسرون - فإن الوثنيين لا يرون آلهتهم من دون الله و جوب الوجود بل هي عندهم موجودات ممكنة عالية فوّض إليهم تدبير أمر ما دونها ، وهي مربوبة لله سبحانه و أرباب لما دونها

والله سبحانه ربّ الأرباب وإله الآلهة وهو الواجب الوجود بالذات وحده .

بل استحالة الاستعلاء إنّما هو لاستلزامه بطلان استقلال المستعلى عليه في تدبيره و تأثيره إذ لا يجمع توقّف التدبير على الغير و الحاجة إليه الاستقلال فيكون السافل منها مستمداً في تأثيره محتاجاً فيه إلى العالي فيكون سبباً من الأسباب التي يتوسّل بها إلى تدبير ما دونه لا إلهاً مستقلاً بالتأثير دونه فيكون ما فرض إلهاً غير إله بل سبباً يدبّر به الأمر هذا خلف .

هذا ما يعطيه التدبّر في الآية ، و للمفسّرين في تقرير حجة الآية مسالك مختلفة يبتني جميعها على استلزام تعدّد الآلهة أموراً تستلزم إمكانها و تنافي كونها واجبة الوجود فيلزم الخلف ، و القوم لا يقولون في شيء من آلهتهم من دون الله بوجوب الوجود ، و قد أفرط بعضهم فقرّر الآية بوجوه مؤلّفة من مقدّمات لا إشارة في الآية إلى جملها و لا إيهام ، و فرط آخرون فصرّحوا بأنّ الملازمة المذكورة في الآية عادية لا عقلية و الدليل إقناعي لا قطعي .

ثم لا يشتبهنّ عليك أمر قوله : «لذهب كلّ إله بما خلق» حيث نسب الخلقة إليها و قد تقدّم أنّهم قائلون بإله التدبير دون الإيجاد و ذلك لأنّ بعض الخلق من التدبير فإنّ خلق جرئ من الجزئيات ممّا يتمّ بوجوده النظام الكلّي من التدبير بالنسبة إلى النظام الجاري فالخلق بمعنى الفعل و التدبير مختلطان و قد نسب الخلق إلى أعمالنا كما في قوله : « و الله خلقكم و ما تعملون » الصافات : ٩٦ و قوله : « و جعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » الزخرف : ١٢ .

فالقوم يرون أنّ كلّاً من الآلهة خالق لما دونه أي فاعل له كما يفعل الواحد ممّا أفعاله ، و أمّا إعطاء الوجود للأشياء فممّا يختصّ بالله سبحانه وحده لا يرتاب فيه موحّد و لا وثنيّ إلاّ بعض من لم يفرّق بين الفعل والإيجاد من المتكلّمين .

و قد ختم الآية بالتنزيه بقوله : « سبحانه الله عما يصفون » .

قوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » صفة لاسم الجلالة في قوله : « سبحانه الله عما يصفون » و تأخير الدلالة على علمه بتنزيهه عن وصفهم

إِيَّاهُ بِالْشَّرْكَه - عَلَى مَا يَعْطِيهِ السِّيَاق - فَيَكُونُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : « قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » يُونُس : ١٨ .
و يَرْجِعُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَى الْاِحْتِجَاجِ عَلَى نَفْيِ الشَّرْكَاءِ بِشَهَادَتِهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ لِنَفْسِهِ شَرِيكَاً كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، آلْ عِمْرَان : ١٨ اِحْتِجَاجٌ بِالشَّهَادَةِ عَلَى نَفْيِ أَصْلِ الْوُجُودِ .

و قِيلَ : إِنَّهُ بَرَهَانٌ آخَرٌ رَاجِعٌ إِلَى إِثْبَاتِ الْعُلُوِّ أَوْ لُزُومِ الْجَهْلِ الَّذِي هُوَ نَقْصٌ وَضِدُّ الْعُلُوِّ لِأَنَّ الْمُتَعَدِّدِينَ لِاسْتِثْنَاءِ لَهَا إِلَى أَنْ يَعْلَمَ كُلُّ وَاحِدٍ حَقِيقَةَ الْآخَرِ كَعِلْمِ ذَلِكَ الْآخَرِ بِنَفْسِهِ بِالضَّرُورَةِ وَهُوَ نَوْعٌ جَهْلٌ وَقُصُورٌ . انْتَهَى .

و فِيهِ أَنَّ ذَلِكَ كَسَائِرُ مَا قَرَّرَهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ يَنْفِي تَعَدُّدَ الْإِلَهِ الْوَاجِبِ الْوُجُودَ بِالذَّاتِ ، وَالْوُثْنِيَّةِ لَا يَلْتَزِمُونَ فِي آلِهَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ بِذَلِكَ . عَلَى أَنَّ بَعْضَ مَقْدَمَاتِ مَا قَرَّرَ مِنَ الدَّلِيلِ مَمْنُوعٌ .

و قَوْلُهُ : « فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » تَفْرِيعٌ عَلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْحُجَجِ عَلَى نَفْيِ الشَّرْكَاءِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِينِي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » لَمَّا فَرَّغَ مِنْ نَقْلِ مَا تَقَوَّاهُ مِنْ الشَّرْكَ بِاللَّهِ وَانْكَارِ الْبَعْثِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالرَّسْلِ وَأَقَامَ الْحُجَجَ عَلَى إِثْبَاتِ حَقِيقَتِهَا رَجَعَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَهْدِيدِهِمْ بِالْعَذَابِ فَأَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَسْأَلَهُ أَنْ يَنْجِيَهُ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ بِهِ إِنْ أَرَاهُ ذَلِكَ الْعَذَابَ . فَقَوْلُهُ : « قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِينِي مَا يُوعَدُونَ » أَمْرٌ بِالِدَّعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ ، وَتَكَرَّرَ « رَبِّ » لِنَافِذِ التَّضَرُّعِ وَمَا فِي قَوْلِهِ : « إِمَّا تُرِينِي » زَائِدَةٌ وَهِيَ الْمَصْحُوحَةُ لِدُخُولِ نَوْنِ التَّنْكِيدِ عَلَى الشَّرْطِ وَأَصْلُهُ : إِنْ تُرِينِي . وَفِي قَوْلِهِ : « مَا يُوعَدُونَ » دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ بَعْضَ مَا تَقَدَّمَ فِي السُّورَةِ مِنَ الْإِعَادِ بِالْعَذَابِ إِيْعَادَ بَعْذَابِ دُنْيَوِيٍّ : وَمَا فِي قَوْلِهِ : « رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » مِنَ الْكُونِ فِيهِمْ كُنَايَةً عَنْ شَمُولِ عَذَابِهِمْ لَهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَ إِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعْدُهُمْ لِقَادِرُونَ » تَطْيِيبٌ لِنَفْسِ

النبي ﷺ بقدرته ربّه على أن يكشف عنه بأرأته ما يعدّهم من العذاب ، و لعلّ المراد به ما عذبّهم الله به يوم بدر و قد أراه الله ذلك و أراه المؤمنين و شفى به غليل صدورهم .

قوله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون » أي ادفع السيئة التي تتوجّه إليك منهم بالحسنة و اختر للدفع من الحسنات أحسنها ، وهو دفع السيئة بالحسنة التي هي أحسن مثل أنّه لو أسأوا إليك بالإيذاء أحسن إليهم بغاية ما استطعت من الإحسان ثمّ ببعض الإحسان في الجملة و لو لم يسمعك ذلك فبالصفح عنهم .

و قوله : « نحن أعلم بما يصفون » نوع تسلية للنبي ﷺ أن لا يسوءنه ما يلقاه و لا يحزنه ما يشاهد من تجرّ بهم على ربّهم فإنّه أعلم بما يصفون .

قوله تعالى : « و قل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين و أعوذ بك ربّ أن يحضرون » قال في مجمع البيان : الهمزة شدة الدفع ، و منه الهمزة للحرف الذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد و دفع ، و همزة الشيطان دفعه بالإغواء إلى المعاصي انتهى و في تفسير القميّ عنه ﷺ : أنّه ما يقع في قلبك من وسوسة الشياطين . و في الآيتين أمره ﷺ أن يستعيز بربّه من إغواء الشياطين و من أن يحضروه ، وفيه إيهام إلى أن ما ينلّي به المشركون من الشرك و التكذيب من همزات الشياطين و إحاطتهم بهم بالحضور .





حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا
فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)
فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا تَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)
أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧)
قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُونَ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا
فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيَا حَتَّىٰ
أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا
إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا
لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ الْيَنَّا لَا تَرْجِعُونَ (١١٥)
فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)
وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨).

﴿ بيان ﴾

الآيات تفصل القول في عذاب الآخرة التي أوعدهم الله بها في طي الآيات السابقة وهو من يوم الموت إلى يوم البعث ثم إلى الأبد ، و تذكر أن الحياة الدنيا التي غرّتهم و صرفتهم عن الآخرة قليلة لو كانوا يعلمون . ثم تختتم السورة بأمره ﷺ أن تسأله ما حكاه عن عباده المؤمنين الفائزين في الآخرة « رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » وقد افتتحت السورة بأنهم مفلحون وارثون للجنة .

قوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون » « حتى » متعلق بما تقدم من وصفهم له تعالى بما هو منزّه منه و شركهم به ، و الآيات المتخللة اعترض في الكلام أي لا يزالون يشرّكون به و يصفونه بما هو منزّه منه وهم مغترون بما نمدّهم به من مال و بنين حتى إذا جاء أحدهم الموت .

و قوله : « قال رب ارجعون » الظاهر أن الخطاب للملائكة المتصدّين لقبض روحه و « رب » استغاثة معترضة بحذف حرف النداء و المعنى قال - وهو يستغيث بربه - ارجعون .

و قيل : إن الخطاب للرب تعالى و الجمع للتعظيم كقول امرأة فرعون له على ما حكاها الله : « قرّة عين لي ولك لا تقتلوه » .

و قيل : هو من جمع الفعل ويفيد تعدّد الخطاب و المعنى رب ارجعني ارجعني ارجعني كما قيل في قوله :

قفانبك من ذكرى حبيب و منزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
أي قف قف نبك .

و في الوجهين أن الجمع للتعظيم إن صحّ ثبوته في اللغة العربية فهو شاذ لا يحمل عليه كلامه تعالى ، و أشدّ منه جمع الفعل بالمعنى الذي ذكر .

قوله تعالى : « لعليّ أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ، « لعلي » للترجّي وهو رجاء تعلّقوا به بمعاينة العذاب المشرف عليهم كما ربّماذكروا

الرجوع بوعد العمل الصالح كقولهم : «فارجعنا نعمل صالحا» السجدة : ١٢ وربما ذكره بلفظ التمني كقولهم : «يا ليتنا نرد» ولانكذب بآيات ربنا» الأنعام : ٢٧ .
و قوله : «أعمل صالحا فيما تركت» أي أعمل عملا صالحا فيما تركت من المال بائناقه في البر» والإحسان وكل ما فيه رضى الله سبحانه .

وقيل : المراد بما تركت الدنيا التي تركها بالموت والعمل الصالح أعم من العبادات المالية وغيرها من صلاة وصوم وحج ونحوها ، وهو حسن غير أن الأول هو الأظهر .

و قوله : «كلا إنها كلمة هو قائلها» أي لا يرجع إلى الدنيا إن هذه الكلمة «ارجعوني لعلي أعمل صالحا فيما تركت» كلمة هو قائلها أي لا أثر لها إلا أنها كلمة هو قائلها ، فهو كناية عن عدم إجابة مسأله .

قوله تعالى : «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» البرزخ هو الحاجز بين الشيئين كما في قوله : «بينهما برزخ لا يبغيان» الرحمن : ٢٠ والمراد بكونه وراءهم كونه أمامهم محيطا بهم وسمي وراءهم بعناية أنه يطلبهم كما أن مستقبل الزمان أمام الإنسان ويقال : وراءك يوم كذا بعناية أن الزمان يطلب الإنسان ليمر عليه وهذا معنى قول بعضهم : إن «وراء» معنى الإحاطة قال تعالى : «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا» الكهف : ٧٩ .

و المراد بهذا البرزخ عالم القبر وهو عالم المثال الذي يعيش فيه الإنسان بعد موته إلى قيام الساعة على ما يعطيه السياق وتدل عليه آيات أخر وتكاثرت فيه الروايات من طرق الشيعة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت  وكذا من طرق أهل السنة ، وقد تقدم البحث عنه في الجزء الأول من الكتاب .

وقيل : المراد بالآية أن بينهم وبين الدنيا حاجزا يمنعهم من الرجوع إليها إلى يوم القيامة ومعلوم أن لارجوع بعد القيامة ففيه تأكيد لعدم رجوعهم وإيأس لهم من الرجوع إليها من أصله .

وفيه أن ظاهر السياق الدلالة على استقرار الحاجز بين الدنيا وبين يوم

يبعثون لا بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ، و لو كان المراد أن الموت حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا لغى التقييد بقوله : « إلى يوم يبعثون » لالدلالته من طريق المفهوم على رجوعهم بعد البعث إلى الدنيا ولا رجوع بعد البعث بل للغوية أصل التقييد وإن فرض أنهم كانوا يعلمون من الخارج أو من آيات سابقة أن لا رجوع بعد القيامة .

على أن قولهم : إنه تأكيد لعدم الرجوع بإسهم من الرجوع مطلقا مع قولهم بأن عدم الرجوع بعد القيامة معلوم من خارج كلمتها فتين بل يرجع المعنى إلى تأكيد نفي الرجوع مطلقا المفهوم من « كلاً » بنفي الرجوع الموقّت المحدود بقوله : « إلى يوم يبعثون » فافهمه .

قوله تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون » المراد به النفخة الثانية التي تحيا فيها الأموات دون النفخة الأولى التي تموت فيها الأحياء كما قاله بعضهم لكون ما يترتب عليها من انتفاء الأنساب والتساؤل و ثقل الميزان وخفته إلى غير ذلك من آثار النفخة الثانية .

و قوله : « فلا أنساب بينهم » نفي لآثار الأنساب بنفي أصلها فإن الذي يستوجب حفظ الأنساب و اعتبارها هي الحوائج الدنيوية التي تدعو الإنسان إلى الحياة الاجتماعية التي تبني على تكون البيت ، والمجتمع المنزلي يستعقب التعارف والتعاطف وأقسام التعاون والتعاقد وسائر الأسباب التي تدوم بها العيشة الدنيوية و يوم القيامة ظرف جزاء الأعمال و سقوط الأسباب التي منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيوية التي منها الأنساب بل وازمها و خواصها و آثارها .

و قوله : « ولا يتساءلون » ذكر لأظهر آثار الأنساب ، و هو التساؤل بين المنتسبين بسؤال بعضهم عن حال بعض للإعانة والاستعانة في الحوائج لجلب المنافع و دفع المضار .

ولا ينافي الآية ما وقع في مواضع أخر من قوله تعالى : « و أقبل بعضهم على بعض يتساءلون » الصافات : ٥٠ و ٢٧ فإنه حكاية تساؤل أهل الجنة بعد

دخولها وتسائل أهل النار بعد دخولها وهذه الآية تنفي التساؤل في ظرف الحساب والقضاء .

قوله تعالى : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » إلى آخر الآيتين .
الموازين جمع الميزان أو جمع الموزون وهو العمل الذي يوزن يومئذ ، وقد تقدم الكلام في معنى الميزان وثقله وخفته في تفسير سورة الأعراف .

قوله تعالى : « تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » قال في المجمع : التلفح و النفح بمعنى إلا أن التلفح أشد تأثيراً و أعظم من النفح ، و هو ضرب من السموم للوجه ، و النفح ضرب الريح الوجه ، والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان . انتهى .

و المعنى يصيب وجوههم لهب النار حتى تقلص شفاههم و تنكشف عن أسنانهم كالرؤس المشوية .

قوله تعالى : « ألم تكن آياتي تتلى عليكم » الخ أي يقال لهم : ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون .

قوله تعالى : « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنّا قوما ضالّين » الشقوة و الشقاوة و الشقاء خلاف السعادة ، وسعادة الشيء ما يختص به من الخير ، و شقاوته فقد ذلك و إن شئت فقل : ما يختص به من الشر .

و قوله : « غلبت علينا شقوتنا » أي قهرنا و استولت علينا شقوتنا ، و في إضافة الشقوة إلى أنفسهم تلويح إلى أن لهم صنعا في شقوتهم من جهة اكتسابهم ذلك بسوء اختيارهم ، و الدليل عليه قولهم بعد : « ربنا أخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون » إذ هو وعد منهم بالحسنات و لو لم يكن لها ارتباط باكتسابهم الاختياري لم يكن للوعد معنى لكون حالهم بعد الخروج مساوية لما قبل الخروج .

و قد عدوا أنفسهم مغلوطة للشقوة فقد أخذوها ساذجة في ذواتها صالحة للحقوق السعادة و الشقاوة غير أن الشقوة غلبت فأشغلت المحل و كانت الشقوة شقوة أنفسهم أي شقوة لازمة لسوء اختيارهم وسيئات أعمالهم لأنهم فرضوا أنفسهم خالية عن السعادة

و الشقوة لذاتها فانتساب الشقوة إلى أنفسهم و ارتباطها بها إنما هي من جهة سوء اختيارهم و سيئات أعمالهم .

و بالجملة هو اعتراف منهم بتمام الحجة ولحوق الشقوة على ما يشهده وقوع الآية بعد قوله : « ألم تكن آياتي تنلى عليكم » الخ .

ثم عقبوا قولهم : « غلبت علينا شقوتنا » بقولهم : « و كنّا قوما ضالّين » تأكيذاً لاعترافهم ، و إنّما اعترفوا بالذنب ليتوسّلوا به إلى التخلص من العذاب والرجوع إلى الدنيا لكسب السعادة فقد شاهدوا في الدنيا أنّ اعتراف العاصي المتمرّد بذنبه و ظلمه توبة منه مطهّرة له تنجيه من تبعّة الذنب و هم يعلمون أنّ اليوم يوم جزاء لا يوم عمل و التوبة والاعتراف بالذنب من الأعمال لكنّ ذلك من قبيل ظهور الملكات كما أنّهم يكدّبون يومئذ وينكرون أشياء مع ظهور الحقّ و معانيته لاستقرار ملكة الكذب و الإنكار في نفوسهم قال تعالى : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم » المجادلة : ١٨ . و قال : « ثمّ قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلّوا عنّا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً » المؤمن : ٧٣ .

قوله تعالى : « ربّنا أخرجنّا منها فإنّ عدنا فإنا ظالمون » سؤال منهم للرجوع إلى الدنيا على ما تدلّ عليه آيات أخر فهو من قبيل طلب المسبّب بطلب سببه ، و مرادهم أن يعملوا صالحاً بعد ما تابوا بالاعتراف المذكور فيكونوا بذلك ممّن تاب و عمل صالحاً .

قوله تعالى : « قال اخسّوا فيها و لا تكلمون » قال الراغب : خسأت الكلب فخساً أي زجرته مستهيناً به فانزجر وذلك إذا قلت له : اخساً انتهى ففي الكلام استعارة بالكناية ، و المراد زجرهم بالتباعد و قطع الكلام .

قوله تعالى : « إنّّه كان فريق من عبّادي يقولون ربّنا آمنا فاعفر لنا و ارحمنا و أنت خير الراحمين » هؤلاء هم المؤمنون في الدنيا و كان إيمانهم توبة و رجوعاً إلى الله كما سمّاه الله في كلامه توبة ، و كان سؤالهم شمول الرحمة - و هي الرحمة الخاصّة بالمؤمنين البتّة - سؤالاً منهم أن يوفّقهم للسعادة فيعملوا صالحاً فيدخلوا

الجنة ، و قد توسلوا إليه باسمه خير الراحمين .

فكان ما قاله المؤمنون في الدنيا معناه التوبة و سؤال الفوز بالسعادة و ذلك عين ما قاله هؤلاء مما معناه التوبة و سؤال الفوز بالسعادة و إنما الفرق بينهما من حيث الموقف .

قوله تعالى : « فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري و كنتم منهم تضحكون » ضائر الخطاب للكفار و ضائر الغيبة للمؤمنين ، و السياق يشهد أن المراد من « ذكري » قول المؤمنين : « ربنا آمناً فاغفر لنا و ارحمنا » الخ و هو معنى قول الكفار في النار .

و قوله : « حتى أنسوكم ذكري » أي أنسى اشتغالكم بسخريّة المؤمنين و الضحك منهم ذكري ، ففي نسبة الإساءة إلى المؤمنين دون سخريتهم إشارة إلى أنه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشؤون إلا أن يتخذوهم سخرياً .

قوله تعالى : « إنني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون » المراد باليوم يوم الجزاء ، و متعلق الصبر معلوم من السياق محذوف للإيجاز أي صبروا على ذكري مع سخريتهم منهم لأجله ، و قوله : « أنهم هم الفائزون » مسوق للحصر أي هم الفائزون دونكم .

و هذه الآيات الأربع « قال اخسؤا - إلى قوله - هم الفائزون » إياهم قطعي للكفار عن الفوز بسبب ما تعلقوا به من الاعتراف بالذنب و سؤال الرجوع إلى الدنيا و محصلها أن اقنطوا مما تطلبونه بهذا القول و هو الاعتراف و السؤال فإنه عمل إنما كان ينتفع في دار العمل و هي الدنيا ، و قد كان المؤمنون من عبادي يتخذونه وسيلة إلى الفوز و كنتم تسخرون و تضحكون منهم حتى تركتموه و بدلتهم من سخريتهم حتى إذا كان اليوم و هو يوم جزاء لا يوم عمل فازوا بجزاء ما عملوا يوم العمل و بقيتم صفر الأكمف تريدون أن تتوسلوا بالعمل اليوم و هو يوم الجزاء دون العمل .

قوله تعالى : « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين » مما يسأل الله الناس عنه

يوم القيامة مدّة لبثهم في الأرض وقد ذكر في مواضع من كلامه و المراد به السؤال عن مدّة لبثهم في القبور كما يدلّ عليه قوله تعالى : « و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » الروم : ٥٥ و قوله : « كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار » الأحقاف : ٣٥ و غيرهما من الآيات ، فلا محلّ لقول بعضهم : إنّ المراد به المكث في الدنيا ، واحتمال بعضهم أنّه مجموع اللبث في الدنيا و البرزخ .

قوله تعالى : « قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادّين » ظاهر السياق أنّ المراد باليوم هو الواحد من أيّام الدنيا وقد استقلّوا اللبث في الأرض حينما قايسوه بالبقاء الأبديّ الذي يلوح لهم يوم القيامة و يعاينونه .
و يؤيّد ما وقع في موضع آخر من تقديرهم ذلك بالساعة ، و في موضع آخر بعشيّة أوضاها .

و قوله : « فاسأل العادّين » أي نحن لانحسن إحصاءها فاسأل الذين يعدّونه و فسر بالملائكة العادّين للأيّام و ليس ببعيد .

قوله تعالى : « قال إن لبثتم إلّا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون » القائل هو الله سبحانه ، و في الكلام تصديق لهم في استقلالهم المكث في القبور و فيه توطئة لما يلحق به من قوله : « لو أنكم كنتم تعلمون » بما فيه من التمني .

و المعنى قال الله : الأمر كما قلتم فما مكثتم إلّا قليلا فليتكم كنتم تعلمون في الدنيا أنكم لا تلبثون في قبوركم إلّا قليلا ثمّ تبعثون حتّى لا تنكروا البعث ولم تبطلوا بهذا العذاب الخالد ، و التمني في كلامه تعالى كالترجّي راجع إلى المخاطب أو المقام .

و جعل بعضهم « لو » في الآية شرطية و الجملة شرطا محذوف الجزاء و تكلف في تصحيح الكلام بما لا يرتضيه الذوق السليم و هو بعيد عن السياق كما هو ظاهر و أبعد منه جعل « لو » وصليّة مع أن « لو » الوصليّة لا تجيء بغير واو العطف .

قوله تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا - إلى قوله - ربّ العرش

الكريم - بعد ما بين ما سيستقبلهم من أحوال الموت ثم اللبث في البرزخ ثم البعث بما فيه من الحساب و الجزاء و يتخهم على حسابانهم أنهم لا يبعثون فإن فيه جرأة على الله بنسبة العبث إليه ثم أشار إلى برهان البعث .

فقوله : « أفحسبتم » الخ معناه فإذا كان الأمر على ما أخبرناكم من تحسّر كم عند معاناة الموت ثم اللبث في القبور ثم البعث فالحساب و الجزاء فهل تظنون أننا خلقناكم عبثاً تحيون و تموتون من غير غاية باقية في خلقكم و أنكم إلينا لا ترجعون ؟

و قوله : « فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم » إشارة إلى برهان يثبت البعث و يدفع قولهم بالنفي ، في صورة التنزيه ؛ فإنّه تعالى وصف نفسه في كلمة التنزيه بالأوصاف الأربعة : أنه ملك و أنه حقّ و أنه لا إله إلا هو و أنه ربّ العرش الكريم .

فله أن يحكم بما شاء من بدء وعود و حياة و موت و رزق نافذا حكمه ماضيا أمره ملوكه ، و ما يصدر عنه من حكم فإنّه لا يكون إلّا حقاً فإنّه حقّ و لا يصدر عن الحقّ بما هو حقّ إلّا حقّ دون أن يكون عبثاً باطلاً ثم لما أمكن أن يتصور أن معه مصدر حكم آخر يحكم بما يبطل به حكمه وصفه بأنّه لا إله - أي لا معبود - إلا هو ، و الإله معبود لرؤسائه فإذ لا إله غيره فهو ربّ العرش الكريم - عرش العالم - الذي هو مجتمع أئمة الأمور و منه يصدر الأحكام و الأوامر الجارية فيه . فتلخص أنه هو الذي يصدر عنه كلّ حكم و يوجد منه كلّ شيء و لا يحكم إلّا بحقّ و لا يفعل إلّا حقاً فلا أشياء رجوع إليه و بقاء به و إلّا لكانت عبثاً باطلة و لا عبث في الخلق ولا باطل في الصنع .

و الدليل على اتصافه بالأوصاف الأربعة كونه تعالى هو الله الموجود لذاته الموجود لغيره .

قوله تعالى : « و من يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربّه إنّّه لا يفلح الكافرون » المراد من دعاء إله آخر مع الله دعاءه مع وجوده تعالى

لا دعاؤه تعالى ودعاء إله آخر معا فإن المشركين جلمهم أو كلهم لا يدعون الله تعالى وإنما يدعون ما أثبتوه من الشركاء ، ويمكن أن يكون المراد بالدعاء الإثبات فإن إثبات إله آخر لا ينفك عن دعائه .

و قوله : « لا برهان له به » قيد توضيحي " لا إله آخر إذ لا إله آخر يكون به برهان بل البرهان قائم على نفي الإله الآخر مطلقا .

و قوله : « فإنما حسابه عند ربه » كلمة تهديد وفيه قصر حسابه بكونه عند ربه لا يداخله أحد فيما اقتضاه حسابه من جزاء - وهو النار كما صرح به الآيات السابقة - فإنه يصيبه لا محالة ، و مرجعه إلى نفي الشفعاء والإياس من أسباب النجاة و تممه بقوله : « إنه لا يفلح الكافرون » .

قوله تعالى : « و قل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » خاتمة السورة و قد أمر فيها النبي ﷺ أن يقول ما حكاه عن عباده المؤمنين أنهم يقولونه في الدنيا و أن جزاء ذلك هو الفوز يوم القيامة : « إنه كان فريق من عبادي يقولون « الخ الآياتان ١٠٩ و ١١١ من السورة .

ر بذلك يختم الكلام بما افتتح به في أول السورة : « قد أفلح المؤمنون » وقد تقدم الكلام في معنى الآية .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام : من منع قيراطا من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم ، و هو قوله تعالى : « رب ارجعون لعلمي أعمل صالحا فيما تركت » .

أقول : و روي هذا المعنى بطرق أخرى غيرها عنه عليه السلام و عن النبي ﷺ و المراد به انطباق الآية على مانع الزكاة لا نزولها فيه .

و في تفسير القمي : قوله عز و جل : « ومن درائهم برزخ إلى يوم يبعثون » قال : البرزخ هو أمر بين أمرين و هو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة ، وهو

قول الصادق عليه السلام : و الله ما أخاف عليكم إلا البرزخ وأما إذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم .

أقول : و روى الذيل في الكافي بإسناده عن عمر بن يزيد عنه عليه السلام .
و فيه قال علي بن الحسين عليه السلام : إن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفرة النار .

و في الكافي بإسناده عن أبي ولاد الحنّاط عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : جعلت فداك يروون أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش . فقال : لا . المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير لكن في أبدان كأبدانهم .
و فيه بإسناده عن أبي بصير قال أبو عبد الله عليه السلام : إن أرواح المؤمنين لفي شجرة من الجنة يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها و يقولون : ربنا أقم الساعة لنا ، و أنجز لنا ما وعدتنا ، و ألحق آخرنا بأولنا .

و فيه بإسناده أيضا عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تتعارف و تتسأل فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول : دعوها فإنها قد أقبلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان ؟ و ما فعل فلان ؟ فإن قالت لهم : تركته حيا ارتجوه ، و إن قالت لهم : قدهلك ، قالوا : قد هوى قد هوى .

أقول : أخبار البرزخ و تفاصيل ما يجري على المؤمنين و غيرهم فيه كثيرة متواترة ، و قد مرّ شطر منها في أبحاث متفرقة مما تقدم .

في مجمع البيان و قال النبي ﷺ : كل حسب و نسب منقطع يوم القيامة إلا حسبي و نسبي .

أقول : كأن الرواية من طريق الجماعة ، و قد رواها في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن المسوّر بن مخزّمة عن النبي ﷺ و لفظها : أن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي و سببي وصهري ، و عن عدة منهم عن عمر بن الخطاب عنه ﷺ و لفظها : كل سبب و نسب منقطع يوم القيامة إلا سببي و نسبي

و عن ابن عساكر عن ابن عمر عنه رضي الله عنه ولفظها : كل نسب و صهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي و صهري .

و في المناقب في حديث طاوس عن زين العابدين عليه السلام : خلق الله الجنة لمن أطاع و أحسن و لو كان عبدا حبشيا ، و خلق النار لمن عصاه و لو كان ولدا قرشيا أما سمعت قول الله تعالى : « فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون ، و الله لا ينفك غدا إلا تقدمة تقدّمها من عمل صالح .

أقول : سياق الآية كالأبي عن التخصيص و لعل من آثار نسبه رضي الله عنه أن يوفق ذريته من صالح العمل بما ينفع به يوم القيامة .

و في تفسير القميّ و قوله عزّ وجلّ : « تلمح وجوههم النار » قال : تلمح عليهم فتحرّقهم « وهم فيها كالبحون » أي مفتوحى القم متربدي الوجوه .

و في التوحيد بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « ربنا غلبت علينا شقوتنا » قال : بأعمالهم شقوا .

و في العلل بإسناده عن مسعدة بن زياد قال : قال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام : يا باعبد الله إننا خلقنا للعجب . قال : و ما ذلك لله أنت ؟ قال : خلقنا للفناء . قال : مه يا ابن أخ خلقنا للبقاء و كيف تغنى جنة لا تبديد و نار لا تخمد ؟ ولكن إنمّا نتحوّل من دار إلى دار .

و في تفسير القميّ قوله تعالى : « قال كم لبثتم - إلى قوله - فاسأل العادّين » قال : سل الملائكة الذين يعدّون علينا الأيّام ، و يكتبون ساعاتنا و أعمالنا التي اكتسبنا فيها .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن أيّفع بن عبد الكلاعيّ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار قال لأهل الجنة : كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم . قال : لنعم ما اتّجرتّم في يوم أو بعض يوم رحمتي و رضواني و جنتي اسكنوا فيها خالدين مخلّدين .

ثمّ يقول : يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم فيقول : بئس ما اتّجرتم في يوم أو بعض يوم ناري و سخطي امكثوا فيها خالدين .

أقول : و في انطباق معنى الحديث على الآية بمالها من السياق وبما يشهد به الآيات النظائر خفاء ، و قد تقدّم البحث عن مدلول الآية مستمداً من الشواهد .



سورة النور مدنية وهي أربع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَاهَا فِيهَا
 آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
 مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
 مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)
 وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ
 جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَاولئك هم الفاسقون (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا
 مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ
 يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ
 الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَ يَدْرُؤُا
 عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ
 غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ
 وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) .

﴿ بيان ﴾

فرض السورة ما ينبيء عنه مفتتحها « سورة أنزلناها و فرضناها و أنزلنا فيها آيات بيّنات لعلكم تذكرون » فهي تذكر نبذة من الأحكام المفروضة المشرّعة ثم جملة من المعارف الإلهية تناسبها و يتذكّر بها المؤمنون .
و هي سورة مدنيّة بلاخلاف وسياق آياتها يشهد بذلك و من غرر الآيات فيها آية النور .

قوله تعالى : « سورة أنزلناها و فرضناها و أنزلنا فيها آيات بيّنات لعلكم تذكرون » السورة طائفة من الكلام يجمعها غرض واحد سقت لأجله و لذا اعتبرت تارة نفس الآيات بمالها من المعاني فقيل : « فرضناها » ، و تارة ظرفا لبعض الآيات ظرفيّة المجموع للبعض فقيل : « أنزلنا فيها آيات بيّنات » وهي ممّا وضعه القرآن و سمى به طائفة خاصّة من آياته و تكرر استعمالها في كلامه تعالى ، و كأنّه مأخوذ من سور البلد و هو الحائط الذي يحيط به سميت به سورة القرآن لاحتطائها بما فيها من الآيات أو بالفرض الذي سقت له .

و قال الراغب : الفرض قطع الشيء الصلب و التأثير فيه كفرض الحديد و فرض الزند والقوس . قال : والفرض كالأيجاب لكنّ الإيجاب يقال اعتبارا بوقوعه و ثباته ، و الفرض بقطع الحكم فيه قال تعالى : « سورة أنزلناها و فرضناها » أي أوجبنا العمل بها عليك . قال : و كلّ موضع ورد « فرض الله عليه » فقي الإيجاب الذي أدخله الله فيه ، و ماورد « فرض الله له » فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » . انتهى .

فقوله : « سورة أنزلناها و فرضناها » أي هذه سورة أنزلناها و أوجبنا العمل بها فيها من الأحكام فالعمل بالحكم الإيجابي هو الاتيان به و بالحكم التحريمي الانتهاء عنه .

و قوله : « و أنزلنا فيها آيات بيّنات لعلكم تذكرون » المراد بها - بشهادة

السباق - آية النور وما يتلوها من الآيات المبيّنة لتحقيق الإيمان والكفر والتوحيد والشرك المذكّرة لهذه المعارف الإلهية .

قوله تعالى : « الزانية و الزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » الآية الزنا المواقعة من غير عقد أو شبهة عقد أو ملك يمين ، و الجلد هو الضرب بالسوط و الرأفة التحشّن و التعطف و قيل : هي رحمة في توجّع ، و الطائفة في الأصل هي الجماعة كانوا يطوفون بالارتحال من مكان إلى مكان قيل : و ربّما تطلق على الاثنين و على الواحد .

و قوله : « الزانية و الزاني » الخ أي المرأة و الرجل اللذان تحقّق منهما الزنا فاضربوا كل واحد منهما مائة سوط ، و هو حدّ الزنا بنصّ الآية غير أنّها مخصّصة بصور : منها أن يكونا محصنين ذوي زوج أو يكون أحدهما محصنا فالرجم و منها أن يكونا غير حرّين أو أحدهما رقّا فنصف الحدّ .

قيل : و قدّمت الزانية في الذكر على الزاني لأنّ الزنا منهنّ أشنع ولكون الشهوة فيهنّ أقوى و أكثر ، و الخطاب في الأمر بالجلد متوجّه إلى عامّة المسلمين فيقوم بمن قام بأمرهم من ذوي الولاية من النبيّ و الإمام و من ينوب منابه .

و قوله : « و لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » الخ النهي عن الرأفة من قبيل النهي عن المسبّب بالنهي عن سببه إذ الرأفة بمن يستحقّ نوعا من العذاب توجب التساهل في إذاقته ما يستحقّه من العذاب بالتخفيف فيه و ربّما أدّى إلى تركه ، و لذا قيّده بقوله : « في دين الله » أي حالكون الرأفة أي المساهلة من جهتها في دين الله و شريعته .

و قيل : المراد بدين الله حكم الله كما في قوله تعالى : « ما كان لياخذ أخاه في دين الملك » يوسف : ٧٦ أي في حكمه أي لا تأخذكم بهما رأفة في إنفاذ حكم الله وإقامة حدّه .

و قوله : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » أي إن كنتم كذا و كذا فلا تأخذكم بهما رأفة ولا تساهلوا في أمرهما و فيه تأكيد للنهي .

و قوله : « و ليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » أي و ليحضر و لينظر إلى ذلك جماعة منهم ليعتبروا بذلك فلا يقتربوا الفاحشة .

قوله تعالى : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة و الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك و حرّم ذلك على المؤمنين » ظاهر الآية و خاصة بالنظر إلى سياق ذيلها المرتبط بصدرها أن الذي تشمل عليه حكم تشريعي تحريمي و إن كان صدرها واردا في صورة الخبر فإن المراد النهي تأكيداً للطلب و هو شائع .

و المحصل من معناها بتفسير من السنة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الزاني إذا اشتهر منه الزنا و أقيم عليه الحد و لم تتبين منه التوبة يحرم عليه نكاح غير الزانية و المشركة ، و الزانية إذا اشتهر منها الزنا و أقيم عليها الحد و لم تتبين منها التوبة يحرم أن ينكحها إلا زان أو مشرك .

فالأية محكمة باقية على إحكامها من غير نسخ و لا تأويل ، و تقييدها باقامة الحد و تبين التوبة بما يمكن أن يستفاد من السياق فإن وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر باقامة الحد يلوّح إلى أن المراد به الزاني و الزانية المجلودان ، و كذا إطلاق الزاني و الزانية على من ابتلي بذلك ثم تاب توبة نصوحا و تبين منه ذلك ، بعيد من دأب القرآن و أدبه .

و للمفسرين في معنى الآية تشاجرات طويلة و أقوال شتى :

منها أن الكلام مسوق للإخبار عما من شأن مرتكبي هذه الفاحشة أن يقصدوه و ذلك أن من خبثت فطرته لا يميل إلا إلى من يشابهه في الخبائث و يجانسه في الفساد و الزاني لا يميل إلا إلى الزانية المشاركة لها في الفحشاء و من هو أفسد منها وهي المشركة ، و الزانية كذلك لا تميل إلا إلى مثلها و هو الزاني و من هو أفسد منه و هو المشرك فالحكم وارد مورد الأعم الأغلب كما قيل في قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين و الخبيثون للخبيثات » الآية ٢٦ من السورة .

و منها أن المراد بالآية التقبيح والمعنى أن اللائق بحال الزاني أن لا ينكح إلا زانية أو من هي دونها و هي المشركة و اللائق بحال الزانية أن لا ينكحها إلا زان

أو من هو دونه وهو المشرك ، و المراد بالنكاح العقد ، و قوله : « وحرّم ذلك على المؤمنين » معطوف على أوّل الآية ، و المراد و حرّم الزنا على المؤمنين .
 و فيه و في سابقه مخالفتها لسباق الآية و خاصّة اتصال ذيلها بصدرها كما تقدّمت الإشارة إليه .
 و منها أن الآية منسوخة بقوله تعالى : « وأنكحوا الأيتام منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » .

و فيه أن النسبة بين الآيتين نسبة العموم و الخصوص و العامّ الوارد بعد الخاص لا ينسخه خلافاً لمن قال به نعم ربّما أمكن أن يستفاد النسخ من قوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتّى يؤمن » و لأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم و لا تنكحوا المشركين حتّى يؤمنوا و لعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أوّلئك يدعون إلى النار و الله يدعو إلى الجنّة و المغفرة بإذنه ، البقرة : ٢٢١ بدعوى أن الآية و إن كانت من العموم بعد الخصوص لكن لسانها آب عن التخصيص فتكون ناسخة بالنسبة إلى جواز النكاح بين المشرك و المشركة ، وقد ادّعى بعضهم أن نكاح الكافر للمسلمة كان جائزاً إلى سنة ست من الهجرة ثمّ نزل التحريم فلعلّ الآية التي نحن فيها نزلت قبل ذلك ، و نزلت آية التحريم بعدها و في الآية أقوال أخر تركنا إيرادها لظهور فسادها .

قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » الخ الرمي معروف ثمّ استعير لنسبة أمر غير مرضي إلى الإنسان كالزنا والسرقة وهو القذف ، و السياق يشهد أن المراد به نسبة الزنا إلى المرأة المحصنة العفيفة ، و المراد بالإتيان بأربعة شهداء و هم شهود الزنا إقامة الشهادة لإثبات ما قذف به ، و قد أمر الله تعالى بإقامة الحدّ عليهم إن لم يقيموا الشهادة و حكم بفسقهم و عدم قبول شهادتهم أبداً .

والمعنى والذين يقدّفون المحصنات من النساء بالزنا ثمّ لم يقيموا أربعة من الشهود على صدقهم في قذفهم فاجلدوهم ثمانين جلدة على قذفهم و هم فاسقون لا تقبلوا

شهادتهم على شيء أبدا .

والآية كما ترى مطلقة تشمل من القاذف الذكر والأنثى والحر والعبد ،
وبذلك تفسرها روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام .

قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة وهي قوله : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » لكنها لما كانت تفيد معنى التعليل بالنسبة إلى قوله : « وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا » . على ما يعطيه السياق - كان لازم ما تفيد من ارتفاع الحكم بالفسق ارتفاع الحكم بعدم قبول الشهادة أبدا ، ولازم ذلك رجوع الاستثناء بحسب المعنى إلى الجملتين معا . والمعنى إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا أَعْمَالُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر ذنبهم ويرحمهم فيرتفع عنهم الحكم بالفسق والحكم بعدم قبول شهادتهم أبدا . وذكر بعضهم أن الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة فحسب فلو تاب القاذف وأصلح بعد إقامة الحد عليه غفر له ذنبه لكن لا تقبل شهادته أبدا خلافا لمن قال برجوع الاستثناء إلى الجملتين معا .

والظاهر أن خلافهم هذا مبني على المسألة الأصولية المعنوية بأن الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعددة هل يتعلق بالجميع أو بالجملة الأخيرة والحق في المسألة أن الاستثناء في نفسه صالح للأمرين جميعا وتعين أحدهما منوط بما تقتضيه قرائن الكلام ، والذي يعطيه السياق في الآية التي نحن فيها تعلق الاستثناء بالجملة الأخيرة غير أن إفادتها للتعليل تستلزم تقييد الجملة السابقة أيضا بمعناه كالأخيرة على ما تقدم .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - مِنَ الْكَاذِبِينَ » أي لم يكن لهم شهداء يشهدون ما شهدوا فيتحملوا الشهادة ثم يؤدوها إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ، وقوله : « فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ » أي شهادة أحدهم يعني القاذف وهو واحد أربع شهادات متعلقة بالله إنه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف .

و معنى الآيتين : والذين يقذفون أزواجهم ولم يكن لهم أربعة من الشهداء يشهدون ما شهدوا - ومن طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضرهم على الواقعة فيشهدوهم عليها فالفرض بتقرّقهما - فالشهادة التي يجب على أحدهم أن يقيمها هي أن يشهد أربع شهادات أي يقول مرة بعد مرة : « أشهد الله على صدقي فيما أقذفها به » أربع مرّات وخامستها أن يشهد ويقول : لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين .

قوله تعالى : « ويدرونها العذاب أن تشهد » إلى آخر الآيتين الدرء الدفع والمراد بالعذاب حدّ الزنا ، والمعنى أن المرأة إن شهدت خمس شهادات باّزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حدّ الزنا ، وشهاداتها أن تشهد أربع مرّات تقول فيها : أشهد بالله إنّه لمن الكاذبين ثم تشهد خامسة فتقول : لعنة الله عليّ إن كان من الصادقين ، وهذا هو اللعان الذي يفصل به الزوجان .

قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب رحيم » جواب لولا محذوف يدلّ عليه ما أخذ في شرطه من القيود إذ معناه لولا فضل الله ورحمته وتوبته وحكمته لحلّ بكم ما دفعته عنكم هذه الصفات والأفعال فالتقدير على ما يعطيه ما في الشرط من القيود لولا ما أنعم الله عليكم من نعمة الدين وتوبته لمذنبكم وتشريعه الشرائع لنظم أمور حياتكم لزمّنتكم الشقوة ، وأهلكتكم المعصية والخطيئة ، واختلّ نظام حياتكم بالجهالة . والله أعلم .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : وسورة النور أنزلت بعد سورة النساء ، و تصديق ذلك أن الله عز وجل أنزل عليه في سورة النساء « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن » أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهنّ في البيوت حتّى يتوفاهنّ الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلا ، والسبيل الذي قال الله عز وجل « سورة أنزلناها وفرضاها وأنزلنا فيها آيات

بينات لعلكم تذكرون الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم آمنتم بالله واليوم الآخر و ليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين .

و في تفسير القميّ و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « وليشهد عذابهما » يقول : ضربهما « طائفة من المؤمنين » يجمع لهما الناس إذا جلدوا . وفي التهذيب بإسناده عن غياث بن إبراهيم عن جعفر عن أبيه عن أمير المؤمنين عليهم السلام في قول الله عزّ وجلّ : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » قال : في إقامة الحدود ، وفي قوله تعالى : « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » قال : الطائفة واحد .

و في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : وأنزل بالمدينة « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك و حرّم ذلك على المؤمنين » فلم يسمّ الله الزاني مؤمناً ولا الزانية مؤمنة ، و قال رسول الله ﷺ ليس يمتري فيه أهل العلم أنّه قل لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق و هو مؤمن فإنّه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص .

و فيه بإسناده عن زرارة قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة » قال : هن نساء مشهورات و رجال مشهورون بالزنا شهروا به و عرفوا به ، والناس اليوم بذلك المنزل فمن أقيم عليه حدّ الزنا أو متهم بالزنا لم ينبغ لأحد أن يناكحه حتّى يعرف منه التوبة .

اقول : و رواه أيضاً بإسناده عن أبي الصباح عنه عليه السلام مثله ، و بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام و لفظه : هم رجال و نساء كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مشهورين بالزنا فنهى الله عن أولئك الرجال و النساء ، و الناس اليوم على تلك المنزلة من شهر شيأمن ذلك أو أقيم عليه الحدّ فلا تزوجوه حتّى تعرف توبته .

و فيه بإسناده عن حكم بن حكيم عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال : إنما ذلك في الجهر ثم قال : لو أن إنساناً زنا ثم تاب تزوج حيث شاء .

و في الدر المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و النسائي و الحاكم و صححه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في سننه و أبوداود في ناسخه عن عبد الله بن عمر قال : كانت امرأة يقال لها : أم مهزول ، و كانت تسافح الرجل و تشرط أن تنفق عليه فأراد رجل من أصحاب النبي ﷺ أن يزوجه فأنزل الله : « الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » .

اقول : و روى ما يقرب منه عن عدة من أصحاب الجوامع عن مجاهد .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : لما قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بجهد إلا قليل منهم ، و المدينة غالية السعر شديدة الجهد ، و في السوق زوان متعالتات من أهل الكتاب ، و أمّا الأنصار منهم أمية وليدة عبد الله بن أبي ونسيكة بنت أمية لرجل من الأنصار في بغايا من ولائد الأنصار قد رفعت كل امرأة منهم علامة على بابها ليعرف أنها زانية و كن من أخصب أهل المدينة وأكثره خيراً . فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبن للذي هم فيه من الجهد فأشار بعضهم على بعض لوتزوجنا بعض هؤلاء الزواني فنصيب من بعض أطعماتهن فقال بعضهم : نستأمر رسول الله ﷺ فأتوه فقالوا : يا رسول الله قد شق علينا الجهد ولانجد ما نأكل ، و في السوق بغايا نساء أهل الكتاب و ولائدهن و ولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهن فيصلح لنا أن نتزوج منهن فنصيب من فضول ما يكتسبن ؟ فإذا وجدنا عنهن غنى تركناهن فأنزل الله : « الزاني لا ينكح » الآية فحرم على المؤمنين أن يتزوجوا الزواني المسافحات العالئات زناهن .

اقول : و الروايتان إنما تذكران سبب نزول قوله : « الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » دون قوله : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة » .

و في المجمع في قوله تعالى : « إلا الذين تابوا » اختلف في هذه الاستثناء إلى ماذا يرجع على قولين : أحدهما أنه يرجع إلى الفسق خاصة دون قوله : « ولا تقبلوا

لهم شهادة أبداً - إلى أن قال - والآخرون الاستثناء يرجع إلى الأمرين فإذا تاب قبلت شهادته حدّ أم لم يحدّ عن ابن عباس - إلى أن قال - و قول أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد و ابن المنذر عن سعيد بن المسيّب قال : شهد على المغيرة بن شعبة ثلاثة بالزنا ونكل زياد فحدّ عمر الثلاثة ، وقال لهم : توبوا تقبل شهادتكم فتاب رجلان ولم يتب أبو بكر فكن لا تقبل شهادته ، وكان أبو بكر أخا زياد لأمّه فلما كان من أمر زياد ما كان حلف أبو بكر أن لا يكلمه أبدا فلم يكلمه حتى مات .

وفي التهذيب بإسناده عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إذا قذف العبد الحرّ جلد ثمانين . وقال : هذا من حقوق الناس .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم - إلى قوله - إن كان من الصادقين » فإنّها نزلت في اللعان فكان سبب ذلك أنّه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من الأنصار وقال : يا رسول الله إن امرأتي زنى بها شريك بن السمحاء وهي منه حامل فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله فأعاد عليه القول فأعرض عنه حتى فعل ذلك أربع مرّات .

فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله منزله فنزلت عليه آية اللعان فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وصلى بالناس العصر ، وقال لعويمر : اثنتي بأهلك فقد أنزل الله عزّ وجلّ فيكما قرآنا فجاء إليها وقال لها : رسول الله يدعوك وكانت في شرف من قومها فجاء معها جماعة فلما دخلت المسجد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعويمر : تقدّم إلى المنبر والتعنا فقال : كيف أصنع ؟ فقال : تقدّم و قل : أشهد بالله إنني لمن الصادقين فيما رميتها به فتقدّم وقالها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أعدّها فأعادها حتى فعل ذلك أربع مرّات فقال له في الخامسة : عليك لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به فقال في الخامسة إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به . ثمّ

قال رسول الله ﷺ : إن اللغته موجبة إن كنت كاذبا .

ثم قال له : تنح فتحنى ثم قال لزوجته : تشهدين كما شهد ، وإلا أقمت عليك حد الله فنظرت في وجوه قومها فقالت : لا أسود هذه الوجوه في هذه العشي فتقدمت إلى المنبر وقالت : أشهد بالله إن عويمر بن ساعدة من الكاذبين فيما رمانى فقال لها رسول الله ﷺ : أعيدوها فأعادتها حتى أعادتها أربع مرات فقال لها رسول الله ﷺ : العني نفسك في الخامسة إن كان من الصادقين فيما رماك به فقالت في الخامسة إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماها به فقال رسول الله ﷺ : وملك إنها موجبة إن كنت كاذبة .

ثم قال رسول الله ﷺ لزوجها : اذهب فلا تحل لك أبدا . قال : يا رسول الله فمالى الذى أعطيتها . قال : إن كنت كاذبا فهو أبعد لك منه ، وإن كنت صادقا فهو لها بما استحلمت من فرجها . الحديث .

وفي المجمع في رواية عكرمة عن ابن عباس : قال سعد بن عبادة لو أتيت لكع وقد يفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجنه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب ، وإن قلت ما رأيت إن في ظهري لثمانين جلدة .

فقال النبي ﷺ : يا معشر الأنصار ما تسمعون إلى ما قال سيدكم ؟ فقالوا : لا تلمه فإنه رجل غيور ما تزوج امرأة قط إلا بكرا ، ولا طلق امرأة له فاجترى رجل منا أن يتزوجها ، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله بأني أنت وأمي والله إنني لأعرف أنها من الله وأنها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك فقال : فإن الله يأبى إلا ذلك فقال : صدق الله ورسوله .

فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له : هلال بن أمية من حديقة له قدر آى رجلا مع امرأته فلمّا أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال : إنني جئت أهلي عشاء فوجدت معها رجلا رأيته بعيني وسمعت به أذني ، فكره رسول الله ﷺ حتى رأي الكراهة في وجهه فقال هلال : إنني لأرى الكراهة في وجهك والله يعلم

إِنِّي لصادق ، وإِنِّي لأرجو أن يجعل الله فرجا فهم رسول الله ﷺ بضربه .
قال : و اجتمعت الأنصار و قالوا : ابتلينا بما قال سعد أيجلد هلال و يبطل
شهادته ؟ فنزل الوحي و أمسكوا عن الكلام حين عرفوا أن الوحي قد نزل فأنزل
الله تعالى : « و الذين يرمون أزواجهم ، الآيات .
فقال ﷺ : أبشريا هلال فإن الله تعالى قد جعل فرجا فقال : قد كنت
أرجو ذلك من الله تعالى فقال ﷺ : أرسلوا إليها فجاءت فلاعن بينهما فلمّا انقضى
اللعان فرّق بينهما و قضى أن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها .
ثم قال رسول الله ﷺ : إن جاءت به كذا و كذا فهو لزوجها و إن جاءت به
كذا و كذا فهو للذي قيل فيه .
أقول : و رواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس .





اِنَّ الَّذِيْنَ جَاؤْا بِالْاِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوْهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ
 لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْاِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ
 عَظِيْمٌ (١١) وَلَوْلَا اِذْ سَمِعْتُمُوْهُ ظَنُّ الْمُؤْمِنُوْنَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَاَنْفُسِهِنَّ خَيْرًا وَقَالُوْا
 هٰذَا اِفْكٌ مُّبِيْنٌ (١٢) وَلَوْلَا جَاؤْا عَلَيْهِ بِارْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاذْ لَّمْ يَأْتُوْا بِالشُّهَدَاءِ
 فَلَوْلَئِكَ عِنْدَ اللّٰهِ هُمُ الْكَاذِبُوْنَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فَيَمَا افَضْتُمْ فِيْهِ عَذَابٌ عَظِيْمٌ (١٤) اِذْ تَلَقَوْنَهُ بِاَلْسِنَتِكُمْ وَ
 تَقُوْلُوْنَ بِاَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُوْنَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللّٰهِ عَظِيْمٌ (١٥)
 وَلَوْلَا اِذْ سَمِعْتُمُوْهُ قُلْتُمْ مَا يَكُوْنُ لَنَا اَنْ نَّتَكَلَّمَ بِهٰذَا سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ
 عَظِيْمٌ (١٦) يَعْظَمُ اللّٰهُ اَنْ تَعُوْدُوْا لِمِثْلِهِ اَبَدًا اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ (١٧) وَ يَبِيْنُ
 اللّٰهُ لَكُمْ الْاٰيَاتِ وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ (١٨) اِنَّ الَّذِيْنَ يُحِبُّوْنَ اَنْ تَشِيْعَ الْفَاحِشَةُ
 فِي الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَاَنْتُمْ لَا
 تَعْلَمُوْنَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَاِنَّ اللّٰهَ رُوْفٌ رَّحِيْمٌ (٢٠)
 يَا اَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تَتَّبِعُوْا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
 فَاِنَّهٗ يَامُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَ الْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكٰى مِنْكُمْ

مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتِلْ
 أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تُشْهِدُهُمْ عَلَيْهِمُ آيَاتُهُمْ وَآيَاتُهُمْ
 أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ وَ يَعْلَمُونَ
 أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ
 وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّغُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) .

﴿ بيان ﴾

الآيات تشير إلى حديث الإفك ، و قد روى أهل السنة أن المقدوفة في
 قصة الإفك هي أم المؤمنين عائشة ، و روت الشيعة أنها مارية القبطية أم إبراهيم
 النبي أهداها مقوقس ملك مصر إلى النبي ﷺ ، و كل من الحديثين لا يخلو عن
 شيء على ما سيجىء في البحث الروائي الآتي .

فالأحرى أن نبحث عن متن الآيات في معزل من الروایتين جميعا غير أن
 من المسلم أن الإفك المذكور فيها كان راجعا إلى بعض أهل النبي ﷺ إما
 زوجه و أم أم ولد و ربما لوّح إليه قوله تعالى : « و تحسبونه هيتا و هو عند الله
 عظيم » و كذا ما يستفاد من الآيات أن الحديث كان قد شاع بينهم و أفاضوا فيه
 و سائر ما يومي إليه من الآيات .

والمستفاد من الآيات أنهم رموا بعض أهل النبي ﷺ بالفحشاء ، و كان الرامون عصابة من القوم فشاع الحديث بين الناس يتلقاه هذا من ذاك ، وكان بعض المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض يساعدون على إذاعة الحديث حباً منهم أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فأنزل الله الآيات و دافع عن نبيه ﷺ .

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، الخ الإِفْكَ على ما ذكره الراغب الكذب مطلقاً والأصل في معناه أنه كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه كالاغتناد المصروف عن الحق إلى الباطل - والفعل المصروف عن الجميل إلى القبيح ، والقول المصروف عن الصدق إلى الكذب ، و قد استعمل في كلامه تعالى في جميع هذه المعاني .

و ذكر أيضاً أن العصابة جماعة متعصبة متعاضدة ، و قيل : إنها عشرة إلى أربعين .

والخطاب في الآية و ما يتلوها من الآيات لعامة المؤمنين ممن ظاهره الإيمان أعم من المؤمن بحقيقة الإيمان والمنافق و من في قلبه مرض ، وأما قول بعضهم : إن المخاطب بالخطابات الأربعة الأول أو الثاني والثالث والرابع النبي ﷺ والمقدوفة والمقدوف ففيه تفكيك بين الخطابات الواقعة في الآيات العشر الأول وهي نيّف وعشرون خطاباً أكثرها لعامة المؤمنين بلاريب .

و أسوء حالاً منه قول بعض آخر إن الخطابات الأربعة أو الثلاثة المذكورة لمن ساء ذلك من المؤمنين فإنه مضافاً إلى استلزامه التفكيك بين الخطابات المتوالية مجازفة ظاهرة .

والمعنى إن الذين أتوا بهذا الكذب - واللام في الإِفْكَ للعهد - جماعة معدودة منكم مرتبط بعضهم ببعض ، و في ذلك إشارة إلى أن هناك تواطؤاً منهم على إذاعة هذا الخبر ليطعنوا به في نزاهة بيت النبي ﷺ و يفضحوه بين الناس .

و هذا هو فائدة الخبر في قوله : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لاتسلية النبي ﷺ أو تسليته و تسلية من ساءه هذا الإِفْكَ كما ذكره بعضهم فإن

السياق لا يساعد عليه .

و قوله : « لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم » مقتضى كون الخطاب لعامة المؤمنين أن يكون المراد بنفي كونه شرّاً لهم وإثبات كونه خيراً أن المجتمع الصالح من سعادته أن يتميز فيه أهل الزيف والفساد ليكونوا على بصيرة من أمرهم و ينهضوا لإصلاح ما فسد من أعضائهم ، وخاصة في مجتمع ديني متصل بالوحي ينزل عليهم الوحي عند وقوع أمثال هذه الوقائع فيعظّمهم و يذكّرهم بما هم في غفلة منه أو مساهلة حتى يحتاطوا لدينهم و يتفطّنوا لما بهم .

والدليل على ما ذكرنا قوله بعد : « لكل امرء منهم ما اكتسب من الإثم » فإن الإثم هو الأثر السيئ الذي يبقى للإنسان عن اقتراف المعصية فظاهر الجملة أن أهل الإفك الجائين به يعرفون بإثمهم و يتميزون به عندكم فيفتضحون به بدل ما أرادوا أن يفضحوا النبي ﷺ .

و أمّا قول من قال : إن المراد بكونه خيراً لهم أنهم يثابون بما اتهموهم بالإفك كما أن أهل الإفك يتأثمون به فمبني على كون الخطاب للمتهمين خاصة و قد عرفت فساده .

و قوله : « والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم » فسروا كبره بمعنى معظّمه والضمير للإفك ، والمعنى والذي تولّى معظم الإفك وأصرّ على إذاعته بين الناس من هؤلاء الآفكين له عذاب عظيم .

قوله تعالى : « لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » توبيخ لهم إذ لم يردّوا الحديث حينما سمعوه و لم يظنّوا بمن رمي به خيراً .

و قوله : « ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم » من وضع الظاهر موضع المضمّر ، والأصل « ظننتم بأنفسكم » والوجه في تبديل الضمير وصفا للدلالة على علّة الحكم فإن صفة الإيمان رادعة بالطبع تردع المتلبّس بها عن الفحشاء والمنكر في القول والفعل فعلى المتلبّس بها أن يظنّ على المتلبّسين بها خيراً ، وأن يجتنب القول

فيهم بغير علم فإنهم جميعا كنفس واحدة في التلبس بالإيمان ولوازمه وآثاره .
فالمعنى و لولا إذ سمعتم الإفك ظننتم بمن رمي به خيرا فإنكم جميعا مؤمنون
بعضكم من بعض والمرمى به من أنفسكم و على المؤمن أن يظن بالمؤمن خيرا ولا
يصفه بما لا علم له به .

و قوله : « قالوا هذا إفك مبين » أي قال المؤمنون والمؤمنات وهم السامعون -
أي قلتم - هذا إفك مبين لأن الخبر الذي لا علم لمخبره به والدعوى التي لا بيينة
لمدعيها عليها محكوم شرعا بالكذب سواء كان بحسب الواقع صدقا أو كذبا ، والدليل
عليه قوله في الآية التالية : « فإن لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » .
قوله تعالى : « لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك
عند الله هم الكاذبون » أي لو كانوا صادقين فيما يقولون و يرمون لا قاموا عليه الشهادة
وهي في الزنا بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فهم محكومون شرعا بالكذب لأن
الدعوى من غير بيينة كذب وإفك .

قوله تعالى : « و لولا فضل الله عليكم و رحمته في الدنيا والآخرة لمستمكم
فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » إفاضة القوم في الحديث خوضهم فيه .
و قوله : « و لولا فضل الله » الخ عطف على قوله : « لولا إذ سمعتموه » الخ وفيه
كررة ثانية على المؤمنين ، وفي تقييد الفضل والرحمة بقوله : « في الدنيا والآخرة »
دلالة على كون العذاب المذكور ذيلًا هو عذاب الدنيا والآخرة .

والمعنى ولولا فضل الله عليكم و رحمته في الدنيا والآخرة لوصل إليكم بسبب
ما خضتم فيه من الإفك عذاب عظيم في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : « إذ تلقونه بألسنتكم و تقولون بأفواهكم ما ليس لكم به
علم » الخ الظرف متعلق بقوله : « أفضتم » و تلقى الإنسان القول أخذه القول الذي
ألقاه إليه غيره ، و تقييد التلقي بالألسنة للدلالة على أنه كان مجرد انتقال القول
من لسان إلى لسان من غير تثبيت و تدبر فيه .

و على هذا فقوله : « و تقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » من قبيل عطف

التفسير ، و تقييده أيضا بقوله : « بأفواهكم » للإشارة إلى أن القول لم يكن عن تثبيت و تبين قلبي ولم يكن له موطن إلا الأفواه لا يتعداها .

والمعنى أفضتم و خضتم فيه إذ تأخذونه و تنقلونه لسانا عن لسان و تنلفظون بما لا علم لكم به .

و قوله : و تحسبونه هينا و هو عند الله عظيم ، أي تظنون التلقني بالسنتكم والقول بأفواهكم من غير علم سهلا و هو عند الله عظيم لأنه بهتان و افتراء ، على أن الأمر مرتبط بالنبي ﷺ و شيوع إفك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم و يفسد أمر الدعوة الدينية .

قوله تعالى : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » عطف بعد عطف على قوله : « لولا إذ سمعتموه » الخ و فيه كرامة ثالثة على المؤمنين بالتوبيخ ، و قوله : « سبحانك » اعتراض بالتنزيه لله سبحانه و هو من أدب القرآن أن ينزه الله بالتسبيح عند تنزيه كل منزه .

والبهتان الافتراء سمي به لأنه يبهت الإنسان المفترى عليه و كونه بهتانا عظيما لأنه افتراء في عرض وخاصة إذ كان متعلقا بالنبي ﷺ و إنما كان بهتانا لكونه إخبارا من غير علم و دعوى من غير بيينة كما تقدم في قوله : « فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا » إلى آخر الآيتين موعظة بالنهي عن العود لمثله ، و معنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا » إلى آخر الآية إن كانت الآية نازلة في جملة آيات الإفك و متصلة بما تقدمها وموردها الرمي بالزنا بغير بيينة كان مضمونها تهديد الرامين المفيضين في الإفك لكونه فاحشة و إشاعته في المؤمنين حبا منهم لشيوع الفاحشة .

فالمراد بالفاحشة مطلق الفحشاء كالزنا والقذف و غير ذلك ، و حب شيوعها و منها القذف في المؤمنين يستوجب عذابا أليما لمحبييه في الدنيا والآخرة .

و على هذا فلاموجب لحمل العذاب في الدنيا على الحدّ إذ حبّ شيوع الفحشاء ليس ممّا يوجب الحدّ ، نعم لو كان اللّام في « الفاحشة » للعهد والمراد بها القذف و كان حبّ الشيوع كناية عن قصد الشيوع بالإفاضة و التلقّي بالألسن و النقل أمكن حمل العذاب على الحدّ لكنّ السياق لا يساعد عليه .

على أنّ الرمي بمجرّد تحقّقه مرة موجب للحدّ ولاموجب لتقييده بقصد الشيوع ولا نكتة تستدعي ذلك .

و قوله : « والله يعلم و أتمّ لاتعلمون » تأكيد و إعظام لما فيه من سخط الله و غضبه و إن جهله الناس .

قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم و رحمته » تكرار للإمتنان ومعناه ظاهر .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان فإنّه يأمر بالفحشاء و المنكر » تقدّم تفسير الآية في الآية ٢٠٨ من سورة البقرة في الجزء الثاني من الكتاب .

قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم و رحمته ما زكى منكم من أحد أبدا » إلى آخر الآية . رجوع بعد رجوع إلى الامتنان بالفضل و الرحمة ، لا يخلو هذا الاهتمام من تأييد لكون الإفك متعلّقا بالنبي ﷺ و ليس إلّا لكرامته على الله سبحانه .

و قد صرّح في هذه المرّة الثالثة بجواب لولا و هو قوله : « ما زكى منكم من أحد أبدا » و هذا ممّا يدلّ عليه العقل فإنّ مفيض الخير و السعادة هو الله سبحانه ، و التعليم القرآني أيضا يعطيه كما قال تعالى : « بيدك الخير » آل عمران : ٢٦ و قال : « ما أصابك من حسنة فمن الله » النساء : ٧٩ .

و قوله : « ولكنّ الله يزكّي من يشاء » والله سميع علیم ، إضراب ممّا تقدّمه فهو تعالى يزكّي من يشاء فالأمر إلى مشيئته ، ولا يشاء إلّا تزكية من استعدّها و سأله بلسان استعداد ذلك ، وإليه يشير قوله : « والله سميع علیم ، أي سميع لسؤال من سأله التزكية علیم بحال من استعدّها » .

قوله تعالى : « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله » الخ الايتلاء التقصير و الترك و الحلف ، و كل من المعاني الثلاثة لا يخلو من مناسبة ، و المعنى لا يقصّر أولوا الفضل منكم و السعة يعني الأغنياء في إيتاء أولي القرابة و المساكين و المهاجرين في سبيل الله من مالهم أو لا يترك إيتاءهم أولاً يحلف أن لا يؤتيهم - وليعفوا عنهم وليصفحوا ثم حرّضهم بقوله : « ألا تحبّون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

و في الآية - على تقدير نزولها في جملة الآيات و اتّصالها بها - دلالة على أن بعض المؤمنين عزم على أن يقطع ما كان يؤتيه بعض أهل الإفك فنهاه الله عن ذلك وحثه على إدامة الإيتاء كما سيحيى .

قوله تعالى : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصية فإنّ كلاماً من الإحصان بمعنى العفة والغفلة والإيمان سبب تام في كون الرمي ظلماً و الرامي ظالماً و المرمية مظلومة فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم ، وجزاؤه اللعن في الدنيا والآخرة و العذاب العظيم ، والآية عامّة و إن كان سبب نزولها لو نزلت في جملة آيات الإفك خاصّاً .

قوله تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » الظرف متعلّق بقوله في الآية السابقة : « ولهم عذاب عظيم » .

والمراد بقوله : « بما كانوا يعملون » كما يقتضيه إطلاقه مطلق الأعمال السيئة - كما قيل - لا خصوص الرمي بأن تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم على رميهم فالمراد بالشهادة شهادة الأعضاء على السيئات والمعاصي بحسب ما يناسبها فما كان منها من قبيل الأقوال كالقذف والكذب والغيبة و نحوها شهدت عليه الألسنة ، و ما كان منها من قبيل الأفعال كالسرقة والمشي للنزيممة و السعاية و غيرها شهدت عليه بقیة الأعضاء ، و إذ كان معظم المعاصي من الأفعال للأيدي و الأرجل اختصت بالذكر . و بالحقيقة الشاهد على كل فعل هو العضو الذي صدر منه كما يشير إليه

قوله تعالى : «شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون» حمّ السجدة : ٢٠ ، وقوله : «إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً» أسرى : ٣٦ ، وقوله : «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم و تشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون» يس : ٥٦ وسيأتي الكلام على شهادة الأعضاء يوم القيامة في بحث مستقلّ في تفسير سورة حمّ السجدة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : «يومئذ يوفّيهم الله دينهم الحقّ» و يعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين ، المراد بالدين الجزاء كما في قوله : «مالك يوم الدين» الحمد : ٤ وتوفية الشيء بذله تامّاً كاملاً ، والمعنى يوم القيامة يؤتيهم الله جزاءهم الحقّ إيتاء تامّاً كاملاً و يعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين .

هذا بالنظر إلى اتصال الآية بما قبلها ووقوعها في سياق ما تقدّمها ، وأمّا بالنظر إلى استقلالها في نفسها فمن الممكن أن يراد بالدين ما يرادف الملة وهوسنة الحياة ، و هو معنى عال يرجع إلى ظهور الحقائق يوم القيامة للإنسان ، و يكون أكثر مناسبة لقوله : «و يعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين» .

والآية من غرر الآيات القرآنية تفسّر معنى معرفة الله فإنّ قوله : «ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين» ينبيء أنّه تعالى هو الحقّ لاسترة عليه بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير فهو من أبدع البديهيّات التي لا يتعلّق بها جهل لكنّ البديهيّ ربّما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفلة عنه الذي ربّما يعبر عنه بالعلم بالعلم ، وهذا هو الذي يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين . و إلى مثله يشير قوله تعالى : «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق : ٢٢ .

قوله تعالى : «الخبثات للخبثين والخبثون للخبثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات» الخ ذيل الآية «أولئك مبرؤن ممّا يقولون» دليل على أنّ المراد بالخبثات والخبثين والطيبات والطيبين نساء و رجال متلبسون بالخبائث والطيب فالآية من تمام آيات الإفك متصلة بها مشاركة لها في سياقها ، وهي عامّة

لامنحصص لها من جهة اللفظ البتة .

فالمراد بالطيب الذي يوجب كونهم مبرئين مما يقولون على ما تدل عليه الآيات السابقة هو المعنى الذي يقتضيه تلبسهم بالإيمان والإحصان فالمؤمنون والمؤمنات مع الإحصان طيبون وطيّبات يختص كل من الفريقين بصاحبه ، وهم بحكم الإيمان والإحصان مصونون مبرؤون شرعا من الرمي بغير بيّنة ، محكومون من جهة إيمانهم بأنّ لهم مغفرة كما قال تعالى : «و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ، الأحقاف : ٣١ و لهم رزق كريم ، وهو الحياة الطيبة في الدنيا والأجر الحسن في الآخرة كما قال : «من عمل صالحا من ذكرا أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، النحل : ٩٧ .

والمراد بالخبت في الخبيثين والخبيثات وهم غير المؤمنين هو الحال المستقدرة التي يوجبها لهم تلبسهم بالكفر وقد خصت خبيثاتهم بخبيثتهم وخبيثوهم بخبيثاتهم بمقتضى المجانسة والمسانخة وليسوا بمبرئين عن التلبس بالفحشاء - نعم هذا ليس حكما بالتلبس -

فظهر بما تقدّم :

أولا أنّ الآية عامّة بحسب اللفظ تصف المؤمنين والمؤمنات بالطيب ولا ينافي ذلك اختصاص سبب نزولها وانطباقها عليه .

و ثانيا أنّها تدل على كونهم جميعا محكومين شرعا بالبراءة مما يرمون به ما لم تقم عليه بيّنة .

و ثالثا أنّهم محكومون بالمغفرة والرزق الكريم كلّ ذلك حكم ظاهري لكرامتهم على الله بإيمانهم ، والكفّار على خلاف ذلك .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وأحمد والبخاري و عبد بن حميد و مسلم وابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه والبيهقي في الشعب عن

عائشة قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى سفر أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه . قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب وأنا حمل في هودجي و أنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل .

فدنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقامت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقدي من جزع ظفار^(١) فدا نقطع فالتصمت عقدي وحبسنى ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أنني فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن اللحم إنما تأكل المرأة العلقة^(٢) من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه و كنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فيممت منزلي الذي كنت به فظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلى فيينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فتمت .

وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكراني من وراء الجيش فأدلج^(٣) فأصبح عند منزلي فرآى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رأيته و كان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فحمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة واحدة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك في من هلك .

(١) ظفار كظام بلد باليمن قرب صنعاء وجزع ظفاري منسوب إليها والجزع الخرز

و هو الذى فيه سواد و بياض .

(٢) العلقة من الطعام ما يمسك به الرمح .

(٣) أدلج القوم ساروا الليل كله أو فى آخره .

وكان الذي تولّى الإفك عبدالله بن أبي بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشي من ذلك ، و هو يريني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي إنما يدخل علي فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف فذاك الذي يريني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت و خرجت معي أم مسطح قبل المناصع^(١) وهي متبرزنا وكنا لانخرج إلّا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا .

فاطلقت أنا وأم مسطح فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد أشرعنا^(٢) من ثيابنا فعثرت أم مسطح في مرطها^(٣) فقات : تعس مسطح فقلت لها : بمس ما قلت أتسيبن رجلا شهد بدرا ؟ قالت : إي هتاه^(٤) أولم تسمعي ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضي .

فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ - قالت : و أنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما - قالت : فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت لأبوي فقلت لأمي : يا أمّته ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنيّة هو نبي عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلّا أكثرن عليها فقلت : سبحان الله و لقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي .

و دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب و أسمية بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله فأما أسمية فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من

(١) المناصع : المواضع يتخلّى فيها البول او حاجة . (٢) اي دفعنا ثيابنا .

(٣) المرط - بالكسر - كساء واسع يؤتزّر به وربما تلقىه المرأة على رأسها وتلفع به .

(٤) خطاب للمرأة يقال للرجل يا هناه .

براءة أهله و بالذي يعلم لهم في نفسه من الود" فقال : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً ، و أمّا عليّ بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيّق الله عليك ، و النساء سواها كثيرة و إن تسأل الجارية تصدقك فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : أي بريرة هل رأيت شيئاً يريبك ؟ قالت بريرة : لا والذي بعنك بالحقّ إن رأيت عليها أمراً أغمضه أكثر من أنسها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله .

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبيّ فقال وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، و لقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : يا رسول الله أنا أعذرک منه إن كان من الأوس ضربت عنقه و إن كان من إخواننا من بني الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک فقام سعد بن عبادة وهو سيّد الخزرج و كان قبل ذلك رجلاً صالحاً و لكن احتملته الحميّة فقال لسعد : كذبت لعمر الله ما تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير و هو ابن عمّ سعد فقال لسعد بن عبادة : كذبت لنقتلنّه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فتناور الحيّان : الأوس و الخزرج حتّى همّوا أن يقتلوا و رسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتّى سكتوا و سكت .

فبكيت يومي ذلك فلا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح أبواي عندي و قد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع و أبواي يظنّان أن البكاء فالق كبدي .

فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثمّ جلس ولم يجلس عندي منذ قيل فيّ ما قيل قبلها و قد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأنني بشيء فنشهد حين جلس ثمّ قال : أمّا بعد يا عائشة إنّه بلغني عنك كذا و كذا فان

كنت بريئة فسيبرؤك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله و توبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص^(١) دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت لأمي : أجبني عني رسول الله ﷺ . قالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت وأما جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : إنني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم : إنني بريئة والله يعلم أني بريئة لاتصدقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لاتصدقني ، والله لأجدي لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

ثم تحولات فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أنني بريئة وأن الله مبرئي براءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا ينلي ، ولشأنني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر ينلي ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها .

قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عندالوحي حتى أنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه فلما سري عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك فقالت أُمي : قومي إليه فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحد إلا الله الذي أنزل براءتي وأنزل الله : « إن الذين جاؤا بالآفك عصبه منكم ، العشر الآيات كلها .

فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر ، وكان يتنق على مسطح بن أثانة

(١) قلص اجتمع وانقبض .

لقرابته منه و فقره : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين - إلى قوله - رحيم » قال أبو بكر : والله إنني أحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح الثقة التي كان ينفق عليه ، و قال : والله لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة : فكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال : يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله أحبي سمعي و بصري ما علمت إلا خيراً قالت : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك .

أقول : والرواية مروية بطرق أخرى عن عائشة أيضاً و عن عمر و ابن عباس و أبي هريرة و أبي اليسر الأنصاري و أمّ رومان أمّ عائشة و غيرهم و فيها بعض الاختلاف .

و فيها أن الذين جاؤا بالإفك عبدالله بن أبي بن سلول و مسطح بن أثانة و كان بدرية من السابقين الأولين من المهاجرين ، و حسان بن ثابت ، و حمنة أخت زينب زوج النبي ﷺ .

و فيها أن النبي ﷺ دعاهم بعد ما نزلت آيات الإفك فحدّهم جميعاً غير أنه حدّ عبدالله بن أبي حدّين و إنما حدّ حدّين لأنه من قذف زوج النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم كان عليه حدّان .

و في الروايات على تقاربها في سرد القصة إشكال من وجوه :

أحدها أن المسلم من سياقها أن النبي ﷺ كان في ريب من أمر عائشة بعد تحقق الإفك كما يدل عليه تغير حاله بالنسبة إليها في المعاملة باللطف أيام اشتكاؤها و بعدها حتى نزلت الآيات ، و يدل عليه قولها له حين نزلت الآيات وبشرها به : بحمد الله لا بحمدك ، و في بعض الروايات أنها قالت لأبيها و قد أرسله النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم ليبشرها بنزول العذر : بحمد الله لا بحمد صاحبك الذي أرسلك ، تريد به النبي ﷺ ، و في الرواية الأخرى عنها : أن النبي ﷺ لما

وعظها أن تتوب إلى الله إن كان منها شيء وفي الباب امرأة جالسة قالت له عائشة :
 أمّا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ، ومن المعلوم أن هذا النوع من الخطاب
 المبني على الإهانة والإذراء ما كان يصدر عنها لولا أنها وجدت النبي في ريب من
 أمرها . كل ذلك مضافاً إلى التصريح به في رواية عمر فقيها : « فكان في قلب النبي
 صلى الله عليه وآله وسلم مما قالوا » .

وبالجملة دلالة عامة الروايات على كون النبي ﷺ في ريب من أمرها
 إلى نزول العذر مما لا ريب فيه ، وهذا مما يجلب عنه مقامه ﷺ كيف ؟ وهو سبحانه
 يقول : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك
 مبين » فيؤبّخ المؤمنين والمؤمنات على إساءتهم الظن وعدم ردّهم ما سمعوه من
 الإفك فمن لوازم الإيمان حسن الظن بالمؤمنين ، والنبي ﷺ أحق من يتصف
 بذلك ويتحرّز من سوء الظن الذي من الإثم وله مقام النبوة والعصمة الإلهية .

على أنه تعالى ينص في كلامه على اتصافه ﷺ بذلك إذ يقول : « ومنهم
 الذين يؤذون النبي » ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين
 ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ، التوبة : ٦١ .

على أننا نقول : إن تسرّب الفحشاء إلى أهل النبي ينقرّ القلوب عنه فمن
 الواجب أن يطهر الله سبحانه ساحة أزواج الأنبياء عن لوث الزنا والفحشاء وإلا
 لغت الدعوة و نثبت بهذه الحجّة العقلية عفتهم واقعا لا ظاهرا فحسب ، والنبي
 صلى الله عليه وآله وسلم أعرف بهذه الحجّة منا فكيف جازله أن يرتاب في أمر أهله
 برمي من رام أو شيوع من إفك .

و ثانيها أن الذي تدلّ عليه الروايات أن حديث الإفك كان جاريا بين
 الناس منذ بدء به أصحاب الإفك إلى أن ختم بحدّهم أكثر من شهر وقد كان حكم القذف
 مع عدم قيام الشهادة معلوماً وهو جلد القاذف وتبرئة المقذوف شرعا فما معنى
 توقّف النبي ﷺ عن حدّ أصحاب الإفك هذه المدة الطويلة وانتظاره الوحي في
 أمرها حتّى يشيع بين الناس وتلقّاه الألسن وتسير به الركبان ويتسع الخرق

على الراتق ؟ وما أتى به الوحي من العذر لا يزيد على ما تعينه آية القذف من براءة المقذوف حكماً شرعياً ظاهرياً .

فإن قيل : الذي نزل من العذر براءتها واقعا وطهارة ذيلها في نفس الأمر وهذا أمر لا تكفي له آية حد القاذف ، ولعل صبره ﷺ هذه المدّة الطويلة إنما كان لأجله .

قلت : لا دلالة في شيء من هذه الآيات الست عشرة على ذلك ، وإنما تثبت بالحجّة العقلية السابقة الدالة على طهارة بيوت الأنبياء من لؤنة الفحشاء : أمّا الآيات العشر الأولى التي فيها شائبة الاختصاص فأظهرها في الدلالة على براءتها قوله تعالى : « لولا جأؤا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » وقد استدل فيها على كذبهم بعدم إتيانهم بالشهداء ، ومن الواضح أن عدم إقامة الشهادة إنما هو دليل البراءة الظاهرية أعني الحكم الشرعي بالبراءة دون البراءة الواقعية لوضوح عدم الملازمة .

وأما الآيات الست الأخيرة فقله : « الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » الخ عام من غير مخصص من جهة اللفظ فالذي تثبته من البراءة مشترك فيه بين جميع المقذوفين من غير قيام بيّنة من المؤمنين والمؤمنات ، ومن الواضح أن البراءة المناسبة لهذا المعنى هي البراءة الشرعية .

والحق أن لامناص عن هذا الإشكال إلا بالقول بأن آية القذف لم تكن نازلة قبل حديث الإفك وإنما نزلت بعده ، وإنما كان سبب توقّفه ﷺ خلو الواقعة عن حكم الله بعد فكان ينظر في أمر الإفك الحكم السماوي .

و من أوضح الدليل عليه ما في الرواية من استعذار النبي ﷺ من القاذف في المسجد وقول سعد بن معاذ ما قال ومجادلة سعد بن عبادة إياه واختلاف الأوس والخزرج بمحضر من النبي ﷺ وفي رواية عمر بعد ما ذكر اختلاف ابن معاذ وابن عبادة : فقال هذا : يا للأوس وقال هذا : يا للخزرج فاضطربوا بالنعال والحجارة فتلاطموا ، الحديث فلو كانت آية القذف نازلة قبل ذلك وحكم الحد معلوما لم يجب

سعد بن معاذ النبي ﷺ بأنه يعذره منه بالقتل ولقال هو وسائر الناس : يا رسول الله حكم القذف معلوم ويدك مبسطة .

و نالها أنها تصرّح بكون أصحاب الإفك هم عبدالله بن أبيّ و مسطح و حسان و حمنة ثم تذكر أنه ﷺ حدّ عبدالله بن أبيّ حدّين و كلام من مسطح و حسان و حمنة حدّا واحداً ، ثم تعلل حدّي عبدالله بن أبيّ بأن من قذف أزواج النبي ﷺ فعليه حدّان ، وهذا تناقض صريح فإنهم جميعاً كانوا قاذفين بلا فرق بينهم .

نعم تذكر الروايات أن عبدالله بن أبيّ كان هو الذي تولّى كبره منهم لكن لم يقل أحد من الامة أن هذا الوصف يوجب حدّين . ولا أن المراد بالعذاب العظيم في قوله : « الذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم » هو ثبوت حدّين . و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « إنّ الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم » الآية فإنّ العامّة روت أنها نزلت في عائشة و ما رميت به في غزوة بني المصطلق من خزاعة ، و أمّا الخاصة فإنهم روى أنها نزلت في مارية القبطيّة و ما رمتها به عائشة .

حدّ ثنا محمد بن جعفر قال : حدّ ثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن عليّ بن فضال قال : حدّ ثنا عبد الله بن بكير عن زائدة قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : لما هلك إبراهيم بن رسول الله ﷺ حزن عليه حزنا شديداً فقالت عائشة : ما الذي يحزنك عليه ؟ ما هو إلا ابن جريح ، فبعث رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام و أمره بقتله .

فذهب عليّ عليه السلام و معه السيف و كان جريح القبطي في حائط فضرب عليّ عليه السلام باب البستان فأقبل جريح له ليفتح الباب فلمّا رأى عليّاً عليه السلام عرف في وجهه الغضب فأدبر راجعاً و لم يفتح باب البستان فوثب عليّ عليه السلام على الحائط و نزل إلى البستان و اتبعه و ولّى جريح مدبراً فلمّا خشي أن يرهقه ^(١) صعد في نخلة و صعد عليّ عليه السلام في أثره فلمّا دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته

فاذا ليس له ما للرجال ولاله ما للنساء .

فانصرف علي^{عليه السلام} إلى النبي^ﷺ فقال له : يا رسول الله إذا بعثتني في الأمر أكون كالسمار المحمي في الوبر أم أثبتت ؟ قال : لا بل تثبت . قال : والذي بعثك بالحق ماله ما للرجال وماله ما للنساء فقال : الحمد لله الذي صرف عنا سوء أهل البيت .

وفيه في رواية عبيد الله بن موسى عن أحمد بن راشد عن مروان بن مسلم عن عبدالله بن بكير قال : قلت لأبي عبدالله^{عليه السلام} : جعلت فداك كان رسول الله^ﷺ أمر بقتل القبطي وقدم علم أنها كذبت عليه أولم يعلم ؟ وقد دفع الله عن القبطي القتل بثبوت علي^{عليه السلام} فقال : بل كان والله علم ، ولو كانت عزيمة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما انصرف علي^{عليه السلام} حتى يقتله ، ولكن إنما فعل رسول الله^ﷺ لترجع عن ذنبها فما رجعت ولا اشتد عليها قتل رجل مسلم .

أقول : وهناك روايات أخر تدل على مشاركة غيرها معها في هذا الرمي ، وجريح هذا كان خادما خصباً لمارية أهدها معها مقوقس عظيم مصر لرسول الله^ﷺ وأرسله معها ليعدها .

وهذه الروايات لا تخلو من نظر :

أما أولاً فلا أن مافيه من القصة لا يقبل الانطباق على الآيات ولا سيما قوله : «إن الذين جاؤا بالإفك» الآية وقوله : «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» الآية ، وقوله : «إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم» الآية فمحصل الآيات أنه كان هناك جماعة مرتبط بعضهم ببعض يذيعون الحديث ليفضحوا النبي^ﷺ ، وكان الناس يتداولونه لساناً عن لسان حتى شاع بينهم ومكنوا على ذلك زماناً وهم لا يراعون حرمة النبي^ﷺ وكرامته من الله ، وأين مضمون هذه الروايات من ذلك .

اللهم إلا أن تكون الروايات قاصرة في شرحها للقصة .

وأما ثانياً فقد كان مقضى القصة وظهور براءتها إجراء الحد ولم يعجر ،

ولامناس عن هذه الاشكال إلا بالقول بنزول آية القذف بعد قصة الإفك بزمان .
والذي ينبغي أن يقال بالنظر إلى إشكال الحدّ الوارد على الصنفين من الروايات
جميعا - كما عرفت - أن آيات الإفك نزلت قبل آية حدّ القذف ، ولم يشرع بنزول
آيات الإفك إلا براءة المقذوف مع عدم قيام الشهادة وتحريم القذف .
ولو كان حدّ القاذف مشروعا قبل حديث الإفك لم يكن هناك مجوز لناخيره
مدّة معتدّ بها وانتظار الوحي ، ولانجامه قاذف منهم ، ولو كان مشروعا مع نزول
آيات الإفك لا يشير فيها إليه ، ولا أقلّ باتصال الآيات بآية القذف ، والعارف
بأساليب الكلام لا يرتاب في أن قوله : « إن الذين جاؤا بالإفك ، الآيات منقطعة
عما قبلها .

ولو كان على من قذف أزواج النبي ﷺ حدّ أن لا يشير إلى ذلك في خلال آيات
الإفك بما فيها من التشديد واللعن والتهديد بالعذاب على القاذفين .
ويتأكد الإشكال على تقدير نزول آية القذف مع نزول آيات الإفك فإن
لازمه أن يقع الابتلاء بحكم الحدّين فينزل حكم الحدّ الواحد .
وفي الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه
عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين
قال الله عزّ وجلّ : « إن الذين يحبّون - إلى قوله - والآخرة » .
أقول : ورواه القميّ في تفسيره عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عنه عليه السلام
والصدوق في الأمالي بإسناده عن ابن أبي عمير عن محمد بن عمران عنه عليه السلام ، والمفيد
في الاختصاص عنه عليه السلام مرسلا .

وفيه بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله
صلّى الله عليه وآله وسلم : من أذاع فاحشة كان كمتبذرها .

وفي المجمع قيل : إن قوله : « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة » الآية
نزلت في أبي بكر ومسطح بن أثاثه و كان ابن خالة أبي بكر ، و كان من المهاجرين
و من جملة البدرين و كان فقيرا ، و كان أبو بكر يجري عليه و يقوم بتفقهه فلما

خاض في الإفك قطعها و حلف أن لا ينفعه بتقاع أبدا فلما نزلت الآية عاد أبو بكر إلى ما كان ، وقال : والله إنني لأحب أن يغفر الله لي ، والله لأنزعها عنه أبدا عن ابن عباس وعائشة وابن زيد .

و فيه وقيل : نزلت في جماعة من الصحابة أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا يواسوهم عن ابن عباس وغيره .

أقول : و رواه في الدر المنثور عن ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس . و في تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى » وهم قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « والمساكين و المهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا » يقول : يعفو بعضكم عن بعض ، ويصفح بعضكم بعضا فإذا فعلتم كانت رحمة الله لكم يقول الله عز وجل : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : ونزل بالمدينة « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

فبرأه الله ما كان مقيما على الفرية من أن يسمى بالإيمان قال الله عز وجل : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستون » وجعله من أولياء إبليس قال : « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » وجعله ملعونا فقال : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا و الآخرة ولهم عذاب أليم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » .

وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه قال الله عز وجل : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون شيئا » .

و في المجمع في قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين و الخبيثون للخبيثات

والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ، الآية قيل في معناه أقوال - إلى أن قال -
الثالث الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات
من النساء - عن أبي مسلم والجبائي وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .
قالا : هي مثل قوله : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة » ، إلا أن « اناساهموا
أن يتزوّجوا منهم » فنهاهم الله عن ذلك وكره ذلك لهم .

وفي الخصال عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة قالوا : قال رسول الله ﷺ : إذا
طاب قلب المرء طاب جسده ، وإذا خبث القلب خبث الجسد .

وفي الاحتجاج عن الحسن بن علي عليهما السلام في حديث له مع معاوية وأصحابه
وقد نالوا من علي عليه السلام : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات » هم والله يا
معاوية أنت وأصحابك هؤلاء ، وشيعتك « والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات »
إلى آخر الآية هم علي بن أبي طالب وأصحابه وشيعته .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا
عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا
فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا
مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)
وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ
أَلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا
لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ إِيمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ
غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ
النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ
جَمِيعًا إِنَّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ (٣١) وَانكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ
مِنْ عِبَادِكُمْ وَأَمْثَلِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

عَلَيْهِمْ (٣٢) وَ لِيَسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ تَكَافُأً حَتَّى يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا
وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْتُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ
تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ
غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤).

﴿ بيان ﴾

أحكام و شرائع متناسبة و مناسبة لما تقدم .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، الْخِ الْإِنْسِ بِالشَّيْءِ ، وَإِلَيْهِ الْإِلْفَةُ وَ سَكُونِ الْقَلْبُ إِلَيْهِ ،
وَالِاسْتِئْذَانُ طَلَبُ ذَلِكَ بِفِعْلِ يُوْدِّي إِلَيْهِ كَالِاسْتِئْذَانِ لِدُخُولِ بَيْتٍ بِذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّحَنُّجِ
وَ نَحْوِ ذَلِكَ لِيُنَبِّهَ صَاحِبَ الْبَيْتِ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَرِيدُ الدُّخُولَ عَلَيْهِ فَيَسْتَعِدُّ لَذَلِكَ
فَرُبَّمَا كَانَ فِي حَالٍ لَا يَحِبُّ أَنْ يَرَاهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ أَوْ يَطْلُعَ عَلَيْهَا مَطْلَعٌ .

و منه يظهر أَنَّ مصلحة هذا الحكم هو الستر على عورات الناس و التحفظ
على كرامة الإيمان فإذا استأنس الداخل عند إرادة الدخول على بيت غير بيته
فأخبر باستئناسه صاحب البيت بدخوله ثم دخل فسلم عليه فقد أعانه على ستر عورته .
و أعطاه الأمان من نفسه .

و يُوْدِّي الاستمرار على هذه السيرة الجميلة إلى استحكام الأخوة و الألفة
و التعاون العام على إظهار الجميل و الستر على القبيح و إليه الإشارة بقوله : « ذَلِكَم
خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أي لعلكم بالاستمرار على هذه السيرة تتذكرون ما يجب

عليكم رعايته و إحياءه من سنة الأخوة و تألف القلوب التي تحتها كل سعادة اجتماعية .

و قيل : إن قوله : « لعلكم تذكرون » تعليل لمحذوف والتقدير قيل لكم كذا لعلكم تذكرون مواظ الله فتعملوا بموجبها . ولا بأس به .
و قيل : إن في قوله : « حتى تستأنسوا وتسلموا » تقديمًا وتأخيرًا والأصل حتى تسلموا و تستأنسوا . وهو كما ترى .

قوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » الخ أي إن علمتم بعدم وجود أحد فيها - وهو الذي يملك الإذن - فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن ، وليس المراد به أن يتطلع على البيت وينظر فيه فإن لم يرفه أحدًا كف عن الدخول فإن السياق يشهد على أن المنع في الحقيقة عن النظر والاطلاع على عورات الناس .

وهذه الآية تبين حكم دخول بيت الغير وليس فيه من يملك الإذن ، والآية السابقة تبين حكم الدخول وفيه من يملك الإذن ولا يمنع ، وأما دخوله وفيه من يملك الإذن ويمنع ولا يأذن فيه فيبين حكمه قوله تعالى : « و إن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم » .

قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم » الخ ظاهر السياق كون قوله : « فيها متاع لكم » صفة بعد صفة لقوله : « بيوتا » لاجتماع مستأنفة معللة لقوله : « ليس عليكم جناح » ، والظاهر أن المتاع بمعنى الاستمتاع .

ففيه تجويز الدخول في بيوت معدة لأنواع الاستمتاع وهي غير مسكونة بالطبع كالخانات والحمامات والأرحية ونحوها فإن كونها موضوعة للاستمتاع إذن عام في دخولها .

وربما قيل : إن المراد بالمتاع المعنى الاسمي وهو الأثاث والأشياء الموضوعة للبيع والشرى كما في بيوت التجارة والحوانيت فإنها مأذونة في دخولها إذناعًا

و لا يخلو من بعد لقصور اللفظ .

قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم و يحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون » الغض "إطباق الجفن على الجفن ، والأبصار جمع بصر و هو العضو الناظر ، ومن هنا يظهر أن " من " في " من أبصارهم " لا ابتداء الغاية لا مزيدة ولا للجنس ولا للتبويض كما قال بكل قائل ، والمعنى يأتوا بالغض " آخذوا من أبصارهم .

فقوله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » لما كان " يغضوا " مترتباً على قوله : « قل » ترتب جواب الشرط عليه دل ذلك على كون القول بمعنى الأمر والمعنى مرهم يغضوا من أبصارهم و التقدير مرهم بالغض " إنك إن تأمرهم به يغضوا ، والآية أمر بغض الأبصار وإن شئت فقل : نهى عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من الأجنبي والأجنبية لمكان الإطلاق .

وقوله : « و يحفظوا فروجهم » أي : مرهم يحفظوا فروجهم ، والفرجة والفرج الشق بين الشئيين ، وكنى به عن السواة ، وعلى ذلك جرى استعمال القرآن الملىء أدباً و خلقاً ثم كثر استعماله فيها حتى صار كالنص كما ذكره الراغب .

والمقابلة بين قوله : « يغضوا من أبصارهم » و « يحفظوا فروجهم » يعطي أن المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لأحفظها عن الزنا واللواط كما قيل ، و قد ورد في الرواية عن الصادق عليه السلام أن " كل آية في القرآن في حفظ الفروج فهي من الزنا إلا هذه الآية فهي من النظر .

و على هذا يمكن أن تتقيداً ولى الجملتين بثانيتها و يكون مدلول الآية هو النهي عن النظر إلى الفروج والأمر بسترها .

ثم أشار إلى وجه المصلحة في الحكم وحشهم على المراقبة في جنبه بقوله : « ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون » .

قوله تعالى : « و قل للمؤمنات يغضن الخ الكلام في قوله : « و قل للمؤمنات يغضن من أبصارهن و يحفظن فروجهن » نظير ما مر في قوله : « قل للمؤمنين يغضوا

من أبصارهم و يحفظوا فروجهم ، فلا يجوز لهن النظر إلى ما يجوز النظر إليه ويجب عليهن ستر العورة عن الأجنبي والأجنبية .

و أمّا قوله : «ولا يبدن زينتهن» إلا ما ظهر منها ، فالأبداء الإظهار ، والمراد بزينةهن مواضع الزينة لأن نفس ما يتزين به كالقرط والسوار لا يحرم إبداءها فالمراد بإبداء الزينة إبداء مواضعها من البدن .

و قد استثنى الله سبحانه منها ما ظهر ، و قد وردت الرواية أن المراد بما ظهر منها الوجه والكفان والقدمان كما سيجي إن شاء الله .

و قوله : « و ليضربن بخمرهن على جيوبهن » الخمر بضمّتين جمع خمار و هو ما تغطي به المرأة رأسها و ينسدل على صدرها ، والجيوب جمع جيب بالفتح فالسكون وهو معروف والمراد بالجيوب الصدور ، والمعنى و ليلقن بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها .

و قوله : « ولا يبدن زينتهن » إلا لبعولتهن - إلى قوله - أو بني أخواتهن ، البعولة هم أزواجهن ، والطوائف السبع الأخر محارمهن من جهة النسب والسبب ، وأجداد البعولة حكمهم حكم آبائهم وأبناء أبناء البعولة حكمهم حكم الأبناء .

و قوله : « أو نسائهن » في الاضافة إشارة إلى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء و قد وردت به الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

و قوله : « أو ما ملكت أيمانهن » إطلاقه يشمل العبيد والإماء ، و قد وردت به الرواية كما سيأتي إن شاء الله ، وهذا من موارد استعمال «ما» في أولي العقل . و قوله : « أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال » الإربة هي الحاجة ، والمراد به الشهوة التي تحوج إلى الازدواج ، و «من الرجال» بيان للتابعين ، والمراد بهم كما تفسره الروايات البله المولّى عليهم من الرجال ولا شهوة لهم .

و قوله : « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » أي جماعة الأطفال - واللام للاستغراق - الذين لم يقووا ولم يظهروا - من الظهور بمعنى الغلبة - على

أُمور يسوء التصريح بها من النساء ، وهو - كما قيل - كناية عن البلوغ .
 و قوله : « ولا يضربن بأرجلهن » ليعلم ما يخفين من زينتهن ، ذلك بتصوّت
 أسباب الزينة كالإخلخال والعقد والقرط والسوار .
 و قوله : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » المراد بالتوبة -
 على ما يعطيه السياق - الرجوع إليه تعالى بامتثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه و
 بالجملة اتباع سبيله .

قوله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم »
 الإنكاح التزويج ، والأيامى جمع أيّتم بفتح الهمزة و كسر الياء المشددة و هو
 الذكر الذي لا أنثى معه والأنثى التي لا ذكر معها وقد يقال في المرأة أيّمة ، والمراد
 بالصالحين الصالحون للتزويج لا الصالحون في الأعمال .

و قوله : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » وعد جميل بالغنى وسعة الرزق
 وقد أكدّه بقوله : « والله واسع عليم » والرزق يتبع صلاحية المرزوق بمشيئة من
 الله سبحانه ، و سيوافيك إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : « فو ربّ السماء والأرض
 إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون » الذاريات : ٢٣ كلام في معنى سعة الرزق .

قوله تعالى : « وليستغف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله »
 الاستغفار والتعفف قريباً المعنى ، والمراد بعدم وجدان النكاح عدم القدرة على
 المهر والنفقة ، ومعنى الآية الأمر بالتعفف لمن لا يقدر على النكاح والتحرّز عن الوقوع
 في الزنا حتى يغنيه الله من فضله .

قوله تعالى : « والذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت أيما نكم فكتبوهم إن علمتم
 فيهم خيراً » الخ المراد بالكتاب المكاتب ، وابتغاء المكاتب أن يسأل العبد مولاه أن
 يكتبه على إيتائه المولى ما لا على أن يعتقه ، وفي الآية أمر للموالي بإجابتهم إن علموا
 فيهم خيراً و هو كناية عن إحراز صلاحيتهم لذلك .

و قوله : « و آتوهم من مال الله الذي آتاكم » إشارة إلى إيتائهم مال المكاتب
 من الزكاة المفروضة فسهّم من سهام الزكاة لهم كما قال تعالى : « وفي الرقاب »

النوبة : ٦٠ أو إسقاط شيء من مال المكاتبة .

و في هذه الآية والآيات السابقة مباحث فقهية جمّة ينبغي أن يراجع فيها كتب الفقه .

قوله تعالى : « ولا تکرهوا قتیاتکم علی البغاء إن أردن تحصّنا » الفقیات الإماء والولائد ، والبغاء الزنا وهو مفاعلة من البغي ، والتحصّن التعفّف والازدواج و ابتغاء عرض الحياة الدنيا طلب المال ، والمعنى ظاهر .

و إنّما اشترط النهي عن الإکراه بإرادة التحصّن لأنّ الإکراه لا يتحقّق فیمن لا يريد التحصّن ، ثمّ وعدهنّ المغفرة علی تقدیر الإکراه بقوله : « ومن یکرهنّ فإنّ الله من بعد إکراههنّ غفور رحیم » ومعناه ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد أنزلنا إلیکم آیات مبیّنات و مثلاً من الذّین خلوا من قبلکم و موعظة للمتّقین » المثل الصفة ، و من الممكن أن یكون قوله : « ولقد أنزلنا » الخ حالاً من فاعل قوله : « توبوا » فی الآية السابقة أو استینافاً والمعنى و أقسم لقد أنزلنا إلیکم آیات تبیّن لکم من معارف الدین ما تفلحون به ، و صفة من السابقین أخیارهم و أشرارهم یتمیّز بها لکم ما ینبغي أن تأخذوا به ممّا ینبغي لکم أن تجتنبوا ، و موعظة للمتّقین منکم .

﴿ بحث روائی ﴾

فی تفسیر القميّ بإسناده عن عبدالرحمان بن أبی عبدالله عن أبی عبدالله عليه السلام فی قول الله عزّ وجلّ : « لا تدخلوا بیوتا غیر بیوتکم حتّی تستأنسوا و تسلّموا علی أهلها » قال : الاستیناس وقع النعل والتسلیم .

أقول : و رواء الصدوق فی معانی الأخبار عن محمد بن الحسن مرفوعاً عن عبدالرحمان عنه عليه السلام .

و فی المجمع عن أبی آیوب الأنصاريّ قال : قلنا : یا رسول الله ما الاستیناس ؟ قال : یتکلّم الرجل بالتسبیحة و التحمیدة و التکیبة و یتحنّج علی أهل البیت .

و عن سهل بن سعد قال : اطلع رجل في حجرة من حجر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ ومعه مدري ^(١) يحك رأسه : لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينيك إنما الاستيذان من النظر .

و روي أن رجلا قال للنبي ﷺ : أستاذن على أمي ؟ فقال : نعم . قال : إنها ليس لها خادم غيري أفأستاذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال الرجل : لا ، قال : فاستأذن عليها .

و روي أن رجلا استأذن على رسول الله ﷺ فتنحج فقال ﷺ لا امرأة يقال لها : روضة : قومي إلى هذا فعلميه و قل لي له : قل : السلام عليكم أدخل ؟ فسمعها الرجل فقالها فقال : ادخل .

أقول : و روى في الدر المنثور عن جمع من أصحاب الجوامع الرواية الأولى عن أبي أيوب ، والثانية عن سهل بن سعد والرابعة عن عمرو بن سعد الثقفي .

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ سئل عن الاستيذان في البيوت فقال : من دخلت عينه قبل أن يستأذن و يسلم فقد عصى الله ولا إذن له .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » قال : معناه و إن لم تجدوا فيها أحدا يأذن لكم فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم .

و فيه في قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم » قال الصادق عليه السلام : هي الحمامات و الخانات و الأرحية تدخلها بغير إذن .

و في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث يذكر فيه ما فرض الله على الجوارح . قال : وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما

حرّم الله عليه ، وأن يعرض عما نهى الله عنه ممّا لا يحلّ له وهو عمله وهو من الإيمان .

فقال تبارك وتعالى : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ،
فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم وأن ينظر المرء إلى فرج أخيه ، ويحفظ فرجه
أن ينظر إليه ، وقال : « وقل للمؤمنات يغضّضن من أبصارهنّ » ويحفظن فروجهنّ ،
من أن تنظر إحداهنّ إلى فرج أختها وتحفظ فرجها من أن ينظر إليه .
وقال : كلّ شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا إلا هذه الآية
فهو من النظر .

اقول : وروى القميّ في تفسيره ذيل الحديث عن أبيه عن ابن أبي عمير عن
أبي بصير عنه عليه السلام ، وروي مثله عن أبي العالية وابن زيد .
وفي الكافي بإسناده عن سعد الأسكاف عن أبي جعفر عليه السلام قال : استقبل شاب
من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقنّعن خلف آذانهنّ فنظر إليها وهي مقبلة
فلما جازت نظر إليها ودخل في زقاق قد سمّاه ببني فلان ، وجعل ينظر خلفها
واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه فلما مضت المرأة نظر فإذا
الدماء تسيل على ثوبه وصدره فقال : والله لا تبنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ولا تخبرنه .

قال : فاتاه فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : ما هذا ؟ فأخبره فبهط جبرئيل
بهذه الآية « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن
الله خبير بما يصنعون » .

اقول : ورواه في الدرّ المشهور عن ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب مثله ،
وظاهر الحديث أنّ المراد بالأمر بالغضّ في الآية النهي عن مطلق النظر إلى
الأجنبيّة كما أنّ ظاهر بعض الروايات السابقة أنّه نهى عن النظر إلى فرج
الغير خاصّة .

وفيه بإسناده عن مروق بن عبيد عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال :
قلت له : ما يحلّ أن يرى من المرأة إذا لم يكن محرماً ؟ قال : الوجه والكفّان

والقدمان .

اقول : ورواه في الخصال عن بعض أصحابنا عنه عليه السلام ولفظه : الوجه والكفين

والقدمين .

وفي قرب الأسناد لنجميري عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال : سألت عن الرجل ما يصلح له أن ينظر إليه من المرأة التي لا تحل له ؟ قال : الوجه والكف و موضع السوار .

و في الكافي بإسناده عن عباد بن صهيب قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : لا بأس بالنظر إلى رأس أهل تهامة والأعراب وأهل السواد والعلوج لأنهم ^(١) إذا نهوا لا ينتهون .

قال : والمجنونة والمغلوبة على عقلها ، ولا بأس بالنظر إلى شعرها وجسدها ما لم يتعمد ذلك .

اقول : كأنه عليه السلام يريد بقوله : ما لم يتعمد ذلك ، الريبة .

و في الخصال وقال النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام : يا علي " أوّل نظرة لك والثانية عليك لالك .

اقول : و روى مثله في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن بريدة عنه عليه السلام ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي : لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة .

و في جوامع الجامع عن أمّ سلمة قالت : كنت عند النبي صلى الله عليه وآله و عنده ميمونة فأقبل ابن أمّ مكتوم و ذلك بعد أن أمرنا بالحجاب فقال : احتجبا فقلنا : يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ؟ فقال : أفعميا وان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟

اقول : ورواه في الدر المنثور عن أبي داود والترمذي والنسائي والبيهقي عنها . و في الفقيه و روى حفص بن البختری عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لا ينبغي

(١) رعاية التذكير لاعتبار الاهل والقوم في مرجع الضمير ، و كان الظاهر أن يقال :

لانهم اذا نهين لا ينتهين .

للمرأة أن تنكشف بين يدي اليهودية والنصرانية فإنهن يصفن ذلك لأزواجهن .
و في المجمع في قوله تعالى : «أوما ملكت أيمانهن» و قيل : معناه العبيد
والإماء و روي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام .

و في الكافي بإسناده عن عبدالرحمان بن أبي عبدالله قال : سألته عن [غير] أولي
الإربة من الرجال . قال : الأحق المولى عليه الذي لا يأتي النساء .

و فيه بإسناده عن محمد بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليه السلام قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم : من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء ظنه بالله عز وجل
إن الله يقول «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله» .

أقول : و في المعاني السابقة روايات كثيرة جداً عن أئمة أهل البيت عليه السلام
من أرادها فليراجع كتب الحديث .

و في الفقيه روى العلاء عن محمد بن مسلم عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله
عز وجل : «فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً» قال : الخير أن يشهد أن لا إله إلا
الله و أن محمداً رسول الله ، و يكون بيده عمل يكتسب به أو يكون له حرفة .
أقول : و في معناه روايات أخر .

و في الكافي بإسناده عن العلاء بن فضيل عن أبي عبدالله عليه السلام قال في قوله
عز وجل : «فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً و آتوهم من مال الله الذي آتاكم» قال :
تضع عنه من نجومه التي لم تكن تريد أن تنقصه ، ولا تزيد فوق ما في نفسك .
فقلت : كم ؟ فقال : وضع أبو جعفر عليه السلام عن مملوك ألفاً من سنة آلاف .

أقول : و روى في مجمع البيان و كذا في الدر المنثور عن علي عليه السلام ربع
المال ، و المستفاد من ظواهر الأخبار عدم تعيين مقدار معين ذي نسبة .

وقد تقدمت في ذيل قوله : «وفي الرقاب» التوبة : ٦٠ الجزء التاسع من الكتاب
رواية العياشي أن المكاتب يؤتى من سهم الرقاب من الزكاة .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : «ولا تكرر هوا فتياكم على البغاء إن أردن
تحصناً» قال : كانت العرب و قریش يشترون الإماء و يضعون عليهن الضريبة

الثقيلة ويقولون : اذهبن وازنين واكتسبن فنهاهم الله عن ذلك فقال : «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - إلى قوله غفور رحيم» أي لا يؤاخذهن الله تعالى بذلك إذا أكرهن عليه .

و في المجمع في قوله تعالى : «ولتبتغوا عرض الحياة الدنيا» قيل : إن عبد الله بن أبي كانت له ست جوار يكرهن على الكسب بالزنا ، فلما نزل تحريم الزنا أتى رسول الله ﷺ فشكون إليه فنزلت الآية .

أقول : أما أنه كان له من الجواري من يكرهن على الزنا فقد وردت فيه روايات رواها في الدر المنثور كما روى هذه الرواية ، وأما كون ذلك بعد نزول تحريم الزنا فيضعفه أن الزنا لم يحرم في المدينة بل في مكة قبل الهجرة بل كانت حرمة من ضروريات الإسلام منذ ظهرت الدعوة الحقّة ، وقد تقدّم في تفسير سورة الأنعام أن حرمة الفواحش ومنها الزنا من الأحكام العامة التي لا تختص بشريعة دون شريعة .





اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكُوَةٍ فِيهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحِ
 فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا
 شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نَوْراً عَلَى نَوْرِ يَهْدِي اللَّهُ
 لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي
 بَيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْقَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمَهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)
 رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ
 يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا
 وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ
 اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفِيهِ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ
 يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
 يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ
 اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَوَتَهُ وَ
 تَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ

الْمَصِيرُ (٤٣) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى
 الْوُدَّ يُخْرَجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يَقْلِبُ اللَّهُ
 اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ
 مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ
 يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا
 آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) .

﴿ بيان ﴾

تتضمن الآيات مقايضة بين المؤمنين بحقيقة الإيمان والكفار ، تميز المؤمنين
 منهم بأن المؤمنين مهديون بأعمالهم الصالحة إلى نور من ربهم يفيدهم معرفة الله
 سبحانه و يسلك بهم إلى أحسن الجزاء والفضل من الله تعالى يوم ينكشف عن قلوبهم
 وأبصارهم الغطاء ، والكفار لا تسلك بهم أعمالهم إلا إلى سراب لاحقيقة له ، وهم في
 ظلمات بعضها فوق بعض ولم يجعل الله لهم نوراً فمالهم من نور .

و قد بين سبحانه هذه الحقيقة بأن له تعالى نوراً عاماً تستنير به السماوات
 والأرض فتظهر به في الوجود بعد ما لم تكن ظاهرة فيه فمن البين أن ظهور شيء
 بشيء يستدعي كون المظهر ظاهراً بنفسه والظاهر بذاته المظهر لغيره هو النور فهو
 تعالى نور يظهر السماوات والأرض بإشراقه عليها كما أن الأنوار الحسية تظهر
 الأجسام الكثيفة للحس بإشراقها عليها غير أن ظهور الأشياء بالنور الإلهي عين وجودها
 و ظهور الأجسام الكثيفة بالأنوار الحسية غير أصل وجودها .

و نوراً خاصاً يستنير به المؤمنون ويهتدون إليه بأعمالهم الصالحة وهو نور

المعرفة الذي سيستنير به قلوبهم وأبصارهم يوم تتقلب في القلوب والأبصار فيهمدون به إلى سعادتهم الخالدة فيشاهدون فيه شهود عيان ما كان في غيب عنهم في الدنيا ، ومثل تعالى هذا النور بمصباح في زجاجة في مشكاة يشتعل من زيت في نهاية الصفاء فتتلا لا الزجاجة كأنها كوكب دري فتزيد نورا على نور ، والمصباح موضوع في بيوت العبادة التي يسبح الله فيها رجال من المؤمنين لاتلهمهم عن ذكر ربهم وعبادته تجارة ولا بيع .

فهذه صفة ما أكرم الله به المؤمنين من نور معرفته المتعقب للسعادة الخالدة ، وحرمة على الكافرين و تركهم في ظلمات لا يبصرون ، فخص من اشتغل بربه و أعرض عن عرض الحياة الدنيا بنور من عنده ، والله يفعل ما يشاء له الملك وإليه المصير يحكم بما أراد ينزل الودق والبرد من سحب واحد ، و يقلب الليل والنهار ، و يجعل من الحيوان من يمشي على بطنه ومن يمشي على رجلين و من يمشي على أربع و قد خلق الكل من ماء .

والآيات غير فاقدة للاتصال بما قبلها لما أن بيان الأحكام و الشرائع فيما تقدم انتهى إلى مثل قوله : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات و مثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » والبيان إظهار لحقائق المعارف فهو تنوير إلهي .
على أن الآيات قرآن وقد سمى سبحانه القرآن في مواضع من كلامه نوراً كقوله : « وأنزلنا إليكم نورا مبينا » النساء : ١٧٤ .

قوله تعالى : « الله نور السماوات والأرض » إلى آخر الآية . المشكاة على ما ذكره الراغب وغيره : كوة غير نافذة وهي ما يتخذ في جدار البيت من الكوة لوضع بعض الأثاث كالمصباح وغيره عليه و هو غير القانوس .
والدري من الكواكب العظيمة الكثير النور ، وهو معدود في السماء والاقاد الإشعال ، والزيت الدهن المتخذ من الزيتون .

وقوله : « الله نور السماوات والأرض » النور معروف و هو الذي يظهر به الأجسام الكثيفة لأبصارنا فالأشياء ظاهرة به و هو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته فهو

الظاهر بذاته المظهر لغيره من المحسوسات للبصر . هذا أوّل ما وضع عليه لفظ النور ثمّ عمّم لكلّ ما ينكشف به شيء من المحسوسات على نحو الاستعارة أو الحقيقة الثانية فعند كلّ من الحواسّ نورا أو ذا نور يظهر به محسوساته كالسمع والشمّ والذوق واللمس . ثمّ عمّم لغير المحسوس فعند العقل نورا يظهر به المعقولات كلّ ذلك بتحليل معنى النور المبصر إلى الظاهر بذاته المظهر لغيره .

و إذ كان وجود الشيء هو الذي يظهر به نفسه لغيره من الأشياء كان مصداقا تامّا للنور ثمّ لما كانت الأشياء الممكنة الوجود إنّما هي موجودة بإيجاد الله تعالى كان هو المصداق الأوّل للنور فهناك وجود و نور يتّصف به الأشياء و هو وجودها ونورها المستعار المأخوذ منه تعالى و وجود و نور قائم بذاته يوجد ويستنير به الأشياء . فهو سبحانه نور يظهر به السماوات والأرض ، وهذا هو المراد بقوله : « الله نور السماوات والأرض » حيث أضيف النور إلى السماوات والأرض ثمّ حمل على اسم الجلالة ، وعلى هذا ينبغي أن يحمل قول من قال : إنّ المعنى الله منور السماوات والأرض ، وعمدة الغرض منه أن ليس المراد بالنور النور المستعار القائم بها و هو الوجود الذي يحمل عليها تعالى الله عن ذلك و تقدّس .

و من ذلك يستفاد أنّه تعالى غير مجهول لشيء من الأشياء إذ ظهور كلّ شيء لنفسه أو لغيره إنّما هو عن إظهاره تعالى فهو الظاهر بذاته له قبله ، و إلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى بعد آيتين : « ألم تر أن الله يسبّح له من في السماوات والأرض والطير صافات كلّ قد علم صلاته وتسبيحه » إذلا معنى للتسبيح والعلم به و بالصلاة مع الجهل بمن يصلّون له ويسبّحونه فهو نظير قوله : « و إنّ من شيء إلّا يسبّح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ٤٤ ، و سيوافيك البحث عنه إن شاء الله .

فقد تحصّل أن المراد بالنور في قوله : « الله نور السماوات والأرض » نوره تعالى من حيث يشرق منه النور العامّ الذي يستنير به كلّ شيء وهو مساو لوجود كلّ شيء ، ظهوره في نفسه و لغيره وهي الرحمة العامّة .

و قوله : « مثل نوره » يصف تعالى نوره ، و إضافة النور إلى الضمير الراجع إليه تعالى - و ظاهره الإضافة للآميّة - دليل على أن المراد ليس هو وصف النور الذي هو الله بل النور المستعار الذي يفيضه ، و ليس هو النور العام المستعار الذي يظهر به كل شيء . و هو الوجود الذي يستفيضه منه الأشياء و تتصف به ، والدليل عليه قوله بعد تكميم المثل : « يهدي الله لنوره من يشاء » إذ لو كان هو النور العام لم يختص به شيء دون شيء بل هو نوره الخاص بالمؤمنين بحقيقة الإيمان على ما يفيد الكلام .

و قد نسب تعالى في سائر كلامه إلى نفسه نورا كما في قوله : « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره » الصف : ٨ و قوله : « أو من كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام ١٢٢ و قوله : « يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نورا تمشون به » الحديد : ٢٨ ، و قوله : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » الزمر : ٢٢ وهذا هو النور الذي يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيئون به في طريقهم إلى ربهم و هو نور الإيمان والمعرفة .

وليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإن الآية تصف حال عامة المؤمنين قبل نزول القرآن و بعده . على أن هذا النور وصف لهم يتصفون به كما يشير إليه قوله : « لهم أجرهم و نورهم » الحديد : ١٩ و قوله : « يقولون ربنا أتمم لنا نورنا » التحريم : ٨ . و القرآن ليس وصفا لهم وإن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع إلى ما قلناه . و قوله : « كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة » المشبه به مجموع ما ذكر من قوله مشكاة فيها مصباح الخ لا مجرد المشكاة و إلا فسد المعنى ، و هذا كثير في تمثيلات القرآن .

و قوله : « الزجاجة كأنها كوكب دري » تشبيه الزجاجة بالكوكب الدري من جهة ازدياد لمعان نور المصباح و شروقه بتركيب الزجاجة على المصباح فتزيد الشعلة بذلك سكونا من غير اضطراب بتموج الأهوية و ضرب الرياح فهي كالكوكب

الدرّيّ في تالؤلؤ نورها و ثبات شروقها .

و قوله : « يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ، ولو لم تمسسه نار » خبر بعد خبر للمصباح أي المصباح يشتعل آخذاً اشتعاله من شجرة مباركة زيتونة أي إنّه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها ، و المراد بكون الشجرة لا شرقية ولا غربية أنّها ليست نابتة في الجانب الشرقي ولا في الجانب الغربي حتّى تقع الشمس عليها في أحد طرفي النهار و يفيء الظلّ عليها في الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءة بل هي ضاحية تأخذ من الشمس حظها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها .

والدليل على هذا المعنى قوله : « يكاد زيتها يضيئ » ولم تمسسه نار » فإنّ ظاهر السياق أنّ المراد به صفاء الدهن و كمال استعداده للاشتعال و أنّ ذلك متفرّع على الوصفين : لاشرقية ولا غربية .

و أمّا قول بعضهم : إنّ المراد بقوله : « لا شرقية ولا غربية » أنّها ليست من شجر الدنيا حتّى تنبت إمّا في شرق أو في غرب ، وكذا قول آخرين : إنّ المراد أنّها ليست من شجر شرق المعمورة ولا من شجر غربها بل من شجر الشام الواقع بين الشرق والغرب وزيته أفضل الزيت فغير مفهوم من السياق .

و قوله : « نور على نور » خبر لمبتدأ محذوف وهو ضمير راجع إلى نور الزجاجة المفهوم من السياق ، والمعنى نور الزجاجة المذكور نور عظيم على نور كذلك أي في كمال التلمع .

والمراد من كون النور على النور قيل : هو تضاعف النور لا تعدّده فليس المراد به أنّه نور معيّن أو غير معيّن فوق نور آخر مثله ، ولا أنّه مجموع نورين اثنين فقط بل أنّه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه و هذا التعبير شائع في الكلام . و هذا معنى لا يخلو من جودة و إن كان إرادة التعدّد أيضاً لا يخلو من لطف ودقّة فإنّ للنور الشارق من المصباح نسبة إليه بالأصالة و الحقيقة و نسبة إلى الزجاجة التي عليه بالاستعارة والمجاز ويتغاير النور بتغاير النسبتين ويتعدّد بتعدّدهما

وإن لم يكن بحسب الحقيقة إلا للمصباح و الزجاجة صفر الكف منه فللزجاجة بالنظر إلى تعدد النسب نور غير نور المصباح و هو قائم به و مستمد منه .

وهذا الاعتبار جار بعينه في الممثل له فإن نور الإيمان والمعرفة نور مستعار مشرق على قلوب المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمد منه .

فقد تحصل أن الممثل له هو نور الله المشرق على قلوب المؤمنين والمثل وهو المشبه به النور المشرق من زجاجة على مصباح موقد من زيت جيد صاف و هو موضوع في مشكاة فإن نور المصباح المشرق من الزجاجة والمشكاة تجمعهما و تعكسه على المستنيرين به يشرق عليهم في نهاية القوة والجودة .

فأخذ المشكاة للدلالة على اجتماع النور في بطن المشكاة و انعكاسه إلى جو البيت ، و اعتبار كون الدهن من شجرة زيتونة لاشرقية ولاغربية للدلالة على صفاء الدهن وجودته المؤثر في صفاء النور المشرق عن اشتعاله وجودة الضياء على ما يدل عليه كون زيتته يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، و اعتبار كون النور على النور للدلالة على تضاعف النور أو كون الزجاجة مستمدة من نور المصباح في إنارتها .

و قوله : « يهدي الله لنوره من يشاء » استئناف يعكس به اختصاص المؤمنين بنور الإيمان والمعرفة و حرمان غيرهم فمن المعلوم من السياق أن المراد بقوله : « من يشاء » القوم الذين ذكرهم بقوله بعد : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » الخ فالمراد بمن يشاء المؤمنون بوصف كمال إيمانهم .

والمعنى أن الله إنما هدى المتلبسين بكمال الإيمان إلى نوره دون المتلبسين بالكفر - الذين سيدكرهم بعد - لمجرد دمشيته وليس المعنى أن الله يهدي بعض الأفراد إلى نوره دون بعض بدمشيته ذلك حتى يحتاج في تنميته إلى القول بأنه إنما يشاء الهداية إذا استعد المحل إلى الهداية بحسن السريرة والسيرة ، وذلك مما يختص به أهل الإيمان دون أهل الكفر فافهمه .

والدليل على ذلك ما سيأتي من قوله : « والله ملك السماوات والأرض » إلى آخر الآيات بالبيان الآتي إن شاء الله .

و قوله : « و يضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » إشارة إلى أن المثل المضروب تحته طور من العلم ، و إنما اختيار المثل لكونه أسهل الطرق لتبيين الحقائق والدقائق و يشترك فيه العالم والعامي فيأخذ منه كل ما قسم له قال تعالى « و تلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون » العنكبوت : ٤٣ .

قوله تعالى : « في بيوت أذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه » الإذن في الشيء هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله ، والمراد بالرفع رفع القدر و المنزلة و هو التعظيم ، و إذ كانت العظمة والعلو لله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره إلا أن ينتسب إليه و بمقدار ما ينتسب إليه فالإذن منه تعالى في أن ترفع هذه البيوت إنما هو لانتساب ما منها إليه .

و بذلك يظهر أن السبب لرفعها هو ما عطف عليه من ذكر اسمه فيها ، والسياق يدل على الاستمرار أو التهيؤ له فيعود المعنى إلى مثل قولنا : « أن يذكر فيها اسمه فيرتفع قدرها بذلك » .

و قوله : « في بيوت » متعلق بقوله في الآية السابقة : « كمشكاة » أو قوله : « يهدي الله الخ والمآل واحد ، ومن المتيقن من هذه البيوت المساجد فإنها معدة لذكر اسمه فيها محضة لذلك وقد قال تعالى : « ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » الحج : ٤٠ .

قوله تعالى : « يستبح له فيها بالغدو والآصال رجال » إلى آخر الآية . تسبيحه تعالى تنزيهه من كل ما لا يليق بساحة قدسه ، والغدو جمع غداة و هو الصبح والآصال جمع أصيل و هو العصر ، والإلهاء صرف الإنسان عما يعنيه ويهمه ، والتجارة على ما قاله الراغب : التصرف في رأس المال طلبا للربح . قال : وليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ . والبيع على ما قال : إعطاء المثلث وأخذ الثمن ، و قلب الشيء على ما ذكره صرف الشيء من وجه إلى وجه ، والتقليب مبالغة فيه والتقلب قبوله فتقلب القلوب و الأبصار تحول منها من وجه من الإدراك إلى وجه آخر .

و قوله : « يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » صفة لبيوت أو استئناف لبيان قوله : « وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمَهُ » ، و كون التسبيح بالغدو والآصال كناية عن استمرارهم فيه لأنّ التسبيح مقصور في الوقتين لا يستبح له في غيرهما .

والاكتفاء بالتسبيح من غير ذكر التحميد معه لأنّه تعالى معلوم بجميع صفاته الكماليّة لاسترة عليه إذ المفروض أنّه نور و النور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره و إنّما يحتاج خلوص المعرفة إلى نفي النقائص عنه وتنزيهه ممّا لا يليق به فإذا تمّ التسبيح لم يبق معه غيره و تمّت المعرفة ثمّ إذا تمّت المعرفة وقع الثناء و الحمد و بالجملة التوصيف بصفات الكمال موقعه بعد حصول المعرفة كما قال تعالى : « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » الصّافات : ١٦٠ فنزّهه عمّا يصفونه به إلّا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عباده ، وقد تقدّم في تفسير سورة الحمد كلام في معنى حمده تعالى .

وببيان آخر حمده تعالى وهو ثناؤه بصفة الكمال مساوٍ لحصول نور المعرفة و تسبيحه و هو التنزيه بنفي ما لا يليق به عنه مقدّمة لحصوله ، و الآية في مقام بيان خصالهم الّتي تستدعي هدايتهم إلى نوره فلا جرّم اقتصر فيها بذكر ماهي المقدّمة و هو التسبيح فافهم ذلك .

و قوله : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَابْيَعٌ » التجارة إذا قوبلت بالبيع كان المفهوم منها بحسب العرف الاستمرار في الاكتساب بالبيع والشري والبيع هو العمل لا اكتسابي الدفعي فالفرق بينهما هو الفرق بين الدفعة والاستمرار فمعنى نفي البيع بعد نفي التجارة مع كونه منقيّاً بنقيها الدلالة على أنّهم لا يُلْهَوْنَ عن ربّهم في مكاسبهم دائماً ولا في وقت من الأوقات ، و بعبارة أخرى لا تنسيهم ربّهم تجارة مستمرة ولا بيع ما من البيوع الّتي يوقعونها مدّة تجارتهم .

و قيل : الوجه في نفي البيع بعد نفي إلها، التجارة أن الربح في البيع ناجز بالفعل بخلاف التجارة الّتي هي الحرفة فعدم إلها، التجارة لا يستلزم عدم إلها، البيع الرابح بالفعل ، ولذلك نفى البيع ثانياً بعد نفي إلها، التجارة و لذلك كرّرت لفظة

«لا» لتذكير النقي وتأكيده ، وهو وجه حسن .

و قوله : «عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» الإقام هو الإقامة بحذف التاء تخفيفا .

و المراد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة الإتيان بجميع الأعمال الصالحة التي كلف الله تعالى عباده بإتيانها في حياتهم الدنيا ، وإقامة الصلاة ممثلة لإتيان ما للعباد من وظائف العبودية مع الله سبحانه ، وإيتاء الزكاة ممثل لوظائفه مع الخلق وذلك لكون كل منها ركنا في بابه .

والمقابلة بين ذكر الله وبين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما - وخاصة الصلاة - من ذكر الله يعطي أن يكون المراد بذكر الله الذكر القلبي الذي يقابل النسيان والغفلة وهو ذكر علمي كما أن أمثال الصلاة والزكاة ذكر علمي .

فالمقابلة المذكورة تعطي أن المراد بقوله : «عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» أنهم لا يشتغلون بشيء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم و ذكرهم الموقّت بأعمالهم من الصلاة والزكاة ، وعند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجارة والبيع وبين ذكر الله وإقام الصلاة الخ لرجوع المعنى إلى أنهم لا يلهيهم مله مستمر ولا موقّت عن الذكر المستمر والموقّت فافهم ذلك .

و قوله : « يخافون يوما تتقلب في القلوب والأبصار » هذا هو يوم القيامة والمراد بالقلوب والأبصار ما يعمّ قلوب المؤمنين والكافرين وأبصارهما لكون القلوب والأبصار جمعا محمّلى باللام وهو يفيد العموم .

و أمّا تقلّب القلوب والأبصار فالآيات الواصفة لشأن يوم القيامة تدلّ على أنه بظهور حقيقة الأمر و انكشاف الغطاء كما قال تعالى : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ و قال : « وبدلهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » الزمر : ٤٧ إلى غير ذلك من الآيات .

فتنصرف القلوب والأبصار يومئذ عن المشاهدة والرؤية الدنيوية الشاغلة عن الله الساترة للحقّ والحقيقة إلى سنخ آخر من المشاهدة والرؤية وهو الرؤية بنور

الإيمان والمعرفة فيتبصر المؤمن بنور ربه وهو نور الإيمان والمعرفة فينظر إلى كرامة الله ، ويعمى الكافر ولا يجد إلا ما يسوؤه قال تعالى : « وأشرق الأرض بنور ربها » الزمر : ٦٩ وقال : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » الحديد : ١٢ ، وقال : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى » الاسراء : ٧٢ ، وقال : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » القيامة : ٢٣ وقال : « كلاً إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففين : ١٥ .

وقد تبين بما مر :

أولاً وجه اختصاص هذه الصفة أعني تقلب القلوب والأبصار من بين أوصاف يوم القيامة بالذكر وذلك أن الكلام مسوق لبيان ما يتوسل به إلى هدايته تعالى إلى نوره وهو نور الإيمان والمعرفة الذي يستضاء به يوم القيامة ويبصر به .

وثانياً أن المراد بالقلوب والأبصار النفوس وبصائرهما .

وثالثاً أن توصيف اليوم بقوله : « تتقلب فيه القلوب والأبصار » لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب والأبصار ، وإنما يخافون هذا التقلب لما في أحد شقيه من الحرمان من نور الله والنظر إلى كرامته وهو الشقاء الدائم والعذاب الخالد وفي الحقيقة يخافون أنفسهم .

قوله تعالى : « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » الظاهر أن لام « ليجزيهم » للغاية ، والذي ذكره الله في خلال الكلام هو أعمالهم الصالحة والأجر الجميل على كل صالح مما ينص عليه كلامه تعالى فقوله : « إنه يجزيهم أحسن ما عملوا معناه أنه يجزيهم بأزاء عملهم في كل باب جزاء أحسن عمل في ذلك الباب ، ومرجع ذلك إلى أنه تعالى يزكي أعمالهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذة في جهات توجب نقصها وانحطاط قدرها فيعد الحسن منها أحسن .

و يؤيد هذا المعنى قوله في ذيل الآية : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » فإن ظاهره عدم المدافعة في حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فيلحق

الحسن بالأحسن .

وقوله : « ويزيدهم من فضله » الفضل العطاء ، وهذا نص في أنه تعالى يعطيهم من فضله ما ليس بإزاء أعمالهم الصالحة ، و أوضح منه قوله تعالى في موضع آخر : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ حيث إن ظاهره أن هذا المزيد الموعود أمروراء ما تتعلق به مشيتهم .

وقد دلّ كلامه سبحانه أن أجرحهم أن لهم ما يشاؤون قال تعالى : « أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » الزمر : ٣٤ ، وقال : « أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها ما يشاؤون خالدين » الفرقان : ١٦ ، وقال : « لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين » : النحل : ٣١ . فهذا المزيد الذي هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلى و أعظم من أن تتعلق به مشية الإنسان أو يوصل إليه سعيه ، وهذا أعجب ما يعده القرآن المؤمنين ويبشرهم به فأجد التدبر فيه .

وقوله : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » استئناف مآله تعليل الجملتين السابقتين بالمشية نظير قوله فيما تقدم : « يهدي الله لنوره من يشاء » على ما مرّ بيانه . ومحصله أنهم عملوا صالحا وكان لهم من الأجر ما يعادل عملهم كما هو ظاهر قوله : « و توفى كل نفس ما عملت » النحل : ١١١ وما في معناه من الآيات لكنه تعالى يجزيهم بكل عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل يؤتى به في بابيه من غير أن يداق في الحساب فهذه موهبة ثم يرزقهم أمرا هو أعلى وأرفع من أن تتعلق به مشيتهم وهذه أيضا موهبة ورزق بغير حساب ، والرزق من الله موهبة محضة من غير أن يملك المرزوقون منه شيئا أو يستحقوه عليه تعالى فله تعالى أن يخص منه ما يشاء لمن يشاء .

غير أنه تعالى وعدهم الرزق و أقسم على إنجازهم في قوله : « فرب السماء والأرض إنه لحق » الذاريات : ٢٣ فملكهم الاستحقاق لأصله و هو الذي يجزيهم به على قدر أعمالهم وأمّا الزائد عليه فلم يملكهم ذلك فله أن يختص به من يشاء فلا يعلل ذلك إلا بمشية ، و للكلام تنمة ستوافيك إن شاء الله في بحث مستقل .

قوله تعالى : « والَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً » إلى آخر الآية . السراب هو ما يلمع في المفازة كالماء ، ولا حقيقة له ، والقيع والقاع هو المستوي من الأرض ومفرداهما القيعة والقاعة كالتينة والتمرة ، والظمآن هو العطشان .

لما ذكر سبحانه المؤمنين و وصفهم بأنهم ذاكرون له في بيوت معظمة لا تلهيهم عنه تجارة ولا بيع ، وأن الله الذي هو نور السماوات والأرض يهديهم بذلك إلى نوره فيكرمهم بنور معرفته قابل ذلك بذكر الذين كفروا فوصف أعمالهم تارة بأنها لا حقيقة لها كسراب بقيعة فلا غاية لها تنتهي إليها ، وتارة بأنها كظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها وهي حاجزة عن النور ، وهذه الآية هي التي تنضمّن الوصف الأوّل .

فقلوا : « والَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً » شبه أعمالهم - وهي التي يأتون بها من قرايين وأذكار وغيرهما من عباداتهم ينقرونها - بسراب بقيعة يحسبه الإنسان ماء ولا حقيقة له يترتب عليها ما يترتب على الماء من رفع العطش وغير ذلك .

وإنّما قيل : يحسبه الظمآن ماء مع أن السراب يقرأ أي ماء لكلّ راء لأن المطلوب بيان سيره إليه ولا يسير إليه إلا الظمآن يدفعه إليه ما به من ظمآن ، و لذلك رتب عليه قوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً » كأنه قيل : كسراب بقيعة يتخيّله الظمآن ماء فيسير إليه و يقبل نحوه ليرتوي و يرفع عطشه به ، ولا يزال يسير حتّى إذا جاءه لم يجد شياً .

و التعبير بقوله : « جاءه » دون أن يقال : بلغه أو وصل إليه أو انتهى إليه و نحوها للإيماء إلى أن هناك من يريد مجيئه و ينظره انتظارا و هو الله سبحانه ، و لذلك أوردناه بقوله : « ووجد الله عنده فوقاه حسابه » فأفاد أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم و جبلتهم و هو السعادة التي يريدونها كل إنسان

بفطرته و جبلته لكن أعمالهم لا توصلهم إليه ، ولا أن الآلهة التي يبتغون بأعمالهم جزاء حسنا منهم لهم حقيقة بل الذي ينتهي إليه أعمالهم ويحيط هو بها و يجزيهم هو الله سبحانه فيوفقيهم حسابهم ، وتوفية الحساب كناية عن الجزاء بما يستوجبه حساب الأعمال و إيصال ما يستحقه صاحب الأعمال .

ففي الآية تشبيه أعمالهم بالسراب ، و تشبيههم بالظمان الذي يريد الماء و عنده عذب الماء لكنه يعرض عنه و لا يصغي إلى مولاه الذي ينصحه و يدعوه إلى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير إليه و يقبل نحوه ، و تشبيه مصيرهم إلى الله سبحانه بحلول الآجال و عند ذلك تمام الأعمال بالظمان السائر إلى السراب إذا جاءه و عنده مولاه الذي كان ينصحه و يدعوه إلى شرب الماء .

فهؤلاء قوم الهوا عن ذكر ربهم والأعمال الصالحة الهادية إلى نوره و فيه سعادتهم و حسبوا أن سعادتهم عند غيره من الآلهة الذين يدعونهم ، والأعمال المقرّبة إليهم و فيها سعادتهم فأكبّوا على تلك الأعمال السرابية و استوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بها مدة أعمارهم حتى حلت آجالهم و شارفوا الدار الآخرة فلم يجدوا شيئا مما يؤملونه من أعمالهم و لا أثرا من الوهية آلهتهم فوقاهم الله حسابهم والله سريع الحساب .

و قوله : « والله سريع الحساب » إنما هو لاحاطة علمه بالقليل و الكثير و الحقيق و الخطير و الدقيق و الجليل و المتقدم و المتأخر على حدّ سواء .

و اعلم أن الآية و إن كان ظاهرها بيان حال الكفار من أهل الملل و خاصة المشركين من الوثنيين لكن البيان جار في غيرهم من منكري الصانع فإن الإنسان كائنا من كان يرى لنفسه سعادة في الحياة و لا يرتاب أن الوسيلة إلى نيلها أعماله التي يأتي بها فإن كان ممن يقول بالصانع و يراء المؤثر في سعادته بوجه من الوجوه توسّل بأعماله إلى تحصيل رضاه و الفوز بالسعادة التي يقدّرها له ، و إن كان ممن ينكره و ينهي التأثير إلى غيره توسّل بأعماله إلى توجيهه ما يقول به من المؤثر كالدهر و الطبيعة و المادة نحو سعادة حياته الدنيا التي لا يقول بما وراءها .

فهؤلاء يرون المؤثر الذي بيده سعادة حياتهم غيره تعالى ولا مؤثر غيره و يرون مساعيمهم الدنيوية موصلة لهم إلى سعادتهم و ليست إلا سرايا لا حقيقة له ولا يزالون يسعون حتى إذا تم ما قدر لهم من الأعمال بحلول ما سمي لهم من الآجال لم يجدوا عندها شيئاً و عاينوا أن ما كانوا يتمنون منها لم يكن إلا طائف خيال أو حلم نائم ، و عند ذلك يوقفيهم الله حسابهم والله سريع الحساب .

قوله تعالى : « أو كظلمات في بحر لجي » يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ، تشبيه ثان لأعمالهم يظهر به أنها حجب متراكمة على قلوبهم تحجبهم عن نور المعرفة ، و قد تكرر في كلامه تعالى أنهم في الظلمات كقوله : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » البقرة : ٢٥٧ و قوله : « كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ و قوله : « كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلاً » إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، المطففين : ١٥ . و قوله : « أو كظلمات في بحر لجي » معطوف على « سراج » في الآية السابقة و البحر اللجي هو البحر المتردد أمواجه منسوب إلى لجة البحر و هي تردد أمواجه ، والمعنى أعمالهم كظلمات كائنة في بحر لجي .

و قوله : « يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب » صفة البحر جبي بها لتقرير الظلمات المفروضة فيه فصفته أنه يغشاه ويحيط به موج كائن من فوقه موج آخر كائن من فوقه سحب يحجب عنه جميعاً من الاستضاءة بأضواء الشمس و القمر و النجوم .

و قوله : « ظلمات بعضها فوق بعض » تقرير لبيان أن المراد بالظلمات المفروضة الظلمات المتراكمة بعضها على بعض دون المتفرقة ، وقد أكد ذلك بقوله : « إذا أخرج يده لم يكدرها » فإن أقرب ما يشاهده الإنسان منه هو نفسه وهو أقدر على رؤية يده منه على سائر أعضائه لأنه يقر بها تجاء باصرته كيفما أراد فإذا أخرج يده ولم يكدرها كانت الظلمة بالغة .

فهؤلاء وهم سائرون إلى الله و صائرون إليه من جهة أعمالهم كراكب بحر

لجبيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب في ظلمات متراكمة كأشد ما يكون ولا نور هناك يستضيء به فيهتدي إلى ساحل النجاة .

و قوله : « و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور » نفى للنور عنهم بأن الله لم يجعله لهم كيف لا ؟ و جاعل النور هو الله الذي هو نور كل شيء ، فأذا لم يجعل لشيء نورا لم يكن له نور إذ لا جاعل غيره تعالى .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات » إلى آخر الآية . لما ذكر سبحانه أنه نور تستنير به السماوات والأرض وأنه يختص بمزيد نوره المؤمنين من عباده والذين كفروا لا نصيب لهم من ذلك شرع يحتج على ذلك بما في هذه الآية والآيات الأربع التالية لها .

فكونه تعالى نور السماوات والأرض يدل عليه أن ما في السماوات والأرض موجود بوجود ليس من عنده ولا من عند شيء مما فيهما لكونه مثله في الفاقة فوجود ما فيهما من موجود من الله الذي ينتهي إليه الحاجات .

فوجود كل شيء مما فيهما كما يظهر به نفس الوجود يدل على من يظهر بما أفاض عليه من الوجود فهو نور يستنير به الشيء ، ويدل على منوره بما أشرق عليه من النور وأن هناك نورا يستنير به كل شيء فكل شيء مما فيهما يدل على أن وراءه شياً منزهاً من الظلمة التي غشيت ، والفاقة التي لزمته ، والنقص الذي لا ينفك عنه ، وهذا هو تسبيح ما في السماوات والأرض له سبحانه ، ولازمه نفى الاستقلال عن كل من سواه و سلب أي إله و رب يدبر الأمر دونه تعالى .

وإلى ذلك يشير قوله : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » و به يحتج تعالى على كونه نور السماوات والأرض لأن النور هو ما يظهر به الشيء المستنير ثم يدل بظهوره على مظهره ، وهو تعالى يظهر ويوجد بإظهاره وإيجاده الأشياء ، ثم يدل على ظهوره و وجوده .

و تزيد الآية بالإشارة إلى لطائف يكمل بها البيان :

منها اختصاصها من في السماوات والأرض والطير صافات و هم العقلاء وبعض

ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبيح لغيرهم لقوله : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » .

ولعل ذلك من باب اختيار أمور من أعاجيب الخلقة للذكر فإن ظهور الموجود العاقل الذي يدل عليه لفظ « من في السماوات والأرض » من عجيب أمر الخلقة الذي يدهش لب ذي اللب كما أن صفييف الطير الصافات في الجو من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان ذي الشعور وأبدعه .

و يظهر من بعضهم أن المراد بقوله : « من في السماوات » الخ جميع الأشياء وإنما عبّر بلفظ أولي العقل لكون التسبيح المنسوب إليها من شؤون أولي العقل أو للتنبيه على قوة تلك الدلالة و وضوح تلك الإشارة تنزيلا للسان الحال منزلة المقال .

و فيه أنه لا يلائم إسناد العلم إليها في قوله بعد : « كل قد علم صلاته و تسبيحه » .

و منها تصدير الكلام بقوله : « ألم تر » وفيه دلالة على ظهور تسبيحهم و وضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لا يرتاب فيه ذريب فكثيرا ما يعبر عن العلم الجازم بالرؤية كما في قوله تعالى : « ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض » إبراهيم : ١٩ و الخطاب فيه عام لكل ذي عقل و إن كان خاصا بحسب اللفظ .

ومن الممكن أن يكون خطابا خاصا بالنبي ﷺ و قد كان أراه الله تسبيح من في السماوات والأرض والطير صافات فيما أراه من ملكوت السماوات والأرض و ليس ببدع منه ﷺ و قد أرى الناس تسبيح الحصة في كفه كما وردت به الأخبار المعتبرة .

و منها أن الآية تعمم العلم لكل ما ذكرتمن في السماوات والأرض والطير و قد تقدم بعض البحث عنه في تفسير قوله : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا نفقهون تسبيحهم » الاسراء : ٤٤ و سنجي تمتة الكلام فيه في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله .

و قول بعضهم : إن الضمير في قوله : « قد علم » راجع إليه تعالى ، يدفعه عدم ملائمته للسياق وخاصة لقوله بعده : « والله عليم بما يفعلون » ونظيره قول آخرين : إن إسناده العلم إلى مجموع ما تقدم من المجاز بتنزيل غير العالم منزلة العالم لقوة دلالاته على تسبيحه وتنزيهه .

و منها تخصيصها التسبيح بالذكر مع أن الأشياء تشير إلى صفات كماله تعالى وهو التحميد كما تسبّحه على ما يدل عليه البرهان و يؤيده قوله : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » و لعل الوجه فيه كون الآيات مسوقة للتوحيد و نفي الشركاء و ذلك بالتنزيه أمس فإن من يدعو من دون الله إلها آخر أو يركن إلى غيره نوعا من الركون إنما يكفر بإثبات خصوصية وجود ذلك الشيء للإله تعالى فنفيه إنما يتأتى بالتنزيه دون التحميد فافهمه .

و أمّا قوله : « كل قد علم صلاته و تسبيحه » فصلاته دعاؤه و الدعاء توجيه من الداعي للمدعو إلى حاجته ففيه دلالة على حاجة عند الداعي المدعو في غنى عنها فهو أقرب إلى الدلالة على التنزيه منه على الثناء والتحميد .

و منها أن الآية تنسب التسبيح والعلم به إلى من في السماوات والأرض فيعم المؤمن والكافر ، و يظهر بذلك أن هناك نورين نور عام يعم الأشياء والمؤمن والكافر فيه سواء ، و إلى ذلك تشير آيات كآية الذر : « و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » الأعراف : ١٧٢ و قوله : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ إلى غير ذلك ، و نور خاص وهو الذي تذكره الآيات و يختص بأوليائه من المؤمنين .

فالنور الذي ينور تعالى به خلقه كالرحمة التي يرحمهم بها قسمان : عام وخاص و قد قال تعالى : « و رحمتي وسعت كل شيء » الأعراف : ١٥٦ و قوله : « فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته » الباقية : ٣٠ ، و قد جمع بينهما في قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نورا » الحديد : ٢٨ و ما ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء

الثاني من كفلي الرحمة .

وقوله : « والله عليم بما يفعلون » و من فعلهم تسبيحهم له سبحانه ، و هذا التسبيح و إن كان في بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسبيح يجوز أن يعدّ فعّالهم بهذه العناية .

و في ذكر علمه تعالى بما يفعلون عقيب ذكر تسبيحهم ترغيب للمؤمنين و شكر لهم بأن ربهم يعلم ذلك منهم و سيجزيهم جزاء حسنا ، و إيدان بتمام الحجة على الكافرين ، فإن من مراتب علمه تعالى كتب الأعمال و الكتاب المبين التي تثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسبيحهم بوجودهم ثم إنكارهم بالسنتهم .

قوله تعالى : « ولله ملك السماوات والأرض و إلى الله المصير » سياق الآية و قد وقعت بين قوله : « ألم تر أن الله يسبح له » الخ و هو احتجاج على شمول نوره العام لكل شيء ، و بين قوله : « ألم تر أن الله يزجي » الخ و ما يتعقبه و هو احتجاج على اختصاص النور الخاص ، يعطي أنها كالمستوسط بين القبيلين أعني بين الأمرين يحتاج بها على كليهما فملكه تعالى لكل شيء و كونه مصيرا لها هو دليل على تعميمه نوره العام و تخصيصه نوره الخاص يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد .

فقوله : « ولله ملك السماوات والأرض » يخص الملك و يقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء و يحكم بما يريد لا يسأل عما يفعل و هم يسألون ، و لازم قصر الملك فيه كونه هو المصير لكل شيء ، و إذ كان لأملاك إلا هو و إليه مرجع كل شيء و مصيره فله أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد .

ومن هنا يظهر أن المراد - والله أعلم - بقوله : « وإلى الله المصير » مرجعيته تعالى في الأمور دون المعاد نظير قوله : « ألا إلى الله تصير الأمور » الشورى : ٥٣ .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله » إلى آخر الآية . الإزجااء هو الدفع ، و الركام المتراكم بعضه على بعض ، و الودق هو المطر ، و الخلاخل جمع الخلل و هو الفرجة بين الشيئين . و الخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل سامع و المعنى : ألم

ترأنت و كل من يرى أن الله يدفع بالرياح سحابا متفرقا ثم يؤلف بينه ثم يجعله مترا كما بعضه على بعض فترى المطر يخرج من خلله و فرجه فينزل على الأرض .

وقوله : « وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء و يصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » السماء جهت العلو ، و قوله : من جبال فيها ، بيان للسماء ، والجبال جمع جبل و هو معروف ، و قوله : « من برد » بيان للجبال ، والبرد قطعات الجمد النازل من السماء ، و كونه جبالا فيها كناية عن كثرتة و تراكمه ، والسنا بالقصر الضوء .

والكلام معطوف على قوله : « يزجي » والمعنى ألم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع و البساتين وربما قتل النفوس و المواشي و يصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقة من أن يذهب الأبصار .

والآية - على ما يعطيه السياق - مسوقة لتعليل ما تقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره ، والمعنى أن الأمر في ذلك إلى مشيئته تعالى كما ترى أنه إذا شاء نزل من السماء مطرا فيه منافع الناس لنفوسهم و مواشيهم و مزارعهم و بساتينهم ، و إذا شاء نزل بردا فيصيب به من يشاء و يصرفه عمن يشاء .

قوله تعالى : « يقلب الله الليل و النهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيئته تعالى فقط . و تقلب الليل و النهار تصريحهما بتبديل أحدهما من الآخر و معنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين و منهم من يمشي على أربع » بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيئته تعالى محضا حيث يخلق كل دابة من ماء ثم تختلف حالهم في المشي فمنهم من يمشي على بطنه كالحيات و الديدان ، و منهم من يمشي على رجلين كالأناسي و الطيور و منهم من يمشي على أربع كالبهائم و السباع ، و اقتصر سبحانه على هذه الأنواع

الثلاثة - وفيهم غير ذلك - إيجازاً لحصول الغرض بهذا المقدار .

وقوله : « يخلق الله ما يشاء » تعليل لما تقدم من اختلاف الدواب ، مع وحدة المادة التي خلقت منها يبين أن الأمر إلى مشيئة الله محضا فله أن يعمم فيضاً من فيوضه على جميع خلقه كالنور العام والرحمة العامة ، وله أن يختص بفيض من فيوضه بعضاً من خلقه دون بعض كالنور الخاص والرحمة الخاصة .

وقوله : « إن الله على كل شيء قدير » تعليل لقوله : « يخلق الله ما يشاء » فإن إطلاق القدرة على كل شيء يستوجب أن لا يتوقف شيء من الأشياء في كينونته على أمر وراء مشيئته وإلا كانت قدرته عليه مشروطة بحصول ذلك الأمر وهذا خلف . وهذا باب من التوحيد دقيق سيتضح بعض الاتضاح إن شاء الله بما في البحث الآتي .

﴿ بحث فلسفي ﴾

إننا لانشك في أن ما نجده من الموجودات الممكنة معلولة منتبهة إلى الواجب تعالى وإن كثيراً منها - وخاصة في الماديات - تتوقف في وجودها على شروط لا تحقق لها بدونها كالأنسان الذي هو ابن فأن لوجوده توقفاً على وجود الوالدين وعلى شرائط أخرى كثيرة زمانية ومكانية ، وإذ كان من الضروري "كون كل" مما يتوقف عليه جزءاً من علته التامة كان الواجب تعالى على هذا جزء علة التامة لأعلة تامة وحدها .

نعم هو بالنسبة إلى مجموع العالم علة تامة إذ لا يتوقف على شيء غيره وكذا الصادر الأول الذي تتبعه بقية أجزاء المجموع ، وأما سائر أجزاء العالم فأنه تعالى جزء علة التامة ضرورة توقفه على ما هو قبله من العلل وما هو معه من الشرائط والمعدات .

هذا إذا اعتبرنا كل واحد من الأجزاء بحياله ثم نسبنا وحده إلى الواجب

تعالى .

وهنا نظر آخر أدق وهو أن الارتباط الوجودي الذي لا سبيل إلى إنكاره

بين كل شيء وبين علله الممكنة وشروطه ومعداته يقضي بنوع من الاتحاد والاتصال بينها فالواحد من الأجزاء ليس مطلقا منفصلا بل هو في وجوده المتعين مقيد بجميع ما يرتبط به متصل الهوية بغيرها .

فالإِنسان الإِبْن الذي كنّا نعتبره في المثال المتقدم بالنظر السابق موجودا مستقلا مطلقا فنجدّه متوقفا على علل و شروط كثيرة والواجب تعالى أحدها يعود بحسب هذه النظرة هويّة مقيّدة بجميع ما كان يعتبر توقّفه عليه من العلل والشرائط غير الواجب تعالى فحقيقة زيد مثلا هو الإنسان ابن فلان وفلانة المتولد في زمان كذا ومكان كذا المتقدم عليه كذا وكذا المقارن لوجوده كذا وكذا من الممكنات . فهذه هو حقيقة زيد مثلا ومن الضروري " أن ما حقيقته ذلك لا تتوقّف على شيء غير الواجب فالواجب هو علّته التامة التي لا توقّف له على غيره ، ولا حاجة له إلى غير مشيئته ، وقدرته تعالى بالنسبة إليه مطلقة غير مشروطة ولا مقيّدة ، وهو قوله تعالى : **يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** .

قوله تعالى : « **لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** » يريد آية النور وما يتلوها المبيّنة لصفة نوره تعالى والصراط المستقيم سبيله التي لا سبيل للغضب والضلال إلى من اهتدى إليها كما قال : « **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** » صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين » الحمد : ٧ وقد تقدّم الكلام فيه في تفسير سورة الحمد .

و تذييل الآية بقوله : « **وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** » هو الموجب لعدم تقييد قوله : « **لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ** » بلفظة إليكم بخلاف قوله قبل آيات : « **لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** » . إذ لو قيل : **لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي** . تبادر إلى الذهن أن البيان اللفظي هداية إلى الصراط المستقيم وأن المخاطبين عامّة مهديّون إلى الصراط المستقيم وفيهم المنافق والذين في قلوبهم مرض والله العالم .

﴿بحث روائي﴾

في التوحيد بإسناده عن العباس بن هلال قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل : « الله نور السماوات والأرض » فقال : هاد لأهل السماوات و هاد لأهل الأرض .

وفي رواية البرقي : « هدى من في السماوات وهدى من في الأرض .
أقول : إذ كان المراد بالهداية الهداية الخاصة و هي الهداية إلى السعادة الدينية كان من التفسير بمرتبة من المعنى ، وإن كان المراد بها الهداية العامة و هي إيصال كل شيء إلى كماله ، يطبق على ما تقدم .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن جرير قال : سألتني امرأة أن أدخلها على أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت لها فأذن لها فدخلت و معها مولاة لها فقالت له : يا أبا عبد الله قول الله : « زيتونة لشرقية ولاغربية » ما عني بهذا ؟ فقال لها : أيتها المرأة إن الله لم يضرب الأمثال للشجر إنما ضرب الأمثال لبني آدم .

وفي تفسير القمي بإسناده عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام في هذه الآية « الله نور السماوات والأرض » قال : بدء بنور نفسه « مثل نوره » مثل هداة في قلب المؤمن « كمشكاة فيها مصباح » والمصباح جوف المؤمن والقنديل قلبه ، والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه .

« يوقد من شجرة مباركة » قال : الشجرة المؤمن « زيتونة لا شرقية ولاغربية » قال : على سواد الجبل لا غربية أي لشرق لها ، ولا شرقية أي لا غرب لها إذا طلعت الشمس طلعت عليها و إذا غربت غربت عليها « يكاد زيتها يضيء » يكاد النور الذي في قلبه يضيء ، وإن لم يتكلم .

« نور على نور » فريضة على فريضة ، و سنة على سنة « يهدي الله لنوره من يشاء » يهدي الله لفرائضه و سننه من يشاء « و يضرب الله الأمثال للناس » فهذا مثل ضربه الله للمؤمن .

ثم قال : فالْمُؤْمِنُ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةِ مِنَ النُّورِ : مَدْخَلُهُ نُورٌ ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ ، وَعِلْمُهُ نُورٌ ، وَكَلَامُهُ نُورٌ ، وَمَصِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ نُورٌ . قُلْتُ لَجَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُمْ يَقُولُونَ : مِثْلُ نُورِ الرَّبِّ . قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ لَيْسَ لِلَّهِ مِثْلُ مَا قَالَ اللَّهُ : « فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ » .

أقول : الحديث يؤيد ما تقدّم في تفسير الآية ، وقد اكتفى عَلَيْهِ السَّلَامُ في تفسير بعض فقرات الآية بذكر بعض المصاديق كالذي ذكره في ذيل قوله : « يكاد زينها يضيء » ، وقوله : « نور على نور » .

وأما قوله : « سبحان الله ليس لله مثل » ، فإنما ينفي به أن يكون المثل مثلاً للنور الذي هو اسمه تعالى المحمول عليه فكونه مثلاً له تعالى يؤدي إلى الحلول أو الانقلاب تعالى عن ذلك بل هو مثل لنوره المفاض على السماوات والأرض ، وأما الضمير في قوله : « مثل نوره » ، فلا ضمير في رجوعه إليه تعالى مع الاحتفاظ على المعنى الصحيح .

و في التوحيد وقد روي عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه سئل عن قول الله عز وجل : « الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » فقال : هو مثل ضربه الله لنا فالنبيُّ والأئمة صلوات الله عليهم من دلالات الله وآياته التي يهتدى بها إلى التوحيد ومصالح الدين وشرائع الإسلام والسنن والفرائض ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أقول : الرواية من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق وهو من أفضل المصاديق وهو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والطارهون من أهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وإلا فالآية تعم بظاهرها غيرهم من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والأوصياء والأولياء .

نعم ليست الآية بعامة لجميع المؤمنين لأخذها في وصفهم صفات لاتعم الجميع كقوله : « رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله » الخ .

وقد وردت عدة من الأخبار من طرق الشيعة في تطبيق مفردات الآية على

النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ وهي من التطبيق دون التفسير ، و من الدليل على ذلك اختلافها في نحو التطبيق كرواية الكليني في روضة الكافي بإسناده عن جابر أبي جعفر ﷺ وفيها أن المشكاة قلب محمد ﷺ ، والمصباح النور الذي فيه العلم ، والزجاجة علي أو قلبه ، والشجرة المباركة الزيتون التي لا شرقية ولا غربية إبراهيم عليه السلام ما كان يهودياً ولا نصرانياً ، و قوله : « يكاد زيتها يضيء » الخ يكاد أولادهم أن يتكلموا بالنبوة وإن لم ينزل عليهم ملك .

وما رواه في التوحيد بإسناده إلى عيسى بن راشد عن الباقر ﷺ وفيه أن المشكاة نور العلم في صدر النبي ﷺ ، والزجاجة صدر علي « يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار » يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل « نور على نور » إمام مؤيد بنور العلم والحكمة في إثر الإمام من آل محمد .

وما في الكافي بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني عن الصادق ﷺ وفيه أن المشكاة فاطمة ﷺ ، والمصباح الحسن ﷺ ، والزجاجة الحسين ﷺ ، و الشجرة المباركة إبراهيم ﷺ ، ولا شرقية ولا غربية ما كان يهودياً ولا نصرانياً ، ونور على نور إمام بعد إمام ، و يهدي الله لنوره من يشاء يهدي الله للأئمة ﷺ من يشاء .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : « زيتونة لا شرقية ولا غربية » قال : قلب إبراهيم لا يهودي ولا نصراني . أقول : و هو من قبيل ذكر بعض المصاديق ، و قد ورد مثله من طرق الشيعة عن بعض أئمة أهل البيت ﷺ كما تقدم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك و بريدة قالا : قرء رسول الله ﷺ هذه الآية « في بيوت أذن الله أن ترفع » فقام إليه رجل فقال : أي بيوت هذه يا رسول الله ؟ قال : بيوت الأنبياء . فقام إليه أبو بكر فقال : يا رسول الله هذا البيت منها لبيت علي و فاطمة ؟ قال : نعم من أفاضلها .

أقول : ورواه في المجمع عنه رحمته الله مرسلًا ، وروى هذا المعنى القمي في تفسيره بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ولفظه : قال : هي بيوت الأنبياء وبيت علي عليه السلام منها . وهو على أي حال من قبيل ذكر بعض المصاديق على ما تقدم .

و في نهج البلاغة من كلام له عليه السلام عند تلاوته « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » و إن للذكر لاهلا أحذوه من الدنيا بدلا فلم يشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعون به أيام الحياة ، و يهتفون بالرواحر عن محارم الله في أسماع الغافلين ، و يأمرون بالقسط و يأمرون به وينهون عن المنكر وينتهون عنه .

كما نتما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاها و ما وراء ذلك فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه ، و حققت القيامة عليهم عذابها فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس و يسمعون ما لا يسمعون . و في المجمع في قوله تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع » و روي عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام : أنهم قوم إذا حضرت الصلاة تركوا التجارة و انطلقوا إلى الصلاة وهم أعظم أجرا ممن لم يتجر .

أقول : أي لم يتجر و اشتغل بذكر الله كما في روايات أخر .

و في الدر المنثور عن ابن مردويه وغيره عن أبي هريرة و أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و آله في قوله تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » قال : هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله .

أقول : كأن الرواية غير تامة و تمامها فيما روي عن ابن عباس قال : كانوا رجالا يبتغون من فضل الله يشترون و يبيعون فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما بأيديهم و قاموا إلى المسجد فصلوا .

و في المجمع في قوله تعالى : « والله سريع الحساب » و سئل أمير المؤمنين عليه السلام : كيف يحاسبهم في حالة واحدة ؟ فقال : كما يرزقهم في حالة واحدة .

و في روضة الكافي بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه و آله : « إن الله عز و جل جعل السحاب

غرا بيل المطر هي تذيب البرد حتى يصير ماء، لكي لا يضر شيئاً يصيبه ، والذي ترون فيه من البرد والصواعق نقمة من الله عز وجل يصيب بها من يشاء من عباده .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فمنهم من يمشي على بطنه و منهم من يمشي على رجلين و منهم من يمشي على أربع » قال : على رجلين الناس ، وعلى بطنه الحيات ، و على أربع البهائم ، و قال أبو عبد الله عليه السلام : و منهم من يمشي على أكثر من ذلك .





وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ
 بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)
 أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ
 أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
 لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ
 طَعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا
 بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ تُعْزِمَهُمْ لِيُخْرِجَنَّ قُلَّ لَا تَقْسَمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ أَنَّ اللَّهَ
 خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ
 مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
 الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ
 فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى
 لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ
 بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَ
 أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي
 الْأَرْضِ وَمَا فِيهِمْ نَارٌ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) .

﴿ بيان ﴾

تتضمن الآيات افتراض طاعة الرسول ﷺ و أنها لا تفارق طاعة الله تعالى ، و وجوب الرجوع إلى حكمه وقضائه وأن الاعراض عنه آية النفاق ، و تختتم بوعده جميل للصالحين من المؤمنين و إيعاد للكافرين .

قوله تعالى : « و يقولون آمنا بالله و بالرسول و أطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك » الخ بيان حال بعض المنافقين حيث أظهرُوا الإيمان والطاعة أولاً ثم تولّوا ثانياً فالإيمان بالله هو العقد على توحيدِهِ و ما شرع من الدين ، و الإيمان بالرسول هو العقد على كونه رسولا مبعوثا من عند ربّه أمره أمره و نهيهِ نهيهِ و حكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شيء ، و طاعة الله هي تطبيق العمل بما شرعه ، و طاعة الرسول لا يتمار و الانتهاء عند أمره و نهيهِ و قبول ما حكم به و قضى عليه . فالإيمان بالله و طاعته مودعهما نفس الدين و التشرع به ، و الإيمان بالرسول و طاعته مودعهما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنه يخبر به و ما حكم به و قضى عليه في المنازعات و الانقياد له في ذلك كله .

فبين الإيمانين والطاعتين فرق ما من حيث سعة المورد و ضيقه ، و يشير إلى ذلك ما في العبارة من نوع من التفصيل حيث قيل : « آمنا بالله و بالرسول » فأشير إلى تعدد الإيمان والطاعة و لم يقل : آمنا بالله و بالرسول بحذف الباء ، و الإيمانان مع ذلك متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر قال تعالى : « و يريدون أن يفترقوا بين الله و رسله » النساء : ١٥٠ .

فقوله : « و يقولون آمنا بالله و بالرسول و أطعنا » أي عقدنا القلوب على دين الله و تشرعنا به و على أن الرسول لا يخبر إلا بالحق ولا يحكم إلا بالحق . و قوله : « ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك » أي ثم يعرض طائفة من هؤلاء القائلين : « آمنا بالله و بالرسول و أطعنا » عن مقتضى قولهم من بعد ما قالوا ذلك . و قوله : « و ما أولئك بالمؤمنين » أي ليس أولئك القائلون بالمؤمنين ، و المشار

إليه باسم الإشارة القائلون جميعا لخصوص الفريق المتولين على ما يعطيه السياق لأنّ الكلام مسوق لذمّ الجميع.

قوله تعالى : « و إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون » يشهد سياق الآية أنّ الآيات إنّما نزلت في بعض من المنافقين دعوا إلى حكم النبي ﷺ في منازعة وقعت بينه وبين غيره فأبى الرجوع إلى النبي ﷺ وفي ذلك نزلت الآيات .

والنبي ﷺ إنّما كان يحكم بينهم بحكم الله على ما أراه الله كما قال تعالى : « إنّنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله » النساء : ١٠٥ . فللحكم نسبة إليه بالمباشرة ونسبة إلى الله سبحانه من حيث كان الحكم في ضوء شريعته و بنصبه النبي ﷺ للحكم والقضاء .

وبذلك يظهر أنّ المراد بالدعوة إلى الله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى المتابعة لما يقتضيه شرعه تعالى في مورد النزاع ، و بالدعوة إلى رسوله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى متابعة ما يقضي عليه بالمباشرة ، وأنّ الظاهر أنّ ضمير « ليحكم » للرسول ، و إنّما أُفرد الفاعل ولم يثنّ إشارة إلى أنّ حكم الرسول حكمه تعالى . والآية بالنسبة إلى الآية السابقة كالخاصّ بالنسبة إلى العامّ فهي تقصّ إعراضا معيّنا منهم والإعراض المذكور في الآية السابقة منهم إعراض مطلق .

قوله تعالى : « و إن يكن لهم الحقّ يأتوا إليه مذعنين » الإذعان الانقياد ، و ظاهر السياق و خاصّة قوله : « يأتوا إليه » أنّ المراد بالحقّ حكم الرسول بدعوى أنّه حقّ لا ينفكّ عنه ، والمعنى وإن يكن الحقّ الذي هو حكم الرسول لهم لا عليهم يأتوا إلى حكمه متقادين فليسوا بمعرضين عنه إلّا لكونه عليهم لالهم ، و لازم ذلك أنّهم يتبعون الهوى ولا يريدون اتباع الحقّ .

قوله تعالى : « أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله » إلى آخر الآية . الحيف الجور .

و ظاهر سياق الآيات أنّ المراد بمرض القلوب ضعف الإيمان كما في قوله

تعالى : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، الأحزاب : ٣٢ ، وقوله : « لكن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ، الأحزاب : ٦٠ و غير ذلك من الآيات .

وأما كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسّره فيدفعه قوله في صدر الآيات : « و ما أولئك بالمؤمنين ، فإنه حكم بنفاقهم ، ولا معنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثم الإضراب عنه بقوله : « بل أولئك هم الظالمون » .

وقوله : « أم ارتابوا » ظاهر إطلاق الارتياب وهو الشك أن يكون المراد هو شكهم في دينهم بعد الإيمان دون الشك في صلاحية النبي ﷺ للحكم أو عدله ونحو ذلك لكونها بحسب الطبع محتاجة إلى بيان بنصب قرينة .

وقوله : « أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله » أي أم يعرضون عن ذلك لأنهم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله لكون الشريعة الإلهية التي يتبعها حكم النبي ﷺ مبنية على الجور وإماتة الحقوق الحقة ، أو لكون النبي ﷺ لا يراعي الحق في قضاؤه .

وقوله : « بل أولئك هم الظالمون » إضراب عن التردد السابق بشقوقه الثلاثة وذلك أن سبب إعراضهم لو كان مرض قلوبهم أو ارتيابهم لم يأتوا إليه مذعنين على تقدير كون الحق لهم بل كانوا يعرضون كان الحق لهم أو عليهم ، وأما الخوف من أن يحيف الله عليهم ورسوله فلا موجب له فالله بري من الحيف ورسوله فليس إعراضهم عن إجابة الدعوة إلى حكم الله ورسوله إلا لكونهم حق عليهم أنهم ظالمون . والظاهر أن المراد بالظلم التمدي عن طور الإيمان مع الإقرار به قولاً كما قال آتفا : « و ما أولئك بالمؤمنين » أو خصوص التعدي إلى حقوق الغير المالية ، ولو كان المراد مطلق الظلم لم يصح الإضراب عن الشقوق الثلاثة السابقة إليه لأنها من مطلق الظلم ، ويدل عليه أيضاً الآية التالية .

وقد بان بما تقدم أن التردد في أسباب الإعراض على تقدير عدم النفاق بين الأمور الثلاثة جاصر والأقسام متغايرة فإن محصل المعنى أنهم منافقون غير

مؤمنين إذلولم يكونوا كذلك كان إعراضهم إمّا لضعف إيمانهم وإمّا لزواله بالارتباب وإمّا للخوف من غير سبب يوجبّه فإنّ الخوف من الرجوع إلى حكم الحاكم إنّما يكون إذا احتمل حيفه في حكمه وميله عن الحقّ إلى الباطل ولا يحتمل ذلك في حكم الله ورسوله .

وقد طال البحث في كلامهم ممّا في الآية من التردد والإضراب ولعلّ فيما ذكرناه كفاية ، ومن أراد أزيد من ذلك فليراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « إنّما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا » إلى آخر الآية سياق قوله : « إنّما كان قول المؤمنين » وقد أخذ فيه « كان » ووصف الإيمان في « المؤمنين » يدلّ على أنّ ذلك من مقتضيات طبيعة الإيمان فإنّ مقتضى الإيمان بالله ورسوله وعقد القلب على اتباع ما حكم به الله ورسوله التلبية للدعوة إلى حكم الله ورسوله دون الردّ .

وعلى هذا فالمراد بقوله : « إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم » دعوة بعض الناس ممن ينازعهم كدعوة بعض المتنازعين المتخاصمين الآخر إلى التحاكم إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، ويدلّ عليه تصدير الجملة بلفظة « إذا » ولو كان المراد به دعوة الله ورسوله بمعنى إيجاب رجوع المؤمنين في منازعاتهم إلى حكم الله ورسوله كان ذلك حكما مؤبّدا لا حاجة فيه إلى التقييد بالزمان .

وبذلك يظهر ضعف ما قيل : إنّ فاعل « دعوا » المحذوف هو الله ورسوله والمعنى إذا دعاهم الله ورسوله . نعم مرجع الدعوة بأخرة إلى دعوة الله ورسوله . وكيف كان تقصر الآية قول المؤمنين على تقدير الدعوة إلى حكم الله ورسوله في قولهم : سمعنا وأطعنا وهو سمع وطاعة للدعوة الإلهيّة سواء فرض الداعي هو أحد المتنازعين للآخر أو فرض الداعي هو الله ورسوله أو كان المراد هو السمع والطاعة لحكم الله ورسوله وإن كان بعيدا .

وانحصار قول المؤمنين عند الدعوة في « سمعنا وأطعنا » يوجب كون الردّ للدعوة ليس من قول المؤمنين فيكون تعدّيا عن طور الإيمان كما يفيدّه قوله :

«بل أولئك هم الظالمون» على ما تقدم فتكون الآية في مقام التعليل للإضراب في ذيل الآية السابقة .

وقد ختمت الآية بقوله : «و أولئك هم المفلحون» وفيه قصر الفلاح فيهم لا قصرهم في الفلاح .

قوله تعالى : «و من يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقنه فأولئك هم الفائزون» ورود الآية في سياق الآيات السابقة وانضمامها إلى سابقتها يعطي أنها في مقام التعليل . كالكبرى الكلية . للآية السابقة حيث حكمت بفلاح من أجاب الدعوة إلى حكم الله ورسوله بالسمع والطاعة بقيد الإيمان كأنه قيل : إنتمأ أفلح من أجاب إلى حكم الله ورسوله وهو مؤمن لأنّه مطيع لله و لرسوله وهو مؤمن حقاً في باطنه خشية الله وفي ظاهره تقواه ومن يطع الله ورسوله فيما قضى عليه ويخش الله ويتقنه فأولئك هم الفائزون ، والفوز هو الفلاح .

وتشمل الآية الداعي إلى حكم الله ورسوله من المتنازعين كما يشمل المدعوّ منهما إذا أجاب بالسمع والطاعة ففيها زيادة على تعليل حكم الآية السابقة تعميم الوعد الحسن للداعي والمدعوّ جميعاً .

قوله تعالى : «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجنّ قل لا تقسموا طاعة معروفة» إلى آخر الآية الجهد الطاقة ، والتقدير في قوله : «أقسموا بالله جهد أيمانهم» أقسموا بالله مبلغ جهدهم في أيمانهم والمراد أقسموا بأغلظ أيمانهم .

والظاهر أن المراد بقوله : «ليخرجنّ» الخروج إلى الجهاد على ما وقع في عدة من الآيات كقوله : «ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل أقعدوهم القاعدين لو خرجوا فيكم مازادوكم إلّا خبالاً» التوبة : ٤٧ .

وقوله : «قل لا تقسموا» نهي عن الإقسام ، وقوله : «طاعة معروفة» خبر لمبتدأ محذوف هو الضمير الراجع إلى الخروج و الجملة في مقام التعليل للنهي عن الأقسام ولذا جيء بالفصل ، وقوله : «والله خير بما تعملون» من تمام التعليل .

ومعنى الآية : و أقسموا بالله بأغلظ أيمانهم لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد

ليخرجن^١ قل لهم : لاتقسموا فتلخروج إلى الجهاد طاعة معروفة من الدين - و هو واجب لاجابة إلى إيجابه بيمين مغلظ - و إن تكونوا تقسمون لأجل أن ترضوا الله و رسوله بذلك فالله خبير بما تعملون لا يغتر^٢ إغلاظكم في الأيمان .

و قيل : المراد بالخروج خروجهم من ديارهم و أموالهم لوحكم الرسول بذلك وقوله : « طاعة معروفة » مبتدأ، لخبر محذوف والتقدير طاعة معروفة للنبي^٣ خير من إقسامكم ، و معنى الآية وأقسموا بالله بأغلظ الأيمان لئن أمرتهم وحكمت عليهم في منازعاتهم بالخروج من ديارهم و أموالهم ليخرجن^٤ منها قل لهم : لاتقسموا لأن^٥ طاعة حسنة منكم للنبي^٦ خير من إقسامكم بالله و الله خبير بما تعملون .

و فيه أن^٧ هذا المعنى و إن كان يؤكّد اتصال الآية بما قبلها بخلاف المعنى السابق لكنّه لا يلائم النصريح السابق بردهم الدعوة إلى الله و رسوله ليحكم بينهم لأنهم إذ كانوا تولّوا و أعرضوا عن حكم الله و رسوله لم يكن يسعهم أن يقسموا للنبي^٨ لئن أمرهم في حكمه بالخروج من ديارهم و أموالهم ليخرجن^٩ و هو ظاهر، اللهم^{١٠} إلا أن يكون المقسمون فريقاً آخر منهم غير الرادّين للدعوة المعرضين عن الحكم ، وحينئذ كان حمل « ليخرجن^{١١} » على هذا المعنى لادليل يدل^{١٢} عليه .

قوله تعالى : « قل أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن تولّوا فإنّما عليه ما حمل و عليكم ما حملتم » إلى آخر الآية أمر بطاعة الله فيما أنزل من الدين ، و أمر بطاعة الرسول فيما يأتيهم به من ربهم و يأمرهم به في أمر دينهم و دنياهم ، و تصدير الكلام بقوله : « قل » إشارة إلى أن^{١٣} الطاعة جميعاً لله ، و قد أكّده بقوله : « و أطيعوا الرسول » دون أن يقول : و أطيعوني لأن^{١٤} طاعة الرسول بما هو طاعة الرسول طاعة المرسل ، و بذلك تتم^{١٥} الحجّة .

و لذلك عقب الكلام :

أو لا بقوله : « فإن تولّوا فإنّما عليه ما حمل و عليكم ما حملتم » أي فإن تولّوا و تعرضوا عن طاعة الرسول لم يضر^{١٦} ذلك الرسول فإنّما عليه ما حمل من التكليف ولا يمستكم منه شيء ، و عليكم ما حملتم من التكليف ولا يمستكم منه شيء فإن^{١٧}

الطاعة بجميع الله سبحانه .

و ثانياً بقوله : « وإن تطيعوه تهتدوا » أي و إن كان لكل منكم ومنه ما حمل لكن إن تطيعوا الرسول تهتدوا لأن ما يجيء به إليكم و ما يأمركم به من الله و بأمره ، والطاعة لله وفيه الهداية .

و ثالثاً بقوله : « و ما على الرسول إلا البلاغ المبين » و هو بمنزلة التعليل لما تقدمه أي إن ما حمّله الرسول من التكليف هو التبليغ فحسب فلا بأس عليه إن خالفتم ما بلغ ، و إذ كان رسولا لم يحتمل إلا التبليغ فطاعته طاعة من أرسله وفي طاعة من أرسله و هو الله سبحانه اهتدواؤكم .

قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » إلى آخر الآية .

ظاهر وقوع الآية موقعها أنها نزلت في ذيل الآيات السابقة من السورة وهي مدنيّة ولم تنزل بمكة قبل الهجرة على ما يؤيده سياقها و خاصّة ذيلها .

فلا آية - على هذا - و عد جميل للذين آمنوا و عملوا الصالحات أن الله تعالى سيجعل لهم مجتمعاً صالحاً يخصّ بهم فيستخلفهم في الأرض و يمكن لهم دينهم و يبدلهم من بعد خوفهم أمناً لا يخافون كيد منافق و لاصد كافر يعبدونه لا يشركون به شيئاً .

فقوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات » من فيه تبعية لا بيانية و الخطاب لعامة المسلمين و فيهم المنافق و المؤمن و في المؤمنين منهم من يعمل الصالحات و من لا يعمل الصالحات ، و الوعد خاص بالذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات محضاً .

و قوله : « ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » إن كان المراد بالاستخلاف إعطاء الخلافة الإلهية كما ورد في آدم و داود و سليمان ﷺ قال تعالى : « إنني جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ ، و قال : « يا داود إننا جعلناك خليفة في الأرض » ص : ٢٦ ، و قال : « و ورث سليمان داود » النمل : ١٦ فالمراد

بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ خَلَفَاءُ اللَّهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَلَا يَخْلُو مِنْ بَعْدِ كَمَا سَيَأْتِي .
وإن كان المراد به إيرات الأرض و تسليط قوم عليها بعد قوم كما قال :
« إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » الاعراف ١٢٨ وقال :
« أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » الأنبياء : ١٠٥ فالمراد بالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم
المؤمنون من أُمَمِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ وَالْفَاسِقِينَ مِنْهُمْ وَ نَجَّى
الْخَلَصَ مِنْ مُؤْمِنِيهِمْ كَقَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ كَمَا أَخْبَرَ عَنْ جَمْعِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :
« قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ
رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ
وَعِيدَ » إبراهيم : ١٤ فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا لِلَّهِ فَنَجَّاهُمْ فَعَقَدُوا مَجْتَمَعًا صَالِحًا وَعَاشُوا
فِيهِ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ .

و أما قول من قال : « إِنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينَ اسْتَخْلَفُوا مِنْ قَبْلِهِمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمَّا
أَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ فَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَ مِصْرَ وَالشَّامَ وَ مَكَّنَّهُمْ فِيهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ :
« وَ نَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ
وَ نَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » القصص : ٦ .

ففيه أن المجتمع الإسرائيلي المنعقد بعد نجاتهم من فرعون وجنوده لم يصف
من الكفر والنفاق والفسق ولم يخلص للذين آمنوا و عملوا الصالحات ولا حينئذ على
ما ينص عليه القرآن الكريم في آيات كثيرة ، ولا وجه لتشبيهه استخلاف الذين
آمنوا و عملوا الصالحات باستخلافهم و فيهم الكافر والمنافق والطالح والصالح .

و لو كان المراد تشبيه أصل استخلافهم بأصل استخلاف الذين من قبلهم - وهم
بنو إسرائيل - كيفما كان لم يحتج إلى إشخاص المجتمع الإسرائيلي للتشبيه به
و في زمن نزول الآية و قبل ذلك أُمَمٌ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا مِنْهُمْ كَالرُّومِ وَ الْفَارَسِ
وَ كَلْدَةِ وَغَيْرِهِمْ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي عَادِ الْأُولَى وَ ثَمُودَ : « إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ
قَوْمِ نُوحٍ » الاعراف : ٦٩ ، وَ قَالَ : « إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادَ » الاعراف :
٧٤ ، وَ قَدْ خَاطَبَ بِذَلِكَ الْكَفَّارَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَقَالَ : « هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَافَةً

الأرض ، الأنعام : ١٦٥ و قال : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره » فاطر : ٣٩ .

فإن قلت : لم لا يجوز أن يكون التشبيه ببني إسرائيل ثم "يؤدّي" حق هذا المجتمع الصالح بما يعقبه من قوله : « وليمكنن لهم دينهم » إلى آخر الوعد ؟ قلت : نعم ولكن لا موجب حينئذ لاختصاص استخلاف بني إسرائيل لأن يشبه به و أن يكون المراد بالذين من قبلهم بني إسرائيل فقط كما تقدم .

و قوله : « وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم » تمكين الشيء إقراره في مكان و هو كناية عن ثبات الشيء من غير زوال و اضطراب و تزلزل بحيث يؤثر أثره من غير مانع ولا حاجز فتمكن الدين هو كونه معمولاً به في المجتمع من غير كفر به و استهانة بأمره ، و مأخوذاً بأصول معارفه من غير اختلاف و تخصص و قد حكم الله سبحانه في مواضع من كلامه أن الاختلاف في الدين من بغي المختلفين كقوله : « وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » البقرة : ٢١٢ . و المراد بدينهم الذي ارتضى لهم دين الإسلام ، و أضاف الدين إليهم تشريفا لهم ولكونه من مقتضى فطرته .

و قوله : « وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » هو كقوله : « وليمكنن لهم » عطف على قوله : « ليستخلفنهم » و أصل المعنى وليبدلن خوفهم أمنا فنسبة التبديل إليهم إما على المجاز العقلي أو على حذف مضاف يدل عليه قوله : « من بعد خوفهم » والتقدير و ليبدلن خوفهم ، أو كون « أمنا » بمعنى آمنين .

و المراد بالخوف على أي حال ما كان يقاسيه المؤمنون في صدر الإسلام من الكفار والمنافقين .

و قوله : « يعبدونني لا يشركون بي شياً » الأوفق بالسياق أن يكون حالا من ضمير « وليبدلنهم » أي و ليبدلن خوفهم أمنا في حال يعبدونني لا يشركون بي شياً .

والالفتات في الكلام من الغيبة إلى التكلم ، و تأكيد « يعبدونني » بقوله :

« لا يشركون بي شيئاً » و وقوع النكرة - شيئاً - في سياق النفي الدالّ على نفي الشرك على الإطلاق كل ذلك يقضي بأن المراد عبادتهم لله عبادة خالصة لا يداخلها شرك جليّ أو خفيّ و بالجملة يبدّل الله مجتمعهم مجتمعاً آمناً لا يعبد فيه إلا الله ولا يتخذ فيه ربّ غيره .

و قوله : « و من كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » ظاهر السياق كون ذلك إشارة إلى الموعود والأنسب على ذلك كون « كفر » من الكفران مقابل الشكر ، والمعنى و من كفر ولم يشكر الله بعد تحقق هذا الوعد بالكفر أو النفاق أو سائر المعاصي الموبقة فأولئك هم الفاسقون الكاملون في الفسق و هو الخروج عن زيّ العبوديّة .

و قد اشتهد الخلاف بين المفسّرين في الآية .

ف قيل : إنّها واردة في أصحاب النبي ﷺ وقد أنجز الله وعده لهم باستخلافهم في الأرض و تمكين دينهم و تبديل خوفهم أمناً بما أعزّ الإسلام بعد رحلة النبي ﷺ في أيام الخلفاء الراشدين ، و المراد باستخلافهم استخلاف الخلفاء الأربعة بعد النبي ﷺ أو الثلاثة الأول منهم ، و نسبة الاستخلاف إلى جميعهم مع اختصاصه ببعضهم و هم الأربعة أو الثلاثة من قبيل نسبة أمر البعض إلى الكلّ كقولهم : قتل بنو فلان و إنّما قتل بعضهم .

و قيل : هي عامّة لأمة محمد ﷺ ، و المراد باستخلافهم و تمكين دينهم و تبديل خوفهم أمناً بإيراثهم الأرض كما أورثها الله الأئمّة الذين كانوا قبلهم أو استخلاف الخلفاء بعد النبي ﷺ - على اختلاف التقرير - و تمكين الإسلام و انهزام أعداء الدين و قد أنجز الله وعده بما نصر الإسلام و المسلمين بعد الرحلة ففتحوا الأمصار و سخروا الأقطار .

و على القولين الآية من ملاحم القرآن حيث أخبر بأمر قبل أو ان تحققه ولم يكن مرجواً ذلك يومئذ .

وقيل : إنّها في المهديّ الموعود ﷺ الذي تواترت الأخبار على أنّه سيظهر

فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا ، وإن المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات النبي ﷺ والأئمة من أهل بيته ﷺ .

والذي يعطيه سياق الآية الكريمة على ما تقدم من البحث بالتحريز عن المسامحات التي ربما يرتكبها المفسرون في تفسير الآيات هو أن الوعد لبعض الأئمة لا لجمعها ولا لأشخاص خاصة منهم وهم الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات فالآية نص في ذلك ، ولا قرينة من لفظ أو عقل يدل على كونهم هم الصحابة أو النبي وأئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام ، ولا على أن المراد بالذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات جميع الأئمة وإنما صرف الوعد إلى طائفة خاصة منهم تشريفا لهم أو لمزيد العناية بهم فهذا كله تحكّم من غير وجه .

والمراد باستخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم عقد مجتمع مؤمن صالح منهم يرثون الأرض كما ورثها الذين من قبلهم من الأمم الماضية أولى القوة والشوكة ، وهذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن يختص به أشخاص منهم كما كان كذلك في الذين من قبلهم ، وأما إرادة الخلافة الإلهية بمعنى الولاية على المجتمع كما كان لداود وسليمان ويوسف ﷺ وهي السلطنة الإلهية فمن المستبعد أن يعبر عن أنبيائه الكرام بلفظ « الذين من قبلهم » وقد وقعت هذه اللفظة أوما بمعناها في أكثر من خمسين موضعا من كلامه تعالى ولم يقصد ولا في واحد منها الأنبياء الماضون مع كثرة ورود ذكرهم في القرآن نعم ذكرهم الله بلفظ « رسل من قبلك » أو « رسل من قبلي » أو نحوهما بالإضافة إلى الضمير الراجع إلى النبي ﷺ .

والمراد بتمكين دينهم الذي ارتضى لهم كما مرّ ثبات الدين على ساقه بحيث لا يزلله اختلافهم في أصوله ، ولا مساهلتهم في إجراءات أحكامه ، والعمل بفروعه و خلوص المجتمع من وصمة النفاق فيه .

والمراد من تبديل خوفهم أمانا انبساط الأمن والسلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدوا في داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهرا أو مستخفيا على دينهم

أو دنياهم .

وقول بعضهم : إن المراد الخوف من العدو الخارج من مجتمعهم كما كان المسلمون يخافون الكفار والمشركين القاصدين إطفاء نور الله وإبطال الدعوة .
تحكم مدفوع باطلاق اللفظ من غير قرينة معينة للمدعى . على أن الآية في مقام الامتنان وأي امتنان على قوم لاعدو يقصد من خارج وقد أحاط بمجتمعهم الفساد وعمته البلية لأمن لهم في نفس ولا عرض ولا مال ، الحرية فيه للقدرة الحاكمة والسبق فيه للفئة الباغية .

و المراد بكونهم يعبدون الله لا يشركون به شيئاً ما يعطيه حقيقة معنى اللفظ وهو عموم إخلاص العبادة و انهدام بنيان كل كرامة إلا كرامة التقوى .
و المتحصل من ذلك كله أن الله سبحانه يعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أن يجعل لهم مجتمعاً صالحاً خالفاً من وصمة الكفر والنفاق والفسق يرث الأرض لا يحكم في عقائد أفرادها عامة ولا أعمالهم إلا الدين الحق يعيشون آمنين من غير خوف من عدو داخل أو خارج ، أحراراً من كيد الكائدين و ظلم الظالمين و تحكم المتحكمين .

و هذا المجتمع الطيب الطاهر على ماله من صفات الفضيلة والقداسة لم يتحقق ولم ينقد منذ بعث النبي ﷺ إلى يومنا هذا و إن انطبق فلم ينطبق على زمن ظهور المهدي ﷺ على ماورد من صفته في الأخبار المتواترة عن النبي ﷺ و أئمة أهل البيت ﷺ لكن على أن يكون الخطاب للمجتمع الصالح لاله ﷺ وحده .

فان قلت : ما معنى الوعد حينئذ للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وليس المهدي ﷺ أحد المخاطبين حين النزول ولا واحد من أهل زمان ظهوره بينهم ؟

قلت : فيه خلط بين الخطابات الفردية والاجتماعية أعني الخطاب المتوجه إلى أشخاص القوم بماهم أشخاص بأعيانهم والخطاب المتوجه إليهم بماهم قوم على نعت كذا فالأول لا يتعدى إلى غير أشخاصهم ولا ما تضمنه من وعداً وعيد أو غير ذلك يسري إلى غيرهم ، والثاني يتعدى إلى كل من اتصف بما ذكر فيه من الوصف

و يسري إليه ما تضمنه من الحكم ، و خطاب الآية من القبيل الثاني على ما تقدّم .
 و من هذا القبيل أغلب الخطابات القرآنية المتوجهة إلى المؤمنين والكفار ،
 و منه الخطابات الدائمة لأهل الكتاب و خاصة اليهود بما فعله أسلافهم و للمشر كين
 بما صنعه آبائهم .

و من هذا القبيل خاصة ما ذكر من الوعد في قوله تعالى : « فإذا جاء وعد
 الآخرة ليسووا وجوهكم » الاسراء : ٧ فإن الموعودين لم يعيشوا إلى زمن إنجاز
 هذا الوعد ، و نظيره الوعد المذكور في قول ذي القرنين على ما حكاه الله : « فإذا
 جاء وعد ربتي جعله دكا » و كان وعد ربتي حقاً ، الكهف : ٩٨ و كذا وعده تعالى
 الناس بقيام الساعة و انطواء بساط الحياة الدنيا بنفخ الصور كما قال : « ثقلت في
 السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة » الأعراف : ١٨٧ فوعد الصالحين من المؤمنين
 بعنوان أنهم مؤمنون صالحون بوعد لا يدركه أشخاص زمان النزول بأعيانهم و لما
 يوجد أشخاص المجتمع الذي يدرك إنجاز الوعد مما لا يضير فيه البتة .

فالحق أن الآية إن أعطيت حق معناها لم تنطبق إلا على المجتمع الموعود
 الذي سينعقد بظهور المهدي عليه السلام و إن سُمح في تفسير مفرداتها و جملها و كان
 المراد باستخلاف الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات استخلاف الأمة بنوع من
 التغليب و نحوه ، و يتمكن دينهم الذي ارتضاه لهم كونهم معروفين في الدنيا بالأمة
 المسلمة وعدّهم الإسلام ديناً لهم و إن تفرقوا فيه ثلاثاً و سبعين فرقة يكفر بعضهم
 بعضاً و يستبيح بعضهم دماء بعض و أعراضهم و أموالهم ، و بتبديل خوفهم أماناً يعبدون
 الله و لا يشركون به شيئاً عزّة الأمة و شوكتها في الدنيا و انبساطها على معظم المعمورة
 و ظواهر ما يأتون به من صلاة و صوم و حج و إن ارتحل الأمن من بينهم أنفسهم
 و ودّعهم الحق و الحقيقة ، فالوجه أن الموعود بهذا الوعد الأمة ، و المراد باستخلافهم
 ما رزقهم الله من العزّة و الشوكة بعد الهجرة إلى ما بعد الرحلة و لا موجب لقصر
 ذلك في زمن الخلفاء الراشدين بل يجري فيما بعد ذلك إلى زمن انحطاط الخلافة
 الإسلامية .

وأما تطبيق الآية على خلافة الخلفاء الراشدين أو الثلاثة الأول أو خصوص علي عليه السلام فلا سبيل إليه البتة .

قوله تعالى : « و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و أطيعوا الرسول لعلمكم ترحمون » مناسبة لمضمون الآية لما سبقت لبيانها الآيات السابقة تعطي أنها من تمامها .
فقوله : « و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة » أمر في الحقيقة بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده ، و تخصيص الصلاة و الزكاة بالذكر لكونهما ركنين في التكليف الراجعة إلى الله تعالى و إلى الخلق ، و قوله : « و أطيعوا الرسول » إنفاذ لولايته ﷺ في القضاء و الحكومة .

و قوله : « لعلمكم ترحمون » تعليل للأمر بما في المأمور به من المصلحة و المعنى - على ما يعطيه السياق - أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن في هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمة الإلهية فينجز لكم وعده أو يعجل لكم إنجازها فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين و عموم الصلاح و الاتفاق على كلمة الحق مفناح انعقاد مجتمع صالح يدر عليهم بكل خير .

قوله تعالى : « لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض و ما أواهم النار و لبئس المصير » من تمام الآيات السابقة ، و فيها تأكيد ما مر من وعد الاستخلاف في الأرض و تمكين الدين و تبديل الخوف أمنا .

يخاطب تعالى نبيه ﷺ بعد الوعد - بخطاب مؤكّد - أن لا يظن أن الكفار معجزون لله في الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوة و الشوكة من أن ينجز وعده ، و هذا في الحقيقة بشرى خاصة بالنبي ﷺ بما أكرم به أمته و أن أعداءه سينهزمون و يغلبون و لذلك خصّه بالخطاب على طريق الالتفات .

و لكون النهي المذكور في معنى أن الكفار سينتهون عن معارضة الدين و أهله عطف عليه قوله : « و ما أواهم النار » الخ كأنه قيل : هم مقهورون في الدنيا و مسكنهم النار في الآخرة و بئس المصير .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى : «و يقولون آمنا بالله» الآيات قيل : نزلت الآيات في رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف .

و حكى البلخى أنه كانت بين علي وعثمان منازعة في أرض اشتراها من علي فخرجت فيها أحجار وأراد ردّها بالعيب فلم يأخذها فقال : بيني وبينك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال الحكم بن أبي العاص : إن حاكمته إلى ابن عمه يحكم له فلا تحاكمه إليه فنزلت الآيات ، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام أوقرب منه .
أقول : وفي تفسير روح المعاني عن الضحاك أن النزاع كان بين علي والمغيرة بن وائل وذكر قريبا من القصة .

و في المجمع في قوله تعالى : «إنما كان قول المؤمنين» الآية : وروي عن أبي جعفر أن المعني بالآية أمير المؤمنين عليه السلام .

و في الدر المنثور في قوله تعالى : «فإن تولّوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم» الآية أخرج ابن جرير وابن قانع والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي عن سلمة بن يزيد الجهني قال : قلت : يا رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء من بعدك يأخذونا بالحق الذي علينا ويمنعونا الحق الذي جعله الله لنا نقاتلهم ونبغضهم ؟ فقال النبي ﷺ : عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم .

أقول : و في معناه بعض روايات أخر مروية فيه لكن ينبغي أن لا يرتاب في أن الإسلام بما فيه من روح إحياء الحق وإماتة الباطل يأبى عن إجازة ولاية الظلمة المتظاهرين بالظلم وإباحة السكوت وتحمل الضيم والاضطهاد قبال الطغاة والفجرة لمن يجد إلى إصلاح الأمر سبيلا ، وقد انتضح بالأبحاث الاجتماعية اليوم أن استبداد الولاة برأيهم واتباعهم لأهوائهم في تحكّماتهم أعظم خطرا وأخبث أثرا من إثارة الفتن وإقامة الحروب في سبيل إلجائهم إلى الحق والعدل .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وعد الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ » الآية : و اختلف في الآية والمردي عن أهل البيت عليهم السلام أنها في المهدي من آل محمد .

قال : و روى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين عليهما السلام أنه قرأ الآية وقال : هم والله شيعة أهل البيت يفعل ذلك بهم على يدي رجل منا و هو مهدي هذه الأمة ، وهو الذي قال رسول الله ﷺ : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا - و روي مثل ذلك عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام .

أقول : و بذلك وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، و قد تقدّم بيان انطباق الآية على ذلك .

و قال في المجمع بعد نقل الرواية : فعلى هذا يكون المراد بالَّذِينَ آمَنُوا عملوا الصالحات النبي وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام انتهى و قد عرفت أن المراد به عام و الرواية لاتدلّ على أزيد من ذلك حيث قال عليه السلام : هم والله شيعة أهل البيت يفعل ذلك بهم على يدي رجل منا الحديث .

و في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء في قوله : « وعد الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ » الآية قال : فينا نزلت ونحن في خوف شديد .
أقول : ظاهره أن المراد بالَّذِينَ آمَنُوا الصحابة و قد عرفت أن الآية لا دلالة فيها عليه بوجه بل الدلالة على خلافه .

و فيه أخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط و الحاكم و صححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل و الضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا : أترون أننا نعيش حتى نبين آمنين مطمئنين لانخاف إلا الله فنزلت : « وعد الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعملوا الصالحات » الآية .

أقول : هو لا يدلّ على أزيد من سبب النزول و أمّا أن المراد بالَّذِينَ آمَنُوا

من هم ؟ وأن الله متى أنجز أو ينجز هذا الوعد ؟ فلا تعرض له به .
و نظيرته روايته الأخرى : لما نزلت على النبي ﷺ « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » الآية قال : بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منكم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب .

فإن تبشير الأمة بالاستخلاف لا يستلزم كون المراد بالذين آمنوا في الآية جميع الأمة أو خصوص الصحابة أو نفرًا معدودًا منهم .

و في نهج البلاغة في كلام له لعمر لما استشاره لانطلاقه لقتال أهل الفارس حين تجمّعوا للحرب قال ﷺ : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلّة ، وهو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعزّه وأيده حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع ، ونحن على موعود من الله تعالى حيث قال عز اسمه : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمنا .

والله تعالى منجز وعده وناصر جنده ، ومكان القيم في الإسلام مكان النظام من الخرز فإن انقطع النظام تفرّق رب متفرّق لم يجتمع ، والعرب اليوم وإن كانوا قليلًا فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكان قطبا واستدر الرchy بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب فإنك إن شخصت من هذه الأرض تنقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك ، و كان قد آن للأعاجم أن ينظروا إليك غدا يقولون : هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم فيكون ذلك أشدّ لكلبهم عليكم وطعمهم فيك .

فأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنّا نقاتل بالنصر والمعونة .

أقول : وقد استدلّ به في روح المعاني على ما ارتضاه من كون المراد بالاستخلاف في الآية ظهور الإسلام وارتفاع قدره في زمن الخلفاء الراشدين وهو بمعزل عن

ذلك بل دليل على خلافه ، فإنّ ظاهر كلامه أنّ الوعد الإلهي لم يتمّ أمر إنجازه بعد وأنّهم يومئذ في طريقه حيث يقول : والله منجز وعده ، وأنّ الدين لم يمكن بعد ولا الخوف بدّل أماناً وكيف لا ؟ وهم بين خوفين خوف من تنقّض العرب من داخل وخوف من مهاجمة الأعداء من خارج .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي الشعثاء قال : كنت جالسا مع حذيفة وابن مسعود فقال حذيفة ذهب النفاق إنّما كان النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنّما هو اليوم الكفر بعد الإيمان فضحك ابن مسعود ثمّ قال : بم تقول ؟ قال : بهذه الآية « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » إلى آخر الآية .

أقول : ليت شعري أين ذهب منافقوا عهد النبي ﷺ ؟ وشاهد الكتاب العزيز والتاريخ تدلّ على أنّهم ما كانوا بأقلّ من ثلث أهل المدينة ومعظمهم بها أصدقوا الإسلام يوم رحلته ﷺ أم تغيّرت آراؤهم في تربّصهم الدوائر وتقليبهم الأمور ؟





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
 الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ
 الظَّهْرِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ
 جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ بَعْضٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ
 مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرِ
 مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى
 الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
 أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ إِخْوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُنَّ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
 تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَاسْلُمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ
 عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا

الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا
 حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ
 اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمُ لُوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنِ يُصِيبَهُمُ
 فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) إِلَّا أَن لَّهٗ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ
 مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) .

﴿بيان﴾

بقية الأحكام المذكورة في السورة وتختتم السورة بآخر الآيات وفيها إشارة
 إلى أن الله سبحانه إنما يشرع ما يشرع بعلمه وسيظهر و سينكشف لهم حقيقته حين
 يرجعون إليه .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ،
 إلى آخر الآية . وضع الثياب خلعها وهو كناية عن كونهم على حال ربما لا يحبون
 أن يراهم عليها الأجنبي . والظهيرة وقت الظهر والعورة السوأة سميت بها لما يلحق
 الإنسان من انكشافها من العار و كأن المراد بها في الآية ما ينبغي ستره .

فقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، الخ تعقيب لقوله سابقا : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا ، الخ القاضي بتوقف دخول البيت على الإذن و هو كالاستثناء من
 عموم في العبيد والأطفال بأنه يكفيهم الاستيذان ثلاث مرات في اليوم .

وقوله : « لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، أي مرؤهم أن يستأذنوكم
 للدخول ، و ظاهر الذين مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ العبيد دون الإماء وإن كان اللفظ لا يأتى

عن العموم بعناية التغليب و به وردت الرواية كما سيجي .

و قوله : « والذين لم يبلغوا الحلم منكم » يعني المميزين من الأطفال قبل البلوغ ، والدليل على تقييدهم بالتميز قوله بعد : « ثلاث عورات لكم » .

و قوله : « ثلاث مرآت » أي كل يوم بدليل تفصيله بقوله : « من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة - أي وقت الظهر - ومن بعد صلاة العشاء » وقد أشار إلى وجه الحكم بقوله : « ثلاث عورات لكم » أي الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم لا ينبغي بالطبع أن يطالع عليكم فيها غيركم .

و قوله : « ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » أي لا مانع لكم من أن لا تأمروهم بالاستيذان ولا لهم من أن لا يستأذنوكم في غير هذه الأوقات ، و قد أشار إلى جهة نفي الجناح بقوله : « طوافون عليكم بعضكم على بعض » أي هم كثير الطوف عليكم بعضكم يطوف على بعض الخدمة فالاستيذان كلما دخل حرج عادة فليكتفوا فيه بالعورات الثلاث .

ثم قال : « كذلك يبين الله الآيات » أي أحكام دينه التي هي آيات دالة عليه « و الله عليم » يعلم أحوالكم و ما تستدعيه من الحكم « حكيم » يراعي مصالحكم في أحكامه .

قوله تعالى : « و إذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا » الخ بيان أن حكم الاستيذان ثلاث مرآت في الأطفال مغيب بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منكم الحلم بأن بلغوا فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم وهم البالغون من الرجال والنساء الأحرار « كذلك يبين الله لكم آياته و الله عليم حكيم » .

قوله تعالى : « والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا » إلى آخر الآية . القواعد جمع قاعدة و هي المرأة التي قعدت عن النكاح فلا ترجوه لعدم الرغبة في مباشرتها لكبرها فقوله : « اللاتي لا يرجون نكاحا » وصف توضيحي ، و قيل : هي التي يؤست من الحيض والوصف احترازي .

و في المجمع : التبرج إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، وأصله

الظهور ومنه البرج البناء العالي لظهوره .

والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب والمعنى والكبائر المسنة من النساء فلا بأس عليهن أن لا يحتجبن حالكونهن غير متبرجات بزينة .

وقوله : « وأن يستعففن خير لهن » كناية عن الاحتجاب أي الاحتجاب خير لهن من وضع الثياب ، وقوله : « والله سميع عليم » تعليل لما شرع بالاسمين أي هو تعالى سميع يسمع ما يسأله بفطرتهن عليم يعلم ما يحتجن إليه من الأحكام .

قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » إلى قوله - أو صديقكم ، ظاهر الآية أن فيها جعل حق للمؤمنين أن يأكلوا من بيوت قراباتهم أو التي ائتمنوا عليها أو بيوت أصدقائهم فهم مأذنون في أن يأكلوا منها بمقدار حاجتهم من غير إسراف وإفساد .

فقوله : « ليس على الأعمى حرج - إلى قوله - ولا على أنفسكم » في عطف « على أنفسكم » على ما تقدمه دلالة على أن عد المذكورين ليس لاختصاص الحق بهم بل لكونهم أرباب عاهات يشكل عليهم أن يكتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحيانا وإلا فلا فرق بين الأعمى والأعرج والمريض وغيرهم في ذلك .

وقوله : « من بيوتكم أو بيوت آبائكم » الخ في عد « بيوتكم » مع بيوت الأقرباء وغيرهم إشارة إلى نفي الفرق في هذا الدين المبني على كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض بين بيوتهم أنفسهم وبيوت أقربائهم وما ملكوا مفاتحه وبيوت أصدقائهم .

على أن « بيوتكم » يشمل بيت الابن والزوج كما وردت به الرواية وقوله : « أو ما ملكتم مفاتحه » المفاتيح جمع مفتح وهو المخزن والمعنى أو البيت الذي ملكتم أي تسلطتم على مخازنه التي فيها الرزق كما يكون الرجل قيما على بيت أو وكلاء أو سلم إليه مفاتحه .

وقوله : « أو صديقكم » معطوف على ما تقدمه بتقدير بيت على ما يعلم من

سياقه ، والتقدير أو بيت صديقكم .

قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً » الأشتات جمع شتّ و هو مصدر بمعنى التفرّق استعمل بمعنى المتفرّق مبالغة ثمّ جمع أو صفة بمعنى المتفرّق كالحقّ ، والمعنى لا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين و بعضكم مع بعض أو متفرّقين ، والآية عامّة وإن كان نزولها لسبب خاصّ كما روي .

و للمفسّرين في هذا الفصل من الآية وفي الفصل الذي قبلها اختلافات شديدة رأينا الصفح عن إيرادها و الغور في البحث عنها أولى ، و ما أوردناه من المعنى في الفصلين هو الذي يعطيه سياقهما .

قوله تعالى : « فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركة طيبة » الخ لما تقدّم ذكر البيوت فرّع عليه ذكر أدب الدخول فيها فقال : « فإذا دخلتم بيوتا » .

فقوله : « فسلموا على أنفسكم » المراد فسلموا على من كان فيها من أهلها و قد بدّل من قوله : « على أنفسكم » للدلالة على أن بعضهم من بعض فإنّ الجميع إنسان و قد خلقهم الله من ذكروا نثى على أنهم مؤمنون والإيمان يجمعهم ويوحدهم أقوى من الرحم وأي شيء آخر .

وليس ببعيد أن يكون المراد بقوله : « فسلموا على أنفسكم » أن يسلم الداخل على أهل البيت و يردّوا السلام عليه .

و قوله : « تحيةً من عند الله مباركة طيبة » أي حالكون السلام تحيةً من عند الله شرّعها الله و أنزل حكمها ليحيي بها المسلمون و هو مبارك ذوخير كثير باق و طيب يلائم النفس فإنّ حقيقة هذه التحية بسط الأمن و السلامة على المسلم عليه و هو أطيب أمر يشترك فيه المجتمعان .

ثمّ ختم سبحانه الآية بقوله : « كذلك يبيّن الله لكم الآيات » و قد مرّ تفسيره « لعلكم تعقلون » أي تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل .

قوله تعالى : « إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله و إذا كانوا معه

على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، ذكر قوله «الذين آمنوا بالله ورسوله، بيانا للمؤمنين على ظهور معناه للدلالة على اتصافهم بحقيقة المعنى أي إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله بحقيقة الإيمان وأيقنوا بتوحيده تعالى واطمأننت نفوسهم وتعلقت قلوبهم برسوله .

ولذلك عقبه بقوله : « و إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، والأمر الجامع هو الذي يجمع الناس للتدبير في أطرافه والتشاور والعزم عليه كالحرب ونحوها .

والمعنى و إذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الأمور العامة لم يذهبوا ولم ينصرفوا من عند الرسول حتى يستأذنوه للذهاب .

ولذلك أيضا عقبه بقوله : « إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله » وهو بمنزلة عكس صدر الآية للدلالة على الملازمة و عدم الانفكاك .

وقوله : « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » تخيير منه تعالى لرسوله في أن يأذن لمن شاء ولا يأذن لمن لم يشأ .

وقوله : « واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم » أمر له بالاستغفار لهم تطيبا لنفوسهم ورحمة بهم .

قوله تعالى : « لاتجعلوا دعا الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » إلى آخر الآية . دعا الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الأمور كدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح ، و دعوتهم ليشاورهم في أمر جامع ، و دعوتهم إلى الصلاة جامعة ، وأمرهم بشي . في أمر دنياهم أو أخرهم فلكل ذلك دعاء و دعوة منه ﷺ .

ويشهد بهذا المعنى قوله ذيلًا : « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذا » وما يتلوه من تهديد مخالف في أمره ﷺ كما لا يخفى . وهو أنسب لسياق الآية السابقة فإنها تمدح الذين يلبثون دعوته و يحضرون عنده ولا يفارقونه حتى يستأذنوه و هذه تذم و تهدد الذين يدعوه فيتسللون عنه لوأذا غير مهتمين بدعائه ولا معتنين .

و من هنا يعلم عدم استقامة ما قيل : إن المراد بدعاء النبي ﷺ خطابه فيجب أن يفخّم ولا يساوى بينه وبين غيره من الناس فلا يقال له يا محمد ويا ابن عبد الله بل : يا رسول الله .

و كذا ما قيل : إن المراد بالدعاء دعاؤه عليهم لو أسخطوه فهو نهي عن التعرض لدعائه عليهم باسخطاه فإن الله تعالى لا يردّ دعاءه هذا ، وذلك لأنّ ذيل الآية لا يساعد على شيء من الوجهين .

و قوله : « قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لو اذا » التسلّل الخروج من البين برفق واحتيال من سلّ السيف من غمده ، واللواذ الملاوذة وهو أن يلوذ الإنسان ويلتجئ ، إلى غيره فيستتر به والمعنى أن الله يعلم منكم الذين يخرجون من بين الناس والحال أنّهم يلوذون بغيرهم ويستترون به فينصرفون فلا يهتمون بدعاء الرسول ولا يعتنون به .

و قوله : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » ظاهر سياق الآية بما تقدّم من المعنى أن ضمير « عن أمره » للنبي ﷺ وهو دعاؤه ، ففي الآية تحذير لمخالفي أمر النبي ﷺ ودعوته من أن تصيبهم فتنة وهي البليّة أو يصيبهم عذاب أليم .

وقيل : ضمير « عن أمره » راجع إلى الله سبحانه والآية وإن لم يقع فيها أمر منه تعالى لكن نهي المذكور بقوله : « لا تجعلوا دعاء الرسول » الخ في معنى أجبوا دعاء الرسول ، وهو أمر وأوّل الوجهين أوجه .

قوله تعالى : « ألا إنّ الله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه » اختتام للسورة ناظر إلى قوله في مفتحتها : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات » فما في مختتمها كالتمليل لما في مفتحتها .

فقوله : « ألا إنّ الله ما في السماوات والأرض » بيان لعموم الملك وأنّ كلّ شيء مملوك لله سبحانه قائم به فهي معلومة له بجميع خصوصيات وجودها فيعلم ما يحتاج إليه ، و الناس من جملة ما يعلم بحقيقة حاله وما يحتاج إليه فالذي يشرّعه لهم من

الدين مما يحتاجون إليه في حياتهم كما أن ما يرزقهم من المعيشة مما يحتاجون إليه في بقائهم .

فقوله : « قد يعلم ما أنتم عليه » - أي من حقيقة الحال المنبئة عن الحاجة - بمنزلة النتيجة المترتبة على الحجّة أي ملكه لكم ولكل شيء يستلزم علمه بحالكم و بما تحتاجون إليه من شرائع الدين فيشرّعه لكم ويفرضه عليكم .

وقوله : « ويوم يرجعون إليه فينبتئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم » معطوف على قوله : « ما أنتم عليه » أي ويعلم يوما يرجعون إليه و هو يوم القيامة فيخبرهم بحقيقة ما عملوا والله بكل شيء عليم .

وفي هذا الذيل حث على الطاعة والانقياد لما شرّعه وفرضه من الأحكام والعمل به من جهة أنه سيخبرهم بحقيقة ما عملوا به كما أن في الصدر حثا على القبول من جهة أن الله إنما شرّعها لعلمه بحاجتهم إليها وأنها التي ترفع بها حاجتهم .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم » الآية أخرج سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة وأبوداود وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : آية لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإنني لأمر جاريتي هذه - لجارية قصيرة قائمة على رأسه - أن يستأذن علي .

وفي تفسير القمي في الآية قال : إن الله تبارك و تعالى نهى أن يدخل أحد في هذه الثلاثة الأوقات على أحد لا أب ولا أخت ولا أم ولا خادم إلا بإذن ، والأوقات بعد طلوع الفجر ونصف النهار و بعد العشاء الآخرة . ثم أطلق بعد هذه الثلاثة الأوقات فقال : « ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » يعني بعد هذه الثلاثة الأوقات « طوافون عليكم بعضكم على بعض » .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : «ملكتم أيمانكم» قال : هي خاصة في الرجال دون النساء . قلت : فالنساء يستأذنن في هذه الثلاث ساعات ؟ قال : لا ولكن يدخلن ويخرجن «والذين لم يبلغوا الحلم منكم» قال : من أنفسكم ، قال : عليكم ^(١) استئذان كاستئذان من قد بلغ في هذه الثلاث ساعات .

أقول : وروى فيه روايات أخرى غير هـ في كون المراد بالذين ملكتم أيمانكم المذكور دون الإناث عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي المجمع في الآية : معناه مروا عبيدكم وإماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول إلى موضع خلواتكم عن ابن عباس وقيل : أراد العبيد خاصة عن ابن عمر وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

أقول : وبهذه الأخبار وبظهور الآية يضعف ما رواه الحاكم عن علي عليه السلام في الآية قال : النساء فإن الرجال يستأذنون .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء فإنما هي في كتاب الله العشاء وإنما يعتم بحلاب الإبل .

أقول : وروى مثله عن عبد الرحمن بن عوف ولفظه : إن رسول الله ﷺ قال : لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم قال الله : «ومن بعد صلاة العشاء» وإنما العتمة عتمة الإبل .

وفي الكافي بإسناده عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرء «أن يضعن من ثيابهن» قال : الجلباب والخمار إذا كانت المرأة مسنة .

أقول : وفي معناه أخبار أخر .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاک قال : كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ولا

أعرج لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام ، والمريض لا يستوفي الطعام كما يستوفي الصحيح ، والأعرج لا يستطيع المزاومة على الطعام فنزلت رخصة في مواكلتهم .

وفيه أخرج الثعلبي عن ابن عباس قال : خرج الحارث غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وخلف على أهله خالد بن زيد فخرج أن يأكل من طعامه وكان مجهودا فنزلت .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية حتى أن كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا » .

أقول : وفي معنى هذه الروايات روايات أخرى .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « أو ما ملكتم مفاتيحه أو صديقكم » قال : هؤلاء الذين سمى الله عز وجل في هذه الآية يأكل بغير إذنهم من التمر والمأدوم وكذلك تطعم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه فأما ما خلا ذلك من الطعام فلا .

وفيه بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : أنت وما لك لأبيك ، ثم قال أبو جعفر عليه السلام : وما أحب له أن يأخذ من مال ابنه إلا ما احتاج إليه بما لا بد له منه إن الله لا يحب الفساد .

وفيه بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألت عن رجل لابنه مال فيحتاج الأب قال : يأكل منه فأما الأم فلا تأكل منه إلا قرضا على نفسها .

وفيه بإسناده عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام قال : للمرأة أن تأكل وأن تصدق وللصديق أن يأكل من منزل أخيه ويتصدق .

وفيه بإسناده عن ابن أبي عمير عن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « أو ما ملكتم مفاتيحه » قال : الرجل يكون له وكيل يقوم في ماله

فيأكل بغير إذنه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « أن تأكلوا من بيوتكم » : وقيل : معناه من بيوت أولادكم ويدل عليه قوله ﷺ . أنت و مالك لا بيك . وقوله ﷺ : إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولدته من كسبه .

أقول : و في هذه المعاني روايات كثيرة أخرى .

و في المعاني بإسناده عن أبي الصباح قال : سألت أبا جعفر ﷺ عن قول الله عز وجل : « فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم » الآية فقال : هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل ثم يردون عليه فهو سلامكم على أنفسكم .

أقول : وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في تفسير الآية .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين - إلى قوله - حتى يستأذنوه » فإنها نزلت في قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله ﷺ لأمر من الأمور في بعث يبعثه أو حرب قد حضرت يتفرقون بغير إذنه فنهاهم الله عز وجل عن ذلك .

و فيه في قوله تعالى : « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » قال : نزلت في حنظلة بن أبي عياش وذلك أنه تزوج في الليلة التي كان في صبيحتها حرب أحد فاستأذن رسول الله ﷺ أن يقيم عند أهله فأذن الله عز وجل هذه الآية « فأذن لمن شئت منهم » فأقام عند أهله ثم أصبح وهو جنب فحضر القتال فاستشهد فقال رسول الله ﷺ : رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن في صحائف فضة بين السماء والأرض فكان يسمى غسيل الملائكة .

و فيه في قوله تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضا » قال : لاتدعوا رسول الله ﷺ كما يدعو بعضكم بعضا ، و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ في قوله عز وجل : « لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضا » يقول لاتقولوا : يا محمد ولا يا أبا القاسم لكن قولوا : يا نبي الله ويا رسول الله .

أقول : و روي مثله عن ابن عباس ، وقد تقدم أن ذيل الآية لا يلائم هذا

المعنى تلك الملائمة .

سورة الفرقان مكيّة وهي سبع و سبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَتَّخِذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة بيان أن دعوة النبي ﷺ دعوة حقّة عن رسالة من جانب الله تعالى وكتاب نازل من عنده وفيها عناية بالغة بدفع ما أورده الكفار على كون النبي ﷺ رسولا من جانب الله وكون كتابه نازلا من عنده و رجوع إليه كرّة بعد كرّة .

وقد استتبع ذلك شيئا من الاحتجاج على التوحيد ونفي الشريك و ذكر بعض أوصاف يوم القيامة و ذكر نبذة من نعوت المؤمنين الجميلة ، والكلام فيها جار على سياق الإنذار والتخويف دون التبشير .

والسورة مكيّة على ما يشهد به سياق عامّة آياتها نعم ربّما استثنى منها ثلاث آيات وهي قوله تعالى : « الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ - إِلَى قَوْلِهِ - غَفُورًا رَحِيمًا » .

و لعلّ الوجه فيه اشتمالها على تشريع حرمة الزنا لكنك قد عرفت فيما أوردناه من أخبار آية الخمر من سورة المائدة أن الزنا والخمر كانا معروفين

بالتحريم في الإسلام من أول ظهور الدعوة الإسلامية .

ومن العجيب قول بعضهم : إنَّ السورة مدنيّة كلّها إلا ثلاث آيات من أولّها « تبارك الذي - إلى قوله - نشورا » .

قوله تعالى : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » البركة بفتحتيّن ثبوت الخير في الشيء كثبوت الماء في البركة بالكسر فالسكون مأخوذ من برك البعير إذا ألقى صدره على الأرض واستقرّ عليها ، ومنه التبارك بمعنى ثبوت الخير الكثير وفي صيغته دلالة على المبالغة على ما قيل ، وهو كالمختص به تعالى لم يطلق على غيره إلا على سبيل الندرة .

والفرقان هو الفرق سمّي به القرآن لنزول آياته منفردة أولتميزه الحق من الباطل و يؤيد هذا المعنى إطلاق الفرقان في كلامه تعالى على التوراة أيضاً مع نزولها دفعة قال الراغب في المفردات : والفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل ، و تقديره كتنقدير رجل قنعان يقنع به في الحكم ، وهو اسم لا مصدر فيما قيل ، والفرق يستعمل فيه و في غيره ، انتهى .

والعالمون جمع عالم ومعناه الخلق قال في الصحاح : العالم الخلق والجمع العوالم ، والعالمون أصناف الخلق انتهى واللفظة وإن كانت شاملة لجميع الخلق من الجماد والنبات والحيوان والإنسان والجن والملك لكن سياق الآية - وقد جعل فيها الإيذار غاية لتنزيل القرآن - يدل على كون المراد بها المكلفين من الخلق وهم الثقلان : الإنس والجن فيما نعلم .

وبذلك يظهر عدم استقامة ما ذكره بعضهم أن الآية تدل على عموم رسالته ﷺ لجميع ما سوى الله فإن فيه غفلة عن وجه التعبير عن الرسالة بالإيذار ونظير الآية قوله تعالى : « واصطفاك على نساء العالمين » آل عمران : ٤٢ وقوله : « وفضلناهم على العالمين » الجاثية : ١٦ .

و النذير بمعنى المنذر على ما قيل ، والإيذار قريب المعنى من التخويف .
فقوله تعالى : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده » أي ثبت و تحقق خير

كثير فيمن نزل الفرقان على عبده ﷺ ، و ثبوت الخير الكثير العائد إلى الخلق فيه تعالى كناية عن فيضانه منه على خلقه حيث نزل على عبده كتاباً فارقاً بين الحق والباطل منتقداً للعالمين من الضلال سائفاً لهم إلى الهدى .

والجمع في الآية بين نزول القرآن من عنده تعالى و كون النبي ﷺ رسولاً منه نذيراً للعالمين مع تسمية القرآن فرقاناً بين الحق والباطل و توصيف النبي ﷺ بكونه عبداً له نذيراً للعالمين المشعر بكونه مملوكاً مأموراً لا يملك من نفسه شيئاً كل ذلك تمهيد لما سيحكي - عن المشركين - من طعنهم في القرآن بأنه افتراء على الله اخنلقه النبي ﷺ وأعانه على ذلك قوم آخرون ، ومن طعنهم في النبي ﷺ بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق و سائر ما تقوّهوا به - وما يدفع به مطاعنهم .

فالمحصل أنه كتاب يفرق بحجته الباهرة بين الحق والباطل فلا يكون إلا حقاً إذ الباطل لا يفرق بين الحق والباطل وإنما يشبهه الباطل بالحق ليلبس على الناس ، وأن الذي جاء به عبد مطيع لله ينذر به العالمين و يدعوهم إلى الحق فلا يكون إلا على الحق ولو كان مبطلا لم يدع إلى الحق بل حاد عنه و انحرف على أن الله سبحانه يشهد في كلامه المعجز بصدق رسالته و أن الذي جاء به من الكتاب منزل من عنده .

ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم : إن المراد بالفرقان مطلق الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ، وبعده عامة الأنبياء ﷺ ، ولا يخفى بعده من ظاهر اللفظ . و قوله تعالى : « ليكون للعالمين نذيراً » اللام للتعليل وتدل على أن غاية تنزيل الفرقان على عبده أن يكون منذراً لجميع العالمين من الإنس والجن - والجمع المحلى باللام يفيد الاستغراق ، ولا يخلو الإتيان بصيغة الجمع المحلى باللام من إشارة إلى أن للجميع إلهاً واحداً لا كما يذهب إليه الوثنيون حيث يتخذ كل قوم إلهاً غير ما يتخذه الآخرون .

والاكتفاء بذكر الانذار دون التبشير لأن الكلام في السورة مسوق سوق الانذار والتخويف .

قوله تعالى : «الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» إلى آخر الآية . الملك بكسر الميم وفتحها قيام شيء بشيء بحيث يتصرف فيه كيف شاء سواء كان قيام رقبته به كقيام رقبة المال بمالكه بحيث كان له أنواع التصرف فيه أو قيامه به باستيلائه عليه بالتصرف بالأمر والنهي وأنواع الحكم كاستيلاء الملك على الناس من رعيته وما في أيديهم ، و يطلق على القسم الثاني الملك بضم الميم .

فالملك بكسر الميم أعم من الملك بضمها كما قال الراغب الملك - بفتح الميم وكسر اللام - هو المنتصرف بالأمر والنهي في الجمهور ، وذلك يختص بسياسة الناطقين ، ولهذا يقال : ملك الناس ولا يقال : ملك الأشياء - إلى أن قال - فالملك بالضم - ضبط الشيء المنتصرف فيه بالحكم ، والملك - بالكسر - كالجنس للملك فكل ملك - بالضم - ملك - بالكسر - و ليس كل ملك - بالكسر - ملكا - بالضم - انتهى .

وربما يخص الملك بالكسر بما يتعلق بالرقبة ، والملك بالضم بغيره .

فقوله تعالى : «الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» واللام للاختصاص - يفيد أن السماوات والأرض مملوكة له غير مستقلة بنفسها في جهة من جهاتها ولا مستغنية عن التصرف فيها بالحكم وأن الحكم فيها وإدارة رحاها يختص به تعالى فهو المليك المنتصرف بالحكم فيها على الإطلاق .

وبذلك يظهر ترتيب قوله : «ولم يتخذ ولدا» على ما تقدمه فإن الملك على الإطلاق لا يدع حاجة إلى اتخاذ الولد إذ اتخاذ الولد لأحد أمرين إما لكون الشخص لا يقوى على إدارة رضى جميع أموره ولا يملك تدبيرها جميعا فيتخذ الولد ليستعين به على بعض حوائجه والله سبحانه يملك كل شيء و يقوى على ما أراد . وإما لكون الشخص محدود البقاء لا يملك ما يملك إلا في أمد محدود فيتخذ الولد ليخلفه فيقوم على أموره بعده والله سبحانه يملك كل شيء سرمدا ولا يعتريه فناء

و زوال فلا حاجة له إلى اتخاذ الولد البنت وفيه رد على المشركين والنصارى .
وكذا قوله تعالى بعده : « ولم يكن له شريك في الملك » فإن الحاجة إلى
الشريك إنما هي فيما إذا لم يستوعب الملك الأمور كلها وملكه تعالى عام لجميع
الأشياء محيط بجميع جهاتها لا يشذ منه شاذ ، وفيه رد على المشركين .

و قوله تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » بيان لرجوع تدبير
عامّة الأمور إليه تعالى وحده بالخلق والتقدير فهو رب العالمين لرب سواه .
بيان ذلك أن الخلقة لما كانت بتوسط الأسباب المتقدمة على الشيء ، والمقارنة
له استلزم ذلك ارتباط وجودات الأشياء بعضها ببعض فيتقدّر وجود كل شيء وآثار
وجوده حسب ما تقدّره العلل والعوامل المتقدمة عليه و المقارنة له فالحوادث
الجارية في العالم على النظام المشهود مختلطة بالخلقة تابعة للعلل والعوامل
المتقدمة والمقارنة و إذ لا خالق غير الله سبحانه فلا مدبر للأمر غيره فلا رب يملك
الأشياء ويدبّر أمرها غيره .

فكونه تعالى له ملك السماوات والأرض حاكما متصرفا فيها على الإطلاق
يستلزم قيام الخلقة به إذ لو قامت بغيره كان الملك لذلك الغير ، وقيام الخلقة به
يستلزم قيام التقدير به ، لكون التقدير متفرعا على الخلقة ، وقيام التقدير به
يستلزم قيام التدبير به فله الملك والتدبير فهو الرب عز شأنه .

وملكه تعالى للسماوات والأرض وإن استلزم استناد الخلق والتقدير إليه لكن
لما كان الوثنيون مع تسليمهم عموم ملكه يرون أن ملكه للجميع وربوبيته للكل
لا ينافي ملك آلهتهم وربوبيتهم للبعض بتفويضه تعالى ذلك إليهم فكل من الآلهة
ملك في صقع الوهيته رب لمربوبيه والله سبحانه ملك الملوك ورب الأرباب
وإله الآلهة .

فلذلك لم يكف قوله : « الذي له ملك السماوات والأرض » لإثبات اختصاص
الربوبية به تعالى قباهم بل احتيج إلى الإتيان بقوله : « وخلق كل شيء »
فقدّره تقديرا .

فَكَانَ قَائِلًا يَقُولُ : هَبْ أَنْ مَلِكُهُ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْنِيهِ عَنْ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ الْمَوْجِبِ لِسُلْبِ مَلِكِهِ عَنْ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ . لَكِنْ لَمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَّخِذَ بَعْضُ خَلْقِهِ شَرِيكًا لِنَفْسِهِ بِتَفْوِيزِ بَعْضِ أُمُورِ الْعَالَمِ إِلَيْهِ مَعَ كَوْنِهِ مَالِكًا لَهُ وَلَمَّا فَوَّضَهُ إِلَيْهِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي كَانَتْ تَرَاهُ الْمَشْرُكُونَ فَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَةِ الْحَجِّ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلِكٌ .

فَأَجِيبْ عَنْهُ بِأَنَّ الْخَلْقَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَالتَّقْدِيرَ يُلَازِمُهُ وَإِذَا اجْتَمَعَا لَزِمَهُمَا التَّنْدِيرُ فَلَهُ سُبْحَانَهُ تَدْبِيرُ كُلِّ شَيْءٍ فَلَيْسَ مَعَ مَلِكِهِ مَلِكٌ وَلَا مَعَ رَبُّوبِيَّتِهِ رَبُّوبِيَّةٌ . فَقَدْ تَحَصَّلَ أَنَّ قَوْلَهُ : « الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ » مَسْوُوقٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَنَقْيِ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ مِنْ طَرِيقِ إِثْبَاتِ الْمَلِكِ الْمَطْلُوقِ ، وَأَنَّ قَوْلَهُ : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا » تَقْرِيرٌ وَبَيَانٌ لِمَعْنَى عَمُومِ الْمَلِكِ وَأَنَّهُ مَلِكٌ مُتَقَوِّمٌ بِالْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ مُوجِبٌ لِنَصْدِيهِ تَعَالَى لِكُلِّ حَكْمٍ وَتَدْبِيرٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفُوتَ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ .

وَفِي الْآيَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا لَهُمْ أَقْوَالٌ أُخْرَى غَمَضْنَا عَنْ إِبْرَادِهَا لَخُلُوعِهَا عَنْ الْجَدْوَى . قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ ، الْخَلْقُ لَمَّا نَعَتْ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَقْدَرُهُ وَأَنَّ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهَكَذَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا لَهُ الْمَعْبُودُ ، أَشَارَ إِلَى ضَلَالَةِ الْمَشْرُكِينَ حَيْثُ عَبْدُوا أَصْنَامًا لَيْسَتْ بِخَالِقَةٍ شَيْئًا بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ مَصْنُوعَةٌ لَهُمْ وَلَا مَالِكَةٌ شَيْئًا لَا نَفْسَهُمْ وَلَا لغيرِهِمْ . وَضَمِيرُ « وَاتَّخَذُوا » لِلْمَشْرُكِينَ عَلَى مَا يَفِيدُهُ السِّيَاقُ وَإِنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ ذِكْرٌ وَمِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرُ يَفِيدُ التَّحْقِيرَ وَالِاسْتِهْوَاجَ .

وَقَوْلُهُ : « مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ » يَرِيدُ بِهِ أَصْنَامَهُمُ الَّتِي صَنَعُوهَا بِأَيْدِيهِمْ بَنَحَتْ أَوْ نَحَوْهُ ، وَتَوْصِيفُهَا بِالْآلِهَةِ مَعَ تَعْقِيبِهَا بِمِثْلِ قَوْلِهِ : « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ » إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ لَيْسَ لَهَا مِنَ الْإِلَهِيَّةِ إِلَّا اسْمٌ سَمَّوْهَا بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَحَقَّقَ مِنْ حَقِيقَتِهَا بِشَيْءٍ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : « إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ، النَّجْمُ : ٢٣ . »

و وضع النكرة في قوله : لا يخلقون شيئاً « في سياق النفي مبالغة في تقريرهم حيث أعرضوا عن الله سبحانه وهو خالق كل شيء و تعلقوا بأصنام لا يخلقون ولا شيئاً من الأشياء بل هم أردء حالا من ذلك حيث إنهم مصنوعون لعبادهم مخلوقون لأوهامهم ، ونظير الكلام جار في قوله : « ضرّاً ولا نفعاً » و قوله : « موتاً ولا حياة ولا نشوراً » .

وقوله : « ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً » نفي للملك عنهم وهو ضروري في الإله إذ كان عبّادهم إنّما يعبدونهم ليدفعوا عنهم الضرّ ويجلبوا إليهم النفع و إذ كانوا لا يملكون ضرّاً ولا نفعاً حتى لأنفسهم لم تكن عبادتهم إلّا خبلاً و ضلالاً .

و بذلك يظهر أن في وقوع « لأنفسهم » في السياق زيادة تقرير و الكلام في معنى الترتيبي أي لا يملكون لأنفسهم ضرّاً حتى يدفعوه ولا نفعاً حتى يجلبوه فكيف لغيرهم ؟ وقد قدّم الضرّ على النفع لكون دفع الضرر أهمّ من جلب النفع .

وقوله : « ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً » أي لا يملكون موتاً حتى يدفعوه عن عبّادهم أو عمّن شاؤوا ولا حياة حتى يسلبوها عمّن شاؤوا أو يفيضوها لمن شاؤوا ولا نشوراً حتى يبعثوا الناس فيجازوهم على أعمالهم ، وملك هذه الأمور من لوازم الألوهية .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن ابن سنان عمّن ذكره قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن والفرقان هما شيان أو شيء واحد ؟ فقال : القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به .

و في الاختصاص للمفيد ، في حديث عبد الله بن سلام لرسول الله ﷺ قال :

فأخبرني هل أنزل الله عليك كتابا ؟ قال : نعم ، قال : وأي كتاب هو ؟ قال : الفرقان .
 قال ولم سمّاه ربك فرقانا ؟ قال : لأنّه متفرّق الآيات والسور^١ أنزل في غير الألواح
 وغيره من الصحف والتوراة والإنجيل والزبور أنزلت كلّها جملة في الألواح
 والأوراق . قال : صدقت يا محمد .
 أقول : كل من الروايتين ناظرة إلى واحد من معنيي الفرقان المنتقدين .





وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا افْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٢) وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٣) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٤) وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٥) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ كُنُوزٌ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٦) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٧) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعل لك قصورًا (٨) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (٩) إِذَا رَأَوْهُمُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا (١٠) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١١) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٢) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا (١٣) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٤) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٥) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ

وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ
فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) وَمَا
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ
وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بِصِيرًا (٢٠) .

﴿ بيان ﴾

تحكي الآيات عن المشركين ما طعنوا به في القرآن الكريم في النبي ﷺ
و تجيب عنه .

قوله تعالى : « قال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه و أعانه عليه قوم
آخرون » الخ في التعبير بمثل قوله : « وقال الذين كفروا » من غير أن يقال :
وقالوا ، مع تقدّم ذكر الكفار في قوله : « واتخذوا من دونه آلهة » تلويح إلى أن
القائلين بهذا القول هم كفّار العرب دون مطلق المشركين .

والمشار إليه بقولهم : « إن هذا » القرآن الكريم ، و إنما اكتفوا بالإشارة
دون أن يذكروه باسمه أو بشيء من أوصافه إزاء به وخطأ لقدره .

والإفك هو الكلام المصروف عن وجهه ، و مرادهم بكونه إفكاً افتراه كونه
كذباً اختلقه النبي ﷺ ونسبه إلى الله سبحانه .

والسياق لا يخلو من إيماء إلى أن المراد بالقوم الآخرين بعض أهل الكتاب
وقد ورد في بعض الآثار أن القوم الآخرين هم عداس مولى حويطب بن عبد العزى
ويسار مولى العلاء بن الحضرمي و جبر مولى عامر كانوا من أهل الكتاب يقرؤون
التوراة أسلموا وكان النبي ﷺ يتعهدهم فقل ما قيل .

وقوله : « فقد جاؤا ظلماً و زوراً » قال في مجمع البيان : إن جاء و أتى ربّما

كانا بمعنى فعل فيتعديان مثله فمعنى الآية فقد فعلوا ظلما و كذبا ، و قيل : إن ظلما منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد جاؤا بظلم ، و قيل : حال و التقدير فقد جاؤا ظالمين وهو سخيـف .

وفيه أيضا : ومتى قيل : كيف اكتفى بهذا القدر في جوابهم ؟ قلنا : لما تقدم التحدّي وعجزهم عن الإتيان بمثله اكتفى ههنا بالتنبيه على ذلك . انتهى والظاهر أن الجواب عن قولهم : « إن هذا إلّا إفك افتراه » - الخ وقولهم : « أساطير الأولين اكتتبها » الخ جميعا هو قوله تعالى : « قل أنزله الذي يعلم السر » الخ على ما سنبين والجملة أعني قوله : « فقد جاؤا ظلما و زورا » ردّ مطلق لقولهم و هو في معنى المنع مع السند و سنده الآيات المشتملة على التحدّي .

وبالجملة معنى الآية : وقال الذين كفروا من العرب ليس هذا القرآن إلّا كلاما مصروفا عن وجهه - حيث إنّه كلام محمد ﷺ وقد نسبته إلى الله - افترى به على الله و أعانه على هذا الكلام قوم آخرون وهم بعض أهل الكتاب فقد فعل هؤلاء الذين كفروا بقولهم هذا ظلما و كذبا .

قوله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » الأساطير جمع أسطورة بمعنى الخبر المكنوب و يغلب استعماله في الأخبار الخرافية والاكنتاب هو الكتابة و نسبته إليه ﷺ مع كونه أمّيا لا يكتب إنّما هي بنوع من التجوّز ككونه مكتوبا باستدعاء منه كما يقول الأمير كتبت إلى فلان كذا و كذا و إنّما كتبه كاتبه بأمره ، والدليل على ذلك قوله بعد : « فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » إذ لو كان هو الكاتب لم يكن معنى للإملاء ، و قيل : الاكنتاب بمعنى الاستكتاب .

والإملاء إلقاء الكلام إلى المخاطب بلفظه ليحفظه ويعيه أو إلى الكاتب ليكتبه ، و المراد به في الآية هو المعنى الأوّل على ما يعطيه سياق « اكتتبها فهي تملى عليه » - إذ ظاهره تحقيق الاكنتاب دفعة و الإملاء تدريجا . على نحو الاستمرار فهي مكتوبة مجموعة عنده تقرأ عليه وقتا بعد وقت وهو يعيها فيقرء على الناس ما وعاه وحفظه .

والبكرة والأصيل الغداة والعشي ، وهو كناية عن الوقت بعد الوقت ، وقيل المراد أول النهار قبل خروج الناس من منازلهم وآخر النهار بعد دخولهم في منازلهم وهو كناية عن أنها تملئ عليه خفية .

والآية بمنزلة التفسير للآية السابقة فكانتهم يوضحون قولهم : إنه إفاك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون بأنهم كتبوا له أساطير الأولين ثم يملونها عليه وقتا بعد وقت بقراءة شيء بعد شيء عليه ، وهو يقرؤها على الناس وينسبها إلى الله سبحانه .

فلا آية بتمامها من كلام الذين كفروا ، وربما قيل : إن قوله : « اكتبها فهي تملئ عليه » إلى آخر الآية من كلام الله سبحانه لامن تمام كلامهم ، وهو استفهام إنكاري لقولهم : أساطير الأولين ، والسياق لا يساعد عليه .

قوله تعالى : « قل أنزل الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيمًا » أمر للنبي ﷺ برد قولهم و تكذيبهم فيما رموا به القرآن أنه إفاك مفترى وأنه أساطير الأولين اكتبها فهي تملئ عليه وقتا بعد وقت .

و توصيفه تعالى بأنه يعلم السر أي خفيات الأمور وبواطنها في السماوات والأرض للإيدان بأن هذا الكتاب الذي أنزل منطوق على أسرار مطوية عن عقول البشر ، وفيه تعريض بمجازاتهم على جنایاتهم التي منها رميمهم القرآن بأنه إفاك مفترى وأنه من الأساطير وهو مما يعلمه تعالى .

وقوله : « إنه كان غفورا رحيمًا » تعليل لما هو المشاهد من إهمالهم وتأخير عقوبتهم على جنایاتهم و تكذيبهم للحق و جرأتهم على الله سبحانه .

والمعنى قل إن القرآن ليس إفاك مفترى ولا من الأساطير كما يقولون بل كتاب منزل من عند الله سبحانه ضمنه أسرار خفية لا تصل إلى كنهها عقولكم ولا تحيط بها أحلامكم ، و رميكم إياه بالإفاك والأساطير و تكذيبكم لحقائقه جنایة عظيمة تستحقون بها العقوبة غير أن الله سبحانه أمهلهم وأخر عقوبة جنایتكم لأنه

متّصف بالمغفرة والرحمة وذلك يستتبع تأخير العذاب ، هذا ملخّص ما ذكره في معنى الآية .

وفيه أنّ السياق لا يساعد عليه فإنّ محصل معنى الآية على ما فسّروه يرجع إلى ردّ دعوى الكفّار كون القرآن إفكاً مفترىً ومن الأساطير بدعوى أنّه منزل من عند الله منطوق على أسرار خفيّة لا سبيل لهم إلى الوقوف عليها لامساغ في مقام المخاصمة لردّ الدعوى بدعوى أخرى مثلها أو هي أخفى منها .

على أنّ التعليل بقوله : « إنّّه كان غفورا رحيمًا » إنّما يناسب انتفاء العقوبة من أصلها دون الإهمال والتأخير و إنّما المناسب للإهمال والتأخير من الأسماء هو مثل الحليم والعليم والحكيم دون الغفور الرحيم .

والأوفق لمقام المخاصمة والدفاع بإبانة الحقّ والتعليل بالمغفرة والرحمة أن يكون قوله : « إنّّه كان غفورا رحيمًا » تعليلًا لا نزال الكتاب وقد ذكر قبل ذلك أنّه أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيرًا وهذه هي النبوة ، ويكون حينئذ وصفه تعالى بعلم السرّ في السماوات والأرض للإيماء إلى أنّ في سرّهم ما يستدعي شمول المغفرة والرحمة الإلهيتين لحالهم وهو طلبهم بفطرتهم وجبلتهم للسعادة والعاقبة الحسنى التي ليست حقيقةً إلّا السعادة الإنسانية بشمول المغفرة والرحمة وإنّ أخطأ كثير منهم في تطبيقها على التمتع بالحياة الدنيا وزينتها الدائرة فيكون حجة برهانية على حقّيّة الدعوة النبويّة المشتملة عليها القرآن ، وبطلان دعوى كونه إفكاً من أساطير الأوّلين .

و تقرير الحجة أنّ الله سبحانه يعلم السرّ في السماوات والأرض وهو يعلم أنّ في سرّ كم المستقرّ في سرائر كم المجبولة عليه فطرتكم حبّاً للسعادة و طلباً و انتزاعاً للعاقبة الحسنى و حقيقة فوز الدنيا والآخرة ، وكان سبحانه غفورا رحيمًا ومقتضى ذلك أن يجيبكم إلى ما تسألونه في سرّكم و بلسان فطرتكم فيهديكم إلى سبيله التي تضمن لكم السعادة .

وهذا كتاب ينطق عليكم بسبيله فليس إفكاً مفترىً على الله ولا من قبيل

الأساطير بل هو كتاب يتضمن ما تسألونه بفطرتكم و تستدعونه في سرّكم فإن استجبتم لداعيه شملتكم المغفرة والرحمة وإن تولّيتم حرمتكم ذلك فهو كتاب منزل من عند الله ولو لم يكن نازلا من عنده كما يخبر عنه لم يهد إلى حقيقة السعادة ولم يدع إلى محض الحق ولاختلفت بياناته فدعاكم تارة إلى ما فيه خيركم و نفعكم وهو الذي يجلب إليكم المغفرة والرحمة ، و تارة إلى ما هو شرّ لكم وضارّ و هو الذي يثير عليكم السخط الإلهي و يستوجب لكم العقوبة .

قوله تعالى : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو يكون له جنة يأكل منها » هذه حكاية ما طعنوا به في الرسول بعد ما حكى طعنهم في القرآن بقوله : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء » الخ .

و تعبيرهم عنه ﷺ بقولهم : « هذا الرسول » مع تكذيبهم برسالته مبني على التهكم والاستهزاء .

وقولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق » استفهام للتعجب والوجه فيه أن الوثنيين يرون أن البشر لا يسوغ له الاتصال بالغيب وهو متعلق الوجود بالمادة منغمّر في ظلماتها ، و متلوّث بقذاراتها ، ولذا يتوسّلون في التوجّه إلى اللاهوت بالملائكة فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله و يقرّبوهم من الله زلفى فالملائكة هم المقرّبون عند الله المتصلّون بالغيب المتعيّنون للرسالة لو كانت هناك رسالة ، وليس للبشر شيء من ذلك .

و من هنا يظهر معنى قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق » و أن المراد أن الرسالة لا تجامع أكل الطعام و المشي في الأسواق لاكتساب المعاش فإنها اتصال غيبي لا يجامع التعلّقات الماديّة ، وليست إلا من شؤون الملائكة ولذا قالوا في غير موضع على ما حكاها الله تعالى : « لو شاء الله لا نزل ملائكة » المؤمنون : ٢٤ أو ما في معناه .

و من هنا يظهر أيضا أن قولهم : « لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا »

تنزل من المشرّكين في الاقتراح أي كيف يكون هذا المدّعي للرسالة رسولا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق والرسول لا يكون إلّا ملكا منزّها عن هذه الخصال الماديّة ، فإن تنزّلنا وسلّمنا رسالته وهو بشر فليُنزل إليه ملك يكون معه نذيرا ليتصل الإنذار وتبليغ الرسالة بالغيب بتوسط الملك .

وكذا قولهم : « أو يلقى إليه كنز » تنزّل عمّا قبله من الاقتراح أي إن لم ينزل إليه ملك واستقلّ بالرسالة وهو بشر فليخلق إليه من السماء كنز حتّى يصرف منه في وجوه حوائج الماديّة ولا يكدر في الأسواق في اكتساب ما يعيش به ، ونزول الكنز إليه أسهل من نزول الملك إليه ليعينه في تبليغ الرسالة .

وكذا قولهم : « أو يكون له جنة يأكل منها » تنزّل عمّا قبله في الاقتراح والمعنى وإن لم يلق إليه كنز فليكن له جنة يأكل منها ولا يحتاج إلى كسب المعاش وهذا أسهل من إلقاء الكنز إليه .

قوله تعالى : « وقال الظالمون إن تتبععون إلّا رجلا مسحورا » المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر - كما قيل - فهو من وضع الظاهر موضع المضمّر ووصفهم بالظلم للدلالة على بلوغهم في الظلم والاعتداء على الله ورسوله .

وقولهم : « إن تتبععون » الخ خطاب منهم للمؤمنين تعبيراً لهم وإغواء عن طريق الحق ، ومرادهم بالرجل المسحور النبي ﷺ يريدون أنّه مسحور وسحره بعض السحرة فصار يخيل إليه أنّه رسول يأتيه ملك الوحي بالرسالة والكتاب .

قوله تعالى : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضّلوا فلا يستطيعون سبيلا » الأمثال الأشباه وربما قيل : إنّ المثل هنا بمعنى الوصف على حدّ قوله تعالى : « مثل الجنة التي وعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن » سورة محمد : ١٥ والمحصّل : انظر كيف وصفوك فضّلوا فيك ضلالا لا يرجى معه اهتداؤهم إلى الحقّ كقولهم إنّهُ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فلا يصلح للرسالة لأنّ الرسول يجب أن يكون شخصا غيبيا لا تعلّق له بالمادّة ولا أقلّ من عدم احتياجه إلى الأسباب العاديّة في تحصيل المعاش ، وكقولهم : إنّهُ رجل مسحور .

وقوله : « فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » أي تفرّع على هذه الأمثال التي ضربوها لك أنّهم ضلّوا ضلالا لا يستطيعون معه أن يردوا سبيل الحق ولا يرجي لهم معه الاهتداء فإنّ من أخطأ الطريق ربّما أخطأها بانحراف يسير يرجي معه ركوبها ثانيا ، وربّما استدبرها فصار كلّما أمعن في مسيره زاد منها بعدا ، ومن سمى كتاب الله بالأساطير ووصف رسوله بالمسحور ولم يزل يزيد تعنّتا ولجاجا و استهزاء بالحق كيف يرجي اهتداؤه وحاله هذه ؟

قوله تعالى : « تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنّات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا » الإشارة في قوله : « من ذلك » إلى ما اقترحوه من قولهم : « أو يكون له جنّة يأكل منها » أو إلى مجموع ما ذكروه من الكنز والجنّة .

والقصور جمع قصرو هو البيت المشيد العالي ، و تنكير « قصورا » للدلالة على التعظيم والتفخيم .

والآية بمنزلة الجواب عن طعنهم بالنبي ﷺ واقتراحهم أن ينزل إليه ملك أو يُلقى إليه كنز أو يكون له جنّة غير أنّ فيها التفاتا من النكلم إلى الغيبة فلم يقل : قل إن شاء ربّي جعل لي كذا وكذا بل عدل إلى قوله : « تبارك الذي إن شاء جعل لك » الخ .

وفيه تلويح إلى أنّهم لا يستحقّون جوابا ولا يصلحون لأن يخاطبوا لأنّهم على علم بفساد ما اقترحوا به عليه فالنبي ﷺ لم يذكر لهم إلّا أنّه بشر مثلهم يوحى إليه ، ولم يدّع أنّ له قدرة غيبية و سلطنة إلهية على كلّ ما يريد أو يراد منه ، كما قال تعالى بعد ما حكى بعض اقتراحاتهم في سورة الإسراء ، « قل سبحان ربّي هل كنت إلّا بشرا رسولا » أسرى : ٩٣ .

فأعرض سبحانه عن مخاطبتهم وعن الجواب عمّا اقترحوه ، وإنّما ذكر لنبيّه ﷺ أنّ ربّه الذي اتّخذة رسولا وأنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرا قادرا على أعظم ممّا يقترحونه فإن شاء جعل له خيرا من ذلك جنّات تجري من تحتها

الأنهار و يجعل له قصورا لا يبلغ وصفها واصف و ذلك خير من أن يكون له جنة يأكل منها أو يلقي إليه كنز ليصرفه في حوائجه .

و بهذا المقدار يتحصل جوابهم فيما اقترحوه من الكنز والجنة . و أما نزول الملك إليه ليشاركه في الإنذار ويعينه على التبليغ فلم يذكر جواب عنه لظهور بطلانه ، وقد أجاب تعالى عنه في مواضع من كلامه بأجوبة مختلفة كقوله : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا و لبسنا عليهم ما يلبسون » الانعام : ٨ و قوله : « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ، أسرى : ٩٥ ، و قوله : « ما ننزل الملائكة إلا بالحق و ما كانوا إذا منظرين » الحجر : ٨ و قد تقدم تقرير حجة كل من الآيات في ضمن تفسيرها . و من هنا يظهر أن المراد بجعل الجنات والقصور له ﷺ جعله في الدنيا على ما يقتضيه مقام المحاصمة ورد قولهم فإن المحصل من السياق أنهم يقترحون عليك كيت و كيت وهم يريدون تعجيزك و تبكيك و إن ربك قادر على أعظم من ذلك فإن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار الخ و هي لا محالة في الدنيا وإلا لم ينقطع به الخصام .

و بذلك يتبين فساد ما نقل عن بعضهم أن المراد جنات الآخرة و قصورها وأفسد منه قول آخرين إن المراد جعل جنات تجري من تحتها الأنهار في الدنيا وجعل القصور في الآخرة ، وربما استونس لذلك بأن التعبير في الجنات بقوله : « إن شاء جعل » وهو صيغة ماض مفيدة للتحقق مناسبة للدنيا ، و في القصور بقوله : « يجعل » و هو صيغة مستقبل مناسبة للآخرة هذا مع أن الفعل الواقع في حين الشرط منسلخ عن الزمان ، والاختلاف في التعبير تفنن فيه وتجديد لصورة الكلام والله العالم .

قوله تعالى : « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا » إضراب عن طعنهم فيه ﷺ واعتراضهم عليه بأكل الطعام والمشي في الأسواق بما يتضمن معنى التكذيب أي ما كذبوك وردوا نبوتك لأنك تأكل الطعام ويمشي

في الأسواق فإنما هو كلام منهم صوري بل السبب الأصلي في إنكارهم نبوتك و طعنهم فيك أنهم كذبوا بالساعة وأنكروا المعاد . ومن المعلوم أن لا وقع للنبوة مع إنكار الساعة ولا معنى للدين والشرعة لولا المحاسبة والمجازاة .

فلا إشارة إلى السبب الأصلي بعد ذكر الاعتراض والاقتراح والجواب وهنا نظير ما وقع في سورة الإسراء بعد ذكر الاقتراحات ثم الجواب من ذكر السبب الأصلي في قوله : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا وما منع الناس أن يؤمنوا إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » .

و ذكر جمع من المفسرين أن قوله : « بل كذبوا بالساعة » حكاية لبعض آخر من أباطيلهم كما حكى بعضا آخر منها متعلقا بالنوحيد والكتاب والرسالة في قوله : « واتخذوا من دونه آلهة » وقوله : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك الخ وقوله : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الخ » .

ثم تشعبوا في نكتة الإضراب ، فذكر بعضهم أن الوجه فيه كون المعاد لا ريب فيه ، و قال بعضهم : إن إنكاره أعظم ، وقال بعضهم : إنه أعجب إلى غير ذلك . والحق أن السياق لا يساعد عليه فإن السياق المتعرض لطعنهم في الرسول صلى الله عليه وآله والجواب عنه لم يتم بعد بشهادة قوله بعد : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق الخ وما يتلوه من الآيات فلا معنى لاعتراض حكاية تكذيبهم بالساعة بين الآيات الحاكية لتكذيبهم بالرسول والمجيبة عنه ، وهو ظاهر .

وقوله تعالى : « وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا » وضع الموصول والصلة مكان الضمير الراجع للدلالة على أن الجزء بالسعير ثابت في حق كل من كذب بالساعة هم وغيرهم فيه سواء ، وعلى أن سبب إعتاد السعير عليه فيهم تكذيبهم بالساعة . و وضع الساعة ثانيا موضع ضميرها ليكون أنص وأصرح فهو المناسب لمقام التهديد ، والسعير النار المشتعلة الملتهبة .

قوله تعالى : « وإذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا » في المفردات :

الغيظ أشدّ غضب - إلى أن قال - و التغيّظ هو إظهار الغيظ ، وقد يكون ذلك مع صوت مسموع كما قال : « سمعوا لها تغيّظا وزفيرا » انتهى ، وفيه أيضا : الزفير تردّد النفس حتّى تنفخ الضلوع منه - انتهى .

والآية تمثّل حال النار بالنسبة إليهم إذا برزوا لها يوم الجزاء أنّها تشتدّ إذا ظهروا لها كالأسد يزأر إذا رأى فريسته .

قوله تعالى : « وإذا ألقوا منها مكانا ضيقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبورا » مكانا منصوب بتقدير في ، والثبور الويل والهلاك .

والتقرين التصفيد بالأغلال والسلاسل وقيل : هو جعلهم مع قرناء الشياطين و هو بعيد من اللفظ . والمعنى و إذا ألقوا يوم الجزاء في مكان ضيق من النار وهم مصفّدون بالأغلال دعوا هنالك ثبورا لايوصف و هو قولهم : و اثبورا .

قوله تعالى : « لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » الاستغاثة بالويل و الثبور نوع احتيال للتخلّص من الشدّة و إذ كان اليوم يوم الجزاء فحسب لايتقع فيه عمل ولا يجدي فيه سبب البتّة لم ينفعهم الدعاء بالثبور أصلا ولذا قال تعالى : « لاتدعوا اليوم » الخ فهو كناية عن أن الثبور لاينفعكم اليوم سواء استقللتم منه أو استكثرتم . فهو في معنى قوله تعالى : « اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم » الطور : ١٦ ، وقوله حكاية عنهم : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » إبراهيم : ٢١ .

وقيل : المراد أنّ عذا بكم طويل مؤبّد لاينقطع بثبور واحد بل يحتاج إلى ثبورات كثيرة . وهو بعيد .

قوله تعالى : « قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتّقون - إلى قوله - مسؤلا » الإشارة إلى السعير بماله من الوصف ، أمر نبيّه ﷺ أن يسألهم أيّهما أرجح السعير أم جنة الخلد ؟ و السؤال سؤال في أمر بديهي لايتوقّف في جوابه عاقل وهو دائر في المناظرة والمخاصمة يردّد الخصم بين أمرين أحدهما بديهي الصّحة

و الآخر بديهي "البطلان فيكلف أن يختار أحدهما فإن اختار الحق فقد اعترف بما كان ينكره ، وإن اختار الباطل افترض .

وقوله : « أم جنة الخلد » إضافة الجنة إلى الخلد وهو الدوام للدلالة على كونها في نفسها خالدة لا تفنى كما أن قوله بعد : « خالدين » للدلالة على أن أهلها خالدون فيها لا سبيل للفناء إليهم .

وقوله : « وعد المتقون » تقديره وعدا المتقون لأن وعد يتعدى لمفعولين والمتقون مفعول ثان ناب عناب الفاعل .

و قوله : « كانت لهم جزاء ومصيراً » أي جزاء لنقواهم و منقلباً ينقلبون إليه بما هم متقون كما قال تعالى : « إن المتقين في جنات وعيون إلى أن قال - وما هم منها بمخرجين » الحجر : ٤٨ وهو من الأفضية التي قضاه يوم خلق آدم وأمر الملائكة و إبليس بالسجود له ، و يتعين به جزاء المتقين ومصيرهم كما تقدم في تفسير سورة الحجر .

وقوله : « لهم فيها ما يشاؤون خالدين » أي إنهم يملكون فيها بتمليك من الله لهم كل ما تتعلق به مشيتهم ، ولا تتعلق مشيتهم إلا بما يحبونه ويشتهونه على خلاف أهل النار كما قال تعالى فيهم : « و حيل بينهم و بين ما يشتهون » سبأ : ٥٤ ، ولا يحبون ولا يشتهون إلا ما من شأنه أن يتعلق به الحب واقعا وهو الذي يحب الله لهم وهو ما يستحقونه من الخير والسعادة مما يستكملون به ولا يستضرون به لا هم ولا غيرهم فافهم ذلك .

و بهذا البيان يظهر أن لهم إطلاق المشية يعطون ما شاؤوا و أرادوا غير أنفسهم لا يشاؤون إلا ما فيه رضى ربهم ، و يندفع بهما استشكل على الآيات الناطقة بإطلاق المشية كهذه الآية أن لازم إطلاق المشية أن يجوز لهم أن يريدوا بعض المعاصي والقبائح والشنائع واللغو ، وأن يريدوا بعض ما يسوء سائر أهل الجنة ، وأن يريدوا نجاة بعض المخلدن في النار ، وأن يريدوا مقامات الأنبياء و المخلصين من الأولياء

ممن هم فوقهم درجة إلى غير ذلك .

كيف ؟ وقد قال تعالى : « يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » الفجر : ٢٧ - ٣٠ فهم راضون بما راضي به الله ومرضون لا يريدون إلا ما يرضيه فلا يريدون معصية ولا قبوحا ولا شنيعا ولا لغوا ولا كذآبا ، ولا يريدون ما لا يرضيه غيرهم من أهل الجنة ، ولا يريدون ارتفاع العذاب ممن يريد ربهم عذابه ، ولا يشاؤون ولا يتمنون مقام من هو أرفع درجة منهم لأنّ الذي خصهم بها هو ربهم وقد رضوا بما فعل وأحبّوا ما أحبه .

وقوله تعالى : « كان على ربك وعدا مسؤولا » أي كان هذا الوعد الذي وعده المتقون وعداً على ربك يجب عليه أن يفي به ، وإنما أوجبه هو تعالى على نفسه حيث قضى بذلك أوّل يوم ، وأخبر عن ذلك بمثل قوله : « وأنّ للمتقين لحسن مآب جنّات عدن - إلى أن قال - هذا ما توعّدون ليوم الحساب » ص : ٥٣ .

ووجه اتّصاف هذا الوعد بكونه مسؤولا أنّ المتقين سألوها ربهم ذلك بلسان حالهم واستعدادهم ، أو سألوه ذلك في دعائهم ، أو الملائكة سألوها ذلك كما فيما يحكيه الله عنهم : « ربّنا وأدخلهم جنّات عدن - الخ المؤمن : ١٨ أو جميع هذه الأسئلة .

و ذكر الطبرسي ره في الآية أنّ قوله : « كانت لهم جزاء ومصيرا » حال من ضمير الجنة المقدّر في « وعد المتقون » ، وأنّ قوله : « لهم فيها ما يشاؤون » حال من « المتقون » وهو أقرب إلى الذهن من قول غيره أنّ « الجذلمتين استبينافان في موضع التعليل كالجواب لسؤال مقدّر .

قوله تعالى : « و يوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله » إلى آخر الآية ضمائر الجمع الأربعة عائدة إلى الكفار ، والمراد بما يعبدون الملائكة والمعبودون من البشر والأصنام إن كان « ما » أعمّ من غير أولي العقل ، وإلا فالأصنام فقط .

والمشار إليهم المعنيون بقوله : « عبادي هؤلاء » الكفار ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، الخ جواب المعبودين عن قوله : « أنتم أضللتم عبادي هؤلاء ، الخ وقد بدؤا بالتسبيح على ما هو من أدب العبودية في موارد يذكر فيها شرك أهل الشرك أو ما يوهوم ذلك بوجه .

وقوله : « ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، أي ما صح وما استقام لنا أن نتجاوزك إلى غيرك فنتخذ من دونك من أولياء وهم الذين عبدونا واتخذونا أولياء من دونك وقوله : « ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ، البور جمع بائر وهو الهالك وقيل : الفاسد .

لما نفى المعبودون المسؤولون عن سبب ضلال عبادهم نسبة الإضلال إلى أنفسهم أخذوا في نسبته إلى الكفار أنفسهم مع بيان السبب الذي أضلهم وهو أنهم كانوا قوما هالكين أو فاسدين وقد متعتهم وآباءهم من أمتعة الحياة الدنيا ونعمها حتى طال عليهم التمتع امتحانا وابتلاء فتمتعوا منها واشغلوا بها حتى نسوا الذكر الذي جاءت به الرسل فعدلوا عن التوحيد إلى الشرك .

فكونهم قوما هالكين أو فاسدين بسبب انكبابهم على الدنيا وانهماهم في الشهوات هو السبب في استغراقهم في التمتع وانصراف همهم إلى الاشتغال بالأسباب وهو السبب لنسيانهم الذكر والعدول عن التوحيد إلى الشرك .

فتبين بذلك أن قوله : « وكانوا قوما بورا ، من تمام الجواب وأما من جعل الجملة اعتراضا تذييليا مقررًا لمضمون ما قبله واستفاد منه أن السبب الأصلي في ضلالهم أنهم كانوا بحسب ذواتهم أشقياء هالكين ، وليس ذلك إلا بقضاء حتم منه تعالى في سابق علمه فهو المضل لهم حقيقة ، وإنما نسب إلى أنفسهم أدبا .

ففيه أولا أنه إفساد لمعنى الآية إذ لا موجب حينئذ لإيراد الاستدراك بقوله : « ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، لكونه فضلا لا حاجة إليه .

وثانيا أن نسبة البوار والشقاء إلى ذوات الأشياء ينافي ما أطبق عليه العقلاء بفطرتهم من تأثير التعليم والتربية ، والحس والتجربة يؤيدان ذلك ، وهو يناقض

القول بالاختيار و الجبر معا ، أمّا مناقضة القول بالاختيار فظاهر ، و أمّا مناقضة القول بالجبر فلأنّ "الجبري" يقصر العلّية في الواجب تعالى و ينفيه عن غيره و يناقضه نسبة الاقتضاء الضروريّ إلى ذوات الأشياء و ما هيأتها .

و ثالثاً أنّ فيه خلطاً في معنى القضاء من حيث متعلّقه فكون القضاء حتماً لا يوجب خروج الفعل الذي تعلّق به من الاختيار إلى الإيجاب فإنّ القضاء إنّما تعلّق بالفعل بحدوده و هو صدوره عن اختيار الفاعل من حيث إنّّه صادر عن اختياره فتعلّقه يوجب تأكّد كونه اختياريّاً لا أنّه يزيل عنه وصف الاختيار .

و رابعاً أنّ قولهم : إنّ "المضلّ" بالحقيقة هو الله و إنّما نسبوا المضلل إلى الكفار أنفسهم تأدّباً و بمثله صرّحوا في نسبة المعاصي و الأعمال القبيحة الشنيعة و الفجائع الفظيعة إلى فواعلها أنّها في عين أنّها من أفعاله تعالى إنّما تنسب إلى غيره تأدّباً بكلام متهاف فإنّ الأدب - كما تقدّم تفصيل القول فيه في الجزء السادس من الكتاب - هو الهيئة الحسنة التي ينبغي أن يقع عليها فعل ما ، و بعبارة أخرى ظرافة الفعل ، و إذ كان الحقّ الصريح في الفعل غير الجميل أنّه فعل الله سبحانه و لا يشاركه في فعله غيره بأيّ وجه فرض كانت نسبته إلى غيره تعالى نسبة باطلة غير حقّ و كذباً و فرية لا تطابق الواقع فليت شعري أيّ أدب جميل في إمالة حقّ صريح و إحياء باطل ؟ و أيّ ظرافة و لطف في الكذب و الفرية بإسناد الفعل إلى غير فاعله ؟ و الله سبحانه أجلّ من أن يعظّم بباطل أو بالستر على بعض أفعاله أو بالكذب و الفرية بإسناد بعض ما يفعله إلى غيره ، و إذ كان جميلاً لا يفعل إلّا الجميل فمأعنى التادّب بتقي بعض أفعاله عنه ؟

قوله تعالى : « فقد كذّبواكم بما تقولون فلا تستطيعون صرفاً ولا نصراً » إلى آخر الآية . كلام له تعالى يلقيه إلى المشركين بعد براءة المعبودين منهم ، و أمّا كلام المعبودين فقد تمّ في قوله : « وكانوا قوماً بوراً » .

و المعنى فقد كذّبكم المعبودون بما تقولون في حقّهم إنّهم آلهة من دون الله يصرفون عن عبدتهم السوء و ينصرونهم ، و إذ كذّبواكم و نفوا عن أنفسهم الألوهيّة

والولاية فلا تستطيعون أنتم أيها العبد أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب بسبب عبادتهم ، ولا تستطيعون نصرا لأنفسكم بسببهم .

والترديد بين الصرف والنصر كأنه باعتبار استقلال المعبودين في دفع العذاب عنهم وهو الصرف . وعدم استقلالهم بأن يكونوا جزء السبب وهو النصر .

وقرء غير عاصم من طريق حفص « يستطيعون » بالياء المشناة من تحت و هي قراءة حسنة ملائمة لمقتضى السياق ، والمعنى فقد كذبكم المعبودون بما تقولون إنهم آلهة يصرفون عنكم سوء أو ينصرونكم و يتفرع على ذلك أنهم لا يستطيعون لكم صرفا ولا نصرا .

وقوله : « و من يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » المراد بالظلم مطلق الظلم و المعصية و إن كان مورد الآيات السابقة خصوص الظلم الذي هو الشرك فقوله : « و من يظلم منكم » الخ من قبيل وضع القانون العام موضع الحكم الخاص ، ولو كان المراد به الحكم الخاص بهم لكان من حق الكلام أن يقال : و نذيقكم بما ظلمتم عذابا كثيرا لأنهم كلهم ظالمون ظلم الشرك .

و النكتة فيه الإشارة إلى أن الحكم الإلهي نافذ جار لا مانع منه ولا معقب له كأنه قيل : و إن كذبكم المعبودون وما استطاعوا صرفا ولا نصرا فالحكم العام الإلهي « من يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » على نفوذه و جريانه لا مانع منه ولا معقب له فأنتم ذائقون العذاب البتة .

قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام و يمشون في الأسواق » إلى آخر الآية . أجب تعالى عن قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق الخ » أو لا بقوله : « تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك » الخ مع ما يلحقه من قوله : « بل كذبوا بالساعة » الخ و هذا جواب ثان محصله أن هذا الرسول ليس بأوّل رسول أرسل إلى الناس بل أرسل الله قبله جمعا غفيرا من المرسلين وقد كانوا على العادة البشرية الجارية بين الناس يأكلون الطعام و يمشون في الأسواق ولم يخلق لهم جنة يأكلون منها ولا أُلقي

إليهم كنز ولا أنزل معهم ملك ، وهذا الرسول إنما هو كأحدكم ولم يأت بأمر بدع حتى يتوقع منه ما لا يتوقع من غيره .

فآية في معنى قوله : « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي » ، الأحقاف : ٩ وقرينة المعنى من قوله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي » الكهف : ١١٠ .

فإن قيل : هذا في الحقيقة دفع للاعتراض عنه ﷺ خاصة و توجيهه إلى عامة الرسل فلهم أن يعترضوا على عامة الرسل كما وجهه سابقهم وقد حكى الله عنهم ذلك قال : « قالوا أبشر يهودنا » التغابن : ٦ ، وقال : « قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا » إبراهيم : ١٠ ، وقال : « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه و يشرب مما تشربون » المؤمنون : ٣٣ .

قلنا : الجواب مطابق للاعتراض فإن قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الخ يعطي الخصوصية بلا إشكال و أما تعميم الاعتراض لو عمم فيدفعه قوله تعالى : « بل كذبوا بالساعة » الخ وقوله قبل ذلك : « قل أنزل الذي يعلم السر » الخ على ما تقدم من التقرير .

و من عجيب القول ما عن بعض المفسرين أن الآية تسلية للنبي ﷺ كأنه قيل : إن الرسل من قبلك كانوا على الحال التي أنت عليها فلك فيهم أسوة حسنة ، و أما كونه جوابا عن تعنتهم فالنظم لا يساعد عليه إذ قد أُجيب عنه بقوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال » هذا وهو خطأ .

وقوله تعالى : « و جعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون » متمم للجواب السابق بمنزلة التعليل لكون الرسل كسائر الناس في الخواص البشرية من غير أن تتميز حياتهم أو دعوتهم بخواص سماوية تورث القطع بكونهم حاملين للرسالة الإلهية كالنزال ملك عليهم أو إلقاء كنز إليهم أو خلق جنة لهم فكانه قيل : و السبب في كون الرسل جارين في حياتهم على ما يجري عليه الناس أننا جعلنا بعض الناس لبعض فتنة يمتحنون بها فالرسل فتنة لسائر الناس يمتحنون بهم فيتميز بهم أهل

الريب من أهل الإيمان و المتبوعون للأهواء الذين لا يصبرون على مرّ الحق من طلاب الحق الصابرين في طاعة الله وسلوك سبيله .

و بما مرّ يتبين أن المراد بالصبر هو الصبر بأقسامه وهي الصبر على طاعة الله ، و الصبر عند معصيته ، و الصبر على المصائب .

و ثانياً أن قوله : « و جعلنا بعضكم لبعض فتنة » من وضع الحكم العام موضع الخاص ، و المطلوب الإشارة إلى جعل الرسل - و حالهم هذه الحال - فتنة لسائر الناس .

وقوله تعالى : « و كان ربك بصيرا » أي عالماً بالصواب في الأمور فيضع كل أمر في الموضع المناسب له و يجري بذلك أتم النظام فهدف النظام الإنساني كمال كل فرد بقطعه طريق السعادة أو الشقاوة على حسب ما يستعد له و يستحقه و لازمه بسط نظام الامتحان بينهم و لازمه ارتفاع التمايز بين الرسل و غيرهم .

و في الجملة الثقات من التكلم مع الغير إلى الغيبة ، و النكته فيه نظيرة ما في قوله السابق : « تبارك الذي إن شاء ، الخ » .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس أن عتبة و شيبة ابني ربيعة و أبا سفيان بن حرب و النضر بن الحارث و أبا البختری و الأسود بن المطلب و زمعة بن الأسود و الوليد بن المغيرة و أبا جهل ابن هشام و عبد الله بن أمية و أمية بن خلف و العاصي بن وائل و نبيه بن الحجاج اجتمعوا فقال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد فكلّموه و خاصموه حتى تعذروا منه فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك .

قال : فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا له : يا محمد إننا بعثنا إليك لنعذر منك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا ، و إن كنت تطلب الشرف فنحن نسودك ، و إن كنت تطلب ملكاً ملكناك .

فقال رسول الله ﷺ : ما بي مما تقولون ما جئتمكم بما جئتمكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا و نذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن قبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيأ عرضناه عليك فسل لنفسك وسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب و فضة يغنيك مما تبغى فإنك تقوم بالأسواق و تلمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك و منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل . ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، و ما بعث إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيرا و نذيرا .

فأنزل الله في قولهم ذلك « و قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام إلى قوله - و جعلنا بعضكم لبعض فتنة . أتصبرون وكان ربك بصيرا » أي جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسولي فلا تخالفوه لفعلت .

وفيه أخرج الطبراني و ابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : من كذب علي متعمدا فليتبوء مقعدا من بين عيني جهنم . قالوا : يا رسول الله وهل لجهنم من عين ؟ قال : أما سمعتم الله يقول : « إذا رأيتهم من مكان بعيد » فهل تراهم إلا بعينين ؟ .

أقول : و رواه أيضا عن رجل من الصحابة ، و في حجة الخبر خفاء .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله : « وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين » قال : والذي نفسي بيده إنهم ليستكبرون في النار كما يستكبره الوتد في الحائط .



وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلِيكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا
لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عَتْوًا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرْفُفُ الْمَلَكَةُ لِأَبْشَرِي
يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ
عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ
مَقِيلًا (٢٤) وَ يَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمَلَكُ
يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَ يَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ
عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١).

﴿ بيان ﴾

تحكي الآيات اعتراضاً آخر من المشركين على رسالة الرسول يردون به عليه محصله أنه لو جاز أن يكون من البشر بما هو بشر رسول تنزل عليه الملائكة بالوحي من الله سبحانه أو يراه تعالى فيكلمه وحيالكان الرسول و سائر البشر سواء في هذه الخصيصة فإن كان ما يدعيه من الرسالة حقاً لكنا أوكأن البعض منا يرى ما يدعي رؤيته ويجد من نفسه ما يجده .

و هذا الاعتراض مما سبقهم إليه أُمم الأنبياء الماضين كما حكاها الله : وقالوا

إن أنتم إلا بشر مثلنا ، إبراهيم : ١٠ وقد مرّ تقريره مراراً .

وهذا ما تقدّم من اعتراضهم بقولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، الخ بمنزلة حجة واحدة تلزم الخصم بأحد محذورين و محصل تقريره أن الرسالة التي يدّعيها هذا الرسول إن كانت موهبة سماوية و اتصالاً غيبياً لاحظت فيها للبشر بما هو بشر فليُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو يجعل له جنة يأكل منها ، وإن كانت خاصة من شأن البشر بما هو بشر أن ينالها يتّصف بها فما بالنا لنجدها في أنفسنا ؟ فلولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا .

وقد أجاب الله سبحانه عن الشقّ الأوّل بما تقدّم تقريره ، وعن الثاني بأنهم سيرون الملائكة لكن في نشأة غير هذه النشأة الدنيوية والجواب في معنى قوله : « ما ننزل الملائكة إلا بالحق » وما كانوا إذا منظرين ، الحجر : ٨ وسيجيئ تقريره ، و في الآيات إشارة إلى ما بعد الموت ويوم القيامة .

قوله تعالى : « و قال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم و عتوا عتواً كبيراً » قال في مجمع البيان : الرجاء ترقّب الخير الذي يقوى في النفس وقوعه و مثله الطمع والأمل ، واللقاء المصير إلى الشيء من غير حائل ، والعتوّ الخروج إلى أفحش الظلم . انتهى . والمراد باللقاء الرجوع إلى الله يوم القيامة سمّي به لبروزهم إليه تعالى بحيث لا يبقى في البين حائل جهل أو غفلة لظهور العظمة الإلهية كما قال تعالى : « ويعلمون أن الله هو الحقّ المبين » .

فالمراد بعدم رجائهم اللقاء إنكارهم للمعاد و تكذيبهم بالساعة ولم يعبر عنه بتكذيب الساعة و نحوه كما عبّر في الآيات السابقة لمكان ذكرهم مشاهدة الملائكة ورؤية الربّ تعالى وتقدّس فيه إشارة إلى أنهم إنمّا قالوا ما قالوا و طلبوا إنزال الملائكة أو رؤية الربّ ليأسهم من اللقاء وزعمهم استحالة ذلك فقد ألزموا بما هو مستحيل على زعمهم .

فقولهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » اعتراض منهم على رسالة

الرسول أوردوه في صورة التحضيض كقولهم في موضع آخر : «لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين» الحجر : ٧ وتقرير الحجة كما تقدمت الإشارة إليه أنه لو كانت الرسالة - وهي نزول الملائكة بالوحي أو تكليمه تعالى البشر بالمشافهة - مما يتيسر للبشر نبأه ونحن بشر أمثال هذا المدعي للرسالة فما بالنا لا ينزل علينا الملائكة ولا نرى ربنا ؟ فهلا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا .

و يؤيد ما ذكرناه من التقرير إطلاق إنزال الملائكة ورؤية الرب من غير أن يقولوا : لولا أنزل علينا الملائكة فيصدق قوك أو نرى ربنا فيصدقك . على أنهم ذكروا في اعتراضهم السابق نزول الملك ليكون معه نذيرا وفيه تصديقه .

و في التعبير عنه تعالى بلفظ ربنا نوع تهكم منهم فإن المشركين ما كانوا يرونه تعالى رباً لهم بل كان عندهم أن أربابهم ما كانوا يعبدونهم والله سبحانه رب الأرباب فكانهم قالوا للنبي ﷺ : إنك ترى أن الله ربك وقد حن إليك فخصك بالمشافهة والتكليم ، وأنه ربنا ، فليحن إلينا وليشافهنا بالرؤية كما فعل بك .

على أنهم إنما عدلوا عن عبادة أرباب الأصنام وهم الملائكة وروحانيات الكواكب ونحوهم إلى عبادة الأصنام والتماثيل لتكون محسوسة غير غائبة عن المشاهدة عند العبادة والتقرب بالقرايين .

وقوله تعالى : «لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا» أي أقسم لقد طلبوا الكبر لأنفسهم بغير حق وطغوا طغيانا عظيما .

قوله تعالى : «يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا» في المفردات : الحجر الممنوع منه بتحريمه قال تعالى : «وقالوا هذه أنعام وحرث حجر» ويقولون حجرا محجورا ، كان الرجل إذا لقي من يخاف يقول ذلك فذكر تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكة قالوا ذلك ظناً أن ذلك يتقهم . انتهى .

و عن الخليل كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه القتل في الجاهلية

في الأشهر الحرم فيقول : حجرا محجورا أي حرام عليك التعرّض لي في هذا الشهر فلا يبدؤه بشرّ ، و عن أبي عبيدة : هي عوذة للعرب يقولها من يخاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه و بينهما ترة .

فقوله : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين » يوم - على ما قيل - ظرف لقوله : « لا بشرى » وقوله : « يومئذ » تأكيد له ، والمراد بقوله : « لا بشرى » نفي الجنس ، والمراد بالمجرمين كل متّصف بالاجرام غير أن مورد الكلام إجماع الشرك و المجرمون هم الذين لا يرجون اللقاء ، وقد تقدّم ذكرهم والمعنى يوم يرى هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا الملائكة لا بشرى - على طريق نفي الجنس - يومئذ للمجرمين وهم منهم .

وقوله : « و يقولون حجرا محجورا » فاعل يقولون هم المشركون أي يقول المشركون يومئذ للملائكة وهم قاصدوهم بالعذاب : حجرا محجورا أي لنكن في معاذ منكم و قيل : ضمير الجمع للملائكة ، والمعنى و يقول الملائكة للمشركين حراماً محرّماً عليكم سماع البشرى ، أو حراماً محرّماً عليكم أن تدخلوا الجنة أو حراماً محرّماً عليكم أن تتعوّذوا من العذاب إلى شيء فلا معاذ لكم هذا ، والمعنى الأوّل أقرب إلى السياق .

والآية في موضع الجواب عن قولهم : « لولا أنزل إلينا الملائكة » وقد أعرضت عن جواب قولهم : « أو نرى ربنا » فإن الرؤية التي كانوا يقصدونها بقولهم هي الرؤية البصرية التي تستلزم التجسّم و المادّية تعالى عن ذلك ، و أمّا الرؤية بعين اليقين وهي الرؤية القلبية فلم يكونوا آمنّ يفقه ذلك وعلى تقديره ما كانوا يقصدونه . و أمّا توضيح الجواب عن أمر إنزال الملائكة و رؤيتهم فقد أخذ أصل الرؤية مفروغا منه مسلماً أن هناك يوماً يرون فيه الملائكة غير أنه وُضع الإخبار عن وصفهم يوم الرؤية موضع الإخبار عن أصل رؤيتهم للإشارة إلى أن طلبهم لرؤية الملائكة ليس يجري على نفعتهم فإنهم لا يرون الملائكة إلّا يوم يشاهدون عذاب النار و ذلك بعد تبدل النشأة الدنيوية من النشأة الأخرى كما أشار إليه في موضع آخر

بقوله : « ما ننزل الملائكة إلا بالحقّ وما كانوا إذا منظرين » الحجر : ٨ . فهم في مسائلهم هذه يستعجلون بالعذاب وهم يحسبون أنهم يعجزون الله ورسوله بالحجة .
وأما ما هو هذا اليوم الذي أُشير إليه بقوله : « يوم يرون الملائكة » فقد ذكر المفسّرون أنّه يوم القيامة لكنّ الذي يعطيه السياق مع ما ينضمّ إليه من الآيات الواصفة ليوم الموت وما بعده كقوله : « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون » الآية الأنعام : ٩٣ ، وقوله : « الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » النساء : ٩٧ إلى غير ذلك من الآيات .

أنّ المراد به الموت وهو المسمّى في عرف القرآن برزخا فإنّ في الآيات دلالة قاطعة على أنّهم يرون الملائكة ويشافهونهم بعد الموت قبل يوم القيامة ، والمتعيّن - على ما يقتضيه طبع المخاصمة - في جواب من يجحد رؤية الملائكة أن يذكر له أوّل يوم يراهم بما يسوؤه وهو يوم الموت لأنّ يخاصم بذلك رؤيتهم يوم القيامة وقوله لهم : حجراً محجوراً ، وقد رآهم قبل ذلك وعذب بأيديهم أمداً بعيداً وهو ظاهر .

فالظاهر أنّ الآية والآيتين التاليتين ناظرة إلى حالهم في البرزخ تصف رؤيتهم للملائكة فيه ، وإحباط أعمالهم فيه ، وحال أهل الجنة التي فيه .
قوله تعالى : « وقدّمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » قال الراغب في المفردات : العمل كلّ فعل يكون من الحيوان بقصد فهو أخصّ من الفعل لأنّ الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد وقد ينسب إلى الجمادات والعمل قلماً ينسب إلى ذلك ، ولم يستعمل العمل في الحيوانات إلّا في قولهم : البقر العوامل . انتهى .

وقال : الهباء دقاق التراب وما انبث في الهواء . فلا يبدو إلّا في أثناء ضوء الشمس في الكوّة . انتهى . والنثر التفريق .

و المعنى و أقبلنا إلى كل عمل عملوه - و العمل هو الذي يعيش به الإنسان بعد الموت - ففرّقناه تفريقاً لا ينتفعون به كالهباء المنثور ، والكلام مبني على التمثيل مثل به استيلاء القهر الإلهي على جميع أعمالهم التي عملوها لسعادة الحياة و إبطالها بحيث لا يؤثر في سعادة حياتهم المؤبدة شيئاً بتشبيهه بسلطان غلب عدوه فحلّ داره بعد ما ظهر عليه فخرّب الدار وهدم الآثار وأحرق المتاع و الأثاث فأفنى منه كل عين و أثر .

ولا منافاة بين ما تدل عليه الآية من حبط الأعمال يومئذ و بين ما تدل عليه آيات أخر أن أعمالهم أحييت حينما عملوها في الدنيا بكفرهم و إجرامهم فإن معنى الإحياء بعد الموت ظهور الحبط لهم بعد ما كان خفياً في الدنيا عليهم وقد تقدم كلام مشبع في معنى الحبط في الجزء الثاني من الكتاب فراجع .

قوله تعالى : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً و أحسن مقيلاً » المراد بأصحاب الجنة المتّقون فقد تقدم قوله قبل آيات : « قل أدلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتّقون » ، و المستقرّ و المقيّل اسما مكان من الاستقرار ومعناه ظاهر و من القيلولة وهي الاستراحة في منتصف النهار سواء كان معها نوم أم لا - على ما قيل - والجنة لا يوم فيه .

و كلمتا « خير » و « أحسن » منسلخان عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى : « وهو أهون عليه » الروم : ٢٧ : و قوله : « ما عند الله خير من اللّهُو » الجمعة : ١١ كذا قيل ، وليس يبعد أن يقال : إن « أفعل » أو ما هو في معناه كخير بناء على ما رجّحنا أنه صفة مشبهة تدل على التفضيل بما دلت عليه لابهيتته في مثل هذه الموارد غير منسلخ عن معنى التفضيل و العناية في ذلك أسهم لما اختاروا الشرك و الإجرام واستحسنوا ذلك و لازمه النار في الآخرة فقد أثبتوا لها خيرية وحسناً فقولوا بأن الجنة وما فيها خير و أحسن حتى على لازم قولهم فعليهم أن يختاروها على النار و أن يختاروا الإيمان على الكفر على أي حال ، و قيل : إن التفضيل مبني على التهكم .

قوله تعالى : « و يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ، الظاهر أن الطرف منصوب بفعل مقدر ، والمعنى واذكر يوم كذا و كذا فإنهم يرون الملائكة فيه أيضاً وهذا اليوم هو يوم القيامة بدليل قوله بعد : « الملك يومئذ الحق للرحمان » ، وقيل في متعلق الطرف وجوه أخر لافائدة في نقلها .

و « تشقق » أصله تتشقق من باب التفعّل من الشق بمعنى الخرم والتشقق النفّث ، والغمام السحاب سمّي به لستره ضوء الشمس مأخوذ من الغم بمعنى السّتر . والباء في قوله : « تشقق السماء بالغمام » إمّا للملابسة والمعنى تتفتّح السماء متلبّسة بالغمام أي متغيّمة ، وإمّا بمعنى عن والمعنى تتفتّح عن الغمام أي من قبل الغمام أو تشقّقه .

وكيف كان فظاهر الآية أن السماء تنشق يوم القيامة بما عليها من الغمام الساتر لها ونزل منها الملائكة الذين هم سكّانها فيشاهدونهم فالآية قريبة المعنى من قوله في موضع آخر : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها » الحاقّة : ١٧ .

وليس من البعيد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمّة الجهل و بروز عالم السماء وهومن الغيب وبروز سكّانها وهم الملائكة ونزولهم إلى العالم الأرضي موطن الإنسان .

وقيل المراد أن السماء يشقّها الغمام وهو الذي يذكره في قوله : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر و إلى الله ترجع الأمور » البقرة : ٢١٠ . وقد مرّ كلام في تفسير الآية .

والتعبير عن الواقعة بالتشقق دون التفتّح وما يماثله للنهويل ، وكذا التنوين في قوله : « تنزيلاً » للدلالة على التفخيم .

قوله تعالى : « الملك يومئذ الحق للرحمان وكان يوماً على الكافرين عسيراً » أي الملك المطلق يومئذ حق ثابت للرحمان وذلك لبطلان الأسباب وزوال ما بينها و بين مسبباتها من الروابط المتنوّعة ، وقد تقدّم غير مرّة أن المراد بذلك في يوم

القيامة هو ظهور أن الملك والحكم لله والأمر إليه وحده ، وأن لاستقلال في شيء من الأسباب على خلاف ما كان يتراءى من ظاهر حالها في نشأة الدنيا قبل قيام الساعة ورجوع كل شيء إليه تعالى .

وقوله : « و كان يوماً على الكافرين عسيراً » الوجه فيه ركونهم إلى ظواهر الأسباب وإخلاصهم إلى الحياة الأرضية البائدة الدائرة وانقطاعهم عن السبب الحقيقي الذي هو مالك الملك بالحقيقة وعن حياتهم الباقية المؤبدة فيصبحون اليوم ولا ملاذ لهم ولا معاذ .

فعلى هذا يكون الملك مبتدئ والحق خبره عرف لا فائدة الحصر ، ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدئ ، وفائدة التقييد الدلالة على ظهور حقيقة الأمر يومئذ فإن حقيقة الملك لله سبحانه دائماً ، وإنما يختلف يوم القيامة مع غيره بزوال الملك الصوري عن الأشياء فيه وثبوته لها في غيره .

وقال بعضهم : الملك بمعنى المالكية ويومئذ متعلق به والحق خبر الملك ، وقيل : يومئذ متعلق بمحذوف هو صفة للحق ، وقيل : المراد بيومئذ هو يوم الله وقيل : يومئذ هو الخبر للملك والحق صفة للمبتدئ ، وهذه أقوال رديئة لاجدوى لها .

قوله تعالى : « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً » قال الراغب في المفردات : العرض أزم بالأسنان قال تعالى : « عضوا عليكم الأنامل » « ويوم يعرض الظالم » وذلك عبارة عن الندم لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك . انتهى ولذلك يتمنى عنده ما فات من واجب العمل كما حكى الله تعالى عنهم قولهم : « يا ليتني لم أتخذ فلانا خليلاً » .

والظاهر أن المراد بالظالم جنسه وهو كل من لم يهتد بهدى الرسول ، وكذا المراد بالرسول جنسه وإن انطبق الظالم بحسب المورد على ظلمي هذه الأمة والرسول على محمد وآله عليهم السلام .

والمعنى واذكر يوم يندم الظالم ندماً شديداً قائلاً من فرط ندمه يا ليتني

اتخذت مع الرسول سبيلاً ما إلى الهدى أي سبيل كانت .

قوله تعالى : « يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، تتمّة تمنّي الظالم النادم على ظلمه ، و فلان كناية عن العلم المذكّر و فلانة عن العلم المؤنث قال الراغب : فلان و فلانة كنيان عن الإنسان ، و الفلان و الفلانة - باللام - كنيان عن الحيوانات . انتهى .

و المعنى يا ويلتى - يا هلاكى - ليتني لم أتخذ فلاناً - وهو من اتخذه صديقاً يشاوره و يسمع منه و يقلده - خليلاً .

و ذكر بعضهم أن فلاناً في الآية كناية عن الشيطان ، وكأنّه نظراً إلى ما في الآية التالية من حديث خذلان الشيطان للإنسان غير أن السياق لا يساعد عليه . ومن لطيف التعبير قوله في الآية السابقة : « يا ليتني اتخذت » الخ و في هذه الآية : « يا ويلتى ليتني لم أتخذ » الخ فإنّ في ذلك تدرّجاً لطيفاً في النداء و الاستغاثة فحذف المنادى في الآية السابقة يلوّح إلى أنّه يريد أيّ منجّ ينجيه ممّا هو فيه من الشقاء ، و ذكر الويل بعد ذلك - في هذه الآية يدلّ على أنّه بان له أن لا يخلصه من العذاب شيء قطّ إلّا الهلاك و الفناء ، ولذلك نادى الويل .

قوله تعالى : « لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً » تعليل للتمنّي السابق ، والمراد بالذكر مطلق ما جاءت به الرسل أو خصوص الكتب السماوية و ينطبق بحسب المورد على القرآن .

وقوله : « وكان الشيطان للإنسان خذولاً » من كلامه تعالى و يمكن أن يكون تتمّة الكلام الظالم ذكره تأسّفاً وتحسّراً .

و الخذلان بضمّ الخاء ترك من يظنّ به أن ينصر نصرته ، و خذلانه أنّه يعدّ الإنسان أن ينصره على كلّ مكروه إن تمسّك بالأسباب ونسي ربّه فلمّا تقطعت الأسباب بظهور القهر الإلهي يوم الموت جزئياً و يوم القيامة كليّاً خذله و سلّمه إلى الشقاء قال تعالى : « كمثّل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك » الحشر : ١٦ ، وقال فيما يحكي عن الشيطان يوم القيامة : « ما أنا

بمصر خكم وما أنتم بمصريي^{٢٢} "إني كفرت بما أشر كنتمون من قبل" إبراهيم : ٢٢ .
وفي هذه الآيات الثلاث إشعار بل دلالة على أن "السبب العمدة في ضلال أهل
الضلال ولاية أهل الأهواء وأولياء الشيطان ، و المشاهدة يؤيد ذلك .

قوله تعالى : « وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا »
المراد بالرسول محمد ﷺ بقرينة ذكر القرآن ، وعبر عنه بالرسول تسجيلا لرسالته
و إرغاما لا أولئك القادحين في رسالته و كتابه والهجر بالفتح فالتسكون الترك .

و ظاهر السياق أن قوله : « وقال الرسول » الخ معطوف على « بعض الظالم »
و القول مما يقوله الرسول يوم القيامة لربه على طريق البث و الشكوى ، و على
هذا فالتعبير بالماضي بعناية تحقّق الوقوع ، و المراد بالقوم عامة العرب بل عامة
الامة باعتبار كفرتهم وعصاتهم .

و أمّا كونه استثناء أو عطفاً على قوله : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا » و
كون ما وقع بينهما اعتراضاً فبعيد من السياق ، و عليه فلفظة قال على ظاهر معناها
والمراد بالقوم هم القادحون في رسالته الطاعنون في كتابه .

و نظيره في الضعف قول بعضهم : إن المهجور من الهجر بمعنى الهذيان .
وهو ظاهر .

قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً من المجرمين و كفى بربك
هادياً و نصيراً » أي كما جعلنا هؤلاء المجرمين عدواً لك كذلك جعلنا لكل نبيّ
عدواً منهم أي هذه من سنننا الجارية في الأنبياء و أممهم فلا يسوءنك ما تلقى من
عداوتهم ولا يشقنّ عليك ذلك ، ففيه تسليّة للنبي ﷺ .

و معنى جعل العدو من المجرمين أن الله جازاهم على معاصيهم بالختم على
قلوبهم فماندوا الحقّ و أبغضوا الداعي إليه و هو النبيّ فلعداوتهم نسبة إليه تعالى
بالمجازاة .

و قوله : « و كفى بربك هادياً و نصيراً » معناه - على ما يعطيه السياق -

لا يهولنك أمر عنادهم و عداوتهم ولا تخافنهم على اهتداء الناس و تقوذ دينك فيهم و بينهم
فحسبك ربك كفى به هاديا يهدي من استحق من الناس الهداية واستعد له وإن
كفر هؤلاء و عتوا فليس اهتداء الناس منوطا باهتدائهم و كفى به نصيرا ينصرك و ينصر
دينك الذي بعثك به وإن هجره هؤلاء و لم ينصروك ولا دينك فالجملة مسوقة لاظهار
الاستغناء عنهم .

فظهر أن صدر الآية مسوق لتسلي النبي ﷺ وذيله للاستغناء عن المجرمين
من قومه ، و في قوله : « و كفى بربك » حيث أخذ بصفة الروبيية : مضافة إلى
ضمير الخطاب و لم يقل : و كفى بالله تأييد له .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير البرهان عن كتاب الجنة والنار باسناده عن جابر بن يزيد الجعفي
عن أبي جعفر عليه السلام في حديث يذكر فيه قبض روح الكافر قال : فإذا بلغت الحلقوم
ضربت الملائكة وجهه و دبره و قيل : « أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون
بما كنتم تقولون على الله غير الحق » و كنتم عن آياته تستكبرون ، و ذلك قوله :
« يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا » فيقولون
حراما عليكم الجنة محرما (١) .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق و الفاريابي و ابن المنذر و ابن أبي -
حاتم عن علي بن أبي طالب قال : الهباء ريح الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه
شيء فجعل الله أعمالهم كذلك .

و فيه أخرج سمويه في فوائده عن سالم مولى أبي حذيفة قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وآله : ليجاء يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثال جبال تهامة حتى
إذا جيء بهم جعل الله تعالى أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار .

قال سالم : بأبي و أمي يا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم قال : كانوا يصلون

و يصومون و يأخذون سنة من الليل ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه فأدحض الله تعالى أعمالهم .

و في الكافي بإسناده عن سليمان بن خالد قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » قال : أما والله لقد كانت أعمالهم أشدّ بياضاً من القباطي ولكن كانوا إذا عرض لهم حرام لم يدعوه .

أقول : و هذا المعنى مروى فيه و في غيره عنه و عن أبيه عليه السلام بغير واحد من الطرق .

و في الكافي أيضاً بإسناده عن عبد الأعلى و بإسناد آخر عن سويد بن غفلة قال قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث وضع المؤمن في قبره : ثم يفسحان يعني الملكين في قبره مدّ بصره ثم يفتحان له باباً إلى الجنة و يقولان له : نم قرير العين نوم الشاب الناعم فان الله يقول : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً و أحسن مقيلاً » .
أقول : و الرواية - كما ترى - تجعل الآية من آيات البرزخ ، و تشير بقوله : و يقال له : نم الخ إلى نكتة التعبير في الآية بالمقيل فليتنبه .

و في الدر المنثور أخرج أبو نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاماً فدعا إليه أهل مكة كلّهم و كان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه و آله و سلم و يعجبه حديثه و غلب عليه الشقاء .
فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاماً ثم دعا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى طعامه فقال ما أنا بالذي آكل من طعامك حتّى تشهد أن لا إله إلّا الله و أني رسول الله فقال : اطعم يا ابن أخي . قال : ما أنا بالذي أفعل حتّى تقول ، فشهد بذلك و طعم من طعامه .

فبلغ ذلك أبي بن خلف فأتاه فقال : أصبوت يا عقبة ؟ - و كان خليفه - فقال لا والله ما صبوت ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلّا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت له فطعم فقال : ما أنا بالذي

أَرْضِي عَنْكَ حَتَّى تَأْتِيَهُ فْتَبْزُقَ فِي وَجْهِهِ ففعل عقبه فقال له رسول الله ﷺ : لَا أَلْقَاكَ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ إِلَّا أَعْلَوْتَ رَأْسَكَ بِالسَّيْفِ فَأُسر عقبه يوم بدر فقتل صبرا ولم يقتل من الأُسارى يومئذ غيره .

أقول : وقد ورد في غير واحد من الروايات في قوله تعالى : « يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا » أن السبيل هو علي عليه السلام وهو من بطن القرآن أو من قبيل الجري وليس من التفسير في شيء .



وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْغْنَاهُم بِتَذْمِيرٍ (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمُ لِلنَّاسِ آيَةً وَاعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقَرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرَ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَرَجَّوْنَ نَشُورًا (٤٠) .

﴿بيان﴾

نقل لطن آخر مما طعنوا به في القرآن و هو أنه لم ينزل جملة واحدة و الجواب عنه .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » المراد بهم مشركوا العرب الرادون لدعوة القرآن كما في قدحهم السابق المحكي بقوله : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء » الخ .

وقوله : « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » قد تقدم أن الإِ نزال و التنزيل إنما يفترقان في أن الإِ نزال يفيد الدفعة و التنزيل يفيد التدرّج لكن ذكر بعضهم أن التنزيل في هذه الآية منسلخ عن معنى التدرّج لا دأته إلى التدافع إذ يكون المعنى على تقدير إرادة التدرّج : لولا فرق القرآن جملة واحدة والتفريق ينافي الجمليّة بل المعنى هلاًّ أنزل القرآن عليه دفعة غير مفرّقة كما أنزل التوراة و الإِ نجيل و الزبور .

لكن ينبغي أن يعلم أن نزول التوراة مثلاً كما هو الظاهر المستفاد من القرآن كانت دفعة في كتاب مكتوب في ألواح و القرآن إنما كان ينزل عليه ﷺ بالتلقّي من عند الله بتوسّط الروح الأمين كما يتلقّى السامع الكلام من المنكلم ، و الدفعة في إيتاء كتاب مكتوب وتلقيه تستلزم المعية بين أوّله و آخره لكنه إذا كان بقراءة و سماع لم يناف التدرّج بين أجزائه و أبعاضه بل من الضروري أن يؤتا القارئ و يتلقاه السامع آخذاً من أوّله إلى آخره شيئاً فشيئاً .

وهؤلاء إنما كانوا يقترحون نزول القرآن جملة واحدة على ما كانوا يشاهدون أو يسمعون من كيفية نزول الوحي على النبي ﷺ و هو تلقّي الآيات بالفاظها من لسان ملك الوحي فكان اقتراحهم أن الذي يتلوه ملك الوحي على النبي ﷺ سورة بعد سورة و آية بعد آية و يتلقاه هو كذلك فليقرء جميع ذلك مرّة واحدة وليتلّقه هو مرّة واحدة ولو دامت القراءة و التلقّي مدّة من الزمان ، وهذا المعنى أوفق بالتنزيل الدالّ على التدرّج .

و أمّا كون مرادهم من اقتراح نزوله جملة واحدة أن ينزل كتاباً مكتوباً دفعة كما نزلت التوراة و كذا الإِ نجيل و الزبور على ما هو المعروف عندهم فلا دلالة في الكلام المنقول عنهم على ذلك . على أنهم ما كانوا مؤمنين بهذه الكتب السماوية حتّى يسلموا نزولها دفعة .

و كيف كان فقولهم : « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » اعتراض منهم على القرآن من جهة نحو نزوله ، يريدون به أنه ليس بكتاب سماويّ نازل من

عند الله سبحانه إذ لو كان كتاباً سماوياً متضمناً لدين سماوي يريد الله من الناس وقد بعث رسولا يبلغه الناس لكان الدين المضمّن فيه المراد من الناس ديناً تامّةً أجزاؤه معلومة أصوله وفروعه مجموعة فرائضه و سننه و كان الكتاب المشتمل عليه منظّمة أجزاؤه مركّبة بعضها على بعض .

وليس كذلك بل هو أقوال متفرّقة يأتي بها في وقائع مختلفة وحوادث متشعبة ربّما وقع واقع فأتى عند ذلك بشيء من الكلام مرتبط به يسمّى بجلها المنضودة آيات إلهية ينسبها إلى الله ويدّعي أنها قرآن منزل إليه من عند الله سبحانه وليس إلا أنه يتممّل حيناً بعد حين عند وقوع وقائع فيختلق قولاً يفتره على الله ، وليس إلا رجلاً صابئاً ضلّ عن السبيل . هذا تقرير اعتراضهم على ما يستفاد من مجموع الاعتراض والجواب .

قوله تعالى « كذلك لنثبت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحقّ وأحسن تفسيراً » الثبات ضدّ الزوال ، والإثبات والتثبيت بمعنى واحد والفرق بينهما بالدفعّة والتدرّيج ، و الفؤاد القلب والمراد به كما مرّ غير مرّة الأمر المدرك من الإنسان وهو نفسه ، والترتيل - كما قالوا - الترسيل والإتيان بالشئ عقيب الشئ ، و التفسير - كما قال الراغب - المبالغة في إظهار المعنى المعقول كما أنّ الفسر بالفتح فالسكون إظهار المعنى المعقول .

وظاهر السياق أنّ قوله : « كذلك » متعلّق بفعل مقدّر يعملّه قوله : « لنثبت » ويعطف عليه قوله : « ورتّلناه » ، والتقدير نزّلناه أي القرآن كذلك أي نجوماً متفرّقة لاجلّة واحدة لنثبت به فؤادك ، وقول بعضهم : إنّ « كذلك » من تمام قول الذين كفروا سخيّف جداً .

فقوله : « كذلك لنثبت به فؤادك » بيان تامّ لسبب تنزيل القرآن نجوماً متفرّقة و بيان ذلك أنّ تعليم علم من العلوم وخاصة ما كان منها مرتبطاً بالعمل بإلقاء المعلم مسائله واحدة بعد واحدة إلى المتعلّم حتّى تتمّ فصوله وأبوابه إنّما يفيد حصولاً ما لصور مسائله عند المتعلّم وكونها مذخورة بوجه ما عنده يراجعها عند مسيس

الحاجة إليها، وأما استقرارها في النفس بحيث تنمو النفس عليها وتترتب عليها آثارها المطلوبة منها فيحتاج إلى ميسر الحاجة والإشراف على العمل وحضور وقته .

ففرق بين أن يلقي الطبيب المعلم مثلاً مسألة طبيّة إلى متعلّم الطبّ وإلقاء فحسب و بين أن يلقيها إليه وعنده مريض مبتلى بما يبحث عنه من الداء وهو يعالجه فيطابق بين ما يقول وما يفعل .

ومن هنا يظهر أن إلقاء أيّ نظرة علميّة عند ميسر الحاجة وحضور وقت العمل إلى من يراد تعليمه وتربيته أثبت في النفس وأوقع في القلب وأشدّ استقراراً وأكمل رسوخاً في الذهن وخاصة في المعارف التي تهدي إليها الفطرة فإنّ الفطرة إنّما تستعدّ للقبول وتتهيّؤ للإذعان إذا أحسّت بالحاجة .

ثمّ إنّ المعارف التي تنضمّنها الدعوة الإسلاميّة الناطق بها القرآن إنّما هي شرائع وأحكام عمليّة وقوانين فرديّة واجتماعيّة تسعد الحياة الإنسانيّة مبنية على الأخلاق الفاضلة المرتبطة بالمعارف الكلّيّة الإلهيّة التي تنتهي بالتحليل إلى التوحيد كما أنّ التوحيد ينتهي بالتركيب إليها ثمّ إلى الأخلاق والأحكام العمليّة .

فأحسن التعليم وأكمل التربية أن تلقى هذه المعارف العالية بالتدرّج موزّعة على الحوادث الواقعة المتضمّنة لمساس أنواع الحاجات مبيّنة لما يرتبط بها من الاعتقاد الحقّ والخلق الفاضل والحكم العمليّ المشروع مع ما يتعلّق بها من أسباب الاعتبار والاتعاظ بين قصص الماضين وعاقبة أمر المسرفين وعتوّ الطاغين والمستكبرين .

وهذه سبيل البيانات القرآنيّة المودعة في آياته النازلة كما قال تعالى : « و قرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً » أسرى : ١٠٦ وهذا هو المراد بقوله تعالى : « كذلك لنثبت به فؤادك » والله أعلم .

نعم يبقى عليه شيء وهو أن تفرّق أجزاء التعليم وإلقائها إلى المتعلّم على

التمهل والتؤدة يفسد غرض التعليم لانقطاع أثر السابق إلى أن يلحق به اللاحق وسقوط الهمة والعزيمة عن ضبط المطالب ففي اتصال أجزاء العلم الواحد بعضها ببعض إمداد للذهن وتهيئة للفهم على التفقه والضبط لا يحصل بدونه البتة .

وقد أجاب تعالى عنه بقوله : « ورتلناه ترتيلاً » فمعناه على ما يعطيه السياق أن هذه التعليمات على نزولها نجوما متفرقة عقبنا بعضها ببعض ونزلنا بعضها إثر بعض بحيث لا تبطل الروابط ولا تنقطع آثار الأبعاض فلا يفسد بذلك غرض التعليم بل هي سور وآيات نازلة بعضها أثر بعض مترتبة مرتلة .

على أن هناك أمراً آخر وهو أن القرآن كتاب بيان واحتجاج يحتج على المؤلف والمخالف فيما أشكل عليهم أو استشكلوه على الحق والحقيقة بالتشكيك والاعتراض ، ويبين لهم ما التبس عليهم أمره من المعارف والحكم الواقعة في الملل والأديان السابقة وما فسرها به علماؤهم بتحريف الكلم عن مواضعه كما يظهر بقياس ما كان يعتقده الوثنيون في الله تعالى والملائكة والجن وقد يسي البشر وما وقع في العهدين من أخبار الأنبياء وما بشوه من معارف المبدع والمعاد ، إلى ما بينه القرآن في ذلك .

وهذا النوع من الاحتجاج والبيان لا يستوفي حقه إلا بالتنزيل التدريجي على حسب ما كان يبدو من شبههم و يرد على النبي ﷺ من مسائلهم تدريجاً ، و يورد على المؤمنين أو على قومهم من تسويلاتهم شيئاً بعد شيء وحيناً بعد حين . و إلى هذا يشير قوله تعالى : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » - والمثل الوصف - أي لا يأتونك بوصف فيك أو في غيرك حادوا به عن الحق أو أسأوا تفسيره إلا جئناك بما هو الحق فيه أو ما هو أحسن الوجوه في تفسيره فإن ما أتوا به إما باطل محض فالحق يدفعه أو حق محرف عن موضعه فالتفسير الأحسن يردّه إلى مستواه و يقوّمه .

فتبين بما تقدّم أن قوله : « كذلك لنثبت به فؤادك » - إلى قوله - وأحسن تفسيراً ، جواب عن قولهم : « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » بوجهين :

أحدهما بيان السبب الراجع إلى النبي ﷺ وهو تثبيت فؤاده بالنزول التدريجي .

وثانيهما بيان السبب الراجع إلى الناس وهو بيان الحق فيما يوردون على النبي ﷺ من المثل والوصف الباطل ، والتفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحق المغيّر عن وجهه المحرّف عن موضعه .

و يلحق بهذا الجواب قوله تلوّاً : « الَّذِينَ يَحْشُرُونَ عَلَىٰ وجوههم إلىٰ جهنّم اُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا » فهو كالمتمّم للجواب على ما سيجيء بيانه .

وتبيّن أيضاً أنّ الآيات الثلاث مسوقة جميعاً لغرض واحد وهو الجواب عمّا أوردوه من القدح في القرآن هذا ، والمفسّرون فرّقوا بين مضامين الآيات الثلاث فجعلوا قوله : « كذلك لنثبت به فؤادك » جواباً عن قولهم : « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » ، وقوله : « ورتلناه ترتيلاً » خبراً عن ترسيّله في النزول أو في القراءة على النبي ﷺ من غير ارتباط بما تقدّمه .

وجعلوا قوله : « ولا يأتونك بمثل » الخ كالبيان لقوله : « كذلك لنثبت به فؤادك » وإيضاحاً لكيفيّة تثبيت فؤاده ﷺ ، وجعله بعضهم ناظراً إلى خصوص المثل الذي ضربوه للنبي ﷺ ، وأنّ الله بيّن الحق فيه وجاء بأحسن التفسير و قيل غير ذلك ، وجعلوا قوله : « الَّذِينَ يَحْشُرُونَ » الآية أجنبياً عن غرض الآيتين السابقتين بالكليّة .

و التأمّل فيما قدّمناه في توجيه مضمون الآيتين الأوليين وما سيأتي من معنى الآية الثالثة يوضح فساد جميع ذلك ، ويظهر أنّ الآيات الثلاث جميعاً ذات غرض واحد وهو الجواب عمّا أوردوه من الطعن في القرآن من جهة نزوله التدريجي .

و ذكروا أيضاً أنّ الجواب عن قدحهم واقتراحهم بقوله : « كذلك لنثبت به فؤادك » جواب بذكر بعض ما لتفريق النزول من الفوائد وأنّ هناك فوائد أخرى غير ما ذكره الله تعالى ، وقد أوردوا فوائد أخرى أضافوها إلى ما وقع في الآية :

منها أن الكتب السماوية السابقة على القرآن إنما أنزلت جملة واحدة لأنها أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون فنزلت عليهم جملة واحدة مكتوبة والقرآن إنما نزل على نبي أمي لا يكتب ولا يقرء ولذلك نزل متفرقا .

ومنها : أن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها و دليل كونها من عند الله تعالى إعجازها ، وأما القرآن فبيّنة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقي على مرّ الدهور والمتحقق في كل جزء من أجزائه المقدّر بمقدار أقصر السور حسبما وقع به التحدي .

ولا ريب أن مدار الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال ، و من ضرورة تجددها تجدّد ما يطابقها .

ومنها أن في القرآن ناسخا ومنسوخا ولا يتيسر الجمع بينهما لمكان المضادة والمنافاة ، وفيه ما هو جواب لمسائل سألوها النبي ﷺ عنها ، وفيه ما هو إنكار لبعض ما كان ، وفيه ما هو حكاية لبعض ما جرى ، وفيه ما فيه إخبار عما سيأتي في زمن النبي ﷺ كالأخبار عن فتح مكة ودخول المسجد الحرام ، و الإخبار عن غلبة الروم على الفرس إلى غير ذلك من الفوائد فاقتضت الحكمة تنزيله متفرقا .

وهذه وجوه ضعيفة لا تقتضي امتناع النزول جملة واحدة :

أما الوجه الأول فكون النبي ﷺ أميا لا يقرء ولا يكتب لا يمنع النزول جملة واحدة ، وقد كان معه من يكتبه ويحفظه . على أن الله سبحانه وعده أن يعصمه من النسيان ويحفظ الذكر النازل عليه كما قال : « سنقرئك فلا تنسى » الأعلى : ع وقال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » الحجر : ٩ ، و قال : « إنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » حم السجدة : ٤٢ و قدرته تعالى على حفظ كتابه مع نزوله دفعة أو تدريجا سواء .

وأما الوجه الثاني فكما أن الكلام المفرّق يقارنه أحوال تقتضي في نظمه أمورا إن اشتمل عليها الكلام كان بليغا وإلا فلا ، كذلك الكلام الجملي وإن كان

كتاباً يقارنه بحسب فصوله و أجزائه أحوال لها اقتضاءات إن طابقتها كان بليفاً وإلا فلا فالبلاغة غير موقوفة على غير الكتاب النازل دفعة والكلام المجموع جملة واحدة .
و أمّا الوجه الثالث فالنسخ ليس إبطالا للحكم السابق وإنما هو بيان انتهاء
أمدّه فمن الممكن الجمع بين الحكمين المنسوخ والناسخ بالإشارة إلى أن الحكم
الأوّل محدود موقت إن اقتضت المصلحة ذلك .

ومن الممكن أيضاً أن يقدم بيان المسائل التي سيُسألون عنها حتّى لا يحتاجوا
فيها إلى سؤال ولو سألوا عن شيء منها أرجعوا إلى سابق البيان ، وكذا من الممكن
أن يقدم ذكر ما هو إنكار لما كان أو حكاية لما جرى أو إخبار عن بعض المغيبات
فشيء من ذلك لا يمتنع تقديمه كما هو ظاهر .

على أن تفريق النزول لبعض هذه الحكم والمصالح من تثبيت الفؤاد فليست
هذه الوجوه المذكورة وجوهاً على حدتها .

فالحق أن البيان الواقع في الآية بيان تام جامع لا حاجة معه إلى شيء
من هذه الوجوه البتّة .

قوله تعالى : « الَّذِينَ يَحْشُرُونَ عَلَىٰ وجوههم إلى جهنّم هم شرّ مكاناً وأضلّ
سبيلاً ، اتّصل الآية بما قبلها من الآيات على ما لها من السياق يعطي أن هؤلاء
القادحين في القرآن استنتجوا من قدحهم ما لا يليق بمقام النبي ﷺ فدكروه
واصفين له بسوء المكانة و ضلال السبيل فلم يذكره الله تعالى في ضمن ما حكى من
قولهم في القرآن صونا لمقام النبوة أن يذكر بسوء ، وإنما أشار إلى ذلك في ما
أورد في هذه الآية من الردّ عليهم بطريق التكنية .

فقوله : « الَّذِينَ يَحْشُرُونَ عَلَىٰ وجوههم إلى جهنّم » كناية عن الذين كفروا
القادحين في القرآن الواصفين للنبي ﷺ بما وصفوا ، والكناية أبلغ من التصريح .
فالمراد أن هؤلاء القادحين في القرآن الواصفين لك هم شرّ مكاناً وأضلّ
سبيلاً لأنّ الكلام مبني على قصر القلب ، ولفظاً « شرّ » و « أضلّ » منسلختان
عن معنى التفضيل أو مفيدتان على التهكم و نحوه .

و قد كُتِبَ عنهم بالمشهورين على وجوههم إلى جهنم وهو وصف من أضلَّ الله من المتعنتين المنكرين للمعاد كما قال تعالى : « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ماؤاهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا » الخ أسرى : ٩٨ .

ففي هذه التكنية مضافا إلى كونها أبلغ ، تهديد لهم بشرّ المكان وأليم العذاب وأيضا هي في معنى الاحتجاج على ضلالهم إذ لاضلال أضلّ من أن يسير الإنسان على وجهه وهو لا يشعر بما في قدامه ، وهذا الضلال الذي في حشرهم على وجوههم إلى جهنم ممثّل للضلال الذي كان لهم في الدنيا فكأنه قيل : إن هؤلاءهم الضالون فإنهم محشورون على وجوههم ، ولا يتبلى بذلك إلا من كان ضالا في الدنيا .

وقد اختلفت كلماتهم في وجه اتصال الآية بما قبلها فسكت عنه بعضهم ، و ذكر في مجمع البيان أنهم قالوا لمحمد ﷺ والمؤمنين : انهم شرّ خلق الله فقال الله تعالى : « أولئك شرّ مكانا وأضلّ سبيلا » و ذكر بعضهم أنها متصلة بقوله قبل آيات : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا » وقد عرفت ما يلوح من السياق .

وقد اختلفوا أيضا في المراد بحشرهم على وجوههم فقليل : هو على ظاهره وهو الانتقال مكبوبا ، وقيل : هو السحب .

وقيل : هو الانتقال من مكان إلى مكان منكوسا وهو خلاف المشي على الاستقامة وفيه أن الأولى حينئذ التعبير بالحشر على الرأس لاعلى الوجوه ، وقد قال تعالى في موضع آخر وهو كتوصيف ما يجري بعد هذا الحشر : « يوم يسحبون في النار على وجوههم » القمر : ٤٨ .

وقيل : المراد به فرط الذلّة والهوان والخزي مجازا . وفيه أن المجاز إنما يصار إليه إذا لم يمكن حمل اللفظ على الحقيقة .

و قيل : هو من قول العرب : مرت فلان على وجهه إذا لم يُدر أين ذهب؟ وفيه أن "مرجه" إلى الجهل بالمكان المحشور إليه ولا يناسب ذلك تقييد الحشر في الآية بقوله : «إلى جهنم» .

و قيل : الكلام كناية أو استعارة تمثيلية ، و المراد أنهم يحشرون و قلوبهم متعلقة بالسفليات من الدنيا و زخارفها متوجهة وجوههم إليها . وأورد عليه أنهم هناك في شغل شاغل عن التوجه إلى الدنيا وتعلق القلوب بها ، ولعل المراد به بقاء آثار ذلك فيهم و عليهم .

و فيه أن مقتضى آيات تجسم الأعمال كون العذاب ممثلاً للتعلق بالدنيا و التوجه نحوها فهم في الحقيقة لاشغل لهم يومئذٍ إلا ذلك .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً » استشهاد على رسالة النبي ﷺ و نزول الكتاب عليه قبال تكذيب الكفار به و بكتابه برسالة موسى و إيتائه الكتاب و إشراك هارون في أمره للتخلص إلى ذكر تعذيب آل فرعون و إهلاكهم ، و معنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فقلنا اذهبوا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً » قال في مجمع البيان : التدمير الإهلاك لأمر عجيب ، و منه التكنيل يقال : دمر على فلان إذا هجم عليه بالمكروه انتهى .

و المراد بالآيات آيات الآفاق و الأنفس الدالة على التوحيد التي كذبوا بها ، و ذكر أبو السعود في تفسيره أن الآيات هي المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يدي موسى ﷺ و لم يوصف القوم لهم عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنهما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ بياناً لعل استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أي فذهبوا إليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكديباً مستمراً فدمرناهم . انتهى وهو حسن لوتعيين حمل الآيات على آيات موسى ﷺ .

و وجه اتصال الآيتين بما قبلهما هو تهديد القادحين في كتاب النبي ﷺ

ورسالته بتنظير الأمر بأمر موسى حيث آتاه الله الكتاب وأرسله مع أخيه إلى قوم فرعون فكذبوه فدمرهم تدميراً .

ولهذه النكتة قدم ذكر إيتاء الكتاب على إرسالهما إلى القوم وتدميرهم مع أن التوراة إنما نزلت بعد غرق فرعون وجنوده فلم يكن الغرض من القصة إلا الإشارة إلى إيتاء الكتاب والرسالة لموسى وتدمير القوم بالكذب .

وقيل : الآيتان متصلتان بقوله تعالى قبل : « وكفى بربك هادياً ونصيراً » وهو بعيد .

قوله تعالى : « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً » الظاهر أن قوله : « قوم نوح » منصوب بفعل مقدر يدل عليه قوله : « أغرقناهم » .

والمراد بتكذيبهم الرسل تكذيبهم نوحاً فإن تكذيب الواحد من رسل الله تكذيب للجميع لاتفاقهم على كلمة الحق . على أن هؤلاء الأئمة كانوا أقواماً وثنيين وهم ينكرون النبوة ويكذبون الرسالة من رأس .

وقوله : « وجعلناهم للناس آية » أي لمن بقي بعدهم من ذراريهم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و عاداً وثمود وأصحاب الرس » وقرونا بين ذلك كثيراً قال في مجمع البيان : الرس البر التي لم تطو ذكروا أنهم كانوا قوماً بعد ثمود نازلين على بئر أرسل الله إليهم رسولا فكذبوا به فأهلكهم الله ، وقيل هو اسم نهر كانوا على شاطئه وفي روايات الشيعة ما يؤيد ذلك .

وقوله : « و عاداً » الخ معطوف على « قوم نوح » والتقدير : ودمرنا أو وأهلكنا عاداً وثمود وأصحاب الرس الخ .

وقوله : « وقرونا بين ذلك كثيراً » القرن أهل عصر واحد وربما يطلق على نفس العصر والاشارة بذلك إلى من مر ذكرهم من الأقسام أو لهم قوم نوح وآخرهم أصحاب الرس أو قوم فرعون والمعنى ودمرنا أو وأهلكنا عاداً وهم قوم هود ، و

نمود وهم قوم صالح ، و أصحاب الرس ، و قرونا كثيرا متخلفين بين هؤلاء الذين ذكرناهم وهم قوم نوح فمن بعدهم .

قوله تعالى : « و كلاً ضربنا له الأمثال و كلاً تبرنا تقيرا ، كلاً منصوب بفعل يدل عليه قوله : « ضربنا له الأمثال » فإن ضرب الأمثال في معنى التذكير والموعظة و الإنذار ، و التتير التفتيت ، و معنى الآية .

قوله تعالى : « ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا » هذه القرية هي قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجارة من سجيل وقد مر تفصيل قصصهم في السور السابقة .

و قوله : « أفلم يكونوا يرونها » استفهام توبيخي فإن القرية كانت على طريق أهل الحجاز إلى الشام .

و قوله : « بل كانوا لا يرجون نشورا » أي لا يخافون معاداً أو كانوا آسفين من المعاد ، و هذا كقوله تعالى فيما تقدم : « بل كذبوا بالساعة » و المراد به أن المنشأ الأصيل لتكذيبهم بالكتاب و الرسالة و عدم اتعاضهم بهذه المواعظ الشافية و عدم اعتبارهم بما يعتبر به المعتبرون أنهم منكرون للمعاد فلا ينجح فيهم دعوة ولا تقع في قلوبهم حكمة ولا موعظة .

﴿ بحث روائي ﴾

في العيون بإسناده عن أبي الصلت الهروي عن الرضا عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يذكر فيه قصة أصحاب الرس ملخصه أنهم كانوا قوما يعبدون شجرة صنوبرة يقال لها شاه درخت كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها : روشن آب و كان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطئ نهر يقال له الرس يسمين بأسماء : أبان ، آذر ، دي ، بهمن ، اسفندار ، فروردين ، أردي بهشت خرداد ، مرداد ، تير ، مهر ، شهر يور ، ومنها اشتق العجم أسماء شهورهم .

وقد غرسوا في كل قرية منها من طلع تلك الصنوبرة حبة . أجروا عليها نهراً من العين التي عند الصنوبرة ، وحرّموا شرب مائها على أنفسهم و أنعامهم ومن شرب منه قتلوه و يقولون : إنّه حياة الآلهة فلا ينبغي لأحد أن ينقص حياتها .

وقد جعلوا في كل شهر من السنة يوماً في كل قرية عيداً يخرجون فيه إلى الصنوبرة التي خارج القرية يقرّبون إليها القرابين و يذبحون الذبائح ثم يحرقونها في نار أضرموها فيسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها و سطوعه في السماء و يكون و يتضرعون و الشيطان يكلمهم من الشجرة .

و هذا دأبهم في القرى حتّى إذا كان يوم عيد قريتهم العظمى التي كان يسكنها ملكهم و اسمها إسفندار اجتمع إليها أهل القرى جميعاً و عيّدوا اثني عشر يوماً ، و جاؤا بأكثر ما يستطيعونه من القرابين و العبادات للشجرة و كلّمهم إبليس و هو يعدهم و يمتنّهم أكثر ممّا كان من الشياطين في سائر الأعياد من سائر الشجر .

و لمّا طال منهم الكفر بالله و عبادة الشجرة بعث الله إليهم رسولا من بني إسرائيل من ولد يهودا فدعاهم إلى عبادة الله و ترك الشرك برهة فلم يؤمنوا فدعا على الشجرة فبيست فلمّا رأوا ذلك ساء لهم فقال بعضهم : إنّ هذا الرجل سحر آلّهتنا ، و قال آخرون : إنّ آلّهتنا غضبت علينا بذلك لمّا رأّت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتر كناه و شأنه من غير أن نغضب عليه لآلّهتنا .

فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئراً عميقاً و ألقوه فيها و شدّوا رأسها فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتّى مات فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلّكهم عن آخرهم . و في نهج البلاغة قال عليه السلام : أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيّين و أطفأوا سنن المرسلين و أحيوا سنن الجبارين .

و في الكافي بإسناده عن محمد بن أبي حمزة و هشام و حفص عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه دخل عليه نسوة فسألته امرأة منهنّ عن السحق فقال : حدّها حدّ الزاني فقالت المرأة : ما ذكره الله عزّ و جلّ في القرآن ، فقال : بلى فقالت : و أين هو ؟ قال : هنّ الرسّ .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبيهقي وابن عساكر عن جعفر بن محمد بن علي أن امرأتين سألتاه : هل تجد غشيان المرأة المرأة محرماً في كتاب الله ؟ قل : نعم هن اللواتي كنّ على عهد تبع ، وهن صواحب الرن ، و كل نهر وبئر رس .

قال : يقطع لهن جلاب من نار ، و درع من نار ، و نطاق من نار ، و تاج من نار ، و خفان من نار ، و من فوق ذلك ثوب غليظ جاف جاسف ممتن من نار . قال جعفر : علموا هذا نساء كم

أقول : و روى القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير ، عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام ما في معناه .

و في تفسير القمي بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « و كلاً تبّرنا تبّيراً » يعني « كسراً تكسيرا » قال : هي لفظة بالنبطية . و فيه و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : و أمّا القرية التي أمطرت مطر السوء فهي سدوم قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجارة من سجيل يعني من طين .





وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَتَّخِذُونَكَ الْآهْزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٢١)
 أَنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
 الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا (٢٢) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
 وَكِيلًا (٢٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ
 بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٢٤) أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا
 ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٢٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٢٦) وَهُوَ
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٢٧) وَهُوَ
 الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٢٨)
 لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُنْقِئَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٢٩) وَلَقَدْ
 صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٣٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا
 فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٣١) فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٣٢)
 وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا
 بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٣٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا
 وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٣٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا
 يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٣٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٣٦)

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ
عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨)
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ
أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ تُقُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا
وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
خَلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢).

﴿بيان﴾

تذكر الآيات بعض صفات أولئك الكفار القادحين في الكتاب و الرسالة و المنكرين للتوحيد و المعاد مما يناسب سنخ اعتراضاتهم و اقتراحاتهم كاستهزائهم بالرسول ﷺ واتباعهم الهوى وعبادتهم لما لا ينفعهم ولا يضرهم و استكبارهم عن السجود لله سبحانه .

قوله تعالى : « و إذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا ، ضمير الجمع للذين كفروا السابق ذكرهم ، و الهزؤ الاستهزاء و السخرية فالمصدر بمعنى المفعول ، و المعنى : و إذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا مهزواً به .

و قوله : « أهذا الذي بعث الله رسولا » بيان لاستهزائهم أي يقولون كذا استهزاء بك .

قوله تعالى : « إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها » الخ « إن ،

مخففة من الثقيلة ، والإضلال كأنه مضمّن معنى الصرف ولذا عدّي بعن ، وجواب لولا محذوف يدلّ عليه ما تقدّمه ، والمعنى أنّه قرب أن يصرفنا عن آلهتنا مضلاً لنا لولا أن صبرنا على آلهتنا أي على عبادتها لصرفنا عنها .

وقوله : « وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلاً » توعدّ وتهديد منه تعالى لهم و تنبيه أنّهم على غفلة ممّا سيستقبلهم من معاناة العذاب واليقين بالضلال والغنى .

قوله تعالى : « أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً الهوى ميل النفس إلى الشهوة من غير تعديله بالعقل ، والمراد باتخاذ الهوى إلهاً طاعته واتباعه من دون الله وقد أكثر الله سبحانه في كلامه ذمّ اتباع الهوى وعدّ طاعة الشيء عبادة له في قوله : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني » يس : ٦١ .

وقوله : « أفأنت تكون عليه وكيلاً » استفهام إنكاري أي لست أنت وكيلاً عليه قائماً على نفسه و باّموره حتّى تهديه إلى سبيل الرشـد فليس في مقدرك ذلك وقد أضله الله وقطع عنه أسباب الهداية وفي معناه قوله : « إنك لا تهدي من أحببت » القصص : ٥٦ وقوله : « وما أنت بمسمع من في القبور » الفاطر : ٢٢ ، والآية كلاً جمالاً للتفصيل الذي في قوله : « أرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله » الجاثية : ٢٣ .

ويظهر ممّا تقدّم من المعنى أن قوله : « اتخذ إلهه هواه » على نظمه الطبيعي أي إن « اتخذ » فعل متعدّد إلى مفعولين و « إلهه » مفعوله الأوّل و « هواه » مفعول ثانٍ له فهذا هو الذي يلائم السياق وذلك أن الكلام حول شرك المشركين وعدولهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام ، وإعراضهم عن طاعة الحقّ التي هي طاعة الله إلى طاعة الهوى الذي يزيّن لهم الشرك ، وهؤلاء يسلمون أن لهم إلهاً مطاعاً وقد أصابوا في ذلك ، لكنهم يرون أن هذا المطاع هو الهوى فيتخذونه مطاعاً بدلاً من أن

يَتَّخِذُوا الْحَقَّ مَطَاعًا فَقَدْ وَضَعُوا الْهَوَىَّ مَوْضِعَ الْحَقِّ لَا أَنْتَهُمْ وَضَعُوا الْمَطَاعَ مَوْضِعَ غَيْرِهِ فَافْهَم .

ومن هنا يظهر ما في قول عدّة من المفسّرين أن "هواه" مفعول أوّل لقوله "اتَّخَذَ" و "إِلَهِه" مفعول ثانٍ مقدّم ، وإنّما قدّم للاعتناء به من حيث إنّه الذي يدور عليه أمر التعجيب في قوله : "أرأيت من اتَّخَذَ" الخ كما قاله بعضهم ، أو إنّما قدّم للحصر على ما قاله آخرون ، ولهم في ذلك مباحثات طويلة أغمضنا عن إيرادها و فيما ذكرناه كفاية إن شاء الله .

قوله تعالى : "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً" أم منقطعة ، والحسبان بمعنى الظنّ و ضمائر الجمع راجعة إلى الموصول في الآية السابقة باعتبار المعنى . والترديد بين السمع والعقل من جهة أن وسيلة الإنسان إلى سعادة الحياة أحد أمرين إمّا أن يستقلّ بالتعقل فيعقل الحقّ فيتّبعه أو يرجع إلى قول من يعقله وينصحه فيتّبعه إن لم يستقلّ بالتعقل فالطريق إلى الرشاد سمع أو عقل فالآية في معنى قوله : "وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير" الملك : ١٠ .

والمعنى بل أتظنّ أن أكثرهم لهم استعداد استماع الحقّ ليتّبعه أو استعداد عقل الحقّ لينتبه فترجو اعتدائهم فتبالغ في دعوتهم .

وقوله : "إن هم إلّا كالأنعام" بيان للجملة السابقة فإنّه في معنى أن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون فتنبّه أنهم ليسوا إلّا كالأنعام والبهايم في أنّها لا تعقل ولا تسمع إلّا اللفظ دون المعنى .

وقوله : "بل هم أضلّ سبيلاً" أي من الأنعام وذلك أن الأنعام لا تقتحم على ما يضرّها وهؤلاء يرجعون ما يضرّهم على ما ينفعهم ، وأيضاً الأنعام إن ضلّت عن سبيل الحقّ فإنّها لم تجهز في خلقها بما يهديها إليه وهؤلاء مجهزون وقد ضلّوا .

واستدلّ بعضهم بالآية على أن الأنعام لا علم لها بربّها . وفيه أن الآية

لا تنفي عنها ولا عن الكفار أصل العلم بالله و إنما تنفي عن الكفار اتباع الحق الذي يهدي إليه عقل الإنسان الفطري لاحتجابه باتباع الهوى ، وتشبههم في ذلك بالأنعام التي لم تجهز بهذا النوع من الإدراك .

و أما ما أجاب به بعضهم أن الكلام خارج مخرج الظاهر فقول لا سبيل إلى إثباته بالاستدلال .

قوله تعالى : « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ، هاتان الآيتان و ما بعدهما إلى تمام تسع آيات في معنى التنظير لما تضمنته الآيتان السابقتان بل الآيات الأربع السابقة من أن الله سبحانه جعل رسالة الرسول لهداية الناس إلى سبيل الرشدهم وإنقاذهم من الضلال فيهدي بها بعضهم ممن شاء الله وأما غيرهم ممن اتخذ إليه هواءً فصار لا يسمع ولا يعقل فليس في وسع أحد أن يهديهم من بعده الله .

فهي تبين أن ليس هذا ببدع من الله سبحانه ففي عجائب صنعده و بيّنات آياته نظائر لذلك فعلمه متشابه وهو على صراط مستقيم ، وذلك كمدّ الظلّ وجعل الشمس دليلاً عليه تنسخه ، و كجعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً ، و كجعل الرياح بشراً و إنزال المطر و إحياء الأرض الميتة به و إرواء الأنعام والأناسي به .

ثم ما مثل المؤمن و الكافر في اهتداء هذا و ضلال ذاك - وهم جميعاً عباد الله يعيشون في أرض واحدة - إلا كمثل المائتين العذب الفرات و الملح الأجاج مرجهما الله تعالى لكن جعل بينهما برزخاً و حجراً محجوراً ، و كلماء خلق الله سبحانه منه بشراً ثم جعله نسبا و صهراً فاختلف بذلك المواليد و كان ربك قديراً .

هذا ما يهدي إليه التدبّر في مضامين الآيات و خصوصيات نظمها ، وبه يظهر وجه اتصالها بما تقدّمها ، و أما ما ذكره من أن الآيات مسوقة لبيان بعض أدلة التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها و ضلالهم فالسياق لا يساعد عليه و سنزيد ذلك إيضاحاً .

فقوله : « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً » تنظير

- كما تقدّمَت الإشارة إليه - لشمول الجهل و الضلال للناس و رفعه تعالى ذلك بالرسالة و الدعوة الحقّة كما يشاء و لازم ذلك أن يكون المراد بمدّ الظلّ ما يعرض الظلّ الحادث بعد الزوال من التمدّد شيئاً فشيئاً من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الأفق حتّى إذا غربت كانت فيه نهاية الامتداد وهو الليل ، وهو في جميع أحواله متحرّك ولو شاء الله لجعله ساكناً .

وقوله : « ثمّ جعلنا الشمس عليه دليلاً ، و الدليل هي الشمس من حيث دلالتها بنورها على أن هناك ظلاً و بانبساطه شيئاً فشيئاً على تمدّد الظلّ شيئاً فشيئاً و لولاها لم يتنبّه لوجود الظلّ فإنّ السبب العامّ لتمييز الإنسان بعض المعاني من بعض تحوّل الأحوال المختلفة عليه من فقدان و وجدان فإذا فقد شيئاً كان يجده تنبّه لوجوده وإذا وجد ما كان يفقده تنبّه لعدمه ، وأمّا الأمر الثابت الذي لا تتحوّل عليه الحال فليس إلى تصوّره بالتنبّه سبيل .

و قوله : « ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ، أي أزلنا الظلّ بإشراق الشمس و ارتفاعها شيئاً فشيئاً حتّى يذسخ بالكليّة ، و في التعبير عن الإزالة والنسخ بالقبض ، و كونه إليه ، و توصيفه باليسير دلالة على كمال القدرة الإلهيّة و أنّها لا يشقّ عليها فعل ، و أنّ فقدان الأشياء بعد وجودها ليس بالانعدام و البطلان بل بالرجوع إليه تعالى .

وما تقدّم من تفسير مدّ الظلّ بتمديد الفيء بعد زوال الشمس و إن كان معني لم يذكره المفسّرون لكنّ السياق - على ما أشرنا إليه - لا يلائم غيره ممّا ذكره المفسّرون كقول بعضهم : إنّ المراد بالظلّ الممدود ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، و قول بعض : ما بين غروب الشمس و طلوعها ، و قول بعض : ما يحدث من مقابلة كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس بعد طلوعها ، و قول بعض - وهو أسخف الأقوال - هو ما كان يوم خلق الله السماء وجعلها كالقبة ثمّ دحا الأرض من تحتها فألقت ظلّها عليها .

وفي الآية أعني قوله : « ألم تر إلى ربّك ، الخ التفات من سياق التكلّم بالغير

في الآيات السابقة إلى الغيبة ، و النكتة فيه أن المراد بالآية وما يتلوها من الآيات بيان أن أمر الهداية إلى الله سبحانه وليس للنبي ﷺ من الأمر شيء وهو تعالى لا يريد هدايتهم وأن الرسالة و الدعوة الحقّة في مقابلتها للضلال المنبسط على أهل الضلال و نسخها ما تنسخ منه من شعب السنّة العامّة الإلهيّة في بسط الرحمة على خلقه نظير إطلاع الشمس على الأرض و نسخ الظل الممدود فيها بها ، و من المعلوم أن الخطاب المتضمن لهذه الحقيقة مما ينبغي أن يختص به ﷺ و خاصّة من جهة سلب القدرة على الهداية عنه ، وأمّا الكفار المتخذون إلههم هواهم وهم لا يسمعون ولا يعقلون فلا نصيب لهم فيه .

وفي قوله : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا » رجوع إلى السياق السابق ، و في ذلك مع ذلك من إظهار العظمة و الدلالة على الكبرياء ما لا يخفى .
و الكلام في قوله الآتي : « وهو الذي جعل لكم الليل » الخ وقوله : « وهو الذي أرسل الرياح » و قوله : « وهو الذي مرج البحرين » وقوله : « وهو الذي خلق من الماء بشرا » كالكلام في قوله : « ألم تر إلى ربك » و الكلام في قوله : « وأنزلنا من السماء ماء » الخ و قوله : « ولقد صرفناه بينهم » و قوله : « ولو شئنا لبعثنا » كالكلام في قوله : « ثم جعلنا الشمس » .

قوله تعالى : « وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا » كون الليل لباسا إنّما هو ستره الإنسان بغشيان الظلمة كما يستر اللباس لابس .

و قوله : « والنوم سباتا » أي قطعاً للعمل ، وقوله : « وجعل النهار نشورا » أي جعل فيه الانتشار و طلب الرزق على ما ذكره الراغب في معنى اللفظتين .

و حال ستره تعالى الناس بلباس الليل و قطعهم به عن العمل و الحركة ثم نشرهم للعمل و السعي بإظهار النهار و بسط النور كحال مدّ الظل ثم جعل الشمس عليه دليلاً و قبض الظل بها إليه .

قوله تعالى : « وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته و أنزلنا من

السماء ماء طهورا ، البشر بالضم " فالسكون مخفف بشر بضمين جمع بشور بمعنى مبشّر أي هو الذي أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وهي المطر .

وقوله : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » أي من جهة العلو وهي جو الأرض ماء طهورا أي بالغاً في طهارته فهو طاهر في نفسه مطهر لغيره يزيل الأوساخ ويذهب بالأرجاس والأحداث - فالطهور على ما قيل صيغة مبالغة - .

قوله تعالى : « لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا » البلدة معروفة قيل : « وأريد بها المكان كما في قوله : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » الأعراف : ٥٨ ، ولذا اتصف بالميت وهو مذكّر والمكان الميت ما لا نبات فيه وإحياءه إنباته ، والأناسي جمع إنسان ، ومعنى الآية ظاهر .

وحال شمول الموت للأرض والحاجة إلى الشرب والرى " للأنعام والأناسي " ثم إنزاله تعالى من السماء ماء طهورا ليحيي به بلدة ميتا ويسقيه أنعاما وأناسي كثيرا من خلقه كحال مدّ الظل " ثم الدلالة عليه بالشمس ونسخه بها كما تقدّم .

قوله تعالى : « ولقد صرفناه بينهم ليدّكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا » ظاهر اتصال الآية بما قبلها أن ضمير « صرفناه » للماء وتصريفه بينهم صرفه من قوم إلى غيرهم تارة ومن غيرهم إليهم أخرى فلا يدوم في نزوله على قوم فيهلكوا ولا ينقطع عن قوم دائما فيهلكوا بل يدور بينهم حتى ينال كل نصيبه بحسب المصلحة ، وقيل : المراد بالتصريف التحويل من مكان إلى مكان .

وقوله : « ليدّكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا » تعليل للتصريف أي واقسم لقد صرفنا الماء بتقسيمه بينهم ليدّكروا فيشكروا فأبى وامتنع أكثر الناس إلا كفران النعمة .

قوله تعالى : « ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا » أي لو أردنا أن نبعث في كل قرية نذيرا ينذرهم ورسولا يبلغهم رسالاتنا لبعثنا ولكن بعثناك إلى القرى كلها نذيرا ورسولا لعظيم منزلتك عندنا . هكذا فسّرت الآية ولا تخلو الآية التالية من تأييد لذلك ، وهذا المعنى لما وجّهنا به اتصال الآيات أنسب .

أو أن المراد أننا قادرون على أن نبعث في كل قرية رسولا وإنما اخترناك لمصلحة في اختيارك .

قوله تعالى : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » متفرع على معنى الآية السابقة ، وضمير « به » للقرآن بشهادة سياق الآيات ، والمجاهدة و الجهاد بذل الجهد و الطاقة في مدافعة العدو ، وإذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم و بيان حقائقه لهم و إتمام حججه عليهم .

فمحصل مضمون الآية أنه إذا كان مثل الرسالة الإلهية في رفع حجاب الجهل و الغفلة المضروب على قلوب الناس بإظهار الحق لهم و إتمام الحجّة عليهم مثل الشمس في الدلالة على الظل الممدود و نسخه بأمر الله ، و مثل النهار بالنسبة إلى الليل و سبته ، و مثل المطر بالنسبة إلى الأرض الميئة و الأنعام و الأناسي الظائمة ، و قد بعثناك لتكون نذيراً لأهل القرى فلا تطع الكافرين لأن طاعتهم تبطل هذا الناموس العام المضروب للمداية ، وابدل مبلغ جهدك و وسعك في تبليغ رسالتك و إتمام حجّتك بالقرآن المشتمل على الدعوة الحقّة و جاهدتهم به مجاهدة كبيرة .

قوله تعالى : « و هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج و جعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » المرج الخلط و منه أمر مريج أي مختلط ، و العذب من الماء ما طاب طعمه ، و الفرات منه ما كثر عذوبته ، و الملح هو الماء المتغير طعمه ، و الأجاج شديد الملوحة ، و البرزخ هو الحدّ الحاجز بين شيئين . و حجرا محجورا أي حراماً محرّماً أن يختلط أحد المائين بالآخر .

وقوله : « و جعل بينهما » الخ قرينة على أن المراد بمرج البحرين إرسال المائين متقارنين لا الخلط بمعنى ضرب الأجزاء بعضها ببعض .

والكلام معطوف على ما عطف عليه قوله : « و هو الذي أرسل الرياح » الخ وفيه تنظير لأمر الرسالة من حيث تأديتها إلى تمييز المؤمن من الكافر مع كون الفريقين يعيشان على أرض واحدة مختلطين وهما مع ذلك غير متمازحين كما تقدّمت

الإشارة إليه في أوّل الآيات التسع .

قوله تعالى : « وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا » الصهر على ما نقل عن الخليل الختن وأهل بيت المرأة فالنسب هو التحريم من جهة الرجل و الصهر هو التحريم من جهة المرأة - كما قيل - و يؤيده المقابلة بين النسب و الصهر .

وقد قيل : إنّ كلاً من النسب والصهر بتقدير مضاف والتقدير فجعله ذانـسب و صهر ، والضمير للـمـشـر ، والمراد بالماء النطفة ، وربما احتـمـل أن يكون المراد به مطلق الماء الذي خلق الله منه الأشياء الحيّة كما قال : « وجعلنا من الماء كلّ شيء حي » .

و المعنى و هو الذي خلق من النطفة - و هي ماء واحد - بشرا فقسّمه قسمين ذانـسب و ذا صهر يعني الرجل و المرأة و هذا تنظير آخر يفيد ما تفيد الآية السابقة أنّ الله سبحانه أن يحفظ الكثرة في عين الوحدة و التفرّق في عين الاتحاد و هكذا يحفظ اختلاف النفوس والآراء بالإيمان والكفر مع اتحاد المجتمع البشري الذي بعث الله الرسل لكشف حجاب الضلال الذي من شأنه غشيانه لولا الدعوة الحقّة . وقوله : « وكان ربك قديراً » في إضافة الربّ إلى ضمير الخطاب من النكتة نظير ما تقدّم في قوله : « ألم تر إلى ربك » .

قوله تعالى : « و يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم و كان الكافر على ربه ظهيرا » معطوف على قوله : « و إذا رأوك إن يتخذونك إلها هزوا » . والظهير بمعنى المظاهر على ما قيل والمظاهرة المعاونة .

و المعنى و يعبدون - هؤلاء الكفّار المشركون - من دون الله ما لا ينفعهم با يصل الخير على تقدير العبادة ولا يضرهم با يصل الشر على تقدير ترك العبادة و كان الكافر معاونا للشيطان على ربه .

و كون هؤلاء المعبودين و هم الأصنام ظاهرا لا ينفعون ولا يضرّون لا ينافي كون عبادتهم مضرّة فلا يستلزم نفي الضرر عنهم أنفسهم حيث لا يقدرّون على شيء .

نفي الضرر عن عبادتهم المضرة المؤدية للإنسان إلى شقاء لازم وعذاب دائم .
قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً » أي لم نجعل لك في رسالتك
إلا التبشير والإذاعة وليس لك وراء ذلك من الأمر شيء ، فلا عليك إن كانوا معاندين
لربهم مظاهرين لعدوة عليه فليسوا بمعجزين لله وما يمكرون إلا بأنفسهم ، هذا هو
الذي يعطيه السياق .

وعليه فقوله : « وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً » هذا الفصل من الكلام نظير
قوله : « فأنت تكون عليهم وكيلاً » في الفصل السابق .

ومنه يظهر أن أخذ بعضهم الآية تسليمة منه تعالى لنبيه ﷺ حيث قال و
المراد ما أرسلناك إلا مبشراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم .
غير سديد .

قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه
سبيلاً » ضمير « عليه » للقرآن بما أن تلاوته عليهم تبليغ للرسالة كما قال تعالى :
« إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » المزمل ١٩ الدهر : ٢٩ ، وقال :
« قل ما أسألكم عليه أجراً ما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين » ص : ٨٧ .
وقوله : « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً » استثناء منقطع في معنى المتصل
فإنه في معنى إلا أن يتخذ إلى ربه سبيلاً من شاء ذلك على حد قوله تعالى : « يوم
لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » الشعراء : ٨٩ أي إلا أن يأتي الله
بقلب سليم من أتاه به .

ففيه وضع الفاعل وهو من اتخذ السبيل موضع فعله وهو اتخذ السبيل
شكراً له ففي الكلام عد اتخذهم سبيلاً إلى الله سبحانه باستجابة الدعوة أجراً لنفسه
ففيه تلويح إلى نهاية استغنائه عن أجر مالي أو جاهي منهم ، وأنه لا يريد منهم
وراء استجابتهم للدعوة واتباعهم للحق شيئاً آخر من مال أو جاه أو أي أجر مفروض
فليطيبوا نفساً ولا يتهموه في نصيحته .

وقد علق اتخاذ السبيل على مشيئتهم للدلالة على حرّيتهم الكاملة عن قبله

صلى الله عليه وآله فلا إكراه ولا إجبار إذ لا وظيفة له عن قبل ربه وراء التبشير و الإنذار و ليس عليهم توكيل بل الأمر إلى الله يحكم فيهم ما يشاء .

فقوله « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ » الخ بعد ما سجل لنبيه ﷺ أن ليس له إلا الرسالة بالتبشير و الإنذار يأمره أن يبلغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلا أن يستجيبوا له و يتخذوا إلى ربهم سبيلا من غير غرض زائد من الأجر أيتما كان ، و أن لهم الخيرة في أمرهم من غير أي إجبار و إكراه فهم و الدعوة إن شاؤا فليؤمنوا و إن شاؤا فليكفروا .

هذا ما يرجع إليه ﷺ و هو تبليغ الرسالة فحسب من غير طمع في أجر ولا تحميل عليهم بإكراه أو انتقام منهم بنكال ، و أما ما وراء ذلك فهو الله فليرجعه إليه و ليتوكل عليه كما أشار إليه في الآية التالية : « و توكل على الحي الذي لا يموت » .

و ذكر جمهور المفسرين أن الاستثناء منقطع و المعنى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا أي بالإنفاق القائم مقام الأجر كالصدقة و الإنفاق في سبيل الله فليفعل ، وهو ضعيف لأدليل عليه لامن جهة لفظ الجملة ولا من جهة السياق .

وقال بعضهم : إنه متصل و الكلام بحذف مضاف و التقدير إلا فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإيمان والطاعة حسبما أدعو إليهما . وفيه أخذ استجابتهم له أجراً لنفسه وقطعا لشائبة الطمع بالكلفة و تطييباً لأنفسهم ، و يرجع هذا الوجه بحسب المعنى إلى ما قدّمناه و يمتاز منه بتقدير مضاف و التقدير خلاف الأصل .

وقال آخرون : إنه متصل بتقدير مضاف و التقدير لأسألكم عليه من أجر إلا أجر من شاء الخ أي إلا الأجر الحاصل لي من إيمانه فإن الدال على الخير كفاعله . وفيه أن مقتضى هذا المعنى أن يقال : إلا من اتخذ إلى ربه سبيلا فلا حاجة إلى تعليق الانتحاذ بالمشيئة و الأجر إنما يترتب على العمل دون مشيئته .

قوله تعالى : « و توكل على الحي الذي لا يموت و سبح بحمده و كفى به بذنوب عباده خبيرا » لما سجل على نبيه ﷺ أن ليس له من أمرهم شيء إلا

الرسالة و أمره أن يبلغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلا الاستجابة لها وأنهم على خيرة من أمرهم إن شاءوا آمنوا وإن شاءوا كفروا تتم ذلك بأمره ﷻ أن يتخذهم تعالى و كيلا في أمرهم فهو تعالى عليهم و على كل شي، و كيل و بذنوب عباده خبير .

فقوله : « و توكل على الحي الذي لا يموت » أي اتخذه و كيلا في أمرهم يحكم فيهم ما يشاء و يفعل بهم ما يريد فإنه الوكيل عليهم و على كل شي، وقد عدل عن تعليق التوكل بالله إلى تعليقه بالحي الذي لا يموت ليفيد التعليل فإن الحي الذي لا يموت لا يفوته فائت فهو المتعين لأن يكون و كيلا .

وقوله : « و سبح بحمده » أي نزهه عن العجز و الجهل و كل ما لا يليق بساحة قدسه مقارنا ذلك للثناء عليه بالجميل فإن أمهاتهم واستدراجهم بنعمه فليس عن عجز فعل بهم ذلك ولا عن حيل بذنوبهم و إن أخذهم بذنوبهم فبحكمة اقتضته و باستحقاق منهم استدعى ذلك فسبحانه و بحمده .

وقوله : « و كفى به بذنوب عباده خيرا » مسوق للدلالة على توحيده في فعله وصفته فهو الوكيل المتصرف في أمور عباده وحده هو خبير بذنوبهم و حاكم فيهم وحده من غير حاجة إلى من يعينه في علمه أو في حكمه .

ومن هنا يظهر أن الآية التالية : « الذي خلق السماوات و الأرض » متممة لقوله : « و توكل على الحي الذي لا يموت » الخ لاشتمالها على توحيده في ملكه و تصرفه كما يشتمل قوله : « و كفى به » الخ على علمه و خبرته و بالحياة و الملك و العلم معا يتم معنى الوكالة و سنشير إليه .

قوله تعالى : « الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمان فاسأل به خبيرا » ظاهر السياق أن الموصول صفة لقوله في الآية السابقة : « الحي الذي لا يموت » و بهذه الآية يتم البيان في قوله : « و توكل على الحي الذي لا يموت » فإن الوكالة كما تتوقف على حياة الوكيل تتوقف على العلم وقد ذكره في قوله : « و كفى به بذنوب عباده خيرا » و تتوقف على السلطنة على

الحكم والنصرف وهو الذي تتضمنه هذه الآية بما فيها من حديث خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش .

وقد تقدم تفسير صدر الآية في مواضع من السور السابقة ، و أمّا قوله : «الرحمان فاسأل به خيرا» فالذي يعطيه السياق ويهدي إليه النظم أن يكون الرحمان خبراً لمبتدأ محذوف والتقدير هو الرحمان ، وقوله : « فاسأل » متفرعاً عليه والفاء للتفريع ، و الباء في قوله : « به » للتعدي مع تضمين السؤال معنى الاعتناء . وقوله : « خيرا » حال من الضمير .

والمعنى هو الرحمان - الذي استوى على عرش الملك والذي برحمته وإفاضته يقوم الخلق والأمر ومنه يبتدي كل شيء ، وإليه يرجع - فاسأله عن حقيقة الحال يخبرك بها فإنه خير .

فقوله : « فاسأل به خيرا » كناية عن أن الذي أخبر به حقيقة الأمر التي لا معدل عنها وهذا كما يقول من سئل عن أمر : سلني أجبك إن كذا وكذا ومن هذا الباب قولهم : على الخير سقطت .

ولهم في قوله : «الرحمان فاسأل به خيرا» أقوال أخرى كثيرة : ف قيل : إن الرحمان مرفوع على القطع للمدح ، وقيل : مبتدأ خبره قوله : « فاسأل به » ، وقيل خبر مبتدؤه «الذي» في صدر الآية ، وقيل : بدل من الضمير المستكن في «استوى» . وقيل في « فاسأل به » إنه خبر للرحمان كما تقدم والفاء فصيحة ، وقيل : جملة مستقلة متفرعة على ما قبلها والفاء للتفريع ثم الباء في « به » للصلة أو بمعنى عن والضمير راجع إليه تعالى أو إلى ما تقدم من الخلق والاستواء .

وقيل : « خيرا » حال عن الضمير وهو راجع إليه تعالى والمعنى فاسأل الله حال كونه خيرا ، وقيل : مفعول فاسأل والباء بمعنى عن والمعنى فاسأل عن الرحمان أو عن حديث الخلق والاستواء خيرا ، والمراد بالخبر هو الله سبحانه ، وقيل جبريل وقيل : محمد ﷺ ، وقيل : من قرء الكتب السماوية القديمة ووقف على صفاته

وأفعاله تعالى و كَيْفِيَّةُ الخلق والإيجاد ، و قيل : كل من كان له وقوف على هذه الحقائق .

و هذه الوجوه المنتشئة جلها أو كلها لاتلائم ما يعطيه سياق الآيات الكريمة ولا موجب للتكلم عليها والغور فيها .

قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » هذا فصل آخر من معاملتهم السوء مع الرسول ودعوته الحقّة يذكر فيه استكبارهم عن السجود لله سبحانه إذا دعوا إليه و نفورهم منه وللآية اتصال خاص بما قبلها من حيث ذكر الرحمان فيها وقد وصف في الآية السابقة بما وصف و لعلّ اللام فيه للعهد .

فقوله : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان » الضمير للكفّار ، والقائل هو النبي صلى الله عليه وآله بدليل قوله بعد : « أنسجد لما تأمرنا » ولم يذكر اسمه ليتوجّه استكبارهم إلى الله سبحانه وحده .

و قوله : « قالوا وما الرحمان » سؤال منهم عن هويّته ومائّيته مبالغة منهم في التجاهل به استكباراً منهم على الله ولولا ذلك لقالوا : و من الرحمان ، وهذا كقول فرعون لموسى لما دعاه إلى ربّ العالمين : « وما ربّ العالمين » الشعراء : ٢٣ وقول إبراهيم لقومه : « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » الأنبياء : ٥٢ و مراد السائل في مثل هذا السؤال أنّه لا معرفة له من المسؤول عنه بشيء أزيد من اسمه كقول هود لقومه : « أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » الأعراف : ٧١ . و قوله حكاية عنهم : « أنسجد لما تأمرنا » في تكرار التعبير عنه تعالى بما إصرار على الاستكبار ، والتعبير عن طلبه عنهم السجدة بالأمر لا يخلو من تهكم واستهزاء . و قوله : « وزادهم نفورا » معطوف على جواب إذا والمعنى وإذا قيل لهم اسجدوا استكبروا وزادهم ذلك نفورا ففاعل « زادهم » ضمير راجع إلى القول المفهوم من سابق الكلام .

وقول بعضهم : إنّ الفاعل ضمير راجع إلى السجود بناء على ما رووا أنّه

صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه سجدوا فنبأعدوا عنهم مستهزئين ليس بسديد فإن وقوع واقعة مالا يؤثر في دلالة اللفظ ما لم يتعرض له لفظاً . ولا تعرض في الآية لهذه القصة أصلاً .

قوله تعالى : « تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، الظاهر أن المراد بالبروج منازل الشمس والقمر من السماء أو الكواكب التي عليها كما تقدم في قوله : « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للنظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم ، الحجر : ١٧ ، وإنما خصت بالذكر في الآية للإشارة إلى الحفظ والرحم المذكورين .

والمراد بالسراج الشمس بدليل قوله : « وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، نوح : ١٦ .

وقد قرئوا الآية أنها احتجاج بوحدة التدبير العجيب السماوي والأرضي على وحدة المدبر فيجب التوجه بالعبادات إليه و صرف الوجه عن غيره .

والندبر في اتصال الآيتين بما قبلهما وسياق الآيات لا يساعد عليه لأن مضمون الآية السابقة من استكبارهم على الرحمن إذا أمروا بالسجود له واستهزائهم بالرسول لا نسبة كافية بينه وبين الاحتجاج على توحيد الربوبية حتى يعقّب به ، وإنما المناسب لهذا المعنى إظهار العزة والغنى وأنهم غير معجزين لله بفعلهم هذا ولا خارجون عن ملكه وسلطانه .

والذي يعطيه التدبر أن قوله : « تبارك الذي جعل في السماء بروجا ، الخ مسوق سوق التعزّز والاستغناء ، وأنهم غير معجزين باستكبارهم على الله واستهزائهم بالرسول بل هؤلاء ممنوعون عن الاقتراب من حضرة قربه والصعود إلى سماء جواره والمعارف الإلهية مضيئة مع ذلك لأهله وعباده بما نورها الله سبحانه بنور هدايته وهو نور الرسالة .

وعلى هذا فقد أثنى الله سبحانه على نفسه بذكر تباركه بجعل البروج

المحفوفة الراجعة للشياطين بالشهب في السماء المحسوسة و جعل الشمس المضيئة و القمر المنير فيها لإضاءة العالم المحسوس ، و أشار بذلك إلى ما يناظره في الحقيقة من إضاءة العالم الإنساني بنور الهداية من الرسالة ليتبصر به عباده كما يذكر حالهم بعد هذه الآيات و دفع أولياء الشياطين عن الصعود إليه بما هيأ لدفعهم من بروج محفوفة راجعة .

هذا ما يعطيه السياق و على هذا النمط من البيان سيقَت هذه الآيات و التي قبلها كما تقدّمت الإشارة إليه في تفسير قوله : « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ » فليس ما ذكرناه من التأويل بمعنى صرف الآيات عن ظاهرها .

قوله تعالى : « وهو الذي جعل الليل و النهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » الخلفة هي الشيء يسدّ مسدّ شيء آخر و بالعكس و كأنّه بناء نوع أريد به معنى الوصف فكون الليل و النهار خلفه أن كلّاً منهما يخلف الآخر ، و تقييد الخلفة بقوله : « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » للدلالة على نيابة كلّ منهما عن الآخر في التذكّر و الشكر .

و المقابلة بين التذكّر و الشكر يعطي أن المراد بالتذكّر الرجوع إلى ما يعرفه الإنسان بفطرته من الحجج الدالة على توحيد ربّه وما يليق به تعالى من الصفات و الأسماء و غايته الإيمان بالله ، و بالشكور القول أو الفعل الذي يندي عن الثناء عليه بجميل ما أنعم ، و ينطبق على عبادته وما يلحق بها من صالح العمل . و على هذا فالآية اعتزاز أو امتنان بجعله تعالى الليل و النهار بحيث يخلف كلّ صاحبه فمن فاته الإيمان به في هذه البرهة من الزمان تداركه في البرهة الأخرى منه ، و من لم يوفق لعبادة أو لأيّ عمل صالح في شيء منهما أتى به في الآخر .

هذا ما تفيده الآية و لها مع ذلك ارتباط بقوله في الآية السابقة : « و جعل فيها سراجا و قمرا منيرا » ففيه إشارة إلى أن الله سبحانه و إن دفع أولئك المستكبرين عن الصعود إلى ساحة قربه لكنّه لم يمنع عباده عن التقرب إليه و

الاستضاءة بنوره فجعل نهاراً ذاشمس طالعة وليلاً ذاقمر منير وهما ذوا خلفه من فاته ذكر أو شكر في أحدهما أتى به في الآخر .

وفسر بعضهم التذكر بصلاة الفريضة والشكور بالنافلة و الآية تقبل الانطباق على ذلك و إن لم يتعين حملها عليه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور في قوله تعالى : « رأيت من اتخذ إلهه هواه » أخرج الطبراني عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع .

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل » فقال : الظل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

و في المجمع في قوله تعالى : « و هو الذي خلق من الماء » الآية قال ابن سيرين : نزلت في النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب زوج فاطمة عليها فهو ابن عمه وزوج ابنته فكان نسبا وصهرا .

و في الدر المنثور أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « وكان الكافر على ربه ظهيرا » يعني أبا الحكم الذي سمّاه رسول الله ﷺ أبا جهل ابن هشام .

أقول : و الروايتان بالجري و التطبيق أشبه .

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تبارك و تعالى : « تبارك الذي جعل في السماء بروجا » فالبروج الكواكب و البروج التي للربيع و الصيف الحمل و الثور و الجوزاء و السرطان و الأسد و السنبلة ، و

بروج الخريف و الشتاء الميزان و العقرب و القوس و الجدي و الدلو و الحوت وهي
اثنا عشر برجاً .

و في الفقيه قال الصادق عليه السلام : كلما فاتك بالليل فاقضه بالنهار قال الله
تبارك و تعالى : « وهو الذي جعل الليل و النهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد
شكورا » يعني أن يقضي الرجل ما فاتته بالليل بالنهار وما فاتته بالنهار بالليل .





وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَ
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا
سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ
بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ
لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا
صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ
تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ
إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا
عَلَيْهَا صَمًّا وَغَمِيانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَ
يُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ
مَا يَعْبُودُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) .

﴿بيان﴾

تذكر الآيات من محاسن خصال المؤمنين ما يقابل ما وصف من صفات الكفار السيئة و يجمعها أنهم يدعون ربهم و يصدقون رسوله و الكتاب النازل عليه قبال تكذيب الكفار لذلك و إعراضهم عنه إلى اتباع الهوى ، و لذلك تختتم الآيات بقوله : « قل ما يعبؤ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » و به تختتم السورة .

قوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » لما ذكر في الآية السابقة استكبارهم على الله سبحانه و إهانته بالاسم الكريم : الرحمن ، قابله في هذه الآية بذكر ما يقابل ذلك للمؤمنين و سمّاهم عبادا و أضافهم إلى نفسه متمسّيا باسم الرحمن الذي كان يحيد عنه الكفار و ينفرون .

وقد وصفتم الآية بوصفين من صفاتهم :

أحدهما ما اشتمل عليه قوله : « الذين يمشون على الأرض هونا » و الهون على ما ذكره الراغب التذلل ، والأشبه حينئذ أن يكون المشي على الأرض كناية عن عيشتهم بمخالطة الناس و معاشرتهم فهم في أنفسهم متذللون لربهم و متواضعون للناس لما أنهم عباد الله غير مستكبرين على الله و لامستعلين على غيرهم بغير حق ، وأمّا التذلل لأعداء الله ابتغاء ما عندهم من العزة الوهميّة فحاشاهم و إن كان الهون بمعنى الرفق واللين فالمراد أنهم يمشون من غير تكبر و تبختر .

و ثانيهما ما اشتمل عليه قوله : « و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » أي إذا خاطبهم الجاهلون خطابا ناشيا عن جهلهم ممّا يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم كما يستفاد من تعلّق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول و قالوا لهم قولا سلاما خاليا عن اللغو والإثم قال تعالى : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلّا

قبلا سلاما سلاما ، الواقعة ٢٦ ويرجع إلى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل .
وهذه - كما قيل - صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس و أمّا صفة ليلهم فهي
التي تصفها الآية التالية .

قوله تعالى : « الَّذِينَ يَبْتَثُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَ قِيَامًا » البيوتوتة إدراك الليل
سواء نام أم لا ، و « لِرَبِّهِمْ » متعلق بقوله : « سَجْدًا » والسجّد والقيام جمعاً ساجد و
قائم ، والمراد عبادتهم له تعالى بالخروج على الأرض والقيام على السوق ، ومن
مصاديقه الصلاة .

والمعنى و هم الذين يدركون الليل حالكونهم ساجدين فيه لربهم وقائمين
يتراوحون سجوداً و قياماً ، ويمكن أن يراد به التهجد بنوافل الليل .
قوله تعالى : « الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا
كَانَ غَرَامًا » الغرام ما ينوب الإنسان من شدة أو مصيبة فيلزمه ولا يفارقه
والباقى ظاهر .

قوله تعالى : « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » الضمير لجهنم والمستقر والمقام
اسما مكان من الاستقرار والإقامة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا »
الإتفاق بذل المال و صرفه في رفع حوائج نفسه أو غيره ، والإسراف الخروج عن
الحد ولا يكون إلا في جانب الزيادة ، وهو في الإتفاق التعدي عما ينبغي الوقوف
عليه في بذل المال ، والقتر بالفتح فالتقليل في الإتفاق وهو بإزاء الإسراف
على ما ذكره الراغب ، والقتر والإقتار والتقتير بمعنى .

والقوام بالفتح الواسط العدل ، وبالكسر ما يقوم به الشيء . و قوله : « بَيْنَ
ذَلِكَ » متعلق بالقوام ، والمعنى و كان إتفاقهم وسطاً عدلاً بين ما ذكر من الإسراف
والقتر فقوله : « وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » تنصيص على ما يستفاد من قوله : « إِذَا أَنْفَقُوا
لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا » فصدر الآية ينقي طرفي الإفراط والنقريط في الإتفاق ، و
ذيلها يثبت الوسط .

قوله تعالى: «والَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ هَذَا هُوَ الشِّرْكَ وَالْأَصُولُ الْوُثْنِيَّةُ لَا تَجِيزُ دَعَاءَهُ تَعَالَىٰ وَعِبَادَتُهُ أَصْلًا وَلَا وَحْدَهُ وَلَا مَعَ آلِهَتِهِمْ وَإِنَّمَا تَوْجِبُ دَعَاءَ آلِهَتِهِمْ وَعِبَادَتَهُمْ لِيَقَرَّ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ وَيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَهُ .

فالمُرَاد بِدَعَائِهِمْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِلَّا التَّلْوِيحُ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَىٰ إِلَهُ مُدْعَوْ بِالْفِطْرَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ فَدَعَاءُ غَيْرِهِ دَعَاءٌ لِّإِلَهِ آخَرَ مَعَهُ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ .

أَوْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ ثَابِتٌ فِي نَفْسِهِ سِوَاءَ دَعِي غَيْرِهِ أَمْ لَا فَالْمُرَادُ بِدَعَاءِ غَيْرِهِ دَعَاءُ إِلَهِ آخَرَ مَعَ وَجُودِهِ وَبِعِبَادَةِ أُخْرَىٰ تَعَدُّ إِلَيْهِ غَيْرِهِ .

أَوْ إِيضًا إِلَىٰ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ جَهْلَةٌ مَشْرُوكِي الْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ دَعَاءَ آلِهَتِهِمْ إِنَّمَا يَنْفَعُهُمْ فِي الْبَرِّ وَأَمَّا الْبَحْرُ فَإِنَّهُ لَا يَشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ فَالْمُرَادُ دَعَاؤُهُ تَعَالَىٰ فِي مَوْرِدٍ كَمَا عِنْدَ شِدَائِدِ الْبَحْرِ مِنْ طُوفَانٍ وَنَحْوِهِ وَ دَعَاءُ غَيْرِهِ مَعَهُ فِي مَوْرِدٍ وَهُوَ الْبَرُّ ، وَأَحْسَنُ الْوُجُوهِ أَوْسَطُهَا .

وقوله: « وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ » ، أَي لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا حَالَ تَلْبَسِ الْقَتْلَ بِالْحَقِّ كَقَتْلِهَا قِصَاصًا وَحَدًّا .

وقوله تعالى: « وَلَا يَزْنُونَ » ، أَي لَا يَطْوُونَ الْفَرْجَ الْحَرَامَ وَقَدْ كَانَ شَائِعًا بَيْنَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ الْإِسْلَامُ مَعْرُوفًا بِتَحْرِيمِ الزَّانَا وَالْخَمْرِ مِنْ أَوَّلِ مَا ظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ .

وقوله: « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، الْإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى مَا تَقْدَمُ ذِكْرُهُ وَهُوَ الشِّرْكَ وَقَتْلُ النَّفْسِ الْمُحْتَرَمَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَالزَّانَا ، وَالْأَثَامُ الْإِثْمُ وَهُوَ وَبَالُ الْخَطِيئَةِ وَهُوَ الْجَزَاءُ بِالْعَذَابِ الَّذِي سَيُلْقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ .

قوله تعالى: « يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا » ، بَيَانٌ لِلْقَاءِ الْأَثَامِ ، وَقَوْلُهُ: « وَيُخَلَّدُ فِيهِ مَهَانًا » ، أَي يُخَلَّدُ فِي الْعَذَابِ وَقَدْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْإِهَانَةُ .

وَالْخُلُودُ فِي الْعَذَابِ فِي الشِّرْكِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَأَمَّا الْخُلُودُ فِيهِ عِنْدَ قَتْلِ النَّفْسِ الْمُحْتَرَمَةِ وَالزَّانَا وَهُمَا مِنَ الْكِبَائِرِ وَقَدْ صَرَّحَ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ فِيهِمَا وَكَذًا فِي أَكْلِ

الربا فيمكن أن يحمل على اقتضاء طبع المعصية ذلك كما ربّما استفيد من ظاهر قوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

أو يحمل الخلود على المكث الطويل أعمّ من المنقطع و المؤبد أو يحمل قوله : « ومن يفعل ذلك » على فعل جميع الثلاثة لأنّ الآيات في الحقيقة تنزّه المؤمنين عمّا كان الكفّار مبتلين به وهو الجميع دون البعض .

قوله تعالى : « إلّا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأُولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات و كان الله غفورا رحيمًا » استثناء من لقى الأثام والخلود فيه ، وقد أخذ في المستثنى التوبة و الإيمان و إتيان العمل الصالح أمّا التوبة و هي الرجوع عن المعصية و أقلّ مراتبها الندم فلولم يتحقّق لم ينتزع العبد عن المعصية ولم يزل مقيما عليها ، و أمّا إتيان العمل الصالح فهو ممّا تستقر به التوبة و به تكون نصوحا . و أمّا أخذ الإيمان فيبدّل على أن الاستثناء إنّما هو من الشرك فتخصّص الآية بمن أشرك و قتل و زنا أو بمن أشرك سواء أتى معه بشي من القتل المذكور و الزنا أو لم يأت ، و أمّا من أتى بشي من القتل و الزنا من غير شرك فالمنكفّل لبيان حكم توبته الآية التالية .

وقوله : « فأُولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات » تفريع على التوبة و الإيمان و العمل الصالح يصف ما يترتّب على ذلك من جميل الأثر و هو أن الله يبدّل سيّئاتهم حسنات .

و قد قيل في معنى ذلك أن الله يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة و يثبت مكانها لواحق طاعاتهم فيبدّل الكفر إيمانا و القتل بغير حقّ جهادا و قتلا بالحقّ و الزنا عفة و إحسانا .

وقيل : المراد بالسيّئات و الحسنات ملكاتهما لا نفسيهما فيبدّل ملكة السيئة ملكة الحسنّة .

وقيل : المراد بهما العقاب و الثواب عليهما لا نفسيهما فيبدّل عقاب القتل و الزنا مثلا ثواب القتل بالحقّ و الإحصان .

وأنت خير بأن هذه الوجوه من صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل يدل عليه .

والذي يفيد ظاهر قوله : « يبدل الله سيئاتهم حسنات » وقد ذيله بقوله : « وكان الله غفورا رحيمًا » أن كل سيئة منهم نفسها تتبدل حسنة ، وليست السيئة هي متن الفعل الصادر من فاعله وهو حركات خاصة مشتركة بين السيئة والحسنة كعمل الواقعة مثلا المشترك بين الزنا والنكاح ، والأكل المشترك بين أكل المال غصبا وبأذن من مالكة بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله ومخالفته له مثلا من حيث إنه يتأثر به الإنسان ويحفظ عليه دون الفعل الذي هو مجموع حركات متصرفة متقضية فانية وكذا عنوانه القائم به الفاني بفنائيه .
وهذه الآثار السيئة التي يتبعها العقاب أعني السيئات لازمة للإنسان حتى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر .

ولولا شوب من الشقوة والمساءة في الذات لم يصدر عنها عمل سيئ إذ الذات السعيدة الطاهرة من كل وجه لا يصدر عنها سيئة قذرة فالأعمال السيئة إنما تلحق ذاتا شقية خبيثة بذاتها أو ذاتا فيها شوب من شقاء وخباثة .

ولازم ذلك إذا تطهرت بالتوبة وطابت بالإيمان والعمل الصالح فنبذت ذاتا سعيدة ما فيها شوب من قذارة الشقاء أن تتبدل آثارها اللازمة التي كانت سيئات قبل ذلك فتناسب الآثار للذات بمغفرة من الله ورحمة وكان الله غفورا رحيمًا .
وإلى مثل هذا يمكن أن تكون الإشارة بقوله : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيمًا » .

قوله تعالى : « ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا » المتاب مصدر ميمي للتوبة ، وسياق الآية يعطي أنها مسوقة لرفع استغراب تبدل السيئات حسنات بتعظيم أمر التوبة وأنها رجوع خاص إلى الله سبحانه فلا بدع في أن يبدل السيئات حسنات وهو الله يفعل ما يشاء .

وفي الآية مع ذلك شمول للتوبة من جميع المعاصي سواء قارنت الشرك أم

فارقته ، والآية السابقة - كما تقدّمت الإشارة إليه - كانت خفيّة الدلالة على حال المعاصي إذا تجرّدت من الشرك .

قوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور و إذا مرّوا باللغو مرّوا كراما » قال في مجمع البيان : أصل الزور تمويه الباطل بما يوهّم أنّه حقّ . انتهى فيشمل الكذب و كلّ لهو باطل كالغناء والفحش والخناء بوجه ، و قال ايضاً : يقال : تكرّم فلان عمّا يشينه إذا تنزّه وأكرم نفسه منه انتهى .

فقوله : « والذين لا يشهدون الزور » إن كان المراد بالزور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق والتقدير لا يشهدون شهادة الزور ، وإن كان المراد اللغو الباطل كالغناء ونحوه كان مفعولاً به والمعنى لا يحضرون مجالس الباطل و ذيل الآية يناسب ثاني المعنيين .

و قوله : « و إذا مرّوا باللغو مرّوا كراما » اللغو ما لا يعتدّ به من الأفعال والأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلائي ويعمّ - كما قيل - جميع المعاصي ، والمراد بالمرور باللغو المرور بأهل اللغو وهم مشغولون به .

و المعنى : و إذا مرّوا بأهل اللغو وهم يلفون مرّوا معرضين عنهم منزّهين أنفسهم عن الدخول فيهم والاختلاط بهم ومجالستهم .

قوله تعالى « والذين إذا ذكّروا بآيات ربّهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً » الخروء على الأرض السقوط عليها وكأنّها في الآية كناية عن لزوم الشيء والانكباب عليه .

و المعنى والذين إذا ذكّروا بآيات ربّهم من حكمة أو موعظة حسنة من قرآن أو وحي لم يسقطوا عليه وهم صمّ لا يسمعون وعميان لا يبصرون بل تفكّروا فيها و تعقّلوها فأخذوا بها عن بصيرة فأمنوا بحكمتها واتعظوا بموعظتها وكانوا على بصيرة من أمرهم وبيّنة من ربّهم .

قوله تعالى : « والذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذريّاتنا قرّة أعين واجعلنا للمتّقين إماماً » قال الراغب في المفردات : قرّت عينه تقرّ سرّت قال تعالى :

« كي تقر عينها » وقيل لمن يسر به قرّة عين قال : « قرّة عين لي و لك » وقوله تعالى : « هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين » قيل : أصله من القر أي البرد فقرّت عينه قيل : معناه بردت فصحت ، وقيل : بل لأنّ للسُرور دمة باردة قارّة وللحزن دمة حارّة ولذلك يقال فيمن يدعى عليه : أسخن الله عينه ، وقيل : هو من القرار والمعنى أعطاه الله ما يسكن به عينه فلا تطمح إلى غيره انتهى .

ومرادهم بكون أزواجهم وذرياتهم قرّة أعين لهم أن يسرّوهم بطاعة الله والتجنّب عن معصيته فلا حاجة لهم في غير ذلك ولا إلبة وهم أهل حق لا ينسبون الهوى .

وقوله : « واجعلنا للمتّقين إماماً » أي متسابقين إلى الخيرات سابقين إلى رحمتك فيتبعنا غيرنا من المتّقين كما قال تعالى : « فاستبقوا الخيرات » البقرة : ١٤٨ ، و قال : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة » الحديد : ٢١ ، و قال : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » الواقعة : ٩ . و كأنّ المراد أن يكونوا صفّاً واحداً متقدّماً على غيرهم من المتّقين ولذا جيء بالإمام بلفظ الإفراد .

وقال بعضهم : إنّ الإمام ممّا يطلق على الواحد والجمع ، وقيل : إنّ إمام جمع أمّ بمعنى القاصد كصيام جمع صائم والمعنى اجعلنا قاصدين للمتّقين مقنّدين بهم ، وفي قراءة أهل البيت « واجعل لنا من المتّقين إماماً »

قوله تعالى : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقّون فيها تحية وسلاماً خالدين فيها حسنت مستقرّاً ومقاماً » الغرفة - كما قيل - البناء فوق البناء فهو الدرجة العالية من البيت ، وهي كناية عن الدرجة العالية في الجنة ، والمراد بالصبر الصبر على طاعة الله وعن معصيته فهذان القسمان من الصبر هما المذكوران في الآيات السابقة لكن لا ينفك ذلك عن الصبر عند النوائب والشدائد .

و المعنى أولئك الموصوفون بما وصفوا يجزون الدرجة الرفيعة من الجنة يلقّون فيها أي يتلقّاهم الملائكة بالتحية وهو ما يقدم للإنسان ممّا يسره وبالسّلام وهو كلّ ما ليس فيه ما يخافه ويحذره ، و في تنكير التحية والسّلام دلالة على التّفخيم

والتعظيم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قل ما يعبؤ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » قال في المفردات : ما عبأت به أي لم أبال به ، وأصله من العبء أي الثقل كأنه قال : ما أرى له وزناً وقدرا قال تعالى : « قل ما يعبؤ بكم ربّي لولا دعاؤكم » وقيل : من عبأت الطيب كأنه قيل : ما يبيحكم لولا دعاؤكم . انتهى .

قيل : « دعاؤكم » من إضافة المصدر إلى المفعول وفاعله ضمير راجع إلى « ربّي » وعلى هذا فقوله : « فقد كذبتم » من تفريع السبب على المسبب بمعنى انكشافه بمسببه ، وقوله : « فسوف يكون لزاما » أي سوف يكون تكذيبكم ملازماً لكم أشدّ الملازمة فتجزون بشقاء لازم وعذاب دائم .

والمعنى قل لا قدر ولا منزلة لكم عند ربّي فوجودكم وعدمكم عنده سواء لأنكم كذبتم فلا خير يرجى فيكم فسوف يكون هذا التكذيب ملازماً لكم أشدّ الملازمة إلا أن الله يدعوكم ليتّم الحجّة عليكم أو يدعوكم لعلمكم ترجعون عن تكذيبكم . وهذا معنى حسن .

وقيل : « دعاؤكم » من إضافة المصدر إلى الفاعل ، والمراد به عبادتهم لله سبحانه والمعنى ما يبالي بكم ربّي أو ما يبيحكم ربّي لولا عبادتكم له .

وفيه أن هذا المعنى لا يلائم تفرّع قوله : « فقد كذبتم » عليه وكان عليه من حقّ الكلام أن يقال : وقد كذبتم ! على أن المصدر المضاف إلى فاعله يدلّ على تحقّق الفعل منه وتلبّسه به وهم غير متلبّسين بدعائه وعبادته تعالى فكان من حقّ الكلام على هذا التقدير أن يقال لولا أن تدعوه فافهم .

والآية خاتمة السورة وتنعطف إلى غرض السورة ومحصل القول فيه وهو الكلام

على اعتراض المشركين على الرسول وعلى القرآن النازل عليه وتكذيبهما .



﴿بحث روائى﴾

في المجمع في قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » قال أبو عبد الله عليه السلام : هو الرجل يمشي بسجيته التي جبل عليها لا يتكلف ولا يتبختر .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله : « إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا » قال : الدائم .

و في تفسير القمى في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ في قوله تعالى : « إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا » يقول : ملازماً لا ينفك . وقوله عز وجل : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا » والإسراف الإتيان في المعصية في غير حق . ولم يقتروا ، لم يبخلوا في حق الله عز وجل . وكان بين ذلك قواما ، القوام العدل والاتفاق فيما أمر الله به .

و في الكافي : أحمد بن محمد بن علي عن محمد بن سنان عن أبي الحسن ﷺ في قول الله عز وجل : « وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » قال : القوام هو المعروف على الموسع قدره و على المقتر قدره على قدر عياله ومؤتمهم الذي هي صلاح له ولهم لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها .

و في المجمع روي عن معاذ أنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : من أعطى في غير حق فقد أسرف ، ومن منع من حق فقد قتر .
أقول : والأخبار في هذه المعاني كثيرة جداً .

و في الدر المنثور أخرج الفاريابي و أحمد وعبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : سئل النبي ﷺ : أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك « وَالَّذِينَ

لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون .
أقول : لعل المراد الانطباق دون سبب النزول .

وفيه أخرج عبد بن حميد عن علي بن الحسين « يبدل الله سيئاتهم حسنات » قال :
في الآخرة ، وقال الحسن : في الدنيا .

وفيه أخرج أحمد وهناد ومسلم والترمذي وابن جرير والبيهقي في الأسماء
والصفات عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال :
اعرضوا عليه صغار ذنوبه فتعرض عليه صغارها وينحس عنه كبارها فيقال : عملت يوم
كذا وكذا وكذا وكذا وهو مقر ليس ينكر وهو مشفق من الكبار أن تجيء فيقال :
أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة .

أقول : هو من أخبار تبديل السيئات حسنات يوم القيامة وهي كثيرة مستفيضة
من طرق أهل السنة والشيعة مروية عن النبي والباقر والصادق والرضا عليه وعليهم
الصلاة والسلام .

وفي روضة الواعظين قال رحمه الله : ما جلس قوم يذكرون الله إلا نادى بهم مناد
من السماء قوموا فقد بطل الله سيئاتكم حسنات وغفر لكم جميعا .
وفي الكافي بإسناده عن أبي الصباح عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل :
« لا يشهدون الزور » قال : الغناء .

أقول : وفي المجمع أنه مروى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام ورواه القمي
مسندا ومرسلا .

وفي العيون بإسناده إلى محمد بن أبي عباد وكان مشتهرا بالسماع ويشرب النبيذ
قال : سألت الرضا عليه السلام عن السماع فقال : لأهل الحجاز رأي فيه وهو في حيز
الباطل واللهو أما سمعت الله عز وجل يقول : « وإذا مروا باللغو مروا كراما »
وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله
عز وجل : « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانا » قال :
مستبصرين ليسوا بشكك .

و في جوامع الجامع عن الصادق عليه السلام في قوله : « واجعلنا للمتقين إماما » قال : إيانا عنى .

أقول : و هناك عدة روايات في هذا المعنى وأخرى تتضمن قراءتهم عليهم السلام : « واجعل لنا من المتقين إماما » .

و في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم و أبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر في قوله : « أولئك يجرّون الغرفة بما صبروا » قال : على الفقر في الدنيا .

و في المجمع روى العياشي با سنده عن بريد بن معاوية العجلي قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : كثرة القراءة أفضل أو كثرة الدعاء ؟ قال : كثرة الدعاء أفضل و قرء هذه الآية .

أقول : و في انطباق الآية على ما في الرواية إبهام .

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ :

« قل ما يعْبُؤْ بكم ربّي لولا دعاؤُكم » يقول : ما يفعل ربّي بكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما .





سورة الشعراء مكّية وهي مائتان وسبع وعشرون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)
لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ
آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ
مُحْدِثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ (٧) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة تسليمة النبي ﷺ قبال ما كذب به قومه وكذبوا بكتابه النازل
عليه من ربه - على ما يلوّح إليه صدر السورة : تلك آيات الكتاب المبين - وقد
رموه تارة بأنه مجنون وأخرى بأنه شاعر ، وفيها تهديدهم مشفعا ذلك بإيراد
قصص جمع من الأنبياء وهم موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب
عليهم السلام وما انتهت إليه عاقبة تكذيبهم لتتسلّى به نفس النبي ﷺ ولا يحزن
بتكذيب أكثر قومه وليعتبر المكذّبون

والسورة من عنائق السور المكّية وأوائلها نزولا وقد اشتملت على قوله تعالى :
« وأنذر عشيرتك الأقربين » . وربما أمكن أن يستفاد من وقوع هذه الآية في هذه
السورة و وقوع قوله : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » في سورة الحجر

وقياس مضمونيهما كل مع الأخرى أن هذه السورة أقدم نزولاً من سورة الحجر وظاهر سياق آيات السورة أنها جميعاً مكّبة واستثنى بعضهم الآيات الخمس التي في آخرها ، وبعض آخر قوله : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » و سيجيء الكلام فيهما .

قوله تعالى : « طسم تلك آيات الكتاب المبين » الإشارة بتلك إلى آيات الكتاب مما سينزل بنزول السورة وما نزل قبل ، وتخصيصها بالإشارة البعيدة للدلالة على علوّ قدرها ورفعة مكانتها ، والمبين من أبان بمعنى ظهر وانجلي .

والمعنى تلك الآيات العالوية قدرا الرفيعة مكاناً آيات الكتاب الظاهر الجلي كونه من عند الله سبحانه بما فيه من سمة الإعجاز وإن كذب به هؤلاء المشركون المعاندون ورموه تارة بأنه من إلقاء شياطين الجن وأخرى بأنه من الشعر .

قوله تعالى : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » البخوع هو إهلاك النفس عن وجد ، وقوله : « أن لا يكونوا مؤمنين » تعليل للبخوع ، والمعنى يرجى منك أن تهلك نفسك بسبب عدم إيمانهم بآيات هذا الكتاب النازل عليك .

والكلام مسوق سوق الإنكار والغرض منه تسليّة النبي ﷺ .

قوله تعالى : « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » متعلق المشيئة محذوف لدلالة الجزاء عليه ، وقوله : « فظلت » الخ ظل فعل ناقص اسمه « أعناقهم » وخبره « خاضعين » ونسب الخضوع إلى أعناقهم وهو وصفهم أنفسهم لأن الخضوع أول ما يظهر في عنق الإنسان حيث يطأطئ رأسه تخضعاً فهو من المجاز العقلي .

والمعنى إن نشأ أن ننزل عليهم آية تخضعهم وتلجئهم إلى القبول و تضطروهم إلى الإيمان ننزل عليهم آية كذلك فظّلوا خاضعين لها خضوعاً بيّناً بانحناء أعناقهم .

وقيل : المراد بالأعناق الجماعات وقيل : الرؤساء والمقدّمون منهم وقيل :

هو على تقدير مضاف و التقدير فظلمت أصحاب أعناقهم خاضعين لها . و هو أسخف الوجوه .

قوله تعالى : « وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين » بيان لاستمرارهم على تكذيب آيات الله وتمكّن الإعراض عن ذكر الله في نفوسهم بحيث كلما تجدد عليهم ذكر من الرحمن و دعوا إليه دفعوه بالإعراض . فالغرض بيان استمرارهم على الإعراض عن كل ذكر أتاهم لأنهم يعرضون عن محدث الذكر و يقبلون إلى قديمه و في ذكر صفة الرحمن إشارة إلى أن الذكر الذي يأتيهم إنما ينشأ عن صفة الرحمة العامة التي بها صلاح دنياهم و آخرهم . وقد تقدم في تفسير أول سورة الأنبياء كلام في معنى الذكر المحدث فراجع .

قوله تعالى : « فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون » تفريع على ما تقدم من استمرار إعراضهم ، وقوله : « فسيأتيهم » الخ تفريع على التفريع والانباء جمع نبأ وهو الخبر الخطير ، والمعنى لما استمر منهم الإعراض عن كل ذكر يأتيهم تحقق منهم و ثبت عليهم أنهم كذبوا ، و إذ تحقق منهم التكذيب فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون من آيات الله ، و تلك الأنباء العقوبات العاجلة و الآجلة التي ستحقق بهم .

قوله تعالى : « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » الاستفهام الإنكار التوبيخي والجملة معطوف على مقدر يدل عليه المقام والتقدير أصروا واستمروا على الإعراض و كذبوا بالآيات ولم ينظروا إلى هذه الأزواج الكريمة من النباتات التي أنبتناها في الأرض .

فالرؤية في قوله : « أولم يروا » مضمنة معنى النظر و لذا عدت بالي ، و الظاهر أن المراد بالزوج الكريم . وهو الحسن على ما قيل - النوع من النبات وقد خلق الله سبحانه أنواعه أزواجا ، و قيل : المراد بالزوج الكريم الذي أنبته الله يعم الحيوان وخاصة الإنسان بدليل قوله : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » .

قوله تعالى : « إن في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين » الإشارة بذلك

إلى ما ذكر في الآية السابقة من إنبات كل زوج كريم حيث أن فيه إيجاداً لكل زوج منه و تتميم نقائص كل من الزوجين بالآخر و سوقهما إلى الغاية المقصودة من وجودهما و فيه هداية كل إلى سعادته الأخيرة و من كانت هذه سنته فكيف يهمل أمر الإنسان ولا يهديه إلى سعادته ولا يدعو إلى ما فيه خير دنياه و آخرته . هذا ما تدل عليه آية النبات .

و قوله : « و ما كان أكثرهم مؤمنين » أي لم يكن المترقب من حال أكثرهم بما عندهم من ملكة الإعراض و بطلان الاستعداد أن يؤمنوا فظاهر الآية نظير ظاهر قوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » يونس : ٧٣ . وتعليل الكفر والفسوق برسوخ الملكات الرذيلة واستحكام الفساد في السريرة من قبل في كلامه تعالى أكثر من أن تحصى .

ومن هنا يظهر أن قول بعضهم : إن المراد ما كان في علم الله أن لا يؤمنوا غير سديد لأنه مضافا إلى كونه خلاف المتبادر من الجملة ، مما لا دليل على أنه المراد من اللفظ بل الدليل على خلافه لسبق الدلالة على أن ملكة الإعراض راسخة لم تنزل في نفوسهم .

و عن سيويه أن « كان » في قوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين » صلة زائدة والمعنى و ما أكثرهم مؤمنين . و فيه أنه معنى صحيح في نفسه لكن المقام بما تقدم من المعنى أوفق .

قوله تعالى : « و إن ربك لهو العزيز الرحيم » فهو تعالى لكونه عزيزا غير مغلوب يأخذ المعرضين عن ذكره المكذبين لآياته المستهزئين بها و يجازيهم بالعقوبات العاجلة و الآجلة و لكونه رحيمًا ينزل عليهم الذكر ليهديهم و يفقر للمؤمنين به ويمهل الكافرين .



﴿ بحث عقلى متعلق بالعلم ﴾

قال في روح المعاني في قوله تعالى : «وما كان أكثرهم مؤمنين» : قيل : أي وما كان في علم الله تعالى ذلك ، واعترض - بناء على أنه يفهم من السياق العمليّة - بأنّ علمه تعالى ليس علّة لعدم إيمانهم لأنّ العلم تابع للمعلوم لا بالعكس . ورد بأنّ معنى كون علمه تعالى تابعا للمعلوم أنّ علمه سبحانه في الأزل بمعلوم معين حادث تابع لماهيته بمعنى أنّ خصوصيّة العلم وامتيازته عن سائر العلوم باعتبار أنّه علم بهذه الماهية ، وأمّا وجود الماهيّة فيما لا يزال فتابع لعلمه تعالى الأزليّ التابع لماهيته بمعنى أنّه تعالى لمّا علمها في الأزل على هذه الخصوصيّة لزم أن يتحقّق ويوجد فيما لا يزال كذلك فنفس موتهم على الكفر وعدم إيمانهم متبوع لعلمه الأزليّ ووقوعه تابع له . انتهى .

وهذه حجّة كثيرة الورد في كلام المجبّرة وخاصة الإمام الرازيّ في تفسيره الكبير يستدلّون بها على إثبات الجبر ونفي الاختيار ومحصّلها أنّ الحوادث ومنها أفعال الإنسان معلومة لله سبحانه في الأزل فهي ضروريّة الوقوع وإلا كان علمه جهلا - تعالى عن ذلك - فالإنسان مجبر عليها غير مختار . واعترض عليه بأنّ العلم تابع للمعلوم لا بالعكس وأجيب بما ذكره من أنّ علمه في الأزل تابع لماهيّة المعلوم لكنّ المعلوم تابع في وجوده للعلم .

والحجّة مضافاً إلى فساد مقدّماتها بناء وبنى مغالطة بيّنة . ففيها أو لا أنّ فرض ثبوت ما للماهيّة في الأزل ووجودها فيها لا يزال يقضي بتقدّم الماهيّة على الوجود وأنّى للماهيّة هذه الأصالة والتقدّم ؟

و ثانياً أنّ مبنى الحجّة وكذا الاعتراض والجواب على كون علمه تعالى بالأشياء علماً حصوليّاً نظير علومنا الحصوليّة المتعلّقة بالمفاهيم وقد أقيم البرهان في محله على بطلانه وأنّ الأشياء معلومة له تعالى علماً حضوريّاً وعلمه علماً : علم

حضورى" بالأشياء قبل الإيجاد وهو عين الذات و علم حضورى بها بعد الإيجاد وهو عين وجود الأشياء . وتفصيل الكلام في محله .

وثالثاً أن العلم الأزلي بمعلومه فيما لا يزال إنما يكون علماً بحقيقة معنى العلم إذا تعلّق به على ما هو عليه أي بجميع قيوده ومشخصاته وخصوصياته الوجودية ومن خصوصيات وجود الفعل أنه حرّكات خاصة إرادية اختيارية صادرة عن فاعله الخاص مخالفة لسائر الحركات الاضطرابية القائمة بوجوده .

و إذا كان كذلك كانت الضرورة اللاّ حقة للفعل من جهة تعلّق العلم به صفة للفعل الخاص الاختياري بما هو فعل خاص اختياري لصفة للفعل المطلق إذا لا وجود له أي كان من الواجب أن يصدر الفعل عن إرادة فاعله واختياره وإلا تخلف المعلوم عن العلم لا أن يتعلّق العلم بالفعل الاختياري ثم يدفع صفة الاختيار عن متعلّقه و يقيم مقامها صفة الضرورة والإجبار .

فقد وضع في الحجّة الفعل المطلق مكان الفعل الخاص فعدّ ضرورياً مع أن الضروري تحقّق الفعل بوصف الاختيار نظير الممكن بالذات الواجب بالغير ففي الحجّة مغالطة بالخلط بين الفعل المطلق والفعل المقيّد بالاختيار .

ومن هنا يتبيّن عدم استقامة تعليل ضرورة عدم إيمانهم بتعلّق العلم الأزلي به فإن تعلّق العلم الأزلي بفعل إنما يوجب ضرورة وقوعه بالوصف الذي هو عليه فإن كان اختيارياً وجب تحقّقه اختيارياً وإن كان غير اختياري وجب تحقّقه كذلك .

على أنه لو كان معنى قوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين » امتناع إيمانهم لتعلّق العلم الأزلي بعدمه لاتخذه حجة على النبي ﷺ وعدوه عدراً لا أنفسهم في استنكافهم عن الإيمان كما اعترف به بعض المجبّرة .



﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : تخضع رقابهم يعني بني أُميَّة وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر .
 أقول : وهذا المعنى رواه الكليني في روضة الكافي والصدوق في كمال الدين والمفيد في الإرشاد والشيخ في الغيبة ، و الظاهر أنه من قبيل الجري دون التفسير لعدم مساعدة سياق الآية عليه .



* * *

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بَيَاتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَاتَيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي كُنتَ تَفْعَلُ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ نَأْخُذَ إِلَهًا غَيْرَ الَّذِي لَاحِظُنَا مِنَ السَّمَاءِ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَاتَّقِ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ

مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ
 حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تَوَكُّ بِكُلِّ شَعَارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ
 مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا
 هُمْ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ إِنَّنَا لَنَاجِرُونَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ
 الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَتَقُولُوا مَا
 أَنْتُمْ مَلَكُونَ (٤٣) فَاتَّقُوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ وَقَالُوا بَعْزَةُ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
 الْغَالِبُونَ (٤٤) فَالتقى موسى عصاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَالتقى
 السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨)
 قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا
 لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَا إِنَّا كُنَّا
 أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي أَنْكُمْ مُتَّبِعُونَ (٥٢)
 فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤)
 وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَا هُم مِّنْ جَنَاتٍ
 وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (٥٩)
 فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١)
 قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ

الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ (٦٤)
وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

﴿ بيان ﴾

شروع في ذكر قصص عدّة من أقوام الأنبياء الماضين موسى وهارون وإبراهيم
ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ليظهر أن قوم النبي ﷺ سائرهم مسيرهم
وسيردون موردهم ، لا يؤمن أكثرهم فيؤاخذهم الله تعالى بعقوبة العاجل والآجل ،
والدليل على ذلك ختم كل واحدة من القصص بقوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين »
وإن ربك لهو العزيز الرحيم ، كما ختم به الكلام الحاكي لإعراض قوم النبي
صلى الله عليه وآله وسلم في أوّل السورة ، وليس ذلك إلا لتطبيق القصة على الفضة .
كل ذلك ليتسلّى النبي ﷺ ولا يضيق صدره ويعلم أنه ليس بدعاً من الرسل
ولا المتوقع من قومه غير ما عامل به الأمم الماضون رسلهم ، وفيه تهديد ضمّني لقومه
و يؤيّدته تصدير قصة إبراهيم عليه السلام بقوله : « واذكر إبراهيم نبأ إبراهيم » .

قوله تعالى : « وإذ نادى ربك موسى - إلى قوله - ألا يتّقون » أي واذكر
وقتاً نادى فيه ربك موسى وبعثه بالرسالة إلى قوم فرعون لانجاء بني إسرائيل على ما
فصله في سورة طه وغيرها .

وقوله : « أن اتت القوم الظالمين » نوع تفسير للنداء ، وتوصيفهم أوّلاً بالظالمين
ثمّ بيانه ثانياً بقوم فرعون للإشارة إلى حكمة الإرسال وهي ظلمهم بالشرك وتعذيب
بني إسرائيل كما في سورة طه من قوله : « اذهبوا إلى فرعون إنّه طغى - إلى أن
قال - فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا نعدّ بهم » طه : ٤٧ .
وقوله : « ألا يتّقون » بصيغة الغيبة ، وهو توبيخ غيابي منه تعالى لهم و

إيراده في مقام عقد الرسالة لموسى عليه السلام في معنى قولنا : قل لهم إن ربّي يوبخكم على ترك النقيّ و يقول : ألا تتقون .

قوله تعالى : « قال ربّ إنّي أخاف أن يكذبون - إلى قوله - فأرسل إلى هارون » قال في مجمع البيان : الخوف انزعاج النفس بتوقع الضرر ونقيضه الأمن وهو سكون النفس إلى خلوص التمتع انتهى وأكثر ما يطلق الخوف على إحساس الشرّ بحيث يؤدي إلى الاتقاء عملاً وإن لم تضرب النفس ، والخشية على تأثر النفس من توقع الشرّ بحيث يورث الاضطراب والقلق ، ولذا نفى الله الخشية من غيره عن أنبيائه و ربّما أثبت الخوف فقال : « ولا يخشون أحداً إلا الله » الاحزاب : ٤٠ وقال : « وإمّا تخافنّ منهم خيانة » الانفال : ٦٠ .

وقوله : « إنّي أخاف أن يكذبون » أي ينسبني قوم فرعون إلى الكذب ، وقوله : « و يضيق صدري ولا ينطلق لساني » الفعلان مرفوعان و هما معطوفان على قوله : « أخاف » فالذي اعتلّ به اُمور ثلاثة : خوف التكذيب وضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان ، و في قراءة يعقوب وغيره يضيق وينطلق بالنصب عطفاً على « يكذبون » و هو أوفق بطبع المعنى ، وعليه فالعلة واحدة وهي خوف التكذيب الذي يترتب عليه ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان ، ويطابق ما سيجيء من آية القصص من ذكر علة واحدة هي خوف التكذيب .

وقوله : « فأرسل إلى هارون » أي أرسل ملك الوحي إلى هارون ليكون معيناً لي على تبليغ الرسالة يقال لمن نزلت به نائبة أو أشكل عليه أمر : أرسل إلى فلان أي استمد منه واتخذة عوناً لك .

فالجمله أعني قوله : « فأرسل إلى هارون » متفرعة على قوله : « إنّي أخاف » الخ وذكر خوف التكذيب مع ما معه من ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان توطئة وتقدمة لذكرها وسؤال موهبة الرسالة لهارون .

وإنما اعتلّ بما اعتلّ به وسأل الرسالة لأخيه ليكون شريكاً له في أمره ، معينا مصداقاً له في التبليغ لا فراراً عن تحمّل أعباء الرسالة ، واستعفاء منها ، قال في روح

المعاني: ومن الدليل على أن المعنى على ذلك لأنه تعمل وقوع «فأرسل» بين الأوائل وبين الرابعة أعني قوله: «ولهم عليّ ذنب» الخ فأذن بتعلقه بها ولو كان تعميلاً لأختر انتهى .

وهو حسن وأوضح منه قوله تعالى في سورة القصص في القصة: «قال ربّ إنني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدّني إنني أخاف أن يكذبون» القصص: ٣٤ .

قوله تعالى: «ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون» قال الراغب في المفردات الذنب في الأصل الأخذ بذنب الشيء يقال: ذنبته أصبت ذنبه . ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً لما يحصل من عاقبته . انتهى .

وفي الآية إشارة إلى قصة قتله ﷺ ، وكونه ذنباً لهم عليه إنما هو بالبناء على اعتقادهم أو الاعتبار بمعناه اللغوي المذكور آنفاً ، وأما كونه ذنباً بمعنى معصية الله تعالى فلا دليل عليه وسيموافيك فيه كلام عند تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى .
قوله تعالى: «قال كلاًّ فاذهباً بآياتنا إننا معكم مستمعون» كلاًّ للردع وهو متعلق بما ذكره من خوف القتل ، ففيه تأمين له وتطبيب لنفسه أنهم لا يصلون إليه وأما سؤاله الإرسال إلى هارون فلم يذكر ما أُجيب به عنه غير أن قوله: «فاذهباً بآياتنا» دليل على إجابة مسؤله .

وقوله: «فاذهباً بآياتنا» متفرّع على الردع فيفيد أن اذهباً إليه بآياتنا ولا تخافا ، وقد علل ذلك بقوله: «إننا معكم مستمعون» والمراد بضمير الجمع موسى و هارون والقوم الذين أرسلوا إليهم ، ولا يعبؤ بقول من قال: إن المراد به موسى و هارون بناء على كون أقلّ الجمع اثنين فإنّه مع فساده في أصله لا تساعد عليه ضمائر التنثية قبله وبعده كما قيل .

والاستماع هو الإصغاء إلى الكلام والحديث وهو كناية عن الحضور وكمال العناية بما يجري بينهما وبين فرعون وقومه عند تبليغ الرسالة كما قال في القصة من سورة طه: «لاتخافا إنني معكما أسمع وأرى» طه: ٤٦ .

و محصل المعنى كلاً لا يقدرّون على قتلك فاذهبوا إليهم بآياتنا ولا تخافوا إنّنا حاضرون عندكم شاهدون عليكم معنونون بما يجري بينكم .

قوله تعالى : « فأتيا فرعون فقولا إنّنا رسول ربّ العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل » بيان لقوله في الآية السابقة : « فاذهبوا إليهم بآياتنا » .

وقوله : « فقولا إنّنا رسول ربّ العالمين » تفريع على إتيان فرعون ، والتعبير بالرسول بلفظ المفرد إمّا باعتبار كل واحد منهما أو باعتبار كون رسالتهما واحدة وهي قولهما : « أن أرسل » الخ أو باعتبار أنّ الرسول مصدر في الأصل فالأصل أن يستوي فيه الواحد والجمع ، والتقدير إنّنا ذوا رسول ربّ العالمين أي ذوارسالته كما قيل .

وقوله : « أن أرسل معنا بني إسرائيل » تفسير للرسالة المفهومة من السياق والمراد برسالتهم إطلاقهم لكن لما كان المطلوب أن يعودوا إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وهي أرض آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام سمّي إطلاقهم ليعودوا إليها إرسالاً منهم لهم إليها .

قوله تعالى : « قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » الاستفهام للإِنكار التوبيخي ، و « نربك » من التربية ، والوليد الصبي .

لما أقبل فرعون على موسى وهارون وسمع كلامهما عرف موسى وخصّه بالخطاب قائلاً ألم نربك الخ ومراده الاعتراض عليه أوّلاً من جهة دعواه الرسالة يقول : أنت الذي ربّيتناك وأنت وليد ولبثت فينا من عمرك سنين عديدة نعرفك باسمك ونعتك ولم ننس شيئاً من أحوالك فمن أين لك هذه الرسالة وأنت من نعرفك ولا نجعل أصلك ؟

قوله تعالى : « وفعلت فعلك التي فعلت وأنت من الكافرين » الفعلة بفتح الفاء بناء مرّة من الفعل ، وتوصيف الفعله بقوله : « التي فعلت » للدلالة على عظم خطره وكثرة شناعته وفظاعته نظير ما في قوله : « فغشيهم من اليمّ ما غشيهم » طه : ٧٨ و مراده بهذه الفعله قتله ﷻ القبطي .

وقوله : « وأنت من الكافرين » ظاهر السياق على ما سيأتي الإشارة إليه أن مراده بالكفر كفران النعمة وأن قتل القبطي وإفساده في أرضه كفران لنعمة عليه بالخصوص بما له عنده من الصنيعة حيث كفّ عن قتل كسائر المواليد من بني إسرائيل وربّاه في بيته بل لأنّه من بني إسرائيل وهو يراهم عبداً لنفسه ويرى نفسه ربّاً منعماً عليهم فقتل الواحد منهم رجلاً من قومه وإفساده في الأرض خروج من طور العبوديّة وكفر بنعمته .

فمحصل اعتراضه المشار إليه في الآيتين أنك الذي ربّيناك صبيّاً صغيراً ولبثت فينا من عمرك سنين وأفست في الأرض بقتل النفس فكفرت بنعمتي وأنت من عبدي الإسرائيليين فمن أين جاءتك هذه الرسالة ؟ وكيف تكون رسولاً وأنت هذا الذي نعرفك ؟ .

وبذلك يظهر عدم استقامة تفسير بعضهم الكفر بالكفر المقابل للإيمان، وأنّ المعنى وأنت من الكافرين بالوحيّتي أدأنت من الكافرين بالله على زعمك حيث خاطبنا سنين وأنت في ملّتنا ، وكذا قول بعضهم : إنّ المراد وأنت من الكافرين بنعمتي عليك خاصّة .

قوله تعالى : « قال فعلتها إذا وأنا من الضالّين ففرت منكم لما خفتكم فوّهب لي ربّي حكماً وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنّتها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل » ضمير « فعلتها » راجع إلى الفعلة ، والظاهر أن « إذا » مقطوع عن الجواب والجزاء ويفيد معنى حينئذ كما قيل ، وعبّده تعبيداً وأعبده إعباداً إذا اتخذ عبداً لنفسه .

والآيات الثلاث جواب موسى عليه السلام ممّا اعترض به فرعون ، والتطبيق بين جوابه عليه السلام ومّا اعترض به فرعون يعطي أنّه عليه السلام حلّل كلام فرعون إلى القدر في دعواه الرسالة من ثلاثة أوجه : أحدها استغراب رسالته واستبعادها وهو الذي يعلم حاله وقد أشار إليه بقوله : « ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » والثاني استقبح فعلته ورميه بالإفساد والجرم بقوله : « وفعلت فعلتك التي فعلت » والثالث المنّ عليه

بأنه من عبده ويستفاد ذلك من قوله : « وأنت من الكافرين » وقد اقتضى طبع ما يذكره في الجواب أن يغيّر الترتيب في الجواب فيجيب أولاً عن اعتراضه الثاني ثم عن الأول ثم عن الثالث .

فقوله : « فعلتها إذأ و أنا من الضالّين » جواب عن اعتراضه بقتل القبطي وقد استعظمه حيث لم يصّر ح باسمه بل كنّى عنه بالفعلّة التي فعلت صوتاً للأسماع أن تقرع باسمه فتتألم .

والتدبّر في متن الجواب ومقابلته الاعتراض يعطي أن قوله : « ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً » من تمام الجواب عن القتل فيمقابل الحكم والضلال ويتّضح حينئذ أن المراد بالضلال الجهل المقابل للحكم والحكم إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في تطبيق العمل عليه فيرجع معناه إلى القضاء الحقّ في حسن الفعل وقبحه وتطبيق العمل عليه ، وهذا هو الذي كان يؤثّر الأنبياء قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله »

فالمراد أني فعلتها حينئذ والحال أني في ضلال من الجهل بجهة المصلحة فيه والحقّ الذي يجب أن يتّبع هناك فأقدمت على الدفاع عمّن استنصرني ولم أعلم أنه يؤدّي إلى قتل الرجل و يؤدّي ذلك إلى عاقبة وخيمة تحوجني إلى خروجي من مصر وفراري إلى مدين والنغرب عن الوطن سنين .

و من هنا يظهر ما في قول بعضهم : إن المراد بالضلال الجهل بمعنى الافدام على الفعل من غير مبالاة بالعواقب كما في قوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكذا قول بعض آخر : إن المراد بالضلال المحبّة كما فسّره قول بني يعقوب لأبيهم : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » أي في محبّتك القديمة ليوסף فالمعنى فعلتها حينئذ و أنا من المحبّين لله لا ألوي عن محبّته إلى شيء .

أمّا الوجه الأوّل ففيه أنه اعتراف بالجرم والمعصية وآيات سورة القصص ناصّة على أن الله سبحانه آتاه حكماً وعلماً قبل واقعة القتل وهذا لا يجامع الضلال

بهذا المعنى من الجهل .

وأما الوجه الثاني ففيه مضافاً إلى عدم مساعدة السياق أن الممتنع من أدب القرآن أن يسمي محبة الله سبحانه ضاللاً

و أما قول القائل : إن المراد بالضلال الجهل بمعنى عدم التعمد وأنه إنما فعل ذلك جاهلاً به غير متعمد إياه فإنه عليه السلام إنما تعمد و كز القبطي للتأديب فأدّى إلى ما أدّى .

وكذا قول القائل : إن المراد بالضلال الجهل بالشرائع كما فسر به بعضهم قوله : « ووجدك ضالاً فهدى » .

وكذا قول القائل إن المراد بالضلال النسيان كما فسر به قوله تعالى : « أن تضلّ إحداهما فتدّكر إحداهما الأخرى » البقرة : ٢٨٣ . وأن المعنى فعلتها ناسياً حرماتها أو ناسياً أن الوكر مما يفضي إلى القتل عادة .

فوجوه يمكن أن يوجه كل منها بما يرجع به إلى ما قدّمناه .
وقوله : « ففررت منكم لما خفّنتكم فوهب لي ربّي حكماً » متفرّع على قصة القتل ، والسبب في خوفه وفراره ما أخبر الله به في سورة القصص بقوله : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّي لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يتربّص » القصص : ٢١ .

وأما الحكم فالمراد به - كما استظهرناه - إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في العمل به .

فإن قلت صريح الآية أن موهبة الحكم كانت بعد واقعة القتل ومفاد آيات سورة القصص أنه عليه السلام أعطى الحكم قبلها قال تعالى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ودخل المدينة » الخ القصص : ١٥ ثم ساق القصة وذكر القتل والفرار .

قلت : إنما ورد لفظ الحكم هنا وفي سورة القصص منكرًا وهو مشعر بمغايرة كل منهما الآخر وقد ورد في خصوص التوراة أنها متضمنة للحكم قال تعالى :

« وعندهم التوراة فيها حكم الله » المائدة : ٤٧ ، وقد نزلت التوراة بعد غرق فرعون وإنجاء بنى إسرائيل .

فمن الممكن أن يقال : إن موسى ﷺ أُعطي مراتب من الحكم بعضها فوق بعض قبل قتل القبطي* و بعد الفرار قبل العود إلى مصر و بعد غرق فرعون ، وقد خصه الله في كل* مرة* بمرتبة من الحكم حتى تمت له الحكمة بنزول التوراة ، و هذا بحسب التمثيل نظير ما يرزق بعض الناس أوان صباه سلامة في فطرته قلتما يميل معها طبعه إلى الشر* والفساد ثم* إذا نشأ يعطى اعتدالا في العقل وجودة في التدبير فينبعث إلى اكتساب الفضائل فيرزق ملكة التقوى والصفات الثلاث في الحقيقة سنخ واحد ينمو ويزيد حالا بعد حال .

و يظهر بما تقدّم عدم استقامة تفسير بعضهم الحكم بالنبوة لعدم دليل عليه من جهة اللفظ ولا المقام .

على أن الله سبحانه ذكر الحكم والنبوة في مواضع من كلامه و فرّق بينهما كقوله : « أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة » آل عمران : ٧٩ ، و قوله : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » يوسف : ٤٠ ، و قوله : « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » الجاثية : ١٦ إلى غير ذلك .

و قوله : « وجعلني من المرسلين » جواب عن الاعتراض الأول وهو استغراب رسالته واستبعادها وهم يعرفونه ، وقد شاهدوا أحواله حينما كانوا يربّونه فيهم ولیدا ولبث فيهم من عمره سنين ، و تقريره أن استغرابهم واستبعادهم رسالته استنادا إلى سابق معرفتهم بحاله إنما يستقيم لو كانت الرسالة أمراً اكتسابياً يمكن أن يحس به أو يتوقع حصوله بحصول مقدّماته الاختيارية وليس الأمر كذلك بل هي أمر وهبي لا تأثير للأسباب العادية فيها وقد جعله الله من المرسلين كما وهب له الحكم بغير اكتساب هذا ما يعطيه التدبر في السياق .

وأما ما ذكره من أن قوله : « ألم نربك فينا ولیدا » الخ مسوق للمن* على موسى ﷺ دون الاستغراب والاستبعاد كما ذكرناه فالآية في نفسها وإن لم

تأبّ الحمل على ذلك لكن سياق مجموع الجواب لا يساعد عليه ، و ذلك أن فيه إفساد السياق من حيث ينبغي أن يجعل قوله : « وتلك نعمة تمنّ عليّ » الخ جواباً عن المنّ و هو لا ينطبق عليه ، ويجعل قوله : « فعلتها إذا » الخ جواباً عن الاعتراض بالقتل و يبقى قوله : « وجعلني من المرسلين » فضلاً لاجابة إليه فافهم ذلك .

و قوله : « وتلك نعمة تمنّتها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل » جواب عن منه عليه و تقريره بأنّه من عبّده وقد كفر نعمته و تقرير الجواب أن هذا الذي تعدّه نعمة و تقرّ عني بكفرانها سلطة ظلم و تغلب إذ عبّدت بني إسرائيل و التعبيد ظلماً و تغلباً ليس من النعمة في شيء .

فالجملة استفهاميّة مسوقة للإنكار و « أن عبّدت بني إسرائيل » بيان لما أُشير إليه بقوله : « تلك » والمحصّل أن الذي تشير إليه بقولك : « وأنت من الكافرين » من أن لك على نعمة كفرتها إذ كنت وليّ نعمتي و سائر بني إسرائيل - أو إذ كنت وليّ نعمتنا معشر بني إسرائيل - ليس بحقّ إذ كونك وليّاً منعماً ليس إلّا استناداً إلى التعبيد و التعبيد ظلم والولاية المستندة إليه أيضاً ظلم و حاشا أن يكون الظالم وليّاً منعماً له على من عبّده نعمة و إلّا كان التعبيد نعمة وليس نعمة ففي قوله : « أن عبّدت بني إسرائيل » وضع السبب موضع المسبّب .

والقوم حلّلوا كلام فرعون : « ألم نربّك » الخ إلى اعتراضين - كما أشرنا إليه - المنّ عليه بتربيته وليداً وكفرانه النعمة و إفساده في الأرض بقتل القبطي فأشكل عليهم الأمر من جهتين - كما أشرنا إليه .

إحدهما صيرورة قوله : « وجعلني من المرسلين » فضلاً لاجابة إليه في سوق الجواب .

و الثانية عدم صلاحية قوله : « و تلك نعمة تمنّتها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل » جواباً عن منه على موسى عليه السلام بتربيته في بيته وليداً . و قد ذكروا في توجيهه وجوها :

منها أنّه مسوق للاعتراف بأنّ تربيته لموسى كانت نعمة عليه وإنكار أن يكون

ترك استعباده نعمة وهمزة الإنكار مقدرة فكأنه يقول : أوتلك نعمة تمنها علي أن عبّدت بني إسرائيل و لم تعبّدني هذا ، وأنت ترى أن فيه تقديراً لمالادليل عليه من جهة اللفظ ولا إشارة .

ومنها أنه إنكار لأصل النعمة عليه لمكان تعبيده بني إسرائيل كأنه يقول : إن تربيتك لي ليست نعمة يمن بها علي لأنك عبّدت قومي فأحبطت به عملك فقوله : وأن عبّدت الخ في مقام التعليل للإنكار هذا ، وهذا الوجه وإن كان أقرب إلى الذهن من سابقه لكن هذا الجواب غير تام معنى فإن تعبيده لبني إسرائيل لا يغيّر حقيقة ما له من الصنعة عند موسى في تربيته وليدا .

ومنها أن المعنى أن هذه النعمة التي تمن بها علي من التربية إنما سببه ظلمك بني إسرائيل بتعبيدهم فاضطرت أمي لذلك أن ألقيني في اليم فأخذتني فربيتني فإذ كانت هذه التربية مسببة عن ظلمك بالتعبيد فليست بنعمة هذا والشأن في الاستفادة هذا المعنى من لفظ الآية .

ومنها أن الذي ربّاني أمي وغيرها من بني إسرائيل حيث استعبدتهم فأمرتهم فربوني فليست هذه التربية نعمة منك تمنها علي لانتهائها إلى التعبيد ظلما هذا وهذا الوجه أبعد من سابقه من لفظ الآية .

ومنها أن ذلك اعتراف منه ﷺ بنعمة فرعون عليه والمعنى و تلك التربية نعمة منك تمنها علي أن عبّدت بني إسرائيل وتركت تعبيدي هذا وأنت خير بأن لادليل على ما قدره من قوله : وتركت تعبيدي .

قوله تعالى : « قال فرعون و مارب العالمين - إلى قوله - من المسجونين » لما كلم فرعون موسى ﷺ في معنى رسالته قادحاً فيها فتلقّى الجواب بما كان فيه إفحامه أخذ يكلمه في خصوص مرسله وقد أخبره أن الذي أرسله هو رب العالمين فراجع فيه واستوضحه بقوله : « و مارب العالمين » ؟ إلى تمام سبع آيات .

واتّضح المراد منها يتوقف على تذكّر أصول مذاهب الوثنية في أمر

الربوبية - وقد تقدمت الإشارة إليها في خلال الأبحاث السابقة من هذا الكتاب كرادا .

فهؤلاء يرون أن وجود الأشياء ينتهي إلى موجد واجب الوجود هو واحد لاشريك له في وجوب وجوده هو أجل من أن يحده حد في وجوده وأعظم من يحيط به فهم أويله إدراك ولذلك لا يجوز عبادته لأن العباداة نوع توجه إلى المعبود والتوجه إدراك .

ولذلك بعينه عدلوا عن عبادته والتقرب إليه إلى التقرب إلى أشياء من خلقه ذوي وجودات شريفة نورية أو نارية هي مقربة إليه فانية فيه من الملائكة والجن والقديسين من البشر المتخلصين من ألوات المادة الفانين في اللاهوت الباقين بها ومنهم الملوك العظام أو بعضهم عند قدماء الوثنية و كان من جملتهم فرعون موسى وبالجملة كانوا يعبدونهم بعبادة أصنامهم ليقرب بهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم بمعنى أن يفيضوا إليهم من الخير الذي يفيض عنهم كما في الملائكة أولاً يصيبوهم بالشر الذي يترشح عنهم كما في الجن فإن كلاً من هؤلاء المعبودين يرجع إليه تدبير أمر من أمور العالم الكلية كالحب والبغض والسلم والحرب والرفاهية وغيرها أوصقع من أسقاعه كالسما والارض والإنسان ونحوها .

فهناك أرباب وآلهة يتصرف كل منهم في العالم الذي يرجع إليه تدبيره كإله عالم الأرض وإله عالم السماء هؤلاء هم الملائكة والجن وقد يسوا البشر ، وإله عالم الآلهة وهو الله سبحانه فهو إله الآلهة ورب الأرباب .

إذا عرفت ما ذكرناه بان لك أن لامعنى صحيحا لقولنا : رب العالمين عند الوثنيين نظراً إلى أصولهم إذ لو أريد به بعض هذه الموجودات الشريفة الممكنة بأعيانهم فهو رب عالم من عوالم الخلق وهو العالم الذي يباشر التصرف فيه كعالم السماء وعالم الأرض مثلاً ولو أريد به الله سبحانه فهو رب عالم الأرباب وإله العالم الآلهة فقط دون جميع العالمين ولو أريد غير الطائفتين من الرب الواجب الوجود والأرباب الممكنة الوجود فلا مصداق له معقولاً .

فقوله ، « قال فرعون و ما ربّ العالمين » سؤال منه عن حقيقة ربّ العالمين بيانه أن فرعون كان وثنيًا يعبد الأصنام وهو مع ذلك يدّعي الألوهية أمّا عبادته الأصنام فلقوله تعالى : « ويزرك وآلهتك » الاعراف : ١٢٧ وأما دعواه الألوهية فللاية المذكورة ولقوله تعالى : « فقال أنا ربكم الأعلى » النازعات : ٢٤ .

ولا منافاة عند الوثنية بين كون الشيء إلها ربًا وبين كونه مربوباً لربّ آخر لأنّ الربوبية هو الاستقلال في تدبير شيء من العالم وهو لا ينافي الإمكان والمربوبية لشيء آخر وكلّ ربّ عندهم مربوب لا آخر إلّا الله سبحانه فهو ربّ الأرباب لاربّ فوقه وإله الآلهة لإلهه .

وكان الملك عند الوثنية ظهوراً من الآلهة في بعض النفوس البشرية بالسلطة و نفوذ الحكم فكان يعبد الملوك كما يعبد أرباب الأصنام وكذلك رؤساء البيوت في بيوتهم ، وكان فرعون وثنيًا يعبد الآلهة وهو ملك القبط يعبد قومه كسائر الآلهة . فلمّا سمع من موسى وهارون قولهما : « إنّنا رسول ربّ العالمين » تعجّب منه إذ لم يعقل له معنى محصلاً إذ لو أُريد به الواجب وهو الله سبحانه فهو عنده ربّ عالم الأرباب دون جميع العالمين ولو أُريد به بعض الممكّنات الشريفة من الآلهة كبعض الملائكة وغيرهم فهو أيضاً عنده ربّ عالم من عوالم الخلقة دون جميع العالمين فما معنى ربّ العالمين .

ولذلك قال : « وما ربّ العالمين » فسأل عن حقيقة الموصوف بهذه الصفة بما هو موصوف بهذه الصفة ولم يسأل عن حقيقة الله سبحانه فإنّه لو ثبت أنّه كان معتقداً بوجوده مدّعياً له وهو يرى كسائر الوثنيين أنّه لا سبيل إلى إدراك حقيقته كيف ؟ وهو أساس مذهبهم الذي يبنون عليه عبادة سائر الآلهة والأرباب كما سمعت .

وقوله : « قال ربّ السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » جواب موسى ﷺ عن سؤاله : « وما ربّ العالمين » وهو خبر لم يتدّعه محذوف ومحصّل المعنى على ما يعطيه المطابقة بين السؤال والجواب : هو ربّ السماوات والأرض وما بينهما ألّهي تدلّ بوجود التدبير فيها و كونه تدبيراً واحداً متصلاً مرتبطاً على أنّ لها

مدبّراً - ربّاً - واحد اعلى ما يراه الموقنون السالكون سبيل اليقين من البرهان والوجدان .

وبتعبير آخر مرادي بالعالمين السماوات والأرض وما بينهما التي تدلّ بالتدبير الواحد الذي فيها على أنّ لها ربّاً مدبّراً واحداً ، ومرادي بربّ العالمين ذلك الربّ الواحد الذي تدلّ عليه وهذه دلالة يقينية يجدها أهل اليقين الذين يتعاطون البرهان والوجدان .

فإن قلت : لم يطلب فرعون من موسى عليه السلام إلا أن يعرفه ما هذا الذي يسميه ربّ العالمين ؟ وما حقيقته ؟ لكونه غير معقول عنده فلم يسأل إلا النصّور فما معنى قوله : « إن كنتم موقنين ؟ و اليقين علم تصديقي لا توقّف للتصوّر عليه أصلاً » .
على أنّه عليه السلام لم يأت في جواب فرعون بشيء غير أنّه وضع لفظ السماوات والأرض وما بينهما موضع لفظ العالمين فكان تفسيراً للفظ الجمع بأسماء آحاده كتفسير الرجال بزيد وعمر وبكر فلم يفد بالآخرة إلا التصوّر الأوّل ولا تأثير لليقين في ذلك .

قلت : كون فرعون يسأله أن يصوّره « ربّ العالمين » تصويراً مسلماً لاشكّ فيه لكنّ موسى بدّل القول بوضع « السماوات والأرض وما بينهما » مكان العالمين وهو يدلّ على ارتباط بعض الأجزاء ببعض والاتصال بينها بحيث يؤدي إلى وحدة التدبير الواقع فيها والنظام الجاري عليها ثمّ قيّده بقوله : « إن كنتم موقنين » ليدلّ على أنّ أهل اليقين يصدّقون من ذلك بوجود مدبّر واحد لجميع العالمين .
فكأنّه قيل له : ما تريد بربّ العالمين ؟ فقال : أريد بهما يريداه أهل اليقين إذ يستدلّون بارتباط التدبير واتصاله في عوالم السماوات والأرض وما بينهما على أنّ لجميع هذه العوالم مدبّراً واحداً وربّاً لاشريك له في ربوبيّته لها وإذ كانوا يصدّقون بوجود ربّ واحد للعالمين فهم يتصوّرونه بوجه تصوّراً إذ لا معنى للتصديق بلا تصوّر .

وبعبارة موجزة : ربّ العالمين هو الذي يوقن الموقنون بربوبيّته لجميع

السموات والأرض وما بينهما إذا نظروا إليها وشاهدوا وحدة التدبير الذي فيها .

والاحتجاج بتحقيق التصديق على تحقق التصور قبله أقوى ما يمكن أن يحتج به على أنه تعالى مدرك بوجه ومتصور تصوراً صحيحاً وإن استحال أن يدرك بكنهه ولا يحيطون به علماً .

وقد ظهر بذلك كله أولاً أن الجواب إنما هو بما هو حاله في مسئوله إلى ما يتصوره منه الموقنون إذ يصدّ قون بوجوده .

وثانياً أن الذي أُشير إليه من الحجّة في الآية هو البرهان على توحيد الربوبية المأخوذ من وحدة التدبير إذ هو الذي يمسه الحاجة قبال الوثنية المدّعين للشركاء في الربوبية .

و بذلك يظهر فساد ما ذكروا أن العلم بحقيقة الذات لما كان ممتنعاً عدل موسى عليه السلام عن تعريف الحقيقة بالحدّ إلى تعريفه تعالى بصفاته فقال : ربّ السماوات والأرض وما بينهما وأشار بقوله : « إن كنتم موقنين » إلى دلالتها بحدوثها على أن محدثها ذات واحدة واجبة الوجود لا يشار كها في وجوب وجودها شيء غيرها . وجه الفساد ما عرفت أن الوثنية قائلون باستحالة العلم بحقيقة الذات وكنهها ، وأن الموجد ذات واجبة الوجود لا يشار كها في وجوب وجودها غيره ، وأن الآلهة من دون الله موجودات ممكنة الوجود كلّ منها مدبّر لجهة من جهات العالم وهي جميعاً مخلوقة لله فما قرّره في معنى الآية لا يجدي في مقام المخاصمة معهم شيئاً .

وقوله : « قال لمن حوله ألا تسمعون » أي ألا تصغون إلى ما يقول موسى والاستفهام للتعجيب يريد أن يصغوا إليه فيتعجبوا من قوله حيث يدّعي رسالة ربّ العالمين وإذا سئل ما ربّ العالمين؟ أعاد الكلمة ثانياً ولم يزد على ما بده به شيئاً .

وهذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحقّ الذي لاح من كلام موسى عليه السلام فإنّه إنما قال : إنّ جميع العالمين تدلّ بوحدة التدبير الذي يشاهده أهل

اليقين فيها على أن لها رباً مدبراً واحداً هو الذي تسألني عنه ، وهو يفسر كلامه أنه يقول : أنا رسول رب العالمين ، فإذا سألته ما رب العالمين ؟ يجيبني بأنه رب العالمين .

و بما تقدم بان عدم سداد قولهم في تفسير هذا التعجيب إن مراده أنني سألت عن الذات فأجاب بالصفة وذلك أن السؤال إنما هو عن الذات من حيث صفته على ما تقدم بيانه ، ولم يفسر موسى الذات بالوصف بل غير قوله : رب العالمين إلى قوله : « رب السماوات والأرض » فوضع ثانياً قوله : « السماوات والأرض » مكان قوله أولاً : « العالمين » كأنه يؤمى إلى أن فرعون لم يفهم معنى العالمين .

وقوله : « قال ربكم ورب آبائكم الأولين » جواب موسى ﷺ ثانياً فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله وقد كان أجاب عن سؤاله « وما رب العالمين » بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات والأرض وما بينهما عدل ثانياً إلى ما يكون أصرح في المقصود فذكر ربوبيته تعالى لعالمي الإنسانية فإن العالم الجماعة من الناس أو الأشياء فعالموا لا نسان هو الجماعات من الحاضرين والماضين ولذلك قال : « ربكم ورب آبائكم الأولين » .

فإن فرعون ما كان يدافع في الحقيقة إلا عن نفسه لما كان يدعي الألوهية فكان يحتال في أن يبطل تعلق ربوبية الرب به في ضمن تعلقه بالعالمين لاستلزام ذلك بطلان ربوبية الأرباب وهو من جملتهم وإن كان يرى أنه أعلاهم وأهمهم كما حكى الله تعالى عنه : « فقال أنا ربكم الأعلى » النازعات : ٢٤ . « قال يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري » القصص : ٤ .

فكأنه كان يقول : إن أردت برب العالمين الله تعالى فهو رب الأرباب لا غير وإن أردت غيره من الآلهة فكل منهم رب عالم خاص فما معنى رب العالمين فأجاب موسى بما حاصله أن ليس في الوجود إلا رب واحد فيكون رب العالمين فهو ربكم وقد أرسلني إليكم .

وكان محصل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشيء إذ كرر اللفظ فأجابه

موسى ثانياً بالتصريح على أن رب العالمين هو رب عالمي الانسانية من الحاضرين والماضين وبذلك تنقطع حيلته .

وقوله : « قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون » قول فرعون ثانياً وقد سمى موسى رسولا تهكماً واستهزاء وأضافه إلى من حوله ترفعاً من أن يكون رسولا إليه ، وقد رماه بالجنون مستنداً إلى قوله ﷺ : « ربكم ورب آبائكم » الخ .

كأنه يقول : إنه لمجنون لما في كلامه من الاختلال الكاشف عن الاختلال في تعقله يدعي رسالة رب العالمين فأسأله ما رب العالمين ؟ فيكرر اللفظ تقريباً أو لا ثم يفسره بأنه ربكم ورب آبائكم الأولين .

وقوله : « قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » ظاهر السياق أن المراد بالمشرق جهة شروق الشمس وسائر الأجرام النيرة السماوية وطلوعها وبالمغرب الجهة التي تغرب فيها بحسب الحس ، وبما بينهما ما بين الجهتين فيشمل العالم المشهود ويساوي السماوات والأرض وما بينهما .

فيكون إعادة لمعنى الجواب الأول بتقرير آخر وهو مشتمل على ما اشتمل عليه من نكتة اتصال التدبير واتحاده فإن للشروق ارتباطاً بالغروب والمشرق والمغرب يتحققان طرفين لوسط بينهما كما أن للسماء أرضاً ولهما أمر بينهما وهذا النوع من الاتحاد لا يقبل إلا تدبيراً متصلاً واحداً ، وكما أن كل أمة حاضرة لها ارتباط وجودي بالأمم الماضية ارتباط الأُخلاف بالأسلاف فالنوع واحد والتدبير واحد فالمدبر واحد .

وقد بدل قوله في الجواب الأول : « إن كنتم موقنين » من قوله ههنا : « إن كنتم تعقلون » تعريضاً له حيث قال لمن حوله : « ألا تستمعون » استهزاء به وإهانة له ثم رماه ثانياً بالجنون واختلال الكلام فأشار ﷺ بقوله : « إن كنتم تعقلون » إلى أنهم المحرومون من نعمة التعقل والتفقه ولو كانوا يعقلون لفهموا أن جوابه الأول ليس بتكرار غير مفيد و لكفاهم حجة على توحيد الرب وأن القائم

بتدبير جميع العالمين من السماوات و الأرض وما بينهما مدبّر واحد لا مدبّر سواه ولا ربّ غيره .

وقد تبين بما ذكر أن الآية أعني قوله : « ربّ المشرق » الخ تقرير آخر لقوله في الجواب الأوّل : « ربّ السماوات و الأرض وما بينهما » وأنّه برهان على وحدة المدبّر من طريق وحدة التدبير و في ذلك تعريف لربّ العالمين بأنّه المدبّر الواحد الذي يدلّ عليه التدبير الواحد في جميع العالمين ، نعم البيان الذي يشير إليه هذه الآية أوضح لاشتماله على معنى الشروق و الغروب و كونهما من التدبير ظاهر . وقد ذكروا أن الحجج المودعة في الآيات حجج على وحدانيّة ذات الواجب بالذات و نقي الشريك في وجوب الوجود وقد تقدّم عدم استقامته البتّة .

وقوله : « قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » تهديد منه لموسى عليه السلام لودام على ما يقول به من ربوبيّة ربّ العالمين مدّعياً أنّه رسول منه وهذا دأب الجاهل المعاند إذا انقطع عن الحجّة أخذ في التهديد وتشبّث بالوعيد . و اتخذ إلهاً غيره كناية عن القول بربوبيّة ربّ العالمين الذي يدعو إليه موسى وإنّما لم يذكره صوناً للسانه عن التفوّّه باسمه ، ولم يعاب بسائر الآلهة التي كانوا يعبدونها استكباراً و علواً ، و كأنّ السجن كان جزاء المعرضين عنه المنكرين لا لوهيئته .

والظاهر أن اللام في المسجونين للعهد ، والمعنى لودمت على ما تقول لأجعلنك في زمرة الذين في سجنني على ما تعلم من سوء حالهم وشدّة عذابهم ، ولهذا لم يعدل عن هذا التعبير إلى مثل قولنا : لأسجننك مع اختصاره .

قوله تعالى : « قال أو لو جئتكم بشيء مبين » القائل هو موسى عليه السلام والمراد بشيء مبين شيء يبين ويظهر صحّة دعواه و هو آية الرسالة التي تدلّ على صحّة دعوى الرسالة من مدّعيه فإنّ الآية المعجزة إنّما تدلّ على صدق الرسول في دعواه الرسالة وأمّا المعارف الإلهيّة التي يدعو إليها كالنوحيد و المعاد وما يتعلق بهما فالسبيل إلى إثباته الحجّة البرهانيّة وعلى ذلك كانت تجري سيرة الأنبياء في دعوتهم وقد

تقدّم كلام فيه في الجزء الأول من الكتاب .

والمعنى قال موسى : أتجعلني من المسجونين ولو أتيتك بشيء يوضح صدقي فيما ادّعت من الرسالة .

قوله تعالى : « قال فأت به إن كنت من الصادقين » القائل فرعون وقدر ع أمره بآتيانه على استفهام موسى المشعر بأنه يدّعي أن عنده شيئاً مبيناً و لذا قيّد الأمر بالإتيان بقوله : « إن كنت من الصادقين » أي إن كنت صادقاً في أن عندك شيئاً كذلك .

قوله تعالى : « فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء المناظرين » هاتان الآيتان اللتان أوتيهما موسى ليلة الطور ، والثعبان الحيّة العظيمة وكونه مبيناً ظهور واقعيته بحيث لا يرتاب فيه ، و المراد بنزع يده نزعها من جيبه بعد وضعها فيه كما في سورتي : النمل الآية ١٢ و القصص الآية ٣٢ .

قوله تعالى : « قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون » القائل فرعون و قد قال لموسى : « فأت به إن كنت من الصادقين » رجاء أن يأتي بأمر فيه موضع معارضة ومناقشة فلمّا أتى بما لا مغمض فيه لم يجد بداً دون أن يبهته بأنه ساحر عليم .

ولذا أتبع رمية بالسحر بقوله : « يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » إغراء لهم عليه وحثّهم على أن يتفقوا معه على دفعه بأيّ وسيلة ممكنة .

وقوله : « فما ذا تأمرون » لعلّ المراد بالأمر الإشارة عليه لما أن المشير يشير على من يستشير بلفظ الأمر فالمعنى إذا كان الشأن هذا فما ذاتشرون عليّ أن أعامله به حتّى أعمل به و ذلك أنه كان يرى نفسه ربهم الأعلى و يراهم عبده ولا يناسب ذلك حمل الأمر على معناه المتعارف .

ويؤيد هذا المعنى أنه تعالى حكى في موضع آخر هذا الكلام عن الملأ أنفسهم إذ قال : « قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فما ذا تأمرون » الأعراف : ١١٠ . وظاهر أن المراد بأمرهم إشارتهم

على فرعون أن افعَل بهما كذا .

و قيل : إن سلطان المعجزة بهره وأد شهه فضل عن عجبه وتكبّره و غشيته المسكنة فلم يدر ماذا يقول ؟ ولا كيف يتكلم ؟

قوله تعالى : « قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحّار عليهم ، القائلون هم المملّأ حوله وهم أشرف قومه ، وقوله : « أرجه » يسكون الهاء على القراءة الدائرة وهو أمر من الإرجاء بمعنى التأخير أي أخر موسى وأخاه وأمهلهما ولا تعجل إليهما بسياسة أوسجن و نحوه حتى تعارض سحرهما بسحر مثله . و قرئ « أرجه » بكسر الهمزة و « أرجئه » بالهمزة وضم الهاء و هما أفصح من القراءة الدائرة ، و المعنى واحد على أي حال .

و قوله : « و ابعث في المدائن حاشرين » المدائن جمع مدينة وهي البلدة والحاش من الحشر و هو إخراج إلى مكان بإزعاج أي ابعث في البلاد عدة من شرطائك وجنودك يحشرون كل سحّار عليهم فيها و يأتوك بهم لتعارضهما بسحرهم . و التعبير بالسحّاردون الساحر للإشارة إلى أن هناك من هو أعلم منه بفنون السحر وأكثر عملاً .

قوله تعالى : « فجمع السحرة لميقات يوم معلوم » هو يوم الزينة الذي اتفق موسى و فرعون على جعله ميقاتاً للمعارضة كما في سورة طه ففي الكلام إيجاز و تلخيص .

قوله تعالى : « وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا ننبع السحرة إن كانوا هم الغالبين » الاستفهام لحث الناس وترغيبهم على الاجتماع .

قال في الكشف ما حاصله أن المراد باتّباع السحرة اتّباعهم في دينهم - وكانوا متظاهرين بعبادة فرعون كما يظهر من سياق الآيات التالية - وليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى لا اتّباع السحرة وإنما ساقوا كلامهم مساق الكناية ليحملوا به السحرة على الاهتمام و الجد في المغالبة .

قوله تعالى : « فلمّا جاء السحرة قالوا لفرعون أئنا لأجرا إن كنا نحن

الغالبين قال نعم و إنكم إذا لمن المقر بن ، الاستفهام في معنى الطلب ، وقد قالوا : « إن كنا » ولم يقولوا ، إذا كنا نحن الغالبين ليفيد القطع بالغلبة كما يفيد قولهم بعد : « بمرّة فرعون إنّا لنحن الغالبون » بل ألقوه في صورة الشك ليكون أدعى لفرعون إلى جعل الأمر .

وقد أثير ذلك أثره حيث جعل لهم أجرا وزاد عليه الوعد بجعلهم من المقرّ بين .

قوله تعالى : « قال لهم موسى ألقوا - إلى قوله - تلقف ما يأفكون » الحبال جمع جبل ، والعصي جمع عصي ، و اللقف الابتلاع بسرعة ، و ما يأفكون من الإفك بمعنى صرف الشيء عن وجهه سمي السحر إفكا لأن فيه صرف الشيء عن صورته الواقعيّة إلى صورة خياليّة ، و معنى الآيات ظاهر .

قوله تعالى : « فالقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى موسى وهارون » يريد أن السحرة لما رأوا ما رأوا من الآيات الباهرة بهرهم وأدهشهم ذلك فلم يتمالكوا أنفسهم دون أن خرّوا على الأرض ساجدين لله سبحانه فاستعير الإلقاء لخروهم على الأرض للدلالة على عدم تماكك أنفسهم كأنهم قد طرحوا على الأرض طرحا .

و قوله : « قالوا آمنا برب العالمين » فيه إيمان بالله سبحانه إيمان توحيد لما تقدّم أن الاعتراف بكونه تعالى ربّ العالمين لا يتم إلا مع التوحيد ونفي الآلهة من دونه .

وقوله : « ربّ موسى وهارون » فيه إشارة إلى الإيمان بالرسالة مضافا إلى التوحيد .

قوله تعالى : « قال آمتم له قبل أن آذن لكم إنّه لكبير كم الذي علمكم السحر فليسوف تعلمون » إلى آخر الآية ، القائل فرعون ، والمراد بقوله : « آمتم له قبل أن آذن لكم » آمتم من دون إذن منّي كما في قوله تعالى : « لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي » وليس مفاده أن الإذن كان ممكنا أو متوقعا منه كما قيل .

وقوله : « إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كَمَ الَّذِي عَلَّمَكُمَ السَّحْرَ » بهتان آخر يبهت به موسى عليه السلام ليصرف به قلوب قومه وخاصة ملائمتهم عنه .

وقوله : « فَلسوف تعلمون » تهديد لهم في سياق الإيهام للدلالة على أنه في غنى عن ذكره وأما هم فسوف يعلمونه .

وقوله : « لَا تُقْطَعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبْتُمْكُمْ أَجْمَعِينَ » القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس و التصليب جعل المجرم على الصليب ، وقد تقدم نظير الآية في سورتي الأعراف وطه .

قوله تعالى : « قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ » الضير هو الضرر ، وقوله : « إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ » تعليل لقولهم : لا ضير أي إِنَّا لَا نَسْتَضَرُّ بِهَذَا الْعَذَابِ الَّذِي تَوَعَدْنَا بِهِ لَا نَا نَصْبِرُ وَنَرْجِعُ بِذَلِكَ إِلَىٰ رَبِّنَا وَمَا أَكْرَمَهُ مِنْ رَجُوعٍ ! .

قوله تعالى : « إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » تعليل لما يستفاد من كلامهم السابق أنهم لا يخافون الموت و القتل بل يشتاقون إلى لقاء ربهم يقولون : لا نخاف من عذابك شيئاً لَنَا نَرْجِعُ بِهِ إِلَىٰ رَبِّنَا وَلَا نَخَافُ الرُّجُوعَ لِأَنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا بِسَبَبِ كَوْنِنَا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ بِمُوسَىٰ وَهَارُونَ رَسُولِي رَبِّنَا .

وفتح الباب في كل خير له أثر من الخير لا يرتاب فيه العقل السليم فلو أن الله سبحانه أكرم مؤمناً لإيمانه بالمغفرة والرحمة لم تطفر مغفرته ورحمته أوّل الفاتحين لهذا الباب و الواردين هذا المورد .

قوله تعالى : « وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ » شروع في سرد الشطر الثاني من القصة وهو وصف عذاب آل فرعون بسبب زدهم دعوة موسى وهارون عليهما السلام وقد كان الشطر الأوّل رسالة موسى وهارون إليهم و دعوتهم إلى التوحيد ، و الإسراء و السرى السير بالليل ، و المراد بعبادي بنو إسرائيل و في هذا التعبير نوع إكرام لهم .

وقوله : « إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ » تعليل للأمر أي سربهم ليلا ليتبعكم آل فرعون

وفيه دلالة على أن الله في اتباعهم أمرا وأن فيه فرج بني إسرائيل وقد صرح بذلك في قوله : « فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون » الدخان : ٢٤

قوله تعالى : « فأرسل فرعون في المدائن حاشرين - إلى قوله - ثم أغرقنا الآخرين » قصة غرق آل فرعون وإنجاء بني إسرائيل في أربع عشرة آية وقد أوجز في الكلام بحذف بعض فصول القصة لظهوره من سياقها كخروج موسى وبني إسرائيل ليلا من مصر لدلالة قوله : « أن أسربعبادي » عليه وعلى هذا القياس .

فقال تعالى : « فأرسل فرعون ، أي فأسرى موسى بعبادي فلمّا علم فرعون بذلك أرسل « في المدائن » التي تحت سلطانه رجالا « حاشرين » يحشرون الناس ويجمعون الجموع قائلين للناس « إن هؤلاء » بني إسرائيل « لشزيمة قليلون » و الشزيمة من كل شيء بقيته القليلة فتوصيها بالقلّة تأكيد « وإنهم لنا لغائظون » يأتون من الأعمال ما يغيظوننا به « وإنا لجميع » مجموع متفق فيما نعزم عليه « حاذرون » نحذر العدو أن يقاتلنا أو يمكربنا وإن كان ضعيفا قليلا ، و المطلوب بقولهم هذا وهولا محالة بلاغ من فرعون حث الناس عليهم .

« فأخرجناهم من جنّات و عيون و كنوز و مقام كريم » فيه قصورهم المشيدة و بيوتهم الرفيعة ، ولما كان خروجهم عن مكر إلهي بسبب داعية الاستعلاء والاستكبار التي فيهم نسب إلى نفسه أنه أخرجهم « كذلك » أي الأمر كذلك « وأورثناها » أي تلك الجنّات و العيون و الكنوز و المقام الكريم « بني إسرائيل » حيث أهلكنا فرعون و جنوده وأبقينا بني إسرائيل بعدهم فكانواهم الوارثين .

« فأتبعوهم » أي لحقوا ببني إسرائيل « مشرقين » أي داخلين في وقت شروق الشمس وطلوعها « فلمّا تراى الجمعان » أي دنا بعضهم من بعض فرأى كل من الجمعين جمع فرعون وجمع موسى الآخر « قال أصحاب موسى » من بني إسرائيل خائفين فزعين « إنا لمدر كون » سيدر كنا جنود فرعون .

« قال موسى كلاً » لن يدر كونا « إن » معي ربّي سيهدين » والمراد بهذه المعية

معيّة الحفظ و النصرة وهي التي وعدّ هاله ربّه أوّل ما بعثه وأخاه إلى فرعون :
 « إنني معكما » وأماميّة الإيجاد و التدبير فالله سبحانه مع موسى وفرعون على نسبة
 سواء ، و قوله : « سيهدين » أي سيدلّني على طريق لا يدرّ كني فرعون معها .

« فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانلق » و الانفلاق انشقاق
 الشيء و بينونة بعضه من بعض « فكان كلّ فرق » أي قطعة منفصلة من الماء ، « كالطود »
 و هو القطعة من الجبل « العظيم » فدخلها موسى و من معه من بني إسرائيل .

« وأزلفناهم » أي وقرّبنا هناك « الآخرين » وهم فرعون وجنوده « وأنجينّا
 موسى و من معه أجمعين » بحفظ البحر على حاله وهيئته حتّى قطعوه وخرجوا منه
 « ثمّ أغرقنا الآخرين » باطباق البحر عليهم و هم في فلقه .

قوله تعالى : « إنّ في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين و إنّ ربك لهُو
 العزيز الرحيم » ظاهر السياق - ويؤيّد سياق القصص الآتية - أن المشار إليه مجموع
 ما ذكر في قصّة موسى من بعثه و دعوته فرعون وقومه وإنجاء بني إسرائيل وغرق فرعون
 وجنوده ففي ذلك كلّهُ آية تدلّ على توحّده تعالى بالربوبية وصدق الرسالة لمن
 تدبّر فيها .

و قوله : « و ما كان أكثرهم مؤمنين » أي و ما كان أكثر هؤلاء الذين ذكرنا
 قصّتهم مؤمنين مع ظهور ما دلّ عليه من الآية و على هذا فقوله بعد كلّ من القصص
 الواردة في السورة : « و ما كان أكثرهم مؤمنين » بمنزلة أخذ النتيجة و تطبيق الشاهد
 على المستشهد له كأنّه يقال بعد إيراد كلّ واحدة من القصص : هذه قصّتهم المنضمّة
 لآيته تعالى و ما كان أكثرهم مؤمنين كما لم يؤمن أكثر قومك فلا تحزن عليهم فهذا دأب
 كلّ من الأمم التي بعثنا إليهم رسولا فدعاهم إلى توحيد الربوبية .

وقيل : إنّ الضمير في « أكثرهم » راجع إلى قوم النبي ﷺ و المعنى أن
 في هذه القصّة آية و ما كان أكثر قومك مؤمنين بها ولا يخلو من بعد .

و قوله : « و إنّ ربك لهُو العزيز الرحيم » تقدّم تفسيره في أوّل السورة .



وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠)
قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ (٧٢)
أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)
قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ
عَدُوِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ
لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)
وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاعْفُ عَنِّي يَا أَبَى الْأَنْبِيَاءِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٦)
وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَارْتَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)
وَقِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُم أَوْ
يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودًا بَلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥)
قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ
نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ

شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَاصْدِقِي حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لُنَاكَرَةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ (١٠٤) .

﴿بيان﴾

تشير الآيات بعد الفراغ عن قصة موسى إلى نبأ إبراهيم عليه السلام وهو خبره
 الخطير إذ انتهز لتوحيد الله سبحانه بفطرته الزاكية الطاهرة من بين قومه المطبقين
 على عبادة الأصنام فتبرّء منهم و دافع عن الحق ثم كان من أمره ما قد كان ففي ذلك
 آية ولم يؤمن به أكثر قومه كما سيشير إلى ذلك في آخر الآيات .

قوله تعالى : « و اتل عليهم نبأ إبراهيم » غير السياق عما كان عليه أوّل
 القصة « و إذ نادى ربك موسى » الخ لمكان قوله : « عليهم » فإن المطلوب تلاوته
 على مشركي العرب وعمدتهم قريش و إبراهيم هذا أبوه و قد قام لنشر التوحيد
 و إقامة الدين الحق ولم يكن بينهم يومئذ من يقول : لا إله إلا الله فنصر الله و نصره
 حتى ثبتت كلمة التوحيد في الأرض المقدسة و في الحجاز .

فلم يكن ذلك كله إلا عن دعوة من الفطرة و بعث من الله سبحانه ففي ذلك
 آية لله فليعتبروا به وليتبرّءوا من دين الوثنية كما تبرّء منه و من أبيه و قومه المنحجلين
 به أبوه إبراهيم عليه السلام .

قوله تعالى : « إذ قال لأبيه و قومه ماتعبدون » مخاصمته و مناظرته عليه السلام
 مع أبيه غير مخاصمته مع قومه و احتجاجه عليهم كما حكاه الله تعالى في سورة الأنعام
 و غيرها لكن البناء ههنا على الإيجاز و الاختصار ولذا جمع بين المحاجتين و سبكهما
 محاجة واحدة أورد فيها ما هو القدر المشترك بينهما .

وقوله : « ماتعبدون » سؤال عن الحقيقة بوضع نفسه موضع من لا يعرف شيأ

من حقيقتها و سائر شؤونها وهذا من طرق المناظرة سبيل من يريد أن يبين الخصم حقيقة مدّعاء و سائر شؤونه حتّى يأخذه بما سمع من اعترافه .

على أن هذه الحاجة كانت من إبراهيم أوّل ما خرج من كهفه و دخل في مجتمع أبيه وقومه ولم يكن شهد شيئاً من ذلك قبل اليوم فحاجتهم عن فطرة ساذجة طاهرة كما تقدّم تفصيل القول فيه في تفسير سورة الأنعام .

قوله تعالى : « قالوا نعبد أصناما فنظلّ لها عاكفين » ظلّ بمعنى دام ، و العكوف على الشيء ملازمته والإقامة عنده ، واللام في «لها» للتعليل أي ندوم عاكفين عليها لأجلها وهو تفريع على عبادة الأصنام .

و الصنم جنة مأخوذة من فلزّ أو خشب أو غير ذلك على هيئة خاصّة يمثل بها ما في المعبود من الصفات ، وهؤلاء كانوا يعبدون الملائكة و الجنّ وهم يرون أنها روحانيات خارجة عن عالم الأجسام منزّهة عن خواصّ المادة و آثارها ، ولما كان من الصعب عليهم التوجّه العبادي إلى هذه الروحانيات باستحضارها للإدراك توسّلوا إلى ذلك باتّخاذ صور و تماثيل جسمانيّة تمثّل بأشكالها وهيأتها ما هناك من المعنويّات .

و كذلك الحال في عبادة عبّاد الكواكب لها فإنّ المعبود الأصليّ هناك روحانيات الكواكب ثم اتّخذ أجرام الكواكب أصناما لروحانياتها ثمّ لما اختلفت أحوال الكواكب بالحضور و الغيبة والطلوع والغروب اتّخذوا لها أصناما تمثّل ما للكواكب من القوى الفعّالة فيما دونها من عالم العناصر كالقوّة الفاعلة للطرب و السرور والنشاط في الزهرة فيصوّنونها في صورة فتاة ، ولسفك الدماء في المربّخ ، و للعلم و المعرفة في عطارد و على هذا القياس الأمر في أصنام القدّيسين من الإنسان .

فالأصنام إنّما اتّخذت ليكون الواحد منها مرآة لربّ الصنم من ملك أو جنّ أو إنسان غير أنّهم يعبدون الصنم نفسه بتوجيه العبادة إليه والتقرّب منه ولوتعدّوا عن الصنم إلى ربّه عبدوه دون الله سبحانه .

وهذا هو الذي يكذب قول القائل منهم : إن الصنم إنما هي قبلة لم تتخذ إلا جهة للتوجه العبادي لامقصودة بالذات كالكعبة عند المسلمين وذلك أن القبلة هي ما يستقبل في العبادة ولايستقبل بالعبادة وهم يستقبلون الصنم في العبادة وبالعبادة وبعبارة أخرى التوجه إلى القبلة و العبادة لرب القبلة و هو الله عز اسمه وأما الصنم فالتوجه إليه و العبادة له لالربته ولو فرض أن العبادة لربته وهو شي من الروحانيات كانت له لله فالله سبحانه غير معبود في ذلك على أي حال .

و بالجملة فجوابهم عن سؤال إبراهيم : « ما تعبدون » بقولهم : « نعبد الأصنام » إبانة أن هذه الأجسام المعبودة ممثلات مقصودة لغيرها لأنفسها ، وقد أخذ إبراهيم قولهم : « نعبد » و خاصمهم به فإن استقلال الأصنام بالمعبودية لا يجمع كونها أصناما ممثلة للغير فإذا كانت مقصودة بالعبادة فمن الواجب أن يشتمل على ما هو الغرض المقصود منها من جلب نفع أو دفع ضرر بالتوجه العبادي والدعاء والمسألة والأصنام بمعزل من أن تعلم بمسألة أو تجيب مضطرا بإيصال نفع أو صرف ضرر ولذلك سألهم إبراهيم بقوله : « هل يسمعونكم » الخ .

قوله تعالى : « قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون » اعترض عليه السلام عليهم في عبادتهم الأصنام من جهتين :

إحداهما أن العبادة تمثيل لدلالة العابد و حاجته إلى المعبود فلا يخلو من دعاء من العابد للمعبود ، والدعاء يتوقف على علم المعبود بذلك و سمعه ما يدعوه به ، والأصنام أجسام جهادية لا سمع لها فلا معنى لعبادتها .

و الثانية أن الناس إنما يعبدون إلاله إما طمعا في خيره و نفعه وإما اتقاء من شره و ضرره والأصنام جمادات لا قدرة لها على إيصال نفع أو دفع ضرر . فكل من الآيتين يتضمن جهة من جهتي الاعتراض ، وقد أوردتهما في صورة الاستفهام ليضطرهم على الاعتراف .

قوله تعالى : « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » كان مقتضى المقام أن يجيبوا عن سؤاله ﷺ بالنفي لكنه لما كان ينتج خلاف ما هم عليه من الالتحال

بالوثنية أضربوا عنه إلى التشبث بذييل التقليد فذكروا أنهم لا مستند لهم في عبادتها إلا تقليد الآباء محضاً .

وقوله : « وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » أي ففعلنا كما كانوا يفعلون وعبدناهم كما كانوا يعبدون ، ولم يعدل عن قوله : « كذلك يفعلون » إلى مثل قولنا : يعبدونها ليكون أصرح في التقليد كأنهم لا يفهمون من هذه العبادات إلا أنها أفعال كأفعال آباءهم من غير أن يفقهوا منها شيئاً أزيد من أشكالها وصورها .

قوله تعالى : « قال أفرأيتم ما تعبدون أنتم و آبائكم الأقدمون فإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » لما انتهت حاجته مع أبيه وقومه إلى أن لا حاجة لهم في عبادتهم الأصنام إلا تقليد آباءهم محضاً تبرئ عليه السلام من آلهتهم ومن أنفسهم و آباءهم بقوله : « أفرأيتم » الخ .

فقوله : « أفرأيتم ما تعبدون » أنتم و آبائكم الأقدمون » تفريع على ما ظهر مما تقدم من عدم الدليل على عبادة الأصنام إلا التقليد بل بطلانها من أصلها أي فإذا كانت باطلة لا حاجة لكم عليها إلا تقليد آبائكم فهذه الأصنام التي رأيتموها أي هذه بأعيانها التي تعبدونها أنتم و آبائكم الأقدمون فإنها عدوٌ لي لأن عبادتها ضارة لديني مهلكة لنفسي فليست إلا عدوٌ لي .

وذكر آباءهم الأقدمين للدلالة على أنه لا يأخذ بالتقليد كما أخذوا وأن لا وقع عنده عليه السلام لنقدّم العهد ، ولا أثر للسبق الزماني في إبطال حق أو إحقاق باطل ، وإرجاع ضمير أولي العقل إلى الأصنام لمكان نسبة العبادة إليها وهي تستلزم الشعور والعقل ، وهو كثير الوقوع في القرآن .

وقوله : « إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » استثناء منقطعة من قوله : « فإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي » أي لكن رب العالمين ليس كذلك .

قوله تعالى : « الذي خلقني فهو يهدين - إلى قوله - يوم الدين » لما استثنى رب العالمين جل اسمه وصفه بأوصاف تتم بها الحجة على أنه تعالى ليس عدوٌ له بل رب رحيم ذو عناية بحاله منعم عليه بكل خير دافع عنه كل شر فقال : « الذي

خلقني ، الخ و أمّا قول القائل : إنّ قوله : « الَّذِي خَلَقَنِي » الخ استئناف من الكلام لا يعأ به .

فقوله : « الَّذِي خَلَقَنِي فهو يهدين » بدء بالخلق لأنّ المطلوب بيان استناد تدبير أمره إليه تعالى بطريق إعطاء الحكم بالدليل ، والبرهان على قيام التدبير به تعالى قيام الخلق والإيجاد به لوضوح أنّ الخلق و التدبير لا ينفكّان في هذه الموجودات الجسمانيّة التدرجيّة الوجوديّة التي تستكمل الوجود على التدرّج فليس من المعقول أن يقوم الخلق بشيء والتدبير بشيء وإذ كان الخلق والإيجاد لله سبحانه فالتدبير له أيضا .

ولهذا عطف الهداية على الخلق بقاء التفرّيع فدلّ على أنّه تعالى هو الهادي لأنّه هو الخالق .

وظاهر قوله : « فهو يهدين » - وهو مطلق - أنّ المراد به مطلق الهداية إلى المنافع دنيويّة كانت أو أخرويّة والتعبير بلفظ المضارع لإفادة الاستمرار فالمعنى أنّه الَّذِي خَلَقَنِي ولا يزال يهدينني إلى ما فيه سعادة حياتي منذ خلّقني ولن يزال كذلك . فيكون الآية في معنى ما حكاه الله عن موسى إذ قال لفرعون : « ربّنا الَّذِي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٣ ، أي هداه إلى منفعه وهي الهداية العامّة .

وهذا هو الَّذِي أُشير إليه في أوّل السورة بقوله : « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كلّ زوج كريم إنّ في ذلك لآية » وقد مرّ تقرير الحجّة فيه . وعلى هذا فما سيأتي في قوله : « وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي » الخ من الصفات المحدودة من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ فإنّها جميعا من مصاديق الهداية العامّة بعضها هداية إلى منافع دنيويّة وبعضها هداية إلى ما يرجع إلى الآخرة .

ولو كان المراد بالهداية الهداية الخاصّة الدينيّة فالصفات المحدودة على رسلها وذكر الهداية بعد الخلقة و تقديمها على سائر النعم والمواهب لكونها أفضل النعم بعد الوجود .

و قوله : « والذي هو يطعمني ويسقين و إذا مرضت فهو يشفين » هو كالكناية عن جملة النعم المادية التي يرزقها الله إياها التتميم النواقص ورفع الحوائج الدنيوية وقد خصّ بالذكر منها ما هو أهمها و هو الإطعام والسقي والشفاء إذا مرض .

ومن هنا يظهر أن قوله : « وإذا مرضت » توطئة وتمهيد لذكر الشفاء فالكلام في معنى يطعمني ويسقين ويشفين ، ولذا نسب المرض إلى نفسه لثلاث يختلّ المراد بذكر ما هو سلب النعمة بين النعم ، وأما قول القائل : إنه إنما نسب المرض إلى نفسه مع كونه من الله للتأدّب فليس بذاك .

و إنما أعاد الموصول فقال : « الذي هو يطعمني » الخ ولم يعطف الصفات على ما في قوله : « الذي خلقتني فهو يهدين » للدلالة على أن كلاً من الصفات المذكورة في هذه الجملة المترتبة كان في إثبات كونه تعالى هو الربّ المدبّر لأمره والقائم على نفسه المجيب لدعوته .

وقوله : « والذي هو يميّتي ثم يحيين » يريد الموت المقضي لكلّ نفس المدلول عليه بقوله : « كلّ نفس ذائقة الموت » الأنبياء : ٣٥ وليس بانعدام وفناء بل انتقال من دار إلى دار من جملة التدبير العامّ الجاري ، والمراد بالأحياء إفاضة الحياة بعد الموت .

و قوله « والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » أي يوم الجزاء و هو يوم القيامة ، ولم يقطع بالمغفرة كما قطع في الأمور المذكورة قبلها لأنّ المغفرة ليست بالاستحقاق بل هي فضل من الله فليس يستحقّ أحد على الله سبحانه شيئاً لكنّه سبحانه قضى على نفسه الهداية والرزق والإماتة والأحياء لكلّ ذي نفس ولم يقض المغفرة لكلّ ذي خطيئة فقال : « فوبّ السماء والأرض إنه لحقّ » الذاريات : ٢٣ وقال : « كلّ نفس ذائقة الموت » الأنبياء : ٣٥ ، وقال : « إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً » يونس : ٤ وقال في المغفرة : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ٤٨ .

و نسبة الخطيئة إلى نفسه وهو ﷺ نبيّ معصوم من المعصية دليل على أن

المراد بالخطيئة غير المعصية بمعنى مخالفة الأمر المولوي فإن للخطيئة والذنوب مراتب تتقدّر حسب حال العبد في عبوديته كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين وقد قال تعالى لنبيه ﷺ : « واستغفر لذنبك » .

فالخطيئة من مثل إبراهيم ﷺ اشتغاله عن ذكر الله محضاً بما تقتضيه ضروريات الحياة كالنوم والأكل والشرب ونحوها وإن كانت بنظر آخر طاعة منه عليه السلام كيف ؟ وقد نصّ تعالى على كونه ﷺ مخلصاً لا يشاركه تعالى فيه شيء إذ قال : « إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارَ » ص : ٦٤ وقد قدّمنا كلاماً له تعلق بهذا المقام في آخر الجزء السادس وفي قصص إبراهيم في الجزء السابع من الكتاب .
قوله تعالى : « ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين » لما ذكر ﷺ نعم ربّه المستمرّة المتوالية المتراكمّة عليه منذ خلق إلى ما لا نهاية له من أمد البقاء وصوّر بذلك شمول اللطف والحنان الإلهي أخذته جاذبة الرحمة المملئمة بالفقر العبودي فدعته إلى إظهار الحاجة وبثّ المسألة فالتفت من الغيبة إلى الخطاب فسأل ما سأل .

فقوله : « ربّ » أضاف الربّ إلى نفسه بعد ما كان يصفه بما أنّه ربّ العالمين إثارة للرحمة الإلهيّة وتهييجاً للعناية الربّانيّة لاستجابة دعائه ومسألته .

وقوله : « هب لي حكماً » يريد بالحكم ما تقدّم في قول موسى ﷺ : « فوهب قولي ربّي حكماً » الآية ٢١ من السورة وهو - كما تقدّم - إصابة النظر والرأي في المعارف الاعتقاديّة والعملية الكلية وتطبيق العمل عليها كما يشير إليه قوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنّه لا إلّا أنا فاعبدون » الأنبياء : ٢٥ وهو وحي المعارف الاعتقاديّة والعملية التي يجمعها التوحيد والتقوى ، وقوله تعالى : « وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » لأنبياء : ٧٣ وهو وحي التسديد والهداية إلى الصلاح في مقام العمل ، و تنكير الحكم لتفخيم أمره .

وقوله : « وألحقني بالصالحين » الصلاح - على ما ذكره الراغب - يقابل الفساد

الذي هو تقيّر الشيء عن مقتضى طبعه الأصلي^١ فصلاحه كونه على مقتضى الطبع الأصلي^٢ فيترتب عليه من الخير والنفع ما من شأنه أن يترتب عليه من غير أن يفسد فيحرم من آثاره الحسنة .

وإذ كان « الصالحين » غير مقيّد بالعمل و نحوه فالمراد به الصالحون ذاتا لأعمالا فحسب و إن كان صلاح الذات لا ينفك^٣ عنه صلاح العمل قال تعالى : « البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » الأعراف : ٥٨

فصلاح الذات كونها تامة الاستعداد لقبول الرحمة الإلهية وإفاضة كل خير وسعادة من شأنها أن تتلبس به من غير أن يقارنها ما يفسدها من اعتقاد باطل أو عمل سيئ و بذلك يتبين أن « الصلاح الذاتي » من لوازم موهبة الحكم بالمعنى الذي تقدّم وإن كان الحكم أخص^٤ مورداً من الصلاح وهو ظاهر .

فمسألته الإلحاق بالصالحين من لوازم مسألة موهبة الحكم وفروعها المترتبة عليها فيعود معنى قوله : « ربّ هبلي حكما وألحقني بالصالحين » إلى مثل قولنا : ربّ هبلي حكما و تتم أثره في « وهو الصلاح الذاتي » .

وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » البقرة : ١٣٠ في الجزء الأوّل من الكتاب كلام له تعلّق بهذا المقام .

قوله تعالى : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » إضافة اللسان إلى الصدق لامية تفيد اختصاصه بالصدق بحيث لا يتكلّم إلّا به ، وظاهر جعل هذا اللسان له أن يكون مختصّا به لسانه لا يتكلّم إلّا بما في ضميره ممّا يتكلّم هو به فيؤل المعنى إلى مسألة أن يبعث الله في الآخرين من يقوم بدعوته و يدعو الناس إلى ملّنه وهي دين التوحيد .

فتكون الآية في معنى قوله في سورة الصافات بعد ذكر إبراهيم عليه السلام : « وتركنا عليه في الآخرين » الصافات ١٠٨ ، وقد ذكر هذه الجملة بعد ذكر عدة من الأنبياء غيره كنوح وموسى وهارون وإلياس ، وكذا قال تعالى في سورة مريم بعد ذكر زكريّا ويحيى وعيسى وإبراهيم وموسى وهارون : « وجعلنا لهم لسان صدق

عليه، مريم : ٥٠ فالمراد على أي حال إبقاء دعوتهم بعدهم يبعث رسل أمثالهم .
 وقيل : المراد به بعث النبي ﷺ وقد روي عنه أنه قال : أنا دعوة أبي إبراهيم ويؤيده تسمية دينه في مواضع من القرآن ملّة إبراهيم ، ويرجع معنى الآية حينئذ إلى معنى قوله حكاية عن إبراهيم وإسماعيل حين بناء الكعبة : «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك - إلى أن قال - ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» البقرة : ١٢٩ .
 وقيل : المراد به أن يجعل الله له ذكراً جليلاً وثناً حسناً بعده إلى يوم القيامة وقد استجاب الله دعاءه فأهل الأديان يثنون عليه و يذكرونه بالجميل .

وفي صدق لسان الصدق على الذكر الجميل خفاء ، وكذا كون هذا الدعاء والمحكي في سورة البقرة دعاء واحدا لا يخلو من خفاء .

قوله تعالى : « واجعلني من ورثة جنة النعيم » تقدّم معنى وراثة الجنة في تفسير قوله تعالى : « أولئك هم الوارثون ، المؤمنون : ١١ .

قوله تعالى : « واغفر لأبي إنه كان من الضالين » استغفار لأبيه حسب ما وعده في قوله : « سلام عليك سأستغفر لك ربّي » مريم ٤٩ وليس ببعيد أن يستغفر من قوله تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرّأ منه » التوبة : ١١٤ أنه دعا لأبيه بهذا الدعاء وهو حيّ بعد ، وعلى هذا فمعنى قوله : « إنه كان من الضالين » أنه كان قبل الدعاء بزمان من أهل الضلال .

قوله تعالى : « ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » الخزي عدم النصر من يؤمل منه النصر ، والضمير في « يبعثون » للناس ولا يضرّ عدم سبق الذكر لكونه معلوماً من خارج .

ويعلم من سؤاله عدم الإخزاء يوم القيامة أن الإنسان في حاجة إلى النصر الإلهي يومئذ فهذه البنية الضعيفة لا تقوم دون الأحوال التي تواجها يوم القيامة إلا بنصر وتأييد منه تعالى .

وقوله : « يوم لا ينفع مال ولا بنون » الظرف بدل من قوله : « يوم يبعثون » وبه يندفع قول من قال : إن قول إبراهيم قد انقطع في « يبعثون » والآية إلى تمام خمسة عشر آية من كلام الله تعالى .

والآية تنقي نفع المال والبنين يوم القيامة وذلك أن رابطة المال والبنين التي هي المناط في التناصر والتعاقد في الدنيا هي رابطة وهمية اجتماعية لا تؤثر أثرًا في الخارج من ظرف الاجتماع المدني ويوم القيامة يوم انكشاف الحقائق وتقطع الأسباب فلا ينفع فيه مال بماليته ولا بنون بنسبة بنوتهم وقرابتهم قال تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتهم ما خوئناكم وراء ظهوركم » الأنعام : ٩٤ ، وقال : « يوم يتفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » المؤمنون : ١٠١ .

فالمراد بنفي نفع المال والبنين يوم القيامة نفي سببتهما الوضعية الاعتبارية في المجتمع الإنساني في الدنيا فإن المال نعم السبب والوسيلة في المجتمع للظفر بالمقاصد الحيوية ، وكذا البنون نعمت الوسيلة للقوة والعزة والغلبة والشوكة فالمال والبنون عمدة مايركن إليهما ويتعلق بهما الإنسان في الحياة الدنيا فنفي نفعهما يوم القيامة كالكناية عن نفي نفع كل سبب وضعي اعتباري في المجتمع الإنساني يتوسل به إلى جلب المنافع المادية كالعلم والصناعة والجمال وغيرها . وبعبارة أخرى نفي نفعهما في معنى الإخبار عن بطلان الاجتماع المدني بما يعمل فيه من الأسباب الوضعية الاعتبارية كما يشير إليه قوله تعالى : « مالكم لاتنصرون بل هم اليوم مستسلمون » .

وقوله : « إلا من أتى الله بقلب سليم » قال الراغب : السلم والسلامة التعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة . انتهى والسياق يعطي أنه ﷺ في مقام ذكر معنى جامع يتميز به اليوم من غيره وقد سأل ربه أو لا أن ينصره ولا يخزيه يوم لا ينفعه ما كان ينفعه في الدنيا من المال والبنين ، ومقتضى هذه التوطئة أن يكون المطلوب بقوله : « إلا من أتى الله بقلب سليم » بيان ما هو النافع يومئذ وقد ذكر فيه الإتيان

بالقلب السليم .

فالاستثناء منقطع والمعنى لكن من أتى الله بقلب سليم فإنه ينتفع به ، والمحصل أن مدار السعادة يومئذ على سلامة القلب سواء كان صاحبه ذاملاً وبنين في الدنيا أو لم يكن .

وقيل : الاستثناء متصل والمستثنى منه مفعول ينتفع المحذوف والتقدير يوم لا ينتفع مال ولا بنون أحداً إلا من أتى الله بقلب سليم .

وقيل : الاستثناء متصل والكلام بتقدير مضاف والتقدير لا ينتفع مال ولا بنون إلا مال وبنو من أتى الخ .

وقيل : المال والبنون في معنى الغنى والاستثناء منه بحذف مضاف من نوعه والتقدير يوم لا ينتفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم ، وسلامة القلب من الغنى فالاستثناء متصل ادعاءً لاحقيقة .

وقيل : الاستثناء منقطع وهناك مضاف محذوف والتقدير لا ينتفع مال ولا بنون إلا حال من أتى الخ .

و الأقوال الثلاثة الأولى توجب اختصاص تمييز اليوم بمن له مال و بنون فقط فإن الكلام عليها في معنى قولنا : يوم لا ينتفع المال والبنون أصحابهما إلا ذا القلب السليم منهم و أمّا من لا مال له ولا ولد فمسكوت عنه و السياق لا يساعده ، و أمّا القول الرابع فمبني على تقدير لاحاجه إليه .

والآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « المال و البنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً » الكهف : ٤٦ ، غير أنها تسند النفع إلى القلب السليم وهو النفس السالمة من وصمة الظلم وهو الشرك والمعصية كما قال تعالى في وصف اليوم : « وعت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً » طه : ١١١ .

قال بعضهم : وفي الآيتين تأييد لكون استغفاره ﷺ لأبيه طلباً لهديته إلى الإيمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرًا مع علمه بعدم نفعه لأنه من باب

الشفاعة انتهى .

و هذا على تقدير أخذ الاستثناء . متصلا كما ذهب إليه هذا القائل مبني على كون إبراهيم عليه السلام ابن آزر لصلبه وقد تقدم في قصته عليه السلام من سورة الأنعام فساد القول به وأن الآيات ناصّة على خلافه .

و أما إذا أخذ الاستثناء منقطعا فقوله : « إلا من أتى الله بقلب سليم » بضميمة قوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » الأنبياء : ٢٨ . دليل على كون الاستغفار قبل موته كما لا يخفى :

قوله تعالى : « و اُزلفت الجنة للمتقين و برزت الجحيم للغاوين » الازلاف التقريب ، و التبريز الالغار ، وفي المقابلة بين المتقين و الغاوين و اختيار هذين الوصفين لهاتين الطائفتين إشارة إلى ما قضى به الله سبحانه يوم رجم إبليس عند إباءه أن يسجد لآدم كما ذكر في سورة الحجر « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين و إن جهنم لموعدهم أجمعين - إلى أن قال - إن المتقين في جنات و عيون » الحجر : ٤٥ .

قوله تعالى : « و قيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون » أي هل يدفعون الشقاء و العذاب عنكم أو عن أنفسهم ، و المحصل أنه يتبين لهم أنهم ضلّوا في عبادتهم غير الله .

قوله تعالى : « فكذبوا فيهاهم و الغاوين و جنود إبليس أجمعون » يقال : كبته فانكب أي ألقاه على وجهه و كبكبه أي ألقاه على وجهه مرة بعد أخرى فهو يفيد تكرار الكب كذب و دبذب وذب وذبذب و ذل و ذل و ذل و ذك و ذك . و ضمير الجمع في قوله : « فكذبوا فيهاهم » للأصنام كما يدل عليه قوله : « إنكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنم » الأنبياء : ٩٩ و هؤلاء إحدى الطوائف الثلاث التي تذكر الآية أنها تكذب في جهنم يوم القيامة ، و الطائفة الثانية الغاوين المقضي عليهم ذلك كما في آية الحجر المنقولة آنفا ، و الطائفة الثالثة جنود إبليس و هم قراء الشياطين الذين يذكر القرآن أنهم لا يفارقون أهل الغواية

حتى يدخلوا النار ، قال تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين - إلى أن قال - ولن يتفككم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ، الزخرف : ٣٩ .

قوله تعالى : « قالوا وهم فيها يختصمون - إلى قوله - إلا المجرمون ، الظاهر أن القائلين هم الغاوين ، والاختصاص واقع بينهم يخاصمون أنفسهم و الشياطين على ما ذكره الله سبحانه في مواضع من كلامه .

و قوله : « تالله إن كنا لفي ضلال مبين » اعتراف منهم بالضلال ، و الخطاب في قوله : « إذنسوا لكم رب العالمين » للآلهة من الأصنام وهم معهم في النار ، أولهم وللشياطين أولهما و للمتبعين والرؤساء من الغاوين وخير الوجوه أولها .

وقوله : « وما أضلنا إلا المجرمون ، الظاهر أن كلام القائلين يريد بالمجرمين غيره من إمام ضلال اقتدى به في الدنيا وداع دعاه إلى الشرك فاتبعه وآباء مشركين قلدهم فيه و خليل تشبه به ، و المجرمون على ما يستفاد من آيات القيامة هم الذين ثبت فيهم الإجمام وقضي عليهم بدخول النار قال تعالى : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » يس : ٦٠ .

قوله تعالى : « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » الحميم على ما ذكره الراغب القريب المشفق .

وهذا الكلام تحسّر منهم على حرمانهم من شفاعة الشافعين وإغاثة الأصدقاء وفي التعبير بقوله : « فما لنا من شافعين » إشارة إلى وجود شافعين هناك يشفعون بعض المذنبين ، ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال : فما لنا من شافع إذ لا نكتة تقتضي الجمع ، وقدروي أنهم يقولون ذلك لما يرون الملائكة و الأنبياء والمؤمنين يشفعون .

قوله تعالى : « فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين » تمنّ منهم أن يرجعوا إلى الدنيا فيكونوا من المؤمنين حتى ينالوا ما ناله المؤمنون من السعادة .

قوله تعالى : « إن في ذلك لآية » إلى آخر الآيتين أي في قصة إبراهيم

عليه السلام ولزومه عن فطرته الساذجة دين التوحيد وتوجيه وجهه نحورب العالمين وتبرّيه من الأصنام واحتجاجه على الوثنيين وعبدة الأصنام آية لمن تدبر فيها على أن في سائر قصصه من محنة و ابتلاء آتته التي لم تذكرهنا كإلقاءه في النار ونزول الضيف من الملائكة عليه وقصة إسماعيل وأمه بوادي مكة وبناء الكعبة وذبح إسماعيل آيات لأولي الألباب .

وقوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين » أي وما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين والباقي ظاهر مما تقدم .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » قال : هو أمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : يحتمل التفسير والجري .

وفي الكافي بإسناده عن يحيى عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام ولسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير من المال يأكله ويورثه . الحديث . وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « واغفر لأبي » أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : « ولا تخزني يوم يبعثون » قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله قال : ليجيئن رجل يوم القيامة من المؤمنين آخذاً بيد أب له مشرك حتى يقطعه النار ويرجو أن يدخله الجنة فيناديه مناد إنه لا يدخل الجنة مشرك فيقول : ربّي أبي ووعدت أن لا تخزيني .

قال : فما يزال متشبّثاً به حتى يحولّه الله في صورة سيئة و ريح منتنة في صورة ضبعان فإذا رآه كذلك تبرّء منه وقال : لست بأبي . قال : فكنا نرى أنه يعني إبراهيم وما سمى به يومئذ .

وفيه أخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال : يلقي

إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة يقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لاتعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لأعصيك .

فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتني أن لاتخزيني يوم يبعثون فأني خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله : إنني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار .

أقول : الخبران من أخبار بنو إبراهيم لا زلصلبه وقدر في قصص إبراهيم من سورة الأنعام أنها مخالفة للكتاب وكلامه تعالى نص في خلافه .

وفي الكافي بإسناده عن سفيان بن عيينة قال : سأله عن قول الله عز وجل : «لأمن أتى الله بقلب سليم» قال : السليم الذي يلقي ربه وليس فيه أحد سواه . قال وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط وإنما أراد وبالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم إلى الآخرة .

وفي المجمع وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال : هو القلب الذي سلم من حب الدنيا . ويؤيده قول النبي ﷺ : حب الدنيا رأس كل خطيئة .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث «و جنود إبليس أجمعون» جنود إبليس ذريته من الشياطين .

قال : وقولهم : «وما أضلنا إلا المجرمون» إذ دعونا إلى سبيلهم ذلك قول الله عز وجل فيهم إذ جمعهم إلى النار : «وقالت أولاهم لأخراهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار» وقوله : «كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا داركوا فيها جميعا برى بعضهم من بعض ولعن بعضهم بعضا يريد بعضهم أن يحج بعضا رجاء الفلاح فيفعلتوا جميعا من عظيم ما نزل بهم وليس بأوان بلوى ولا اختبار ولا قبول معذرة ولا حين نجاة .

وفي الكافي أيضا بسندين عن أبي بصير عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : «فكذبوا فيها هم والفاون» هم قوم وصفوا عدلا بالسنتهم ثم خالفوه إلى غيره .

أقول : و روى هذا المعنى القمي في تفسيره والبرقي في المحاسن عن أبي عبد الله عليه السلام ، والظاهر أن الرواية كانت واردة في ذيل قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوان » لما بعده من قوله تعالى : « وأنهم يقولون مالا يفعلون » وقد وقع الخطأ في إيرادها في ذيل قوله : « وكذبوا فيها » الخ وهو ظاهر للمتأمل .

وفي المجمع و في الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال سمعت النبي ﷺ يقول : إن الرجل يقول في الجنة : ما فعل صديقي ؟ و صديقه في الجحيم . فيقول الله : أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار : « فمالنا من شافعين ولا صديق حميم » .

و روي بالإسناد عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال : والله لنشفعن لشيعتنا ثلاث مرات حتى يقول الناس : « فمالنا من شافعين ولا صديق حميم - إلى قوله - فنكون من المؤمنين » وفي رواية أخرى حتى يقول عدونا .

وفي تفسير القمي « فلو أن لنا كربة فنكون من المؤمنين » قال : من المهتدين قال : لأن الإيمان قد لزمهم بالإقرار .

أقول مراده أنهم يؤمنون يومئذ إيمان إيقان لكنهم يرون أن الإيمان يومئذ لا ينفعهم بل الإيمان النافع هو الإيمان في الدنيا فيتمتتون أن يرجعوا إلى الدنيا ليكون ما عندهم من الإيمان من إيمان المهتدين وهم المؤمنون حقاً المهتدون بإيمانهم يوم القيامة وهذا معنى لطيف ، وإليه يشير قوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إننا موقنون » : ١٣ ، فلم يقولوا فارجعنا نؤمن ونعمل صالحاً بل قالوا فارجعنا نعمل صالحاً فافهم ذلك .



كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)
 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرَِيَ الْآلِ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١١٠)
 قَالُوا أَنْتُمْ مِثْلُ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١١١) قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢)
 إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤)
 إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَ يَا نُوحُ تَتَكُونَنَّ مِنَ
 الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُوكَ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ
 فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَانْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ
 الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ
 أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) .

﴿بيان﴾

تشير الآيات بعد الفراغ عن قصتي موسى وإبراهيم عليهما السلام وهما من أولي العزم إلى قصة نوح عليه السلام وهو أول أولي العزم سادة الأنبياء ، وإجمال ماجرى بينه وبين قومه فلم يؤمن به أكثرهم فأغرقهم الله وأنجى نوحا ومن معه من المؤمنين .

قوله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين » ، قال في المفردات : القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء ، ولذلك قال : « لا يسخر قوم من قوم » ،

الآية قال الشاعر : أقوم آل حصن أم نساء ، وفي عامة القرآن أريد وابه والنساء جميعاً . انتهى .

ولفظ القوم قيل : مذكر وتأنيث الفعل المسند إليه بتأويل الجماعة وقيل : مؤنث وقال في المصباح : يذكّر ويؤنّث .

وعدّ القوم مكذّبين للمرسلين مع أنّهم لم يكذبوا إلا واحدا منهم وهو نوح عليه السلام إنّما هو من جهة أنّ دعوتهم واحدة و كلمتهم متفقة على التوحيد فيكون المكذب للواحد منهم مكذباً للجميع ولذا عدّ الله سبحانه الإيمان ببعض رسله دون بعض كفرا بالجميع قال تعالى «إنّ الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّ قوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً» أولئك هم الكافرون حقاً النساء : ١٥١ .

وقيل : هومن قبيل قولهم : فلان يركب الدواب ويلبس البرود وليس له لإدابة واحدة وبردة واحدة فيكون الجمع كناية عن الجنس ، والأوّل أوجه ونظير الوجهين جار في قوله الآتي : «كذبّت عاد المرسلين» «كذبّت ثمود المرسلين» وغيرهما . قوله تعالى : «إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون» المراد بالأخ النسيب كقولهم : أخوتهم وأخو كليب والاستفهام للتوبيخ .

قوله تعالى «إنّي لكم رسول أمين» أي رسول من الله سبحانه أمين على ما حملته من الرسالة لا أبلغكم إلا ما أمرني ربي وأراد منكم ، ولذا فرّغ عليه قوله : «فاتّقوا الله وأطيعوه» فأمرهم بطاعته لأن طاعته طاعة الله .

قوله تعالى : «وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على ربّ العالمين» مسوق لتفي الطمع الدنيويّ بنقي سؤال الأجر فيثبت بذلك أنّه ناصح لهم فيما يدعوههم إليه لا يخونهم ولا يغشّهم فعليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم ، ولذا فرّغ عليه تانياً قوله : «فاتّقوا الله وأطيعوه» .

والعدول في قوله : «إن أجرينى إلا على ربّ العالمين» عن اسم الجلالة إلى «ربّ العالمين» للدلالة على صريح التوحيد فإنهم كانوا يرون أنّه تعالى إله عالم

الالهة و كانوا يرون لكلّ عالم إلها آخر يعبدونه من دون الله فإثباته تعالى ربّاً للعالمين جميعاً تصريح بتوحيد العبادة و نفى الآلهة من دون الله مطلقاً .

قوله تعالى : « فاتّقوا الله وأطيعون » قد تقدّم وجه تكرار الآية فهو يفيد أن كلام الأمانة وعدم سؤال الأجر سبب مستقلّ في إيجاب طاعته عليهم .

قوله تعالى : « قالوا أنؤمن لك واتّبعك الأزدلون » الأزدلون جمع أزدل على الصحة و هو اسم تقضيل من الرذالة والرذالة الخسة والدناءة ، و مرادهم بكون متبعيه أزدل أنهم ذوو أعمال رذيلة و مشاغل خسية ولذا أجاب ﷺ عنه بمثل قوله : « وما علمي بما كانوا يعملون » .

و الظاهر أنهم كانوا يرون الشرف والكرامة في الأموال والجموع من البنين و الاتّباع كما يستفاد من دعاء نوح عليه السلام إذ يقول : « ربّ إنهم عصوني واتّبعوا من لم يزدّه ماله وولده إلّا خساراً » نوح : ٢٦ . فمرادهم بالأزدلين من يعدّهم الأشراف والمترفون سفلة يتجنّبون معاشرتهم من العبيد و الفقراء وأرباب الحرف الدنيّة .

قوله تعالى « قال وما علمي بما كانوا يعملون » الضمير لنوح ﷺ ، و « ما » استفهاميّة وقيل : نافية و عليه فالخبير محذوف لدلالة السياق عليه ، و المراد على أيّ حال نفى علمه بأعمالهم قبل إيمانهم به لمكان قوله : « كانوا يعملون » .

قوله تعالى : « إن حسابهم إلّا على ربّي لو تشعرون » المراد بقوله : « ربّي » ربّ العالمين فإنّه الذي كان يختصّ نوح بالدعوة إليه من بينهم ، وقوله : « لو تشعرون » مقطوع عن العمل أي لو كان لكم شعور ، وقيل : المعنى لو تشعرون بشيء لعلمتم ذلك وهو كما ترى .

و المعنى بالنظر إلى الحصر الذي في صدر الآية أنّه لا علم لي بسابق أعمالهم وليس عليّ حسابهم حتّى أتجسّس و أبحث عن أعمالهم و إنّما حسابهم على ربّي لو تشعرون فيجازيهم حسب أعمالهم .

قوله تعالى : « وما أنا بطارد المؤمنين إنّ أنا إلّا نذير مبين » الآية الثانية

بمنزلة التعليل للأولى والمجموع متمم للبيان السابق والمغنى لاشأن لي إلا الانذار والدعوة فلست أطرد من أقبل عليّ وآمن بي ولست أفتحص عن سابق أعمالهم لأحاسبهم عليها فحسابهم على ربّي وهو ربّ العالمين لاعليّ .

قوله تعالى : « قالوا لئن لم تنته يانوح لنكوننّ من المرجومين » المراد بالانتهاء ترك الدعوة ، و الرجم هو الرمي بالحجارة ، و قيل : المراد به الشتم و هو بعيد ، و هذا ممّا قالوه في آخر العهد من دعوتهم يهدّدونه ﷺ بقول جازم كما يشهد به ما في الكلام من وجوه التأكيد .

قوله تعالى : « قال ربّ إنّ قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ، الخ هذا استفتاح منه ﷺ و قد قدّم له قوله : « ربّ إنّ قومي كذبون » على سبيل التوطئة أي تحقّق منهم التكذيب المطلق الذي لامطمع في تصديقهم بعده كما يستفاد من دعائه عليهم إذ يقول : « ربّ لا تنذر على الأرض من الكافرين ديارا إنّك إنّ تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجرا كفارا » نوح : ٢٧ .

وقوله : « فافتح بيني وبينهم فتحا » كناية عن القضاء بينه وبين قومه كما قال تعالى : « ولكلّ أمة رسول فإذ جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » يونس : ٤٧ .

وأصله من الاستعارة بالكناية كأنّه و أتباعه والكفار من قومه اختلطوا واجتمعوا من غير تميّز فسأل ربّه أن يفتح بينهم بإيجاد فسحة بينه وبين قومه يبتعد بذلك أحد القبيلين من الآخر وذلك كناية عن نزول العذاب وليس يهلك إلّا القوم الفاسقين و الدليل عليه قوله بعد : « ونجنّي ومن معي من المؤمنين » .

و قيل : الفتح بمعنى الحكم و القضاء من الفتاحة بمعنى الحكومة .

قوله تعالى : « فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون » أي المملوء منهم و من كلّ زوجين اثنين كما ذكره في سورة هود .

قوله تعالى : « ثمّ أغرقنا بعد الباقين » أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من

قوله تعالى : « إن في ذلك لآية - إلى قوله : - العزيز الرحيم » تقدم الكلام في معنى الآيتين .

﴿ بحث روائي ﴾

في كتاب كمال الدين و روضة الكافي مسندا عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : فمكث نوح ألف سنة إلا خمسين عاما لم يشاركه في نبوته أحد ولكمته قدم على قوم مكذبين للأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم وذلك قوله عز وجل : « كذبت قوم نوح المرسلين » يعني من كان بينه وبين آدم إلى أن انتهى إلى قوله : « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .
وقال فيه أيضاً : فكان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم أنبياء وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « واتبعك الأزدلون » قال : الفقراء .
وفيه وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « الفلك المشحون » : المجهز الذي قد فرغ منه ولم يبق إلا دفعه .





كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤)
 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
 آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ
 بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٣١) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ
 بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)
 إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ
 أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا
 نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ
 أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠).

﴿بيان﴾

تشير الآيات إلى قصة هود عليه السلام وقومه وهم قوم عاد .

قوله تعالى : « كذبت عاد المرسلين » قوم عاد من العرب العاربة الأولى
 كانوا يسكنون الأحقاف من جزيرة العرب لهم مدينة راقية وأراض خصبة و ديار
 معمورة فكذبوا الرسل وكفروا بأنعم الله وطغوا فأهلكهم الله بالريح العقيم وخرّب
 ديارهم وعفا آثارهم .

وعاد فيما يقال اسم أبيهم فتسميتهم بعاد من قبيل تسمية القوم باسم أبيهم كما يقال تميم و بكر و تغلب و يراد بنو تميم و بنو بكر و بنو تغلب .

وقد تقدم في نظيرة الآية من قصة نوح وجه عدو القوم مكذباً بين المرسلين ولم يكذبوا ظاهراً إلا واحداً منهم .

قوله تعالى : «إني لكم رسول أمين -إلى قوله - رب العالمين» تقدم الكلام فيها في نظائرها من قصة نوح عليه السلام .

و ذكر بعض المفسرين أن تصدير هذه القصص الخمس بذكر أمانة الرسل وعدم سؤالهم أجراً على رسالتهم وأمرهم الناس بالتقوى والطاعة للتنبيه على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو من الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء عليهم السلام مجتمعون على ذلك وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار ، وأنهم منزّهون عن المطامع الدنيوية بالكلية انتهى .

ونظيره الكلام في ختم جميع القصص السبع الواردة في السورة بقوله : «إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم» ففيه دلالة على أن أكثر الأمم والأقوام معرضون عن آيات الله وأن الله سبحانه عزيز يجازيهم على تكذيبهم رحيم ينجي المؤمنين برحمته ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الكلام على غرض السورة .

قوله تعالى : «أتبنون بكل ريع آية تعبثون» الريع هو المرتفع من الأرض والآية العلامة ، والعبث الفعل الذي لا غاية له ، وكأنهم كانوا يبنون على قلل الجبال وكل مرتفع من الأرض أبنية كالآعلام يمتزّهون فيها ويفخرون بها من غير ضرورة تدعوهم إلى ذلك بل لهواً واتباعاً للهوى فوبخهم عليه .

وقد ذكر للآية معان أخر لا دليل عليها من جهة اللفظ ولا ملائمة للسياق أضربنا عنها .

قوله تعالى : «وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون» المصانع على ما قيل :

الحصون المنيعة والقصور المشيدة والأبنية العالية واحدها مصنع .

وقوله : «لعلكم تخلصون» في مقام التعليل لما قبله أي تتخذون هذه المصانع بسبب أنكم ترجون الخلود ولولا رجاء الخلود ما عملتم مثل هذه الأعمال التي من طبعها أن تدوم دهرًا طويلًا لا يفي به أطول الأعمار الإنسانية ، وقيل في معنى الآية ومفرداتها وجوه أخرى أغمضنا عنها .

قوله تعالى : « وإذا بطشتم ببطشتم جبارين » قال في المجمع : البطش العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط ، والجبار العالي على غيره بعظيم سلطانه . وهو في صفة الله سبحانه مدح وفي صفة غيره ذم لأن معناه في العبد أنه يتكلف الجبرية . انتهى فالمعنى وإذا أظهرتم شدة في العمل وبأسا بالغم في ذلك كما يبالغ الجبابرة في الشدة .

ومحصل الآيات الثلاث أنكم مسرفون في جانبي الشهوة والغضب متعدون حد الاعتدال خارجون عن طور العبودية .

قوله تعالى : « فاتقوا الله وأطيعون » تفريع على إسرافهم في جانبي الشهوة والغضب وخروجهم عن طور العبودية فليتقوا الله وليطيعوه فيما يأمرهم به من ترك الإتراف والاستكبار .

قوله تعالى : « واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون - إلى قوله - و عيون » قال الراغب : أصل المد الجرح قال : وأمددت الجيش بمدد وال إنسان بطعام قال : وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمد في المكروه قال تعالى : « و أمددناهم بقاكة » ونمذله من العذاب مدًا انتهى ملخصا .

وقوله : « واتقوا الذي أمدكم » الخ في معنى تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعلية أي اتقوا الله الذي يمدكم بنعمه لأنه يمدكم بها فيجب عليكم أن تشكروه بوضع نعمه في موضعها من غير إتراف واستكبار فإن كفران النعمة يستعقب السخط والعذاب قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » إبراهيم : ٧ .

وقد ذكر النعم إجمالاً بقوله أولاً : « أمدّكم بما تعلمون » ثم فصلها بقوله ثانياً : « أمدّكم بأموال و بنين و جنّات و عيون » .

و في قوله : « أمدّكم بما تعلمون » نكتة أخرى هي أنكم تعلمون أن هذه النعم من إمداده تعالى وصنعه لا يشاركه في إيجادها والإمداد بها غيره فهو الذي يجب لكم أن تتقوه بالشكر و العبادة دون الأوثان و الأصنام فالكلام متضمن للحجة .

قوله تعالى : « إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » تعليل للأمر بالتقوى أي إنني آمركم بالتقوى شكرًا لأنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إن تكفروا ولم تشكروا ، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم القيامة وإن جوّز بعضهم أن يكون المراد به يوم عذاب الاستئصال .

قوله تعالى : « قالوا سوء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » نفى لاثّر كلامه وإيأس له من إيمانهم بالكليّة .

قيل : الكلام لا يخلو من مبالغة فقد كان مقتضى التريّد أن يقال : أوعظت أم لم تعظ فالعِدول عنه إلى قوله : « أم لم تكن من الواعظين » النافي لأصل كونه واعظاً ما لا يخفى من المبالغة .

قوله تعالى : « إن هذا إلّا خلق الأولين » الخلق بضم الخاء واللام أو سكونها قال الراغب : الخلق و الخلق - أي بفتح الخاء وضمها في الأصل واحد كالشرب و الشرب والصّرم والصّرم لكن خصّ الخلق - بفتح الخاء - بالهيات و الأشكال و الصور المدركة بالبصر ، و خصّ الخلق - بضم الخاء - بالقوى و السجاياء المدركة بالبصيرة قال تعالى : « إنك لعلّى خلق عظيم » وقرى ، « إن هذا إلّا خلق الأولين » انتهى . والإشارة بهذا إلى ما جاء به هود وقد سمّوه وعظّأو المعنى ليس ما تلبّست به من الدعوة إلى التوحيد والموعظة إلّا عادة البشر الأولين الماضين من أهل الأساطير والخرافات ، وهذا كقولهم : إن هذا إلّا أساطير الأولين .

ويمكن أن تكون الإشارة بهذا إلى ما هم فيه من الشرك وعبادة الآلهة من

دون الله اقتداء بآبائهم الأولين كقولهم : «وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» .
واحتمل بعضهم أن يكون المراد ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيا كما حيوا
ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ولا عذاب . وهو بعيد من السياق .
قوله تعالى : «ومانحن بمعذبين» إنكار للمعاد بناء على كون المراد باليوم
العظيم في كلام هود عليه السلام يوم القيامة .
قوله تعالى : « فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية - إلى قوله - الرحيم »
معناه ظاهر مما تقدم .

﴿بحث روائي﴾

في كتاب كمال الدين وروضة الكافي مسنداعن أبي حمزة الثمالي عن أبي
جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام في حديث : وقال نوح إن الله تبارك وتعالى باعث
نبياً يقال له هود وأنه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه وأن الله عز وجل
يهلكهم بالريح فمن أدر كه منكم فليؤمن به وليتبعه فإن الله تبارك وتعالى ينجيهم من
عذاب الريح .

و أمر نوح ابنه سام أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة ويكون يوم
عيدلهم فيتعاهدون فيه بعث هود وزمانه الذي يخرج فيه .

فلما بعث الله تبارك وتعالى هوداً نظروا فيما عندهم من العلم والإيمان وميراث
العلم والاسم الأكبر وآثار علم النبوة فوجدوا هوداً نبياً وقد بشرهم أبوهم نوح
به فآمنوا به وصدقوه واتبعوه فنجوا من عذاب الريح ، وهو قول الله عز وجل :
«وإلى عاد أخاهم هودا» وقوله : « كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود
ألا تتقون » .

وفي المجمع في قوله تعالى : « آية تعذبون » أي مالا تحتاجون إليه لسكناكم
وإنما تريدون العذب بذلك واللعب واللهو كأنه جعل بناهم ما يستغنون عنه عبثاً
منهم عن ابن عباس في رواية عطاء ، ويؤيده الخبر المأثور عن أنس بن مالك أن

رسول الله ﷺ خرج فرأى قبّة فقال : ما هذه ؟ فقالوا له أصحابه : هذا الرجل من الأنصار فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه وصنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب به والإعراض عنه .

فشكى ذلك إلى أصحابه وقال : والله إنني لأنكر أنظر رسول الله ﷺ ما أدري ما حدث في " و ما صنعت ؟ قالوا : خرج رسول الله ﷺ فرأى قبّتك فقال : لمن هذه ؟ فأخبرناه فرجع إلى قبّته فسوّّاها بالأرض فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم ير القبّة فقال : ما فعلت القبّة التي كانت ههنا ؟ قالوا : شكى إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها .

فقال : إن " كل ما يبني وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بدّ منه .
وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وإذا بطشتم بظلمات جبارين » قال : تقتلون بالغضب من غير استحقاق .





كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٣١) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٣٢)
 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٣٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ الْأَعْلَى رَبُّ الْعَالَمِينَ (١٣٥) أَتَتَرَكُونَ فِيْمَا هُمْ هُنَا آمَنِينَ (١٣٦)
 فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٣٨) وَتَنحِتُونَ مِنْ
 الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٣٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٠) وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ
 الْمُسْرِفِينَ (١٤١) الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ (١٤٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
 مِنَ الْمُسْحَرِينَ (١٤٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٤٤)
 قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٤٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ
 فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٤٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٤٧) فَأَخَذَهُمُ
 الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٤٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ (١٤٩) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى إجمال قصة صالح عليه السلام وقومه وهومن أنبياء العرب ويذكر
 في القرآن بعد هود عليه السلام .

قوله تعالى : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ - إلى قوله - على رب العالمين » قد
 اتضح معناها مما تقدم .

قوله تعالى : « أتتركون فيما ههنا آمنين » الظاهر أن الاستفهام للإِنْكار و « ما » موصولة والمراد بها النعم التي يفصلها بعد بقوله : « في جنّات و عيون » الخ ، و « ههنا » إشارة إلى المكان الحاضر القريب و هو أرض ثمود و « آمنين » حال من نائب فاعل « تتركون » .

والمعنى لا تتركون في هذه النعم التي أحاطت بكم في أرضكم هذه و أنتم مطلقوا العنان لا تسألون عما تفعلون آمنون من أيّ مؤاخذة إلهية .

قوله تعالى : « في جنّات و عيون وزروع و نخل طلعها هضيم » بيان تفصيلي لقوله : « فيما ههنا » ، وقد خصّ النخل بالذكر مع دخوله في الجنّات لاهتمامهم به ، والطلع في النخل كالنور في سائر الأشجار والهضيم - على ما قيل - المتداخل المنضمّ بعضه إلى بعض .

قوله تعالى : « وتنجثون من الجبال بيوتا فارهين » قال الراغب : الفره - بالفتح فالكسر صفة مشبهة - الأثر ، وقوله تعالى : « وتنجثون من الجبال بيوتا فارهين » أي حاذقين وقيل : معناه أشرين . انتهى ملخصا ، وعلى ما اختاره تكون الآية من بيان النعمة ، وعلى المعنى الآخر تكون مسوقة لإِنْكار أشْرهم وبطْرهم . والآية على أيّ حال في حيّز الاستفهام .

قوله تعالى : « فاتّقوا الله وأطيعون » تفريع على ما تقدّم من الإِنْكار الذي في معنى المنقي .

قوله تعالى : « ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » الظاهر أن المراد بالأمر ما يقابل النهي بقرينة النهي عن طاعته وإن جوّز بعضهم كون الأمر بمعنى الشأن وعليه يكون المراد بطاعة أمرهم تقليد العامة واتباعهم لهم في أعمالهم وسلوكهم السبيل التي يستحبّون لهم سلوكها .

والمراد بالمسرفين على أيّ حال أشراف القوم وعظماؤهم المتبوعون والخطاب للعامة التابعين لهم وأما السادة الأشراف فقد كانوا مأیوسا من إيمانهم واتباعهم للحقّ .

ويمكن أن يكون الخطاب للجميع من جهة أن الأشراف منهم أيضا كانوا يقتلون آباءهم ويطيعون أمرهم كما قالوا لصالح عليه السلام : «أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا» هود : ٦٢ فقد كانوا جميعا يطيعون أمر المسرفين فنهوا عنه .

وقد فسّر المسرفين وهم المعتدون عن الحق الخارجون عن حد الاعتدال بتوصيفهم بقوله : «الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون» إشارة إلى علّة الحكم الحقيقية فالمعنى اتقوا الله ولا تطيعوا أمر المسرفين لأنهم مفسدون في الأرض غير مصلحين والإفساد لا يؤمن معه العذاب الإلهي وهو عزيز ذوانتقام .

وذلك أن الكون على مابين أجزائه من التضاد والتزاحم مؤلف تأليفا خاصاً يتلاءم معه أجزاؤه بعضها مع بعض في النتائج والآثار كالأمر في كفتي الميزان فإنهما على اضطرابهما واختلافهما الشديد بالارتفاع والانخفاض متوافقتان في تعيين وزن المتاع الموزون وهو الغاية والعالم الإنساني الذي هو جزء من الكون كذلك ثم الفرد من الإنسان بماله من القوى والأدوات المختلفة المتضادة مفطور على تعديل أفعاله وأعماله بحيث تنال كل قوة من قواه حظها المقدّر لها وقد جهّز بعقل يميز بين الخير والشر ويعطي كل ذي حق حقه .

فالكون يسير بالنظام الجاري فيه إلى غايات صالحة مقصودة وهو بما بين أجزائه من الارتباط التام يخط لكل من أجزائه سبيلا خاصة يسير فيها بأعمال خاصة من غير أن يميل عن حاق وسطها إلى يمين أو يسار أو ينحرف بإفراط أو تفريط فإن في الميل والانحراف إفساداً للنظام المرسوم ، ويتبعه إفساد غايته وغاية الكل ، ومن الضروري أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له وإفساد النظم المفروض له ولغيره يستعقب منازعة بقية الأجزاء له فإن استطاعت أن تقيمه وتردّه إلى وسط الاعتدال فهو وإلا أفنته وعفت آثاره حفظا لصالح الكون واستبقاء لقوامه .

والإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكليّة فإن جرى على ما يهديه إليه الفطرة فاز بالسعادة المقدّرة له وإن تعدّى حدود فطرته

وأفسد في الأرض أخذ الله سبحانه بالسنين والمثلثات وأنواع النكال والنقمة لعلهم يرجع إلى الصلاح والسداد قال تعالى : «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون» الروم : ٤١ .

وإن أقاموا مع ذلك على الفساد لرسوخه في نفوسهم أخذهم الله بعذاب الاستئصال وطهر الأرض من قذارة فسادهم قال تعالى : «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» الاعراف : ٩٦ . وقال : «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» هود : ١١٧ وقال : «إن الأرض يرثها عبادي الصالحون» الأنبياء : ١٠٥ وذلك أنهم إذا صلحوا صلحت أعمالهم وإذا صلحت أعمالهم وافقت النظام العام وصلحت بها الأرض لحياتهم الأرضية .

فقد تبين بما مرّ أولاً أن حقيقة دعوة النبوة هي إصلاح الحياة الإنسانية الأرضية قال تعالى حكاية عن شعيب : «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت» هود : ٨٨ .

وثانياً أن قوله : «ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون الخ» على سذاجة بيانه معتمد على حجة برهانية .

ولعل في قوله : «ولا يصلحون» بعد قوله : «الذين يفسدون في الأرض» إشارة إلى أنه كان المتوقع منهم بما أنهم بشر وذوو فطرة إنسانية أن يصلحوا في الأرض لكنهم انحرفوا عن الفطرة وبدلوا الإصلاح إفساداً .

قوله تعالى : «قالوا إنما أنت من المسحurin» أي ممن سحر مرة بعد مرة حتى غلب على عقله ، وقيل : إن السحر أعلى البطن والمسحور من له جوف فيكون كناية عن أنك بشر مثلنا تأكل وتشرب فيكون قوله بعده : «وما أنت إلا بشر مثلنا» تأكيداً له ، وقيل : المسحور من له سحر أي رئة كأن مرادهم أنك متنفس بشر مثلنا .

قوله تعالى : «وما أنت إلا بشر مثلنا» إلى قوله - عذاب يوم عظيم» الشرب

بكسر الشين النصيب من الماء ، والباقي ظاهر وقد تقدّمت تفصيل القصة في سورة هود .

قوله تعالى : «فعقروها فأصبحوا نادمين» نسبة العقّر إلى الجميع - ولم يعقروها إلا واحد منهم - لرضاهم بفعله ، وفي نهج البلاغة : أيّها الناس إنّما يجمع الناس الرضى والسخط وإنّما عقروا ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه : «فعقروها فأصبحوا نادمين» .

وقوله : «فأصبحوا نادمين» لعلّ ندمهم إنّما كان عند مشاهدتهم ظهور آثار العذاب وإن قالوا له بعد العقّر تعجيزا واستهزاء : «يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين» الأعراف : ٧٧ .

قوله تعالى : «فأخذهم العذاب» إلى قوله - العزيز الرحيم، اللام للعهد أي أخذهم العذاب الموعود فإنّ صالحا وعدهم نزول العذاب بعد ثلاثة أيّام كما في سورة هود ، والباقي ظاهر .





كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١)
 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنْ
 الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
 عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ
 إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَائِلِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنجَّيْنَاهُ
 وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) الْأَعْجُوزَ فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢)
 وَآمَظَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ
 أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) .

﴿بيان﴾

تشير الآيات إلى قصة لوط النبي ﷺ وهو بعد صالح ﷺ .
 قوله تعالى : « كذبت قوم لوط المرسلين - إلى قوله - رب العالمين »
 تقدم تفسيره .

قوله تعالى : « أتأتون الذكران من العالمين » الاستفهام للإنكار والتوبيخ
 والذكران جمع ذكر مقابل الأنثى وإتيانهم كناية عن اللواط وقد كان شاع فيما
 بينهم ، والعالمين جمع عالم وهو الجماعة من الناس .

وقوله : « من العالمين » يمكن أن يكون متصلاً بضمير الفاعل في « تأتون » والمراد تأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع ؟ فيكون في معنى قوله في موضع آخر : « ماسبقكم بها من أحد من العالمين » الاعراف : ٨٠ ، العنكبوت ٢٨ . ويمكن أن يكون متصلاً بقوله : « الذكران » والمعنى على هذا أتنكحون من بين العالمين - على كثرتهم واشتغالهم على النساء - الرجال فقط ؟ .
قوله تعالى : « وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم » الخ « تذرون » بمعنى تتركون ولا ماضي له من مادته .

والماتمّل في خلق الإنسان وانقسام أفرادهِ إلى صنفَي الذكر والأنثى و ما جهّز به كلّ من الصنفين من الأعضاء والأدوات وما يختصّ به من الخلقة لا يرتاب في أن غرض الصنع والإيجاد من هذا التصوير المختلف وإلقاء غريزة الشهوة في القبيلين وتفريق أمرهما بالفعل والانفعال أن يجمع بينهما بالنكاح ليتوسّل بذلك إلى التناسل الحافظ لبقاء النوع حتّى حين .

فالرجل من الإنسان بما هو رجل مخلوق للمرأة منه لا للرجل مثله والمرأة من الإنسان بما هي امرأة مخلوقة للرجل منه لا للمرأة مثلها وما يختصّ به الرجل في خلقته للمرأة وما يختصّ به المرأة في خلقته للرجل وهذه هي الزوجية الطبيعية التي عقدها الصنع والإيجاد بين الرجل والمرأة من الإنسان فجعلهما زوجين .

ثمّ الأغراض والغايات الاجتماعية أو الدينية سنّت بين الناس سنة النكاح الاجتماعيّ الاعتباري الذي فيه نوع من الاختصاص بين الزوجين وقسم من التحديد للزوجية الطبيعية المذكورة فالفطرة الإنسانية والخلقة الخاصة تهديه إلى ازدواج الرجال بالنساء دون الرجال وازدواج النساء بالرجال دون النساء ، وأنّ الازدواج مبنيّ على أصل التوالد والتناسل دون الاشتراك في مطلق الحياة .

و من هنا يظهر أنّ الأقرب أن يكون المراد بقوله : « ما خلق لكم ربكم »

العضو المباح للرجال من النساء بالازدواج واللام للملك الطبيعي ، وأن " من ، في قوله : " من أزواجكم " للتبعيض والزوجة هي الزوجية الطبيعية وإن أمكن أن يراد بها الزوجية الاجتماعية الاعتبارية بوجه .

وأما تجويز بعضهم أن يراد بلفظة "ماء" النساء ويكون قوله : " من أزواجكم ، بيانا له فبعيد .

وقوله : " بل أنتم قوم عادون ، أي متجاوزون خارجون عن الحد " الذي خطته لكم الفطرة والخلقة فهو في معنى قوله : " إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، العنكبوت : ٢٩ .

وقد ظهر من جميع ما مر " أن " كلامه ﷺ مبني على حجة برهانية اُشير إليها .

قوله تعالى : " قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ، أي المطبوعين المنفيين من قريتنا كما نقل عنهم في موضع آخر : " أخرجوا آل لوط من قريتهم " .

قوله تعالى : " قال إنني لعملكم من القالين " المراد بعملهم - على ما يعطيه السياق - إتيان الذكران وترك الإناث . و القالي المبغض ، و مقابلة تهديدهم بالنقي يمثل هذا الكلام من غير تعرض للجواب عن تهديدهم يفيد من المعنى أني لا أخاف الخروج من قريتهم ولا أكثرث به بل مبغض لعملكم راغب في النجاة من وباله النازل بكم لا محالة ، ولذا أتبعه بقوله : " رب نجني وأهلي مما يعملون " .

قوله تعالى : " رب نجني وأهلي مما يعملون " أي من أصل عملهم الذي يأتون به بمرئي ومسمع منه فهو منزجر منه أو من وبال عملهم والعذاب الذي سيقبه لاحالة .

و إنما لم يذكر إلاً نفسه وأهله إذ لم يكن آمن به من أهل القرية أحد قال

تعالى في ذلك : « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » الذاريات : ٢٦ .
 قوله تعالى : « فنَجِّينَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ - إلى قوله - الآخرين » الغابر كما
 قيل الباقي بعد ذهاب من كان معه ، والتدمير الإهلاك ، والباقي ظاهر .
 قوله تعالى : « وأمطرنا عليهم مطرا » الخ وهو السجيل كما قال تعالى :
 « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » الحجر : ٧٤ .
 قوله تعالى : « إنَّ في ذلك لآية - إلى قوله - العزيز الرحيم » تقدّم تفسيره .





كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذِ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا
تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩)
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا
الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢)
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مَقْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا
الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥)
وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ
السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨)
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٨٩) إِنْ فِي
ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ (١٩١).

﴿بيان﴾

إجمال قصّة شعيب عليه السلام وهو من أنبياء العرب ، وهي آخر القصص السبع
الموردة في السورة .

قوله تعالى : « كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ - إِلَى قَوْلِهِ - رَبُّ الْعَالَمِينَ »
الْأَيْكَةِ الْغِيْضَةُ الْمُلْتَفٌ شَجَرُهَا . قِيلَ : إِنَّهَا كَانَتْ غِيْضَةً بِقَرْبِ مَدِينٍ يَسْكُنُهَا طَائِفَةٌ

وكانوا ممّن بعث إليهم شعيب عليه السلام ، وكان أجنبيّاً منهم ولذلك قيل : «إذ قال لهم شعيب» ولم يقل : أخوهم شعيب بخلاف هود وصالح فقد كانا نسيبين إلى قومهما وكذا لوط فقد كان نسبياً إلى قومه بالمصاهرة ولذا عبّر عنهم بقوله : «أخوهم هود» «أخوهم صالح» «أخوهم لوط» .

وقد تقدّم تفسير باقي الآيات .

قوله تعالى : «أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم» الكيل ما يقدّره المتاع من جهة حجمه وإيقاؤه أن لا ينقص الحجم ، والقسطاس الميزان الذي يقدّره من جهة وزنه واستقامته أن يزن بالعدل ، والآيتان تأمران بالعدل في الأخذ والإعطاء بالكيل والوزن .

قوله تعالى «ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين» البخس النقص في الوزن والتقدير كما أن الإخسار النقص في رأس المال .

وظاهر السياق أن قوله : «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» أي سلّهم وأمتعتهم قيد متمم لقوله : «وزنوا بالقسطاس المستقيم» كما أن قوله : «ولا تكونوا من المخسرين» قيد متمم لقوله : «أوفوا الكيل» وقوله : «ولا تعثوا في الأرض مفسدين» تأكيد للنهيين جميعاً أعني قوله : «لا تخسروا» وقوله : «لا تبخسوا» وبيان لتبعية التطفيف السيئة المشومة .

وقوله : «ولا تعثوا في الأرض مفسدين» العثي والعيث الإفساد فقوله : «مفسدين» حال مؤكّد وقد تقدّم في قصّة شعيب من سورة هود وفي قوله : «وزنوا بالقسطاس المستقيم» ذلك خير وأحسن تأويلاً الآية ٣٥ من سورة الإسراء كلام في كيفية إفساد التطفيف المجتمع الإنساني فراجع .

قوله تعالى : «واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين» قال في المجمع : الجبلة الخليقة التي طبع عليها الشيء . انتهى فالمراد بالجبلة ذوو الجبلة أي اتقوا الله الذي خلقكم وآباءكم الأولين الذين فطروهم وقرّر في جبلتهم تقبيح الفساد والاعتراف بشؤمه .

ولعلّ هذا الذي أشرنا إليه من المعنى هو الموجب لتخصيص الجبلة بالذكر وفي الآية على أيّ حال دعوة إلى توحيد العبادة فإنهم لم يكونوا ينشقون الخالق الذي هو ربّ العالمين .

قوله تعالى : «قالوا إنّما أنت من المسحّرين - إلى قوله - وإن نظنّك لمن الكاذبين» تقدّم تفسير الصدر ، و«إن» في قوله : «إن نظنّك» مخفّفة من الثقيلة .

قوله تعالى : «فأسقط علينا كسفا من السماء» الخ الكسف بالكسر فالفتح - على ما قيل - جمع كسفة وهي القطعة ، والأمر مبنيّ على التعجيز والاستهزاء .

قوله تعالى : «قال ربّي أعلم بما تعملون» جواب شعيب عن قولهم واقتراحهم منه إتيان العذاب ، وهو كناية عن أنّه ليس له من الأمر شيء . وإنّما الأمر إلى الله لأنّه أعلم بما يعملون وأنّ عملهم هل يستوجب عذاباً ؟ وما هو العذاب الذي يستوجبه إذا استوجب ؟ فهو كقول هود لقومه : «إنّما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به» الاحقاف : ٢٣ .

قوله تعالى : «فكذبوه» فأخذهم عذاب يوم الظلّة، الخ يوم الظلّة يوم عذب فيه قوم شعيب بظلّة من الغمام ، وقد تقدّم تفصيل قصّتهم في سورة هود .
قوله تعالى : «إنّ في ذلك لآية - إلى قوله - العزيز الرحيم» تقدّم تفسيره .

﴿ بحث روائي ﴾

في جوامع الجامع في قوله تعالى : «إذ قال لهم شعيب» وفي الحديث أنّ شعيباً أخامدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة .

وفي تفسير القميّ في قوله تعالى : «واتّقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين» قال : الخلق الأولين ، وقوله : «فكذبوه» قال : قوم شعيب فأخذهم عذاب يوم الظلّة، قال : يوم حرّ وسمائم .



وَ أَنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا نَنْزِلُ بِهِ الشَّيَاطِينَ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ

تَنْزِلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنْزِلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ
 أَكْثَرَهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي
 كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى ما هو كالنتيجة المستخرجة من القصص السبع السابقة
 ويتضمن التوبيخ والتهديد لكفار الأمة .

وفيها دفاع عن نبوة النبي ﷺ بالاحتجاج عليه بذكره في زبر الأولين
 وعلم علماء بني إسرائيل به ، ودفاع عن كتابه بالاحتجاج على أنه ليس من إلقاءات
 الشياطين ولا من أقاويل الشعراء .

قوله تعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين » الضمير للقرآن ، وفيه رجوع
 إلى ما في صدر السورة من قوله : « تلك آيات الكتاب المبين » وتعقيب لحديث
 كفرهم به كما في قوله بعد ذلك : « وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا
 كانوا عنه معرضين فقد كذبوا به » الآية .

والتنزيل والإنزال بمعنى واحد غير أن الغالب على باب الإفعال الدفعة
 وعلى باب التفعيل التدريج ، وأصل النزول في الأجسام انتقال الجسم من مكان
 عال إلى ما هو دونه وفي غير الأجسام بما يناسبه .

وتنزيله تعالى إخراجه الشيء من عنده إلى موطن الخلق والتقدير وقد
 سمى نفسه بالعلي العظيم والكبير المتعال ورفيع الدرجات والقاهر فوق عباده

فيكون خروج الشيء بإيجاده من عنده إلى عالم الخلق والتقدير - وإن شئت فقل : إخراجهم من عالم الغيب إلى عالم الشهادة - تنزيلاً منه تعالى له .

وقد استعمل الإنزال و التنزيل في كلامه تعالى في أشياء بهذه العناية كقوله تعالى : «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم» الأعراف : ٢٦ وقوله : «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج» الزمر : ٦ ، وقوله : «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» الحديد : ٢٥ ، وقوله : «ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم» البقرة : ١٠٥ وقد أطلق القول في قوله : «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» الحجر : ٢١ .

ومن الآيات الدالة على اعتبار هذا المعنى في خصوص القرآن قوله تعالى : «إننا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم» الزخرف : ٤ .

وقد أضيف التنزيل إلى رب العالمين للدلالة على توحيد الرب تعالى لما تكرر مراراً أن المشركين إنما كانوا يعترفون به تعالى بما أنه رب الأرباب ولا يرون أنه رب العالمين .

قوله تعالى : «نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين» المراد بالروح الأمين هو جبريل ملك الوحي بدليل قوله : «من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بأذن الله» البقرة : ٩٧ وقد سمّاه في موضع آخر بروح القدس : «قل نزله روح القدس من ربك بالحق» النحل : ١٠٢ ، وقد تقدّم في تفسير سورتي النحل والإسراء ما يتعلق بمعنى الروح من الكلام .

وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على أنه مأمون في رسالته منه تعالى إلى نبيه ﷺ لا يغير شيئاً من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعمد أو سهو أو نسيان كما أن توصيفه في آية أخرى بالقدس يشير إلى ذلك .

وقوله : «نزل به الروح» الباء للتعدية أي نزله الروح الأمين ، وأما قول

من قال : إن الباء للمصاحبة والمعنى نزل معه الروح فلا يلتفت إليه لأن العناية في المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن .

والضمير في «نزل به» للقرآن بما أنه كلام مؤلف من ألفاظ لها معانيها الحقّة فإن ألفاظ القرآن نازلة من عنده تعالى كما أن معانيها نازلة من عنده على ما هو ظاهر قوله : «فإذا قرأناه فاتبع قرآنه» القيامة : ١٨ ، وقوله : «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق» آل عمران : ١٠٨ الجاثية : ٦ إلى غير ذلك .

فلا يعبؤ بقول من قال : إن الذي نزل به الروح الأمين إنما هو معاني القرآن الكريم ثم النبي ﷺ كان يعبر عنها بما يطابقها ويحكمها من الألفاظ بلسان عربي .

وأسخر منه قول من قال : إن القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النبي ﷺ ألغى مرتبة من نفسه الشريفة تسمى الروح الأمين إلى مرتبة منها تسمى القلب . والمراد بالقلب المنسوب إليه الإدراك والشعور في كلامه تعالى هو النفس الإنسانية التي لها الإدراك وإليها تنتهي أنواع الشعور والإرادة دون اللحم والصورى . المعلق عن يسار الصدر الذي هو أحد الأعضاء الرئيسة كما يستفاد من مواضع في كلامه تعالى كقوله : «وبلغت القلوب الحناجر» الأحزاب : ١٠ ، أي الأرواح وقوله : «فإنه آثم قلبه» البقرة : ٢٨٣ ، أي نفسه إذ لا معنى لنسبة الإثم إلى العضو الخاص .

ولعل الوجه في قوله : «نزل به الروح الأمين على قلبك» دون أن يقول : عليك هو الإشارة إلى كيفية تلقيه القرآن النازل عليه ، وأن الذي كان يتلقاه من الروح هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواس الظاهرة التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئية .

فكان ﷺ يرى ويسمع حينما كان يوحى إليه من غير أن يستعمل حاستي البصر والسمع كما روي أنه كان يأخذه شبه إغماء يسمى برحاء الوحي .

فكان ﷺ يرى الشخص ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت

غير أنه ما كان يستخدم حاستي بصره وسمعه المادّيتين في ذلك كما نستخدمهما .
ولو كان رؤيته وسمعه بالبصر والسمع المادّيتين لكان ما يجده مشتركا بينه
وبين غيره فكان سائر الناس يرون ما يراه ويسمعون ما يسمعه ، والنقل القطعي
يكذب ذلك فكثيراً ما كان يأخذه برجاء الوحي وهو بين الناس فيوحي إليه ومن
حوله لا يشعرون بشيء ولا يشاهدون شخصاً يكلمه ولا كلاماً يلقي إليه .

والقول بأن من الجائز أن يصرف الله تعالى حواس غيره ﷺ من الناس
عن بعض ما كانت تناله حواسه وهي الأمور الغيبية المستورة عنا .

هدم لبنيان التصديق العلمي إذ لو جاز مثل هذا الخطأ العظيم على الحواس
وهي مفتاح العلوم الضرورية والتصديقات البديهيّة وغيرها لم يبق وثوق على شيء
من العلوم والتصديقات .

على أن هذا الكلام مبني على أصالة الحس وأن لا وجود إلا لمحسوس وهو
من أفحش الخطأ وقد تقدّم في تفسير سورة مريم كلام في معنى تمثّل الملك نافع
في المقام .

وربّما قيل في وجه تخصيص القلب بالإنزال أنه لكونه هو المدرك المكلف
دون الجسد وإن كان يتلقّى الوحي بتوسيط الأدوات البدنيّة من السمع والبصر
وقد عرفت مافيه .

وربّما قيل : لما كان للنبي ﷺ جهتان جهة ملكيّة يستفيض بها وجهة
بشريّة يفيض بها جعل الإنزال على روحه لأنها المنتصفة بالصفات الملكيّة التي
يستفيض بها من الروح الأمين وللإشارة إلى ذلك قيل : « على قلبك » ولم يقل :
عليك مع كونه أخصر . انتهى .

وهذا أيضاً مبني على مشاركة الحواس والقوى البدنيّة في تلقي الوحي
فيرد عليه ما قدّمناه .

وذكر جمع من المفسّرين أن المراد بالقلب هو العضو الخاص البدني وأن
الإدراك كيفما كان من خواصّه .

فمنهم من قال : إن جعل القلب متعلق بالإِنزال مبني على التوسّع لأن الله تعالى يُسمع القرآن جبريل بخلق الصوت فيحفظه وينزل به على الرسول ﷺ ويقرؤه عليه فيعيه ويحفظه بقلبه فكأنه نزل به على قلبه .

ومنهم من قال : إن تخصيص القلب بالإِنزال لأن المعاني الروحانية تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منها إلى القلب لما بينهما من التعلّق ثم تنتقل منه إلى الدماغ فينقش بالوح المنخيلة .

ومنهم من قال : إن تخصيصه به للإشارة إلى كمال تعقله ﷺ حيث لم يعتبر الوسائط من سمع وبصر وغيرهما .

ومنهم من قال : إن ذلك للإشارة إلى صلاح قلبه ﷺ و تقدّسه حيث كان منزلاً لكلامه تعالى ليعلم به صلاح سائر أجزائه وأعضائه فإن القلب رئيس سائر الأعضاء وملكها وإذا صلح الملك صلحت رعيته .

ومنهم من قال : إن ذلك لأن الله تعالى جعل لقلب رسوله ﷺ سمعاً وبصراً مخصوصين يسمع ويبصر بهما تمييزاً لثأنه من غيره كما يشعر به قوله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى » النجم : ١١ .

وهذه الوجوه مضافاً على اشتغال أكثرها على المجازفة مبنية على قياس هذه الأمور الغيبية على ما عندنا من الحوادث المادية وإجراء حكمها فيها وقد بلغ من تعسف بعضهم أن قال : إن معنى إنزال الملك القرآن أن الله ألهمه كلامه وهو في السماء وعلمه قراءته ثم الملك أداه في الأرض وهو يهبط في المكان وفي ذلك طريقتان : إحداهما أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية فأخذه من الملك ، وثانيتهما أن الملك انخلع إلى صورة البشرية حتى يأخذه النبي ﷺ والأولى أصعب الحالين . انتهى .

وليت شعري ما الذي تصوّره من انخلاع الإنسان من صورته إلى صورة الملكية وصيرورته ملكاً ثم عوده إنساناً ومن انخلاع الملك إلى صورة الإنسانية

وقد فرض لكلّ منهما هويّة مغايرة للآخر لرابطة بين أحدهما والآخر ذاتا وأثرا وفي كلامه مواضع أخرى للنظر غير خفيّة على من تأمل فيه .
وللمبحث تتمّة لعلّ الله سبحانه يوفّقنا لاستيفائها بإيراد كلام جامع في الملك وآخر في الوحي .

و قوله : « لتكون من المُنذرين » أي من الداعين إلى الله سبحانه بالتخويف من عذابه وهو المراد بالإِندار في عرف القرآن دون النبيّ أو الرسول بالخصوص قال تعالى : في مؤمني الجنّ « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن حتّى إذا حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم مُنذرين » الأحقاف : ٢٩ وقال في المتفكّكين من المؤمنين : « ليتفكّكوا في الدين وليُنذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » براءة : ١٢٢ .

و إنّما ذكر إنذاره ﷺ غاية لإِزال القرآن دون نبوّته أو رسالته لأنّ سياق آيات السورة سياق التخويف والتهديد .

وقوله « بلسان عربيّ مبين » أي ظاهر في عربيّته أو مبين للمقاصد تمام البيان والجارّ والمجرور متعلّق بنزل أي أنزله بلسان عربيّ مبين .

و جوّز بعضهم أن يكون متعلّقاً بقوله : « مُنذرين » والمعنى أنزله على قلبك لتدخل في زمرة الأنبياء من العرب وقد ذكر منهم في القرآن هود وصالح وإسماعيل وشعيب ﷺ وأولّ الوجهين أحسنهما .

قوله تعالى : « و إنّني لفي زبر الأولّين » الضمير للقرآن أو نزوله على النبيّ ﷺ والزبر جمع زبور وهو الكتاب والمعنى وإنّ خبر القرآن أو خبر نزوله عليك في كتب الماضين من الأنبياء .

وقيل : الضمير لما في القرآن من المعارف الكلّيّة أي إنّ المعارف القرآنيّة موجودة مذكورة في كتب الأنبياء الماضين .

و فيه أوّلاً أنّ المشركين ما كانوا يؤمنون بالأنبياء و كتبهم حتّى يحتاج عليهم بما فيها من النوحيد والمعاد وغيرهما ، وهذا بخلاف ذكر خبر القرآن

ونزوله على النبي ﷺ في كتب الأولين فإنه حينئذ يكون ملحمة تضطر النفوس إلى قبولها .

وثانياً أنه لا يلائم الآية التالية .

قوله تعالى : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ، ضمير » أن يعلمه » لخبر القرآن أو خبر نزوله على النبي ﷺ أي أولم يكن علم علماء بني إسرائيل بخبر القرآن أو نزوله عليك على سبيل البشارة في كتب الأنبياء الماضين آية للمشركين على صحة نبوتك و كانت اليهود تبشّر بذلك و تستفتح على العرب به كما مر في قوله تعالى : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » البقرة : ٨٩ .

وقد أسلم عدة من علماء اليهود في عهد النبي ﷺ واعترفوا بأنه مبشّر به في كتبهم ، و السورة من أوائل السور المكيّة النازلة قبل الهجرة ولم تبلغ عداوة اليهود للنبي ﷺ مبلغها بعد الهجرة وكان من المرجو أن ينطقوا ببعض ما عندهم من الحق ولو بوجه كلي .

قوله تعالى : « ولونزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » قال في المفردات : العجمة خلاف الإبانة والإعجام الإبهام - إلى أن قال - والعجم خلاف العرب والعجمي منسوب إليهم ، والأعجم من في لسانه عجمة عربياً كان أو غير عربي اعتباراً بقلّة فهمهم عن العجم ، ومنه قيل للبهيمة عجماء والأعجمي منسوب إليه قال تعالى : « ولونزلناه على بعض الأعجمين » على حذف الياءات انتهى .

ومقتضى ما ذكره - كما ترى - أن أصل الأعجمين الأعجميين ثم حذفت ياء النسبة وبه صرح بعض آخر وذكر بعضهم أن الوجه أن أعجم مؤنثه عجماء وأفعل فعلاء لا يجمع جمع السلامة لكن الكوفيّين من النحاة يجوّزون ذلك وظاهر اللفظ يؤيد قولهم فلا موجب للقول بالحذف .

وكيف كان فظاهر السياق اتصال الآيتين بقوله : « بلسان عربي مبين »

فتكونان في مقام التعليل له ويكون المعنى نزّلناه عليك بلسان عربيّ ظاهر العربية واضح الدلالة ليؤمنوا به ولا يتعلّلوا بعدم فهمهم مقاصده ولونزّلناه على بعض الأعجمين بلسان أعجميّ ما كانوا به مؤمنين وردّوه بعدم فهم مقاصده

فيكون المراد بنزوله على بعض الأعجمين نزوله أعجميّاً ولسانه والآيتان والتّي بعدهما في معنى قوله تعالى : «ولو جعلناه قرآنا أعجميّاً لقالوا لولا فصلت آياته أعجميّ وعربيّ» قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى « حم السجدة : ٤٤ .

وقال بعضهم : إنّ المعنى ولونزّلناه قرآنا عربيّاً كما هو بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرّون على التكلّم بالعربية فقرأ عليهم قراءة صحيحة خارقة للعادات ما كانوا به مؤمنين مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة .

قال : و أمّا قول بعضهم : إنّ المعنى ولونزّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأ عليهم ما كانوا به مؤمنين فليس بذاك فإنّه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم في المكابرة والعناد . انتهى ملخصاً .

وفيه أن اتّصال الآيتين بقوله : « بلسان عربيّ مبين » أقرب إليهما من اتّصالهما بسياق تمادي الكفّار في كفرهم وجحودهم وقد عرفت توضيحه .

ويمكن أن يورد على الوجه السابق أن الضمير في قوله : « ولونزّلناه على بعض الأعجمين » راجع إلى هذا القرآن الذي هو عربيّ فلو كان المراد تنزيله بلسان أعجميّ لكان المعنى ولونزّلنا العربيّ غير عربيّ ولا محصل له .

ويردّه أنّه من قبيل قوله تعالى : «إنّا جعلناه قرآنا عربيّاً لعلّكم تعقلون» الزخرف : ٣ ولا معنى لقولنا : «إنّا جعلنا العربيّ عربيّاً فالمراد بالقرآن على أيّ حال الكتاب المقروء .

قوله تعالى : « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين » الإشارة بقوله : « كذلك » إلى الحال التي عليها القرآن عند المشرّكين وقد ذكرت في الآيات السابقة وهي أنّهم

معرضون عنه لا يؤمنون به وإن كان تنزيلاً من ربّ العالمين وكان عربياً سبينا غير أعجمي وكان مذكوراً في زبر الأولين يعلمه علماء بني إسرائيل .

و السلوك الإِدخال في الطريق والإِمرار ، والمراد بالمجرمين هم الكفار و المشركون وذكرهم بوصف الإِجرام للإِشارة إلى علّة الحكم وهو سلوكه في قلوبهم على هذه الحال المبغوضة والمنقورة وأنّ ذلك مجازاة إلهيّة جازاهم بها عن إجرامهم وليعمّ الحكم بعموم العلّة .

والمعنى على هذه الحال - وهي أن يكون بحيث يعرض عنه ولا يؤمن به - ندخل القرآن في قلوب هؤلاء المشرّكين ونمرّه في نفوسهم جزاء لإِجرامهم وكذلك كلّ مجرم .

وقيل: الإِشارة إلى ما ذكر من أوصاف القرآن الكريم والمعنى ندخل القرآن ونمرّه في قلوب المجرمين بمثل ما بيّنناه الأوصاف فيرون أنّه كتاب سماوي ذو نظم معجز خارج عن طوق البشر وأنّه مبشّر به في زبر الأولين يعلمه علماء بني إسرائيل وتتمّ الحجّة به عليهم . وهو بعيد من السياق .

وقيل : الضمير في «نسلكه» للتكذيب بالقرآن والكفر به المدلول عليه بقوله : « ما كانوا به مؤمنين » هذا و هو قريب من الوجه الأوّل لكنّ الوجه الأوّل أُلطف وأدقّ ، وقد ذكره في الكشف .

وقد تبينّ بما تقدّم أنّ المراد بالمجرمين مشرّكوك مكيّة غير أنّ عموم وصف الإِجرام يعمّم الحكم ، وقال بعضهم : إنّ المراد بالمجرمين غير مشرّكي مكيّة من معاصريهم و من يأتي بعدهم ، والمعنى كما سلكناه في قلوب مشرّكي مكيّة نسلكه في قلوب غيرهم من المجرمين .

ولعلّ الذي دعاه إلى اختيار هذا الوجه إشكال اتّحاد المشبه والمشبّه به على الوجه الأوّل مع لزوم المغايرة بينهما فاعتبر المشار إليه بقوله : « كذلك » السلوك في قلوب مشرّكي مكيّة وهو المشبّه به وجعل المشبه غيرهم من المجرمين وفيه أن تشبيه الكلّيّ ببعض أفرادهِ للدلالة على سراية حكمه في جميع الأفراد طريقة شائعة .

ومن هنا يظهر أن هناك وجهاً آخر هو أن يكون المراد بالمجرمين ما يعم مشركي مكة وغيرهم بجعل اللآثم فيه لغير العهد ولعل الوجه الأول أقرب من السياق .

قوله تعالى : « لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم » - إلى قوله - « منظرون » تفسير وبيان لقوله : « كذلك نسلكه » الخ هذا على الوجه الأول والثالث من الوجوه المذكورة في الآية السابقة وأما على الوجه الثاني فهو استثناء غير مرتبط بما قبله .

وقوله : « حتى يروا العذاب الأليم » أي حتى يشاهدوا العذاب الأليم فيلجئهم إلى الإيمان الاضطراري الذي لا ينفعهم ، والظاهر أن المراد بالعذاب الأليم ما يشاهدونه عند الموت واحتمل بعضهم أن يكون المراد به ما أصابهم يوم بدر من القتل لكن عموم الحكم في الآية السابقة لمشركي مكة وغيرهم لا يلائم ذلك .

وقوله : « فيأتهم بغته وهم لا يشعرون » كالتفسير لقوله : « حتى يروا العذاب الأليم » إذ لو لم يأتهم بغته و علموا به قبل مواعده لاستعدوا له و آمنوا باختيار منهم غير ملجئين إليه .

وقوله : « فيقولوا هل نحن منظرون » كلمة تحسر منهم .
قوله تعالى : « أفعبأبنا يستعجلون » توبيخ وتهديد .

قوله تعالى : « أفأرأيت إن متعناهم سنين - إلى قوله - يمتعون » متصل بقوله : « فيقولوا هل نحن منظرون » ومحصل المعنى أن تمنني الإمهال والآن نظار تمنني أمر لا ينفعهم لو وقع على ما يتمنونه ولم يغن عنهم شيئاً لو أجيبوا إلى ما سألوه فإن تمتيعهم أمداً محدوداً طال أو قصر لا يرفع العذاب الخالد الذي قضى في حقهم .

وهو قوله : « أفأرأيت إن متعناهم سنين » معدودة تنقضي « ثم جاءهم ما كانوا يوعدون » من العذاب بعد انقضاء سني الإمهال « ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » أي تمتيعهم أمداً محدوداً .

قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى » الخ الأقرب أن يكون قوله : « لها منذرون » حالاً من « قرية » وقوله : « ذكرى » حالاً من ضمير الجمع في « منذرون » أو مفعولاً مطلقاً عاملاً « منذرون » لكونه في معنى مذكرون والمعنى ظاهر ، وقيل غير ذلك ممّا لا جدوى في ذكره وإطالة البحث عنه .

وقوله : « وما كنا ظالمين » ورود النقي على الكون دون أن يقال : وما ظلمناهم و نحو ذلك يفيد نفي الشائبة أي و ما كان من شأننا ولا المترقب ممّا أن نظلمهم .

و الجملة في مقام التعليل للحصر السابق والمعنى ما أهلكنا من قرية إلا في حال لها منذرون مذكرون تتم بهم الحجّة عليهم لأنّ لو أهلكناهم في غير هذه الحال لكنّا ظالمين لهم وليس من شأننا أن نظلم أحداً فالآية في معنى قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » أسرى : ١٥ .

﴿ كلام في معنى نفى الظلم عنه تعالى ﴾

من لوازم معنى الظلم المتساوية له فعل الفاعل وتصرفه ما يملكه من الفعل والنصرف ، و يقابله العدل ولازمه أنّه فعل الفاعل و تصرفه ما يملكه .

ومن هنا يظهر أنّ أفعال الفواعل التكوينية من حيث هي مملوكة لها تكويناً لا يتحقق فيها معنى الظلم لأنّ فرض صدور الفعل عن فاعله تكويناً مساوق لكونه مملوكاً له بمعنى قيام وجوده به قياماً لا يستقلّ دونه .

ولله سبحانه ملك مطلق منبسط على الأشياء من جميع جهات وجودها لقيامها به تعالى من غير غنى عنه واستقلال دونه بأيّ تصرف تصرفه فيها ممّا يسرها أو يسوؤها أو ينفعها أو يضرّها ليس من الظلم في شيء وإن شئت فقل : عدل بمعنى ما ليس بظلم فله أن يفعل ما يشاء وله أن يحكم ما يريد كلّ ذلك بحسب التكوين .

فله تعالى ملك مطلق بذاته ، ولغيره من الفواعل التكوينية ملك تكويني بالنسبة إلى فعله حسب الإعطاء و الموهبة الإلهية وهو ملك في طول ملكه تعالى وهو المالك لما ملكها والمهيمن على ما عليه سلطها .

ومن جملة هذه الفواعل النوع الإنساني بالنسبة إلى أفعاله وخاصة ما نسّميتها بالأفعال الاختيارية والاختيار الذي يتعين به هذه الأفعال فالواحد منها يجد من نفسه عياناً أنه يملك الاختيار بمعنى إمكان الفعل والترك معاً ، فان شاء فعل وإن لم يشأ ترك فهو يرى نفسه حرّاً يملك الفعل والترك أي "فعل وترك كانا بمعنى إمكان صدور كل منهما عنه .

ثم إن اضطراب الإنسان إلى الحياة الاجتماعية المدنية اضطرّ العقل أن يغمض عن بعض ما للإنسان من حرية العمل ويرفع اليد عن بعض الأفعال التي كان يرى أنه يملكها وهي التي يختل باتيانها أمر المجتمع فيختل نظم حياته نفسه وهذه هي المحرّمات والمعاصي التي تنهى عنها القوانين المدنية أو السنن القومية أو الأحكام الملوكية الدائرة في المجتمعات .

و من الضروري لتحكيم هذه القوانين والسنن أن يجعل نوع من الجزاء السيئ على المتخلف عنها - بشرط العلم وتامم الحجة لأنه شرط تحقق التكليف - من ذم أو عقاب ، و نوع من الأجر الجميل للمطيع الذي يحترمها من مدح أو ثواب .

و من الضروري أن ينتصب على المجتمع والقوانين الجارية فيها من يُجريها على ما هي عليها وهو مسؤول عما نصب له وخاصة بالنسبة إلى أحكام الجزاء فلولم يكن مسؤولاً وجاز له أن يجازي وأن لا يجازي ويأخذ المحسن ويترك المسيء لفي وضع القوانين والسنن من رأس . هذه أصول عقلائية جارية في الجملة في المجتمعات الإنسانية منذ استقر هذا النوع على الأرض منبعثة عن فطرتهم الإنسانية .

وقد دلّت البراهين العقلية وأيدها تواتر الأنبياء والرسل من قبله تعالى على أن القوانين الاجتماعية و سنن الحياة يجب أن تكون من عنده تعالى و هي أحكام و وظائف إنسانية تهدي إليها الفطرة الإنسانية وتضمن سعادة حياته وتحفظ مصالح مجتمعه .

وهذه الشريعة السماوية الفطرية واضعها هو الله سبحانه ومجريها من حيث الثواب والعقاب - وموطنهما موطن الرجوع إليه تعالى - هو الله سبحانه .
و مقتضى تشريعه تعالى هذه الشرائع السماوية واعتباره نفسه مجرياً لها أنه أوجب على نفسه إيجاباً تشريعياً - وليس بالتكويني - أن لا يناقض نفسه ولا يتخلف بها همال أو إلغاء جزاء يستوجب خلاف أو أعمال جزاء لا يستحقه عمل كتعذيب الغافل الجاهل بعذاب المتعمد المعاند ، وأخذ المظلوم بإثم الظالم وإلا كان ظلماً منه تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

و لعلّ هذا معنى ما يقال : إنّ الظلم مقدور له تعالى لكنّه ليس بواقع البتّة لأنّه نقص كمال يتنزّه تعالى عنه ففرض الظلم منه تعالى من فرض المحال وليس بفرض محال ، وهو المستفاد من ظاهر قوله تعالى : « وما كنا ظالمين » الآية ٢٠٩ من السورة وقوله : « إنّ الله لا يظلم الناس شيئاً » يونس : ٤٤ وقوله : « وما ربك بظالم للعبيد » فصلت : ٤٦ وقوله : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » النساء : ١٦٥ فظاهرها أنّها ليست من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع كما يؤمى إليه تفسير من فسرها بأنّ المعنى أن الله لا يفعل فعلاً لو فعله غيره لكن ظالماً .

فإن قلت : ما ذكر من وجوب إجراء الجزاء ثواباً أو عقاباً يخالف ما هو المسلّم عندهم أنّ ترك عقاب العاصي جائز لأنّه من حقّ المعاقب ومن الجائز على صاحب الحقّ تركه وعدم المطالبة به بخلاف ثواب المطيع لأنّه من حقّ الغير وهو المطيع فلا يجوز تركه وإبطاله .

على أنّه قيل : إنّ الإثابة على الطاعات من الفضل دون الاستحقاق لأنّ العبد وعمله ملولاه فلا يملك شيئاً حتّى يعاوضه بشيء .

قلت : ترك عقاب العاصي في الجملة ممّا لا كلام فيه لأنّه من الفضل وأمّا بالجملة فلا لاستلزامه لغوية التشريع والتقنين وترتيب الجزاء على العمل .
و أمّا كون ثواب الأعمال من الفضل بالنظر إلى كون عمل العبد كتقسه لله

فلا ينافي فضلا آخر منه تعالى على عبده باعتبار عمله ملكا له ثم جعل ما يثيبه عليه أجراً لعمله ، والقرآن مليء بحديث الأجر على الأعمال الصالحة ، وقد قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » براءة : ١١١ .

قوله تعالى : « وما تنزلت به الشياطين - إلى قوله - لمعزولون » شروع في الجواب عن قول المشركين : « إن لمحمد جنأ يأتيه بهذا الكلام » وقولهم : « إنه شاعر » وقدّم الجواب عن الأول وقد وجه الكلام أولاً إلى النبي ﷺ فبين له أن القرآن ليس من تنزيل الشياطين وطيب بذلك نفسه ثم وجه القول إلى القوم فبينه لهم بما في وسعهم أن يفقهوه .

فقوله : « وما تنزلت به الشياطين » أي ما نزلته والآية متصلة بقوله : « وإنه لتنزيل رب العالمين » ووجه الكلام كما سمعت إلى النبي ﷺ بدليل قوله تلوأ : « فلا تدع مع الله إلهاً آخر » إلى آخر الخطابات المختصة به ﷺ المنقرعة على قوله : « وما تنزلت به » الخ على ما سيجيء بيانه .

وإنما وجه الكلام إلى النبي ﷺ دون القوم لأنه معلل بما لا يقبلونه بكفرهم أعني قوله : « إنهم عن السمع لمعزولون » والشيطان الشرير وجمعه الشياطين والمراد بهم أشرار الجن .

وقوله : « وما ينبغي لهم » أي للشياطين . قال في مجمع البيان : ومعنى قول العرب : ينبغي لك أن تفعل كذا أنه يطلب منك فعله في مقتضى العقل من البغية التي هي الطلب انتهى .

والوجه في أنه لا ينبغي لهم أن يقتنزلوا به أنهم خلق شرير لاهم لهم إلا الشر والفساد والأخذ بالباطل وتصويره في صورة الحق ليضلوا به عن سبيل الله والقرآن كلام حق لاسبيل للباطل إليه فلا يناسب جبلتهم الشيطانية أن يلقوه إلى أحد .

وقوله : « وما يستطيعون » أي وما يقدرّون على التنزل به لأنه كلام سماوي تتلقاه الملائكة من رب العزة فينزلونه بأمره في حفظ وحراسة منه تعالى كما

قال : « فإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصْداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ » الجن : ٢٨ وإِلَى ذَلِكَ يُشِيرُ قَوْلُهُ : « إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ » الخ .
وقوله : « إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ » أي إِنَّ الشَّيَاطِينَ عَنْ سَمْعِ الْأَخْبَارِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ عَلَى مَا يَجْرِي فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى مَعَزُولُونَ حَيْثُ يَقْذِفُونَ بِالشَّهْبِ النَّاقِبَةِ لَوْ تَسَمَّعُوا كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كَلَامِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ » خطابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَنْهَاهُ عَنِ الشَّرِكِ بِاللَّهِ مُتَقَرِّعٍ عَلَى قَوْلِهِ : « وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ » الخ أي إِذَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ تَنْزِيلاًً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَمْ تَنْزَلْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَهُوَ يَنْهَى عَنِ الشَّرِكِ وَيُوعِدُ عَلَيْهِ الْعَذَابَ فَلَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ فَيُنَالِكَ الْعَذَابُ الْمَوْعُودُ عَلَيْهِ وَتَدْخُلُ فِي زَمْرَةِ الْمُعَذَّبِينَ .

و كَوْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعْصُوماً بِعَصْمَةِ إِلَهِيَّةٍ يَسْتَحِيلُ مَعَهَا صُدُورُ الْمُعْصِيَةِ مِنْهُ لَا يَنَافِي نَهْيُهُ عَنِ الشَّرِكِ فَإِنَّ الْعَصْمَةَ لَا تُوجِبُ بَطْلَانَ تَعَلُّقِ الْأَمْرِ وَالنَّبِيِّ بِالْمَعْصُومِ وَارْتِفَاعِ التَّكْلِيفِ عَنْهُ بِمَا أَنَّهُ بَشَرٌ مُخْتَارٌ فِي الْفِعْلِ وَالتَّرِكِ مَتَّصُورٌ فِي حَقِّهِ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ بِالنَّظَرِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَقَدْ تَكَاثَرَتِ الْآيَاتُ فِي تَكْلِيفِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَآلِهِمْ وَسَلَّمَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَقَوْلِهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَآلِهِمْ وَسَلَّمَ : « وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » الْأَنْعَامُ : ٨٨ ، وَقَوْلِهِ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لئنْ أَشْرَكَتْ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ » الزَّمَرُ : ٦٥ ، وَالْآيَتَانِ فِي مَعْنَى النَّهْيِ .

وقول بعضهم : إِنَّ التَّكْلِيفَ لِلتَّكْمِيلِ فَيَرْتَفِعُ عِنْدَ حُصُولِ الْكَمَالِ وَتَحَقُّقِهِ لِمُسْتَحَالَةِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ خَطَأً فَإِنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا التَّكْلِيفُ مِنْ آثَارِ الْكَمَالِ الْمَطْلُوبِ وَالْكَمَالِ النَّفْسَانِيِّ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكْتَسِبَ بِالْإِتْيَانِ بِآثَارِهِ وَمَزَاوِلَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَنَاسَبُ وَالْإِرْتِيَاضُ بِهَا كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَسْتَبْقَى بِذَلِكَ فَمَادَامَ الْإِنْسَانُ بَشَرًا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ لِمَنَاصِلَ لَهُ عَنْ تَحْمِلِ أَعْيَالِ التَّكْلِيفِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ كَلَامٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى فِي بَعْضِ الْأَبْحَاثِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ : عَشِيرَةُ الرَّجُلِ

قرايته سموا بذلك لأنّه يعاشرهم وهم يعاشرونه انتهى و خصّ عشيرته و قرايته الأقربين بالذكر بعد نهي نفسه عن الشرك و إنذاره تنبيهاً على أنّه لاستثناء في الدعوة الدينيّة ولامداهنة ولا مساهلة كما هو معهود في السنن الملوكة فلا فرق في تعلق الإنذار بين النبيّ وآئمته ، ولا بين الأقارب والأجانب ، فالجميع عبيد والله مولاهم .

قوله تعالى : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » أي اشتغل بالمؤمنين بك واجمعهم وضمهم إليك بالرأفة والرحمة كما يجمع الطير أفراده إليه بخفض جناحه لها ، وهذان الاستعارة بالكناية تقدّم نظيره في قوله : « واخفض جناحك للمؤمنين » الحجر : ٨٨ .

والمراد بالاتباع الطاعة بقرينة قوله في الآية التالية : « فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون » فملخص معنى الآيتين : إن آمنوا بك واتبعوك فاجمعهم إليك بالرأفة واشتغل بهم بالتربية و إن عصوك فتبرّء من عملهم .

قوله تعالى : « وتوكل على العزيز الرحيم » أي ليس لك من أمر طاعتهم ومعصيتهم شيء وراء ما كلّفناك فكل ما وراء ذلك إلى الله سبحانه فإنّه لعزّته سيّء العاصين وبرحمته سينجي المؤمنين المتّبعين .

وفي اختصاص اسمي العزيز والرحيم إلفات للذهن إلى ما تقدّم من القصص ختمت واحدة بعد واحدة بالاسمين الكريمين .

فهو في معنى أن يقال : توكل في أمر المتّبعين والعاصين جميعاً إلى الله فهو العزيز الرحيم الذي فعل بقوم نوح و هود و صالح و إبراهيم ولوط وشعيب وقوم فرعون ما فعل ممّا قصصناه فسنّته أخذ العاصين وإنجاء المؤمنين .

قوله تعالى : « الذي يراك حين تقوم وتقلّبك في الساجدين » ظاهر الآيتين - على ما يسبق إلى الذهن - أن المراد بالساجدين الساجدون في الصلاة من المؤمنين وفيهم رسول الله ﷺ في صلاته بهم جماعة ، والمراد بقرينة المقابلة القيام في الصلاة فيكون المعنى : الذي يراك وأنت بعينه في حالتي قيامك وسجودك متقلّباً في الساجدين

و أنت تصلي مع المؤمنين .

وفي معنى الآية روايات من طرق الشيعة وأهل السنة ستعرض لها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

قوله تعالى : « إنه هو السميع العليم » تعليل لقوله : « وتوكل على العزيز الرحيم » وفي الآيات - على ما تقدم من معناها - تسلية للنبي ﷺ وبشرى للمؤمنين بالنجاة وإبعاد للكفار بالعذاب .

قوله تعالى : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين - إلى قوله - كاذبون » تعريف لمن تنزل عليه الشياطين بما يخصه من الصفة ليعلم أن النبي ﷺ ليس منهم ولا أن القرآن من إلقاء الشياطين ، و الخطاب متوجه إلى المشركين .
فقوله : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين » في معنى هل أعرّفكم الذين تنزل عليهم شياطين الجن بالأخبار ؟

وقوله : « تنزل على كل أفك أثيم » قال في مجمع البيان : الأفك الكذاب وأصل الإفك القلب و الأفك الكثير القلب للخبر عن جهة الصدق إلى جهة الكذب والأثيم الفاعل للقبیح يقال : أثم يَأْثِمُ إثْماً إذا ارتكب القبیح وتَأْثِمُ إذا ترك الإثم انتهى .

وذلك أن الشياطين لأشأن لهم إلا إظهار الباطل في صورة الحق وتزيين القبیح في زي الحسن فلا يتنزلون إلا على أفك أثيم .

وقوله : « يلقون السمع و أكثرهم كاذبون » الظاهر أن ضميري الجمع في « يلقون » و « أكثرهم » معاً للشياطين ، والسمع مصدر بمعنى المسموع والمراد به ما سمعه الشياطين من أخبار السماء ولوناقصاً فإنهم ممنوعون من الاستماع مرميون بالشبه فما استرقوه لا يكون إلا ناقصاً غير تام ولا كامل ولذا يتسرب إليه الكذب كثيراً .

وقوله : « و أكثرهم كاذبون » أي أكثر الشياطين كاذبون لا يخبرون بصدق أصلاً وهذا هو الكثرة بحسب الأفراد ويمكن أن يكون المراد الكثرة من حيث

التنزل أي أكثر المتنزلين منهم كاذبون أي أكثر أخبارهم كاذبة .

ومحصل حجة الآيات الثلاث أن الشياطين لا بناء جبلتهم على الشر لا يتنزلون إلا على كل كذاب فاجر و أكثرهم كاذبون في أخبارهم ، والنبي ﷺ ليس بأفك أثيم ولا ما يوحى إليه من الكلام كذبا مختلفا فليس ممن تنزل عليه الشياطين ولا الذي يتنزل عليه شيطانا ، ولا القرآن النازل عليه من إلقاء الشياطين .

قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوان - إلى قوله - لا يفعلون » جواب عن رمي المشركين للنبي ﷺ بأنه شاعر ، نبه عليه بعد الجواب عن قولهم إن له شيطانا يوحى إليه القرآن .

وهذان أعني قولهم : إن من الجن من يأتيه ، وقولهم : إنه شاعر ، مما كانوا يكرّرونه في ألسنتهم بمكة قبل الهجرة يدفعون به الدعوة الحقّة ، وهذا مما يؤيد نزول هذه الآيات بمكة خلافا لما قيل إنها نزلت بالمدينة .

على أن الآيات مشتملة على ختام السورة أعني قوله : « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ولا معنى لبقاء سورة هي من أقدم السور المكيّة سنين على نعت النقص ثم تمامها بالمدينة ، ولادلالة في الاستثناء على أن المستثنين هم شعراء المؤمنين بعد الهجرة .

وكيف كان فالغي خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع فالرشد هو الذي لا يهتم إلا بما هو حق واقع ، والغوي هو السالك سبيل الباطل والمخطي طريق الحق ، والغواية مما يختص به صناعة الشعر المبنية على التخيل وتصوير غير الواقع في صورة الواقع ولذلك لا يهتم به إلا الغوي المشعوف بالتزيينات الخياليّة والتصويرات الوهميّة الملهية عن الحق الصارفة عن الرشد ، ولا يتبع الشعراء الذين يبني صناعتهم على الغي والغواية إلا الغاوان وذلك قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوان » .

وقوله : « ألم ترأنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » يقال : هام يهيم هيمانا إذا ذهب على وجهه والمراد بهيمانهم في كل واد استرسالهم في القول

من غير أن يلقوا على حدّ قريباً مدحوا الباطل المذموم كما يمدح الحقّ المحمود وربّما هجوا الجميل كما يهجو القبيح الدميم وربّما دعوا إلى الباطل و صرفوا عن الحقّ وفي ذلك انحراف عن سبيل الفطرة الإلهية المبنية على الرشد الداعية إلى الحقّ ، وكذا قولهم ما يفعلون من العدول عن صراط الفطرة .

و ملخص حجة الآيات الثلاث أنّه ﷺ ليس بشاعر لأنّ الشعراء يتبعهم الغاؤون لابناء صناعتهم على الغواية وخلاف الرشد لكنّ الذين يتبعونه إنّما يتبعونه اهتغاء للرشد وإصابة الواقع وطلباً للحقّ لابناء ماعنده من الكلام المشتمل على الدعوة على الحقّ والرشد دون الباطل والغي .

قوله تعالى : « إنا الذين آمنوا وعملوا الصالحات و ذكروا الله كثيراً ، الخ استثناء من الشعراء المذمومين ، والمستثنون هم شعراء المؤمنين فإنّ الإيمان وصالحات الأعمال تردع الإنسان بالطبع عن ترك الحقّ واتّباع الباطل ثمّ الذكر الكثير لله سبحانه يجعل الإنسان على ذكر منه تعالى مقبلاً إلى الحقّ الذي يرضيه مدبراً عن الباطل الذي لا يجب الاشتغال به فلا يعرض لهؤلاء ما كان يعرض لأولئك .

وبهذا البيان يظهر وجه تقييد المستثنى بالإيمان وعمل الصالحات ثمّ عطف قوله : « و ذكروا الله كثيراً » على ذلك .

وقوله : « وانتصروا من بعدما ظلموا » الانتصار الانتقام قيل : المراد به ردّ الشعراء من المؤمنين على المشركين أشعارهم التي هجوا بها النبي ﷺ أو طعنوا فيها في الدين و قدحوا في الإسلام والمسلمين ، وهو حسن يؤيده المقام .

وقوله : « وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » المنقلب اسم مكان أو مصدر ميميّ والمعنى وسيعلم الذين ظلموا - وهم المشركون على ما يعطيه السياق - إلى أيّ مرجع ومنصرف يرجعون وينصرفون وهو النار أو ينقلبون أيّ انقلاب .

وفيه تهديد للمشركين ورجوع مختتم السورة إلى مفتتحها وقد وقع في أولها قوله : « فقد كذبوا فسأتّ بهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن » .

﴿بحث روائي﴾

في الكافي بإسناده عن الحجتال عمن ذكره عن أحدهما عليهما السلام قال :
سألته عن قول الله عزّ وجلّ : « بلسان عربي مبين » قال : يبين الألسن ولا تبينه
الألسن .

وفي تفسير القميّ في قوله تعالى : « ولو نزلناه على بعض الأعجمين » الخ قال
الصادق عليه السلام : لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب وقد نزل على العرب
فآمنت به العجم فهذه فضيلة العجم .

وفي الكافي بإسناده عن عليّ بن عيسى القمّاط عن عمّه عن أبي عبد الله عليه السلام
قال : اُرِي رسول الله ﷺ في منامه بني اُميّة يصعدون على منبره من بعده ويضّلون
الناس عن الصراط القهقري فأصبح كثيراً حزينا .

قال : فهبط جبرائيل فقال : يا رسول الله مالي أراك كثيراً حزينا ؟ قال : يا
جبرئيل إنّي رأيت بني اُميّة في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلّون الناس
عن الصراط القهقري فقال : والذي بعثك بالحق نبياً إنّي ما اطلعت عليه فخرج
إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بها . قال : « أفرأيت إن
متّعناهم سنين ثمّ جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون » وأنزل
عليه : « إنّنا أنزلناه في ليلة القدر و ما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف
شهر » جعل الله ليلة القدر لنبيّه ﷺ خيراً من ألف شهر ملك بني اُميّة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال : روي النبي ﷺ
كأنّه متحير فسألوه عن ذلك فقال : ولم رأيت عدوّي يلون أمر اُمّتي من بعدي
فنزّلت « أفرأيت إن متّعناهم سنين ثمّ جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا
يتمتّعون » فطابت نفسه .

أقول : وقوله : ولم رأيت الخ فيه حذف والتقدير ولم لا أكون كذلك وقد
رأيت الخ .

وفيه أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وفي الدلائل عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية « و أنذر عشيرتك الأقربين » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا وعم وخص فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإنني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإنني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإنني لا أملك لك ضرا ولا نفعا . ألا إن لكم رحما و ساءلها ببلالها .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت « و أنذر عشيرتك الأقربين » جعل يدعوهم قبائل قبائل .

و فيه أخرج سعيد بن منصور و البخاري و ابن مردويه و ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما نزلت « و أنذر عشيرتك الأقربين » ورهطك منهم المخلصين » خرج النبي ﷺ حتى صعد على الصفا فنادى يا صباحاه فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد ، فاجتمعوا إليه فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ؟ .

فجاء أبو لهب و قريش فقال ﷺ : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب : تبالك سائر اليوم ألهذا جمعنا ؟ فنزلت : « تبنت يدا أبي لهب وتب » .

وفيه أخرج الطبراني و ابن مردويه عن أبي أمامة قال : لما نزلت « و أنذر عشيرتك الأقربين » جمع رسول الله بني هاشم فأجلسهم على الباب وجمع نساءه و أهله فأجلسهم في البيت ثم أطلع عليهم فقال : يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من النار

واسعوا في فكاك رقابكم وافتكوها بأنفسكم من الله فإني لا أملك لكم من الله شيئاً .
ثم أقبل على أهل بيته فقال : يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا
أم سلمة ويا فاطمة بنت محمد ويا أم الزبير همة رسول الله اشترؤا ^(١) أنفسكم من الله
واسعوا في فكاك رقابكم فإني لا أملك لكم من الله شيئاً دلائلي ، الحديث .

أقول : وفي معنى هذه الروايات بعض روايات أخر وفي بعضها أنه
صلى الله عليه وآله وسلم خص بني عبد مناف بالإنذار فيشمل بني أمية وبنو
هاشم جميعاً .

والروايات الثلاث الأولى لا تنطبق عليها الآية فإنها تعمم الإنذار قريشاً
عامّة والآية تصرّح بالعشيرة الأقربين وهم إمّا بنو عبد المطلب أو بنو هاشم وأبعد
ما يكون من الآية الرواية الثانية حيث تقول : جعل يدعوهم قبائل قبائل .

على أن ما تقدم من معنى الآية وهو نفي أن تكون قرابة النبي ﷺ
تغنيهم من تقوى الله وفي الروايات إشارة إلى ذلك - حيث تقول : لا أغني عنكم من الله
شيئاً - لا يناسب عمومها لغير الخاصة من قرابته ﷺ .

وأما الرواية الرابعة فقولته تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » آية مكية
في سورة مكية ولم يقل أحد بنزول الآية بالمدينة وأين كانت يوم نزولها عائشة
وحفصة وأم سلمة ولم يتزوج النبي ﷺ بهن إلا في المدينة ؟ فالمعتمد من
الروايات ما يدل على أنه ﷺ خص بالإنذار يوم نزول الآية بني هاشم أو بني
عبد المطلب ومن عجيب الكلام قول الآلوسي بعد نقل الروايات : وإذ اصح الكل
فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار .

وفي المجمع عن تفسير الثعلبي بإسناده عن براء بن عازب قال : لما نزلت
هذه الآية جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم
يأكل المسنة ويشرب العس فأمر علياً برجل شاة فأدماها ثم قال : ادنوا بسم الله
فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا . ثم دعا بقعب من لبن فجرع منه

جرعة ثم قال لهم : اشرابوا بسم الله فشرابوا حتى رروا فبدرهم أبولهب فقال : هذا ما سحركم به الرجل فسكت رأى الله يومئذ ولم يتكلم .

ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثم أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا بني عبدالمطلب إنني أنا النذير إليكم من الله عز وجل فأسلموا وأطيعوني تهتدوا .

ثم قال : من يواخيني ويوازرني ويكون وليتي وصيتي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني ؟ فسكت القوم فأعادها ثلاثا كل ذلك يسكت القوم ويقول علي أنا فقال في المرة الثالثة : أنت فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك فقد أمر عليك .

قال الطبرسي : وروي عن أبي رافع هذه القصة وأنه جمعهم في الشعب فصنع لهم رجلا فأكلوا حتى تضلوا وسقاما عسا فشرابوا كلهم حتى رروا . ثم قال : إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي ورهطي ، وإن الله لم يبعث نبيا إلا جعل له من أهله أخا وزيرا ووارثا ووصيا وخليفة في أهله فأيتكم يقوم فيبايعني على أنه أخي ووارثي ووزير ووصي ويكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ فقال علي : أنا فقال : ادن مني ففتح فاه ومج في فيه من ريقه وتقل بين كتفيه وئديه فقال أبولهب : بئس ما حبوت به ابن عمك أن أجابك فملأت فاه ووجهه بزاقا فقال رأى الله : ملاأته حكمة وعلما .

أقول : وروي السيوطي في الدر المنثور ما في معنى حديث البراء عن ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل من طرق عن علي رضي الله عنه وفيه : ثم تكلم النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا بني عبدالمطلب إنني والله ما أعلم أحدا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به إنني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيتكم يوازرني على أمري هذا ؟ فقلت وأنا أحدثهم سنا : إنه أنا فقام القوم يضحكون .

وفي علل الشرائع بإسناده عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن علي بن

أبي طالب عليه السلام قال : لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » أي رهطك المخلصين دعا رسول الله صلى الله عليه وآله بني عبدالمطلب وهم إذ ذاك أربعون رجلاً يزيدون رجلاً وينقصون رجلاً فقال : أيكم يكون أخي ووارثي ووزير ووصي وخليفتي فيكم بعدي فعرض عليهم ذلك رجلاً رجلاً كلهم يأبى ذلك حتى أتى عليّ فقلت : أنا يا رسول الله . فقال : يا بني عبدالمطلب هذا وارثي ووزير وخليفتي فيكم بعدي فقام القوم يضحك بعضهم إلى بعض ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع و تطيع لهذا الغلام .

أقول : ومن الممكن أن يستفاد من قوله عليه السلام : أي رهطك المخلصين أن ما نسب إلى قراءة أهل البيت « وأنذر عشيرتك الأقربين » رهك منهم المخلصين ، ونسب أيضاً إلى قرآن أبي بن كعب كان من قبيل التفسير .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وتقلبك في الساجدين » قيل : معناه و تقلبك في الساجدين الموحدين من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجك نبياً . عن ابن عباس في رواية عطاء و عكرمة و هو المروي عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام قالاً : أصلاب النبيّين نبيّ بعد نبي حتى أخرجهم من صلب أبيه عن نكاح غير سفاح من لدن آدم .

أقول : ورواه غيره من رواة الشيعة ، ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم وابن مردويه و أبي نعيم وغيرهم عن ابن عباس وغيرهم .

وفي المجمع روى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي فإنني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي ثم تلا هذه الآية .

أقول : يريد عليه السلام وضع الجبهة على الأرض ورفعها في السجدة ، ورواه في الدر المنثور عن ابن عباس وغيره .

وفي الدر المنثور أخرج ابن شعبة وأحمد عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وآله إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي صلى الله عليه وآله : لأن يمتلئ جوف أحدكم

قبحا خيره من أن يمتلي شعرا .

أقول : وهو مروى من طرق الشيعة أيضاً عن الصادق عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله .

وفي تفسير القمي قال : يعظون الناس ولا يتعظون وينهون عن المنكر ولا ينتهون ويأمرون بالمعروف ولا يعملون وهم الذين قال الله فيهم : « ألم ترأنهم في كل واد يهيمون ، أي في كل مذهب يذهبون » و أنهم يقولون ما لا يفعلون ، وهم الذين غصبوا آل محمد حقهم .

وفي اعتقادات الصدوق عليه السلام عن قول الله عز وجل : « والشعراء يتبعهم الغاون » قال : هم القصاص .

أقول : هم من المصاديق والمعنى الجامع ما تقدم في ذيل الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : إن من الشعر حكما وإن من البيان سحرا .

أقول : : وروى الجملة الأولى أيضاً عنه عن بريدة وابن عباس عن النبي ﷺ وأيضاً عن ابن مردويه عن أبي هريرة عنه ﷺ ولغظه إن من الشعر حكمة ، والممدوح من الشعر ما فيه نصره الحق ولا تشمله الآية .

وفي المجمع عن الزهري قال : حدثني عبدالرحمان بن كعب بن مالك أن كعب بن مالك قال : يارسول الله ماذا تقول في الشعراء ؟ قال : إن المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما تنضخونهم بالنبل .

قال الطبرسي وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت : اهجم أوهاجم وروح القدس معك رواه البخاري ومسلم في الصحيحين .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الحسن سالم البرباد قال : لما نزلت « والشعراء » الآية جاء عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وهم يبكون فقالوا : يارسول الله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أننا شعراء

أهلكنا ؟ فأنزل الله : **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، فَعْدَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ فَنَلَاهَا عَلَيْهِمْ .**

أقول : هذه الرواية وما في معناها هي التي دعا بعضهم إلى القول بكون الآيات الخمس من آخر السورة مدنيّات وقد عرفت الكلام في ذلك عند تفسير الآيات .

وفي الكافي بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً . ثم قال : لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وإن كان منه ولكن ذكر الله عند ما أحلّ وحرّم فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها .

أقول : فيه تأييد لما تقدّم في تفسير الآية .





سورة النمل مكيّة وهي ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَسَ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١)
 هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ
 فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
 الْآخِرُونَ (٥) وَإِنَّكَ تَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) .

﴿بيان﴾

غرض السورة - على ما تدل عليه آيات صدرها والآيات الخمس الخاتمة لها -
 التبشير والإنذار وقد استشهد لذلك بطرف من قصص موسى وداود وسليمان
 وصالح ولوط عليهم السلام ثم عقيبها ببيان نبذة من أصول المعارف كوحدا نيته تعالى في
 الربوبية والمعاد وغير ذلك .

قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » الإشارة بتلك - كما مر -
 في أول سورة الشعراء - إلى آيات السورة مما ستنزل بعد وما نزلت قبل ، والتعبير
 باللفظ الخاص بالبعيد للدلالة على رفعة قدرها وبعد منزلها .

و القرآن اسم للكتاب باعتبار كونه مقروءاً ، والمبين من الإبانة بمعنى
 الإظهار ، وتنكير « قرآن » للتفخيم أي تلك الآيات الرفيعة القدر التي نزلت لها
 آيات الكتاب وآيات كتاب مقروء عظيم الشأن مبين لمقاصده من غير إبهام ولا تعقيد .

قال في مجمع البيان : وصفه بالصفتين يعني الكتاب و القرآن ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً ، ووصفه بأنه مبين تشبيه له بالناطق بكذا . انتهى .

قوله تعالى : « هدى وبشرى للمؤمنين » المصدران أعني « هدى » وبشرى ، بمعنى اسم الفاعل أو المراد بهما المعنى المصدرى للمبالغة .

قوله تعالى : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » الخ المراد إتيان الأعمال الصالحة وإنما اقتصر على الصلاة والزكاة لكون كل منهما ركناً في بابه فالصلاة فيما يرجع إلى الله تعالى والزكاة فيما يرجع إلى الناس وينظر آخر الصلاة في الأعمال البدنية والزكاة في الأعمال المالية .

وقوله : « وهم بالآخرة هم يوقنون » وصف آخر للمؤمنين معطوف على ما قبله جىء به للإشارة إلى أن هذه الأعمال الصالحة إنما تقع موقعها وتصيب غرضها مع الايقان بالآخرة فإن العمل يحبط مع تكذيب الآخرة قال تعالى : « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم » الأعراف : ١٤٧ .

وتكرار الضمير في قوله : « وهم بالآخرة هم » الخ للدلالة على أن هذا الايقان من شأنهم وهم أهله المترقب منهم ذلك .

قوله تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون » العمه التحير في الأمر ومعنى تزيين العمل جعله بحيث ينجذب إليه الإنسان والذين لا يؤمنون بالآخرة لما أنكروها وهي غاية مسيرهم بقوا في الدنيا وهي سبيل لا غاية فتعلقوا بأعمالهم فيها وكانوا متحيرين في الطريق لا غاية لهم يقصدونها .

قوله تعالى : « أولئك لهم سوء العذاب » الخ إيعاد بمطلق العذاب من دنيوي وأخروي بدليل ما في قوله : « وهم في الآخرة هم الأخسرون » ولعل وجه كونهم أخسر الناس أن سائر العصاة لهم صحائف أعمال مثبتة فيها سيئاتهم وحسناتهم يجازون بها وأما هؤلاء فسيئاتهم محفوظة عليهم يجازون بها وحسناتهم حابطة .

قوله تعالى : « وإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » التلقية قريبة المعنى من التلقين ، وتنكير « حَكِيمٍ عَلِيمٍ » للتعظيم ، والتصريح يكون هذا القرآن من عنده تعالى ليكون ذلك حجة على الرسالة وتأيداً لما تقدم من المعارف ولصحة ما سيذكره من قصص الأنبياء ﷺ .

وتخصيص الاسمين الكريمين للدلالة على نزوله من ينبوع الحكمة فلا ينقضه ناقض ولا يوهنه موهن ، ومنبع العلم فلا يكذب في خبره ولا يخطئ في قضائه .





إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ
 قَبْسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ
 حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)
 وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى
 لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ
 سُوِّ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ
 سُوِّ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا
 جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا
 أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) .

﴿ بيان ﴾

أول القصص الخمس التي أُشير إليها في السورة استشهدا لما في صدرها من
 التبشير والإنذار والوعد والوعيد وتغلب في الثلاث الأولى منها وهي قصص موسى
 وداود وسليمان جهة الوعد على الوعيد وفي الأخيرتين بالعكس .
 قوله تعالى : « إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ » الخ المراد بأهله امرأته وهي بنت
 شبيب على ما ذكره الله تعالى في سورة القصص قال في المجمع : إن خطاها بقوله :
 « آتِيكُمْ » بصيغة الجمع لإقامتها مقام الجماعة في الانس بها في الأمكنة الموحشة .
 انتهى ومن المحتمل أنه كان معها غيرها من خادم أو مكار أو غيرها .

وفي المجمع : الإيتاس الإِبصار ، وقيل ، آنتست أي أحسست بالشيء من جهة يؤنس بها وما آنتست به فقد أحسست به مع سكون نفسك إليه . انتهى والشهاب على ما في المجمع نور كالعمود من النار وكل نور يمتد كالعمود يسمى شهابا والمراد الشعلة من النار ، وفي المفردات : الشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن العارض في الجو ، وفي المفردات أيضا : القبس المتناول من الشعلة ، والاصطلاء بالنار الاستدفاء بها .

وسياق الآية يشهد ويؤيده ما وقع من القصة في سورا أخرى أنه كان حين ذاك يسير بأهله وقدضل الطريق وأصابه وأهله البرد في ليلة داحية فأبصر نارا من بعيد فأراد أن يذهب إليها فإن وجد عندها إنسانا استخبره أو يأخذ قبسا يأتي به إلى أهله فيوقدونارا يصطلون بها . فقال لأهله امكثوا إنني أحسست وأبصرت نارا فالزموا مكانكم سأتيكم منها أي من عندها بخبر نهتدي به أو آتيكم بشعلة متناولة من النار لعلكم توقدون بها نارا تصطلون وتستدفئون بها .

ويظهر من السياق أيضاً أن النار إنما ظهرت له ﷺ ولم يشاهدها غيره وإلا عبر عنها بالإشارة دون التكرير .

ولعل اختلاف الإتيان بالخبر والإتيان بالنار نوعا هو الموجب لتكرار لفظ الإتيان حيث قال : « سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس » .

قوله تعالى : « فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » أي فلما أتى النار وحضر عندها نودي أن بورك الخ .

والمراد بالمباركة إعطاء الخير الكثير يقال : باركه وبارك عليه وبارك فيه أي ألبسه الخير الكثير وجباه به ، وقد وقع في سورة طه في هذا الموضع من القصة قوله : « فلما أتاه نودي ياموسى إنني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » طه : ١٣ . ويستأنس منه أن المراد بمن حول النار موسى أو هو ممن حول النار ، و مباركته اختياره بعد تقديسه .

وأما المراد بمن في النار فقد قيل : إن معناه من ظهر سلطانه و قدرته في النار فإن التكليم كان من الشجرة - على ما في سورة القصص - وقد أحاطت بها النار ، وعلى هذا فالمعنى تبارك من تجلّى لك بكلامه من النار وبارك فيك ، ويكون قوله : « وسبحان الله رب العالمين » تنزيها له سبحانه من أن يكون جسما أو جسمانياً يحيط به المكان أو يجاوره الحدثان للتعجيب موسى كما قيل .

وقيل : المراد بمن في النار الملائكة الحاضرون فيها كما أن المراد بمن حولها موسى ﷺ .

وقيل : المراد به موسى ﷺ وبمن حولها الملائكة .

وقيل : في الكلام تقدير والأصل بورك من في المكان الذي فيه النار - وهو البقعة المباركة التي كانت فيها الشجرة كما في سورة القصص - ومن فيها هو موسى و حولها هي الأرض المقدسة التي هي الشامات ، و من حولها هم الأنبياء القاطنون فيها من آل إبراهيم وبني إسرائيل .

وقيل : المراد بمن في النار نور الله تعالى وبمن حولها موسى .

وقيل : المراد بمن في النار الشجرة فإنها كانت محاطة بالنار و بمن حولها الملائكة المسبحون .

وأكثر هذه الوجوه لا يخلو من تحكّم ظاهر .

قوله تعالى : « يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » تعرف منه تعالى لموسى ﷺ ليعلم أن الذي يشافهه بالكلام ربّه تعالى فهذه الآية في هذه السورة تحاذي قوله من سورة طه « نودي أن يا موسى إنّي أنا ربك فأخلع ، الخ فارجع إلى سورة طه وتدبّر في الآيات .

قوله تعالى : « وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان » ولّى مدبراً ولم يعقب ، الخ الاهتزاز التحريك الشديد ، والجان الحيّة الصغيرة السريعة الحركة والإدبار خلاف الإقبال ، والتعقيب الكرّ بعد الفرّ من عقب المقاتل إذا كرّ بعد فراره .

و في الآية حذف وإيجاز تفصح عنه الفاء الفصيحة في قوله : « فلمّا رآها تهتزّ » والتقدير وألق عصاك فلمّا ألقاها إذا هي ثعبان مبین يهتزّ كأنّه جانّ ولمّا رآها تهتزّ الخ .

ولا منافاة بين صيرورة العصا ثعبانا مبيّنا كما وقع في قصته (عليه السلام) من سورتي الأعراف والشعراء . و الثعبان الحيّة العظيمة الجثّة و بين تشبيهها في هذه السورة بالجانّ فإنّ التشبيه إنّما وقع في الاهتزاز و سرعة الحركة والاضطراب حيث شاهد العصا وقد تبدّلت ثعبانا عظيم الجثّة هائل المنظر يهتزّ ويتحرك بسرعة اهتزاز الجانّ و تحركه بسرعة وليس تشبيهها لنفس العصا أو الثعبان بنفس الجانّ . و قيل : إنّ آية العصا كانت مختلفة الظهور فقد ظهرت العصا لأوّل مرّة في صورة الجانّ كما وقع في سورة طه : « فألقاها فإذا هي حية تسعى » آية ٢٠ من السورة ثمّ ظهرت لمّا ألقاها عند فرعون في صورة ثعبان مبيّن كما في سورتي الأعراف والشعراء .

و فيه أنّ هذا الوجه وإن كان لا يخلو بالنظر إلى سياق الآيات عن وجاهة لكنّه لا يندفع به إشكال تشبيه الشيء بنفسه أو عدم تبدّلها حيّة فاطعول في دفع الإشكال على ما تقدّم .

قوله تعالى : « يا موسى لا تخف إنّني لا يخاف لديّ المرسلون » حكاية نفس الخطاب الصادر هناك وهو في معنى قال الله يا موسى لا تخف الخ .

و قوله : « لا تخف » نهى مطلق يؤمّن عن كلّ ما يسوء ممّا يخاف منه مادام في حضرة القرب والمشافهة سواء كان المخوف منه عصا أو غيرها و لذا علّل النهي بقوله : « إنّني لا يخاف لديّ المرسلون » فإنّ تقييد التقي بقوله : « لديّ » يفيد أنّ مقام القرب والحضور يلازم الأمن ولا يجمع مكروهاً يخاف منه ، ويؤيّدّه تبديل هذه الجملة في القصّة من سورة القصص من قوله : « إنّك من الأمنين » فيتحصل المعنى : لا تخف من شيء إنّك مرسل والمرسلون - وهم لديّ في مقام القرب - في مقام الأمن ولا خوف مع الأمن .

و أما فرار موسى عليه السلام من العصا وقد تصوّرت بذلك الصورة الهائلة وهي تهتزّ كأنّها جانّ فقد كان جرياً منه على ما جبل الله الطبيعة الانسانية عليه إذا فاجأه من المخاطر ما لا سبيل له إلى دفعه عن نفسه إلاّ الفرار وقد كان أعزل لاسلّاح معه إلاّ عصاه وهي التي يخافها على نفسه ولم يرد عليه من جانبه تعالى أمر سابق أن يلزم مكانه أو نهي عن الفرار مما يخافه على نفسه إلاّ قوله تعالى : « و ألق عصاك » وقد امتنله ، وليس الفرار من المخاطر العظيمة التي لادافع لها إلاّ الفرار ، من الجبن المذموم حتّى يذمّ عليه .

وأما أن الأنبياء والمرسلين لا يخافون شيئاً وهم عند ربهم - على ما يدلّ عليه قوله : « إنّي لا يخاف لديّ المرسلون » - فهم لا يملكون هذه الكرامة من عند أنفسهم بل إنّما ذلك بتعليم من الله و تأديب و إذ كان موقف ليلة الطور أوّل موقف من موسى قرّب به الله إليه فيه وخصّه بالتكليم وحباه بالرسالة والكرامة فقوله : « لا تخف إنّك من الأمنين » وقوله : « لا تخف إنّني لا يخاف لديّ المرسلون » تعليم و تأديب إلهي له عليه السلام .

فتبيّن بذلك أن قوله : « لا تخف إنّني لا يخاف لديّ المرسلون » تأديب وترتبة إلهية لموسى عليه السلام وليس من التوبيخ والتأنيب في شيء .

قوله تعالى : « إلاّ من ظلم ثمّ بدّل حسناً بعد سوء » فإني غفور رحيم ، الذي ينبغي أن يقال - و الله أعلم - أن الآية السابقة لما أخبرت عن أن المرسلين آمنون لا يخافون فهم منه أن غيرهم من أهل الظلم غير آمنين لهم أن يخافوا استدرك في هذه الآية حال أهل التوبة من جملة أهل الظلم فيبيّن أنّهم لتوبتهم وتبدّلهم ظلمهم - وهو السوء - حسناً بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا يخافون أيضاً .

فالاستثناء من المرسلين وهو استثناء منقطع والمراد بالظلم مطلق المعصية وبالحسن بعد السوء التوبة بعد المعصية أو العمل الصالح بعد السيئ والمعنى لكن من ظلم باقتراف المعصية ثمّ بدّل ذلك حسناً بعد سوء وتوبة بعد معصية أو عملاً صالحاً بعد سيئ فإني غفور رحيم أغفر ظلمه وأرحمه فلا يخافن بعد ذلك شيئاً .

قوله تعالى : « وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » الخ فسر
السوء بالبرص وقد تقدّم ، وقوله : « في تسع آيات إلى فرعون وقومه » يمكن أن
يستظهر من السياق أولاً أن « في تسع » حال من الآيتين جميعاً والمعنى آيتيك هاتين
الآيتين - العصا واليد - حالكونهما في تسع آيات .

و ثانياً أن الآيتين من جملة الآيات التسع ، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى :
« ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات » أسرى : ١٠١ كلام في تفصيل الآيات التسع ،
والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين » المبصرة بمعنى
الواضحة الجليّة ، وفي قولهم : « هذا سحر مبين » إزراء وإهانة بالآيات حيث أهملوا
الدلالة على خصوصيات الآيات حتى العدد فلم يعبوا بها إلا بمقدار أنها أمرًا .
قوله تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً » الخ قال الراغب:
الجحدني مافي القلب إثباته وإثبات مافي القلب نفيه . انتهى ، والاستيقان والإيقان
بمعنى .





وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى
كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَ آتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِن هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)
وَخَسِرَ سُلَيْمَانُ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)
حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ
لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ
قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَادْخُلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)
وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَيْدَهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأَعَذَّبَنَّهٗ
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَظْتُ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ وَ آتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْأَ فِي السَّمَوَاتِ
وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تَخْفُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ
 بِكِتَابِي هَذَا فَاَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ
 يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْأُنِيَ الَّذِي آتَىٰ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ
 الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا
 الْمَلَأُوْأُنِيَ أَفْتُونِي فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ
 أَوْلُوآ قُوَّةً وَ أَوْلُوآ بِآسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ
 إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ
 يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِهِمْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)
 فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَيْكُمْ بَلْ أَنْتُمْ
 بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
 وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْأُنِيَ إِنِّي
 بَعَرْتُهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا أَتَيْكَ
 بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي
 عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا
 رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ
 شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ تَكَرَّؤْا

لَهَا عَرْشُهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٢١) فَلَمَّا
جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا
مُسْلِمِينَ (٢٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ
كَافِرِينَ (٢٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ
عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي
وَاسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢٤).

﴿بيان﴾

نبذة من قصص داود و سليمان عليه السلام وفيها شيء من عجائب أخبار سليمان
بما آتاه الله من الملك .

قوله تعالى : « ولقد آتينا داود و سليمان علما » الخ في تنكير العلم إشارة
إلى تفخيم أمره و ممّا أُشير فيه إلى علم داود من كلامه تعالى قوله : « وآتيناه
الحكمة و فصل الخطاب » ص : ٢٠ . و ممّا أُشير فيه إلى علم سليمان قوله : « ففهمناها
سليمان و كلا آتيناه حكما و علما » الأنبياء : ٧٩ و ذيل الآية يشملهما جميعا .

و قوله : « وقالوا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين » المراد
بالتفضيل إمّا التفضيل بالعلم على ما ربّما يؤيده سياق الآية ، و إمّا التفضيل بمطلق
ما خصّهما الله به من المواهب كتسخير الجبال و الطير لداود و تليين الحديد له و إيتائه
الملك ، و تسخير الجنّ و الوحش و الطير و كذا الريح لسليمان و تعليمه منطق الطير
و إيتائه الملك على ما يستدعيه إطلاق التفضيل .

و الآية أعني قوله : « وقالوا الحمد لله » الخ على أيّ حال بمنزلة حكاية
اعترافهما على التفضيل الإلهي فيكون كالشاهد على المدّعي الذي تشير إليه بشارة

صدر السورة أن الله سبحانه سيخص المؤمنين بما تقر به عيونهم و مثلها ماسياتي من اعترافات سليمان في مواضع من كلامه .

قوله تعالى : « وورث سليمان داود » الخ أي ورثه ماله وملكه و أمّا قول بعضهم : المراد به وراثته النبوة والعلم ففيه أن النبوة لا تقبل الوراثه لعدم قبولها الانتقال ، والعلم وإن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنه إنما يصح في العلم الفكري الاكتسابي والعلم الذي يختص به الأنبياء والرسل كرامة من الله لهم وهبي ليس مما يكتسب بالفكر فغير النبي يرث العلم من النبي لكن النبي لا يرث علمه من نبي آخر ولا من غير نبي .

وقوله : « و قال يا أيها الناس علمنا منطق الطير » ظاهر السياق أنه عليه السلام يباهي عن نفسه وأبيه وهو منه عليه السلام تحديث بنعمة الله كما قال تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » الضحى : ١١ و أمّا إصرار بعض المفسرين على أن الضمير في قوله : « علمنا » و « أو تينا » لنفسه لاله ولأبيه على ما هو عادة الملوك والعظماء في الإخبار عن أنفسهم - فإنهم يخبرون عنهم وعن خدمهم وأعوانهم رعاية لسياسة الملك - فالسياق السابق لا يساعد عليه كل المساعدة .

والمراد بالناس ظاهر معناه وهو عامة المجتمعين من غير تمييز لبعضهم من بعض وقول بعضهم إن المراد بهم عظماء أهل مملكته أو علمائهم غير سديد .

و المنطق و النطق على ما تتعارفه هو الصوت أو الأصوات المؤلفة الدالة بالوضع على معان مقصودة للناطق المسمّاة كلاما ولا يكاد يقال - على ما ذكره الراغب - إلا للإنسان لكن القرآن الكريم يستعمله في معنى أوسع من ذلك و هو دلالة الشيء على معنى مقصود لنفسه قال تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » حم السجدة : ٢١ ، وهو إمّا من باب تحليل المعنى كما يستعمله القرآن في أغلب المعاني والمفاهيم المقصورة في الاستعمالات على المصاديق الجسمانية المادية كالرؤية والنظر والسمع واللوح والقلم والعرش

والكرسي وغيرها ، و إنما لأنّ للفظ معنى أعمّ واختصاصه بالإنسان من باب الانصراف لكثرة الاستعمال .

و كيف كان فمنطق الطير هو ما تدلّ به الطير بعضها بعضاً على مقاصدها ، والذي نجده عند التأمل في أحوالها الحيوية هو أنّ لكلّ صنف أو نوع منها أصواتاً ساذجة خاصّة في حالاتها الخاصّة الاجتماعية حسب تنوّع اجتماعاتها كحال الهياج للسفاد وحال المغالبة والغلبة وحال الوحشة والفرع وحال التضرع أو الاستغاثة إلى غير ذلك ونظير الطير في ذلك سائر الحيوان .

لكن لا ينبغي الارتياح في أنّ المراد بمنطق الطير في الآية معنى أدقّ وأوسع من ذلك .

أمّا أوّلاً فلشهادة سياق الآية على أنّه ﷻ يتحدث عن أمر اختصاصي ليس في وسع عمّة الناس أن يناووه وإنّما ناله بعناية خاصّة إلهيّة ، وهذا المقدار المذكور من منطق الطير ممّا يسع لكلّ أحد أن يطّلع عليه ويعرفه .

و أمّا ثانياً فلأنّ ما حكاه الله تعالى في الآيات التالية من محاوره سليمان والهدد يتضمّن معارف عالية متنوّعة لا يسع لما نجده عند الهدد من الأصوات المعدودة أن تدلّ عليها بتمييز لبعضها من بعض ففي كلام الهدد ذكر الله سبحانه و وحدانيّته وقدرته وعلمه وربوبيّته وعرشه العظيم وذكر الشيطان وتزيينه الأعمال والهدى والضلال وغير ذلك ، وفيه ذكر الملك والعرش والمرأة وقومها وسجدتهم للشمس ، وفي كلام سليمان أمره بالذهاب بالكتاب وإلقائه إليهم ثمّ النظر فيما يرجعون ، وهذه كما لا يخفى على الباحث في أمر المعاني المتعمّق فيها معارف جمة لها أصول عريقة يتوقف الوقوف عليها على ألوف وألوف من المعلومات وأنّى تقي على إفادة تفصيلها أصوات ساذجة معدودة .

على أنّه لا دليل على أنّ كلّ ما يأتي بها الحيوان في نطقه من الأصوات أو خصوصيات الصوت يفني حسّنا بإدراكه أو تمييزه ، ويؤيّد ما نقل من قول النملة في الآيات التالية و هو من منطق الحيوان قطعاً ولا صوت للنملة يناله سمعنا

ويؤيده أيضا ما يراه علماء الطبيعة اليوم أن الذي يناله سمع الإنسان من الصوت عدد خاص من الارتعاش المادي وهو ما بين ستة عشر ألفا إلى اثنين وثلاثين ألفا في الثانية وأن الخارج من ذلك في جانبي القلّة والكثرة لا يقوى عليه سمع الإنسان وربما ناله سائر الحيوان أو بعضها .

وقد عثر العلماء الباحثون عن الحيوان من عجيب الفهم ولطيف الإدراك عند أنواع من الحيوان كالفرس والكلب والقرد والدب والزنبور والنملة وغيرها على أمور لا يكاد يعثر على نظائرها عند أكثر أفراد الإنسان .

وقد تبين بما مر أن ظاهر السياق أن للطير منطقا علمه الله سليمان ، وظهر به فساد قول من قال إن نطق الطير كان معجزة لسليمان وأما هي في نفسها فليس لها نطق هذا

وقوله : « وأوتينا من كل شيء » أي أعطينا من كل شيء ، و « كل شيء » وإن كان شاملا لجميع ما يفرض وجودا - لأن مفهوم شيء من أعم المفاهيم وقد دخل عليه كلمة الاستغراق - لكن لما كان المقام مقام التحديث بالنعمة ولا كل نعمة بل النعم التي يمكن أن يؤتاها الإنسان فيتنعم بها تقيّد به معنى كل شيء ، وكان معنى الجملة : و أعطانا الله من كل نعمة يمكن أن يعطاها الإنسان فيتنعم بها مقدارا معتدّ أبه كالعلم والنبوة والملك والحكم وسائر النعم المعنوية والمادية .

وقوله : « ذلك هو الفضل المبين » شكر وتأكيد للتحديث بالنعمة من غير عجب ولا كبر واختيال لإسناده الجميع إلى الله بقوله : « علمنا » و « أوتينا » ، و احتمال بعضهم أن تكون الجملة من كلام الله سبحانه لا من كلام سليمان والسياق ياباه .

قوله تعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » الحشر هو جمع الناس وإخراجهم لأمر بازعاج والوزع المنع وقيل الحبس والمعنى كما قيل : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يمنعون من التفرق واختلاط كل جمع بآخر برد أو لهم إلى آخرهم وحبس كل في مكانه .

ويستفاد من الآية أنه كان له جنود من الجنّ والطير يسرون معه كجنوده من الإنس .

وكلمة الحشر و وصف المحشورين بأنهم جنود و سياق الآيات التالية كل ذلك دليل على أن جنوده كانوا طوائف خاصة من الجنّ والإنس والطير سواء كانت من ، في الآية للتبويض أو للبيان .

وقد أغرب في التفسير الكبير فزعم أن الآية تدل على أن جميع الجنّ والإنس والطير كانوا جنوده وقد ملك الأرض كلها وأن الله تعالى جعل الطير في زمانه عقلاء مكلفين ثم عادت بعد زمانه على ما كانت عليه قبله وقال بمثله في النملة التي تكلمت قال في تفسير الآية : والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده ، ولا يكون كذلك إلا بأن يقتصر على مراده ، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يصح معه التكليف أو يكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف فلذلك قلنا : إن الله تعالى جعل الطير في أيامه ممّالة عقل وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة إليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره ، انتهى .

و وجوه التحكّم فيه غنيّة عن البيان .

و تقديم الجنّ في الذكر على الإنس والطير لكون تسخيرهم ودخولهم تحت الطاعة عجيبا ، و ذكر الإنس بعده دون الطير مع كون تسخيرها أيضا عجيبا رعاية لأمر المقلبة بين الجنّ والإنس .

قوله تعالى : « حتّى إذا أتوا على وادي النمل ، الآية » حتّى غاية لما يفهم من الآية السابقة ، و ضمير الجمع لسليمان و جنوده ، و تعدية الإتيان بعلى قيل : لكون الإتيان من فوق ، و وادي النمل واد بالشام على ما قيل ، و قيل : في أرض الطائف ، و قيل : في أقصى اليمن ، والحطم الكسر .

و المعنى فلمّا سار سليمان و جنوده حتّى أتوا على وادي النمل قالت نملة مخاطبة لسائر النمل : يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم لا يكسر نكم سليمان و جنوده أي لا يبطأ نكم

بأقدامهم وهم لا يشعرون . وفيه دليل على أنهم كانوا يسيرون على الأرض .

قوله تعالى : « فتبسم ضاحكاً من قولها » إلى آخر الآية قيل : التبسم دون الضحك ، وعلى هذا فالمراد بالضحك هو الإشراف عليه مجازاً .

ولا منافاة بين قوله ﷺ : « علمنا منطق الطير » وبين فهمه كلام النملة إذ لم ينف فهمه كلام سائر الحيوان أو كلام بعضها كالنملة .

وقد تسلّم جمع منهم دلالة قوله : « علمنا منطق الطير » على نفي ما عداه فتكلّفوا في توجيه فهمه ﷺ قول النملة تارة بأنّه كانت قضية في واقعة ، وأخرى بتقدير أنّها كانت نملة ذات جناحين وهي من الطير ، وثالثة بأنّ كلامها كان من معجزات سليمان ﷺ ، ورابعة بأنّه ﷺ لم يسمع منها صوتاً قط وإنّما فهم ما في نفس النملة إلهاماً من الله تعالى هذا .

وما تقدّم من معنى منطق الحيوان يزاح به هذه الأوهام . على أنّ سياق الآيات وحده كاف في دفعها .

وقوله : « وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي » وأن أعمل صالحاً ترضاه ، الإيزاع الإلهام . تبسم ﷺ مبتهجاً مسروراً بما أنعم الله عليه حتّى أوقفه هذا الموقف وهي النبوة والعلم بمنطق الحيوان والملك و الجنود من الجنّ و الإنس والطير فسأل الله أن يلهمه شكر نعمته وأن يعمل بما فيه رضاه سبحانه .

وقد جعل الشكر للنعمة التي أنعم الله تعالى بها على نفسه مختصّة به ، و للنعمة التي أنعم بها على والديه فإنّ الإينعام على والديه إينعام عليه بوجه لكونه منهما وقد أنعم الله تعالى على أبيه داود بالنبوة و الملك و الحكمة وفصل الخطاب وغيرها و أنعم على أمّه حيث زوجها من داود النبيّ و رزقها سليمان النبيّ و جعلها من أهل بيت النبوة .

و في كلامه هذا دليل على أنّ والدته من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله

عليهم ^(١) وهم إحدى الطوائف الأربع المذكورين في قوله تعالى : « الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، النساء : ٦٩ .

وقوله : « وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ » عطف على قوله : « أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ » ومسألته هذه : « أَوْزَعْنِي أَنْ أَعْمَلَ » الخ أمر أرفع قدرا وأعلى منزلة من سؤال التوفيق للعمل الصالح فإن التوفيق يعمل في الأسباب الخارجية بترتيبها بحيث توافق سعادة الإنسان والإيزاع الذي سألته دعوة باطنية في الإنسان إلى السعادة ، وعلى هذا فليس من البعيد أن يكون المراد به الوحي الذي أكرم الله به إبراهيم وآله فيما يخبر عنه بقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » الآية الأنبياء : ٧٣ وهو التأييد بروح القدس على ما مر في تفسير الآية .

وقوله : « وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » أي اجعلني منهم ، وهذا الصلاح لما لم يتقيد بالعمل كان هو صلاح الذات و هو صلاح النفس في جوهرها الذي يستعد به لقبول أي كرامة إلهية .

و من المعلوم أن صلاح الذات أرفع قدرا من صلاح العمل ففي قوله : « وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ » أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ، تدرج في المسألة من الأدنى إلى الأعلى وقد كان صلاح العمل منسوبا إلى صنعه واختياره بوجه دون صلاح الذات و لذا سأل صلاح الذات من ربه ولم يسأل نفس صلاح العمل بل أن يوزعه أن يعمل .

وفي تبديله سؤال صلاح الذات من سؤال أن يدخله في عباده الصالحين إيدان بسؤاله ما خصهم الله به من المواهب و أغزرها العبودية وقد وصفه الله بها في قوله : « نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ » ص : ٣٠ .

قوله تعالى : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ »

(١) وفيه تبرئة ساحتها عما في التوراة الدائرة ففي التوراة أنها كانت امرأة اوريا فجر بهادود ثم كاد في قتل اوريا فقتل في بعض الحروب فأدخلها في أزواجه فولدت له سليمان .

قال الراغب : التفقّد النعمد لكن حقيقة التفقّد تعرف فقدان الشيء و النعمد تعرف العهد المتقدّم قال تعالى : « وتفقّد الطير » انتهى .

استفهم أو لا متعجباً من حال نفسه إذ لا يرى الهدهد بين الطير كأنه لم يكن من المظنون في حقّه أن يغيب عن مو كبه ويسنكف عن امتثال أمره ثم أضرب عن ذلك بالاستفهام عن غيبته .

و المعنى ما بالي لأرى الهدهد بين الطيور الملازمة لمو كبي بل أكان من الغائبين .

قوله تعالى : « لاُعذّبته عذاباً شديداً أولاً ذبحته أولاً تينتي بسلطان مبین » اللآمات للقسم والسلطان المبین البرهان الواضح ، يقضي عليه السلام على الهدهد أحد ثلاث خصال العذاب الشديد والذبح وفيهما شقاؤه و الا تيان بحجّة واضحة وفيه خلاصه و نجاته .

قوله تعالى : « فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ نبيا يقين » ضمير « فمكث » لسليمان و يحتمل أن يكون للهدهد ويؤيد الأوّل سابق السياق و الثاني لاحقه ، و المراد بالاحاطة العلم الكامل ، وقوله : « وجئتك » الخ بمنزلة عطف التفسير لقوله : « أحطت » الخ وسبأ بلدة باليمن كانت عاصمته يوسئذ والنبا الخبر الذي له أهميّة ، و اليقين مالا شك فيه .

والمعنى فمكث سليمان - أو فمكث الهدهد - زمانا غير بعيد - ثم حضر فسأله سليمان عن غيبته وعاتبه - فقال أحطت من العلم بما لم تحط به وجئتك من سبأ بخبر مهم لا شك فيه .

ومنه يظهر أن في الآية جذفا وإيجازاً ، وقد قيل : إن في قول الهدهد : « أحطت بما لم تحط به » كسراً لسورة سليمان ﷺ فيما شد عليه .

قوله تعالى : « إنني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم » الضمير في « تملكهم » لأهل سبأ وما يتبعها وقوله : « وأوتيت من كل شيء » وصف لسعة ملكها وعظمتها وهو القرينة على أن المراد بكل شيء في الآية كل شيء .

هو من لوازم الملك العظيم من حزم وعزم وسطوة ومملكة عريضة وكنوز وجنوده جندة و رعية مطيعة ، وخص بالذكر من بينها عرشها العظيم .

قوله تعالى : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، الخ أي إنهم من عبدة الشمس من الوثنيين .

وقوله : « وزين لهم الشيطان أعمالهم » بمنزلة عطف النفسير لما سبقه و هو مع ذلك توطئة لقوله بعد : « فصدمهم عن السبيل » لأنّ تزوين الشيطان لهم أعمالهم التي هي سجدتهم وسائر تقرباتهم هو الذي صرفهم ومنعهم عن سبيل الله وهي عبادته وحده .

وفي إطلاق السبيل من غير إضافتها إليه تعالى إشارة إلى أنها السبيل المتعينة للسبيلية بنفسها للإنسان بالنظر إلى فطرته بل لكل شيء بالنظر إلى الخلقة العامة . وقوله : « فهم لا يهتمدون » تفريع على صدمهم عن السبيل إذ لا سبيل مع الصدم عن السبيل فلا هتداء فافهمه .

قوله تعالى : « ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض و يعلم ما تخفون وما تعلنون » القراءة الدائرة « ألا » بتشديد اللام - مؤلف من « أن ولا » وهو عطف بيان من « أعمالهم » والمعنى زين لهم الشيطان أن لا يسجدوا لله و قيل : بتقدير لام التعليل والمعنى زين لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله .

والخبء على ما في مجمع البيان المخبوء وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه وهو مصدر وصف به يقال : خبأته أخبؤه خبأً وما يوجد الله تعالى فيخرجه من العدم إلى الوجود يكون بهذه المنزلة . انتهى .

ففي قوله : « يخرج الخبء في السماوات والأرض » استعارة كأن الأشياء مخبوءة مستورة تحت أطباق العدم فيخرجها الله تعالى إلى الوجود واحداً بعد آخر فيكون تسمية الإيجاد بعد العدم إخراجاً للخبء قريباً من تسميته بالفطر وتوصيفه تعالى بأنه فاطر السماوات والأرض والفطر هو الشق كأنه يشق العدم فيخرج الأشياء . و يمكن حمل الجملة على الحقيقة من غير استعارة لكنّه مفنقّر إلى بيان

موضعه غير هذا الموضع . وقيل : البراد بالخبء الغيب و إخراج العلم به و هو كما ترى .

وقوله : « ويعلم ما تخفون وما تعلنون » ، بالناء على الخطاب أي يعلم سركم وعلايتكم ، وقرء الأكثرون بالياء على الغيبة و هو أرجح .

وملخص الحجة أنهم إنما يسجدون للشمس دون الله تعظيما لها على ما أودع الله سبحانه في طباعها من الآثار الحسنة و التدبير العام للعالم الأرضي وغيره والله الذي أخرج جميع الأشياء من العدم إلى الوجود و من الغيب إلى الشهادة فترتب على ذلك نظام التدبير من أصله - ومن جعلتها الشمس وتديرها - أولى بالتعظيم وأحق أن يسجد له ، مع أنه لا معنى لعبادة ما لا شعور له بها ولا شعور للشمس بسجدهم والله سبحانه يعلم ما يخفون و ما يعلنون فالله سبحانه هو المنعيتن للسجدة والتعظيم لا غير .

و بهذا البيان تبين وجه اتصال قوله تلوا : « الله لا إله إلا هو » الخ .
قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » من تمام كلام الهدد و هو بمنزلة التصريح بنتيجة البيان الضمني السابق و إظهار الحق قبال باطلهم ولذا أتى أولا بالتهليل الدال على توحيد العبادة ثم ضم إليه قوله : « رب العرش العظيم » الدال على انتهاء تدبير الأمر إليه فإن العرش الملكي هو المقام الذي تجتمع عنده أزمة الأمور وتصدر منه الأحكام الجارية في الملك .

وفي قوله : « رب العرش العظيم » مناسبة محاذاة أخرى مع قوله في وصف ملكة سبا : « ولها عرش عظيم » ولعل قول الهدد هذا هو الذي دعا - أو هو من جملة مادعا - سليمان عليه السلام أن يأمر أن يأتوا بعرشها إليه ليخضع لعظمة ربه كل عظمة .

قوله تعالى : « قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » الضمير لسليمان عليه السلام . أحال القضاء في أمر الهدد إلى المستقبل فلم يصدق في قوله لعدم بيينة عليه بعد ولم يكذب به لعدم الدليل على كذبه بل وعده أن يجرب ويتأمل .

قوله تعالى : « اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون » حكاية قول سليمان خطابا للدهد كأنه قيل : فكتب سليمان كتابا ثم قال للدهد : اذهب بكتابي هذا إليهم أي إلى ملكة سبأ و ملاها فألقه إليهم ثم تول عنهم أي تنح عنهم وقع في مكان تراهم فانظر ماذا يرجعون أي ماذا يرد بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلموا فيه .

وقوله : « فألقه » بسكون الهاء وصلاً ووقفاً في جميع القراءات وهي هاء السكت و ممّا قيل في الآية : أن قوله : « ثم تول عنهم فانظر » الخ من قبيل التقديم والناخير والأصل فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم . وهو كما ترى .

قوله تعالى : « قالت يا أيها الملأ أني ألقى إليّ كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » في الكلام حذف وإيجاز والتقدير فأخذ الهدد الكتاب وحمله إلى ملكة سبأ حتى إذا أتاها ألقاه إليها فأخذتها ولمّا قرأتها قالت لملاها وأشرف قومها يا أيها الملأ الخ .

فقوله : « قالت يا أيها الملأ أني ألقى إليّ كتاب كريم » حكاية ذكرها لملاها أمر الكتاب وكيفية وصوله إليها ومضمونه ، وقد عظّمته إذ وصفته بالكرم . وقوله : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » ظاهره أنه تعليل لكون الكتاب كريماً أي والسبب فيه أنه من سليمان ولم يكديخفى عليها جبروت سليمان وما أوتيته من الملك العظيم والشوكة العجيبة كما اعترفت بذلك في قولها على ما حكاه الله بعد : « وأوتينا العلم من قبله وكنا مسلمين » .

و إنه بسم الله الرحمن الرحيم : أي الكتاب بسمه تعالى فهو كريم لذلك والوثنيون جميعاً قائلون بالله سبحانه يروونه ربّ الأرباب وإن لم يعبدوه ، وعبدوا الشمس منهم وهم من شعب الصابئين يعظمونه ويعظمون صفاته وإن كانوا يفسرون الصفات بتفني النقائص والأعدام فيفسرون العلم والقدرة والحياة والرحمة مثلاً بانتهاء الجهل والعجز والموت والقسوة فكون الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم يستدعي كونه كريماً كما أن كونه من سليمان العظيم يستدعي كونه كريماً وعلى هذا فالكتاب

أي مضمونه هو قوله : « أن لاتعلوا عليّ وأتوني مسلمين » وأن مفسّرة .

و من العجيب ما عن جمع من المفسّرين أن قوله : « إنّه من سليمان » استئناف وقع جواباً لسؤال مقدّر كأنّه قيل : بمن الكتاب وماذا فيه فقالت : إنّه من سليمان الخ و على هذا يكون قوله : و إنّه بسم الله بيانا للكتاب أي ملته و أن الكتاب هو بسم الله الرحمن الرحيم أن لاتعلوا عليّ وأتوني مسلمين » .

و يتوجّه عليهم أو لا وقوع لفظة أن زائدة لافائدة لها ولذا قال بعضهم : إنّه مصدرية و لا نافية لانهائية وهو وجه سخيف كما سيأتي .

و ثانياً بيان الوجه في كون الكتاب كريماً فقيل : وجه كرامته أنّه كان مختوماً ففي الحديث : إكرام الكتاب ختمه حتّى ادّعى بعضهم أن معنى كرامة الكتاب ختمه يقال : أكرمت الكتاب فهو كريم إذا ختمته ، و قيل : إنّها سمته كريماً لجودة خطّه و حسن بيانه ، و قيل : لوصوله إليها على منهاج غير عاديّ و قيل : لظنّها بسبب إلقاء الطير أنّه كتاب سماويّ إلى غير ذلك من الوجوه .

و أنت خير بأنّها تحكّمات غير مقنعة والظاهر أن الذي أوقعهم فيما وقعوا حلّمهم قوله : « و إنّه بسم الله - إلى قوله : - مسلمين » على حكاية متن الكتاب وذلك ينافي حمل قوله : « إنّه من سليمان و إنّه بسم الله » الخ على تعليل كرامة الكتاب ويدفعه أن ظاهر أن المفسّرة في قوله : « أن لاتعلوا عليّ » الخ أنّه نقل طعن الكتاب و مضمونه لاحكاية منه فمحصل الآيتين أن الكتاب كان مبدؤاً بسم الله - الرحمن الرحيم وأنّ مضمونه النهي عن العلو عليه و الأمر بأن يأتوه مسلمين فلا محذور أصلاً .

قوله تعالى : « أن لاتعلوا عليّ وأتوني مسلمين » أن مفسّرة تفسّر مضمون كتاب سليمان كما تقدّمت الإشارة إليه .

و قول بعضهم إنّها مصدرية و لا نافية أي عدم علو كم عليّ ، سخيف لاستلزامه أو لا تقدير مبتدأ أو خبر محذوف من غير موجب ، و ثانياً عطف الإنشاء وهو قوله : « وأتوني » على الإخبار .

والمراد بعلوهم عليه استكبارهم عليه ، وبقوله : « وأتوني مسلمين » إسلامهم بمعنى الانقياد على ما يؤيده قوله : « أن لاتعلوا علي » دون الإسلام بالمعنى المصطلح وهو الإيمان بالله سبحانه وإن كان إتيانهم متقادين له يستلزم إيمانهم بالله على ما يستفاد من سياق قول الهدهد وسياق الآيات الآتية ، ولو كان المراد بالإيمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال : أن لا تعلوا على الله .

و كون سليمان عليه السلام نبياً شأنه الدعوة إلى الإسلام لا ينافي ذلك فإنه كان ملكاً رسولاً وكانت دعوته إلى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدم وقد انتهت إلى إسلامها لله كما حكى الله تعالى عنها « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

قوله تعالى : « قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراحتى تشهدون » الإفتاء إظهار الفتوى وهي الرأي ، وقطع الأمر القضاء به والعزم عليه والشهادة الحضور وهذا استشارة منها لهم تقول : أشيروا علي في هذا الأمر الذي واجهته - وهو الذي يشير إليه كتاب سليمان - وإنما أستشيركم فيه لأنني لم أكن حتى اليوم أستبد برأيي في الأمور بل أقضي وأعزم عن إشارة وحضور منكم .

فالآية تشير إلى فصل ثان من كلامها مع ملاها بعد الفصل الأول الذي أخبرتم فيه بكتاب سليمان عليه السلام وكيفية وصوله وما فيه .

قوله تعالى : « قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين » القوة ما ينتقوى به على المطلوب وهي هنا الجند الذي ينتقوى به على دفع العدو وقتاله ، والبأس الشدة في العمل والمراد به النجدة والشجاعة .

والآية تتضمن جواب الملائكة يسمعونها أو لا ما يطيب له نفسها ويسكن به قلقها ثم يرجعون إليها الأمر يقولون : طيبي نفسك ولا تحزني فإن لنا من القوة والشدة ما لانهاب به عدواً وإن كان هو سليمان ثم الأمر إليك مري بما شئت فنحن مطيعوك .

قوله تعالى : « قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » إفساد القرى تخريبها وإحراقها وهدم أبنيتها ، وإذلال

أعزة أهلها هو بالقتل والأسر والسبي والإجلاء والتحكّم .

كان رأيها على ما يستفاد من هاتين الآيتين - زيادة التبصّر في أمر سليمان عليه السلام بأن ترسل إليه من يختبر حاله ويشاهد مظاهر نبوّته وملكه فيخبر الملكة بما رأى حتّى تصمّم هي العزم على أحد الأمرين : الحرب أو السلم وكان الظاهر من كلام الملأ حيث بدؤا في الكلام معها بقولهم : نحن أوّلو قوّة وأولو بأس شديد ، أنهم يميلون إلى القتال لذلك أخذت أو لا تذمّ الحرب ثم نصّت على ما هو رأيها فقالت : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » الخ أي إن الحرب لا تنتهي إلّا إلى غلبة أحد المتحاربين وفيها فساد القرى وذلة أعزّتها فليس من الحزم الاقدام عليها مع قوّة العدو وشوكته مهما كانت إلى السلم والصلح سبيل إلّا للضرورة ورأيي الذي أراه أن أرسل إليهم بهديّة ثم أنظر بماذا يرجع المرسلون من الخبر وعند ذلك أقطع بأحد الأمرين الحرب أو السلم .

فقوله : « إن الملوك إذا دخلوا » الخ توطئة لقوله بعد : « وإني مرسله إليهم بهديّة فناظرة » الخ .

وقوله : « وجعلوا أعزة أهلها أذلة » أبلغ وآكد من قولنا مثلاً : استذلّوا أعزّتها لأنّه مع الدلالة على تحقّق الذلّة يدلّ على تلبّسهم بصفة الذلّة .
وقوله : « وكذلك يفعلون » مسوق للدلالة على الاستمرار بعد دلالة قوله : أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » على أصل الوقوع ، وقيل : إن الجملة من كلام الله سبحانه لا من تمام كلام ملكة سبأ ، وليس بسديد إذ لا اقتضاء في المقام لمثل هذا التصديق .

قوله تعالى : « وإني مرسله إليهم بهديّة فناظرة بم يرجع المرسلون » أي مرسله إلى سليمان وهذا نوع من التجبّر والاعتزاز الملوكيّ تصون لسانها عن اسمه وتنسب الأمر إليه وإلى من معه جميعاً وأيضاً تشير به إلى أنّه يفعل ما يفعل بأيدي أعضاده وجنوده وإمداد رعيّته .

وقوله « فناظرة بم يرجع المرسلون » أي حتّى أعمل عند ذلك بما تقتضيه الحال

وهذا - كما تقدّم - هو رأي ملكة سبأ ، ويعلم من قوله : « المرسلون » أن الحامل للهدية كان جمعا من قومها كما يستفاد من قول سليمان بعد : « ارجع إليهم » أنه كان للقوم المرسلين رئيس يرأسهم .

قوله تعالى : « فلمّا جاء سليمان قال أتمدّون بملأى آتاني الله خير ممّا آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون » ضمير جاء للمال الذي أهدى إليه أو للرسول الذي جاء بالهدية .

والاستفهام في قوله : « أتمدّون بملأى » للتوبيخ والخطاب للرسول والمرسل بتغليب الحاضر على الغائب ، وتوبيخ القوم من غير تعيين الملكة من بينهم نظير قولها فيما تقدّم : « وإنّي مرسلّة إليهم بهديّة » كما أشرنا إليه .

وجوز أن يكون الخطاب للمرسلين وكانوا جماعة وهو خطأ فإن الإمداد لم يكن من المرسلين بل ممن أرسلهم فلامعنى لتوجيه التوبيخ إليهم خاصّة ، وتنكير المال للتحقير ، والمراد بما آتاني الله الملك والنبوة .

والمعنى أتمدّوني بملأى حقير لا قدر له عندي في جنب ما آتاني الله فما آتاني الله من النبوة والملك والثروة خير ممّا آتاكم .

وقوله : « بل أنتم بهديتكم تفرحون » إضراب عن التوبيخ بإمداده بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم أي إن إمدادكم إيتاني بملأى لا قدر له عندي في جنب ما آتاني الله قبيح و فرحكم بهديتكم لاستعظامكم لها وإعجابكم بها أقبح .

وقيل : المراد بهديتكم الهدية التي تهدي إليكم والمعنى بل أنتم تفرحون بما يهدي إليكم من الهدية لحبكم زيادة المال وأمّا أنا فلا أعتدّ بملأى الدنيا هذا . وبُعدّه ظاهر .

قوله تعالى : « ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » الخطاب لرئيس المرسلين ، وضمائر الجمع راجعة إلى ملكة سبأ وقومها ، والقبل الطاقة ، وضمير « بها » لسبأ ، وقوله : « وهم صاغرون » تأكيد لما قبله ، و اللام في « فلنأتينهم » و « لنخرجنهم » للقسم .

لما كان ظاهر تبديلهم امتثال أمره - وهو قوله : «وأتوني مسلمين» - من إرسال الهدية هو الاستنكاف عن الإسلام قد ربح حسب المقام أنهم غير مسلمين له فهددهم بإرسال جنود لاقبل لهم بها ولذلك فرّغ إتيانهم بالجنود على رجوع الرسول من غير أن يشترطه بعدم إتيانهم مسلمين فقال : «ارجع إليهم فلنأتينهم» الخ ولم يقل : ارجع فإن لم يأتوني مسلمين فلنأتينهم الخ وإن كان مرجع المعنى إليه فإن إرسال الجنود وإخراجهم من سبأ على حال الدلة كان مشروطاً به على أي حال .

والسياق يشهد أنه ﷺ رد إليهم هديتهم ولم يقبلها منهم .

قوله تعالى : «قال يا أيها الملأ أيتكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين» كلام تكلم به بعد رد الهدية وإرجاع الرسل ، وفيه إخباره أنهم سيأتونه مسلمين وإنما أراد الإتيان بعرضها قبل حضورها وقومها عنده ليكون دلالة ظاهرة على بلوغ قدرته الموهوبة من ربه ومعجزة نبوته حتى يسلاموا لله كما يسلامون له ويستفاد ذلك من الآيات التالية .

قوله تعالى : «قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين» العفريت - على ما قيل - المارد الخبيث ، وقوله : «آتيتك به» اسم فاعل أوفعل مضارع من الإتيان ، والأول أنسب للسياق لدلالته على التلبس بالفعل وكونه أنسب لعطف قوله : «وإني عليه» الخ وهو جملة اسمية عليه . كذا قيل .

وقوله : «وإني عليه لقوي أمين» الضمير للإتيان أي أنا للإتيان بعرضها لقوي لا يثقل عليّ حمله ولا يجهدني نقله ، أمين لا أخونك في هذا الأمر .

قوله تعالى : «قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك» مقابلته لمن قبله دليل على أنه كان من الإنس ، وقد وردت الروايات عن أئمة أهل البيت ﷺ أنه كان آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيه ، وقيل : هو الخضر وقيل : رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب ، وقيل : جبريل ، وقيل : هو سليمان نفسه وهي وجوه لادليل على شيء منها .

وأيّاً ما كان وأيّاً من كان ففصل الكلام ممّا قبله من غير أن يعطف عليه للاعتناء بشأن هذا العالم الذي أتى بعرشها إليه في أقلّ من طرفة العين ، وقد اعتنى بشأن عمله أيضاً إذ نكّر فقيل : علم من الكتاب أي علم لا يهتمل اللفظ وصفه .
والمراد بالكتاب الذي هو مبده هذا العلم العجيب إمّا جنس الكتب السماوية أو اللوح المحفوظ ، والعلم الذي أخذه هذا العالم منه كان علماً يسهّل له الوصول إلى هذه البغية وقد ذكر المفسّرون أنّه كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب ، وربما ذكر بعضهم أنّ ذلك الاسم هو الحيّ القيّوم ، وقيل : ذو الجلال والإكرام ، وقيل : الله الرحمان ، وقيل : هو بالعبرانية آهياً شراهياً وقيل : إنّهُ دعا بقوله : يا إلهنا وإله كلّ شيء إلهنا واحداً لا إله إلا أنت إيتني بعرشها . إلى غير ذلك ممّا قيل .

وقد تقدّم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أنّ من المحال أن يكون الاسم الأعظم الذي له التصرف في كلّ شيء من قبيل الألفاظ ولا المفاهيم التي تدلّ عليها وتكشف عنها الألفاظ بل إن كان هناك اسم له هذا الشأن أو بعض هذا الشأن فهو حقيقة الاسم الخارجية التي ينطبق عليها مفهوم اللفظ نوعاً من الانطباق وهي الاسم حقيقة واللفظ الدالّ عليها اسم الاسم .

ولم يرد في لفظ الآية نبأ من هذا الاسم الذي ذكره بل الذي تنضمّنهُ الآية أنّه كان عنده علم من الكتاب وأنّه قال : أنا آتيك به ، ومن المعلوم مع ذلك أنّ الفعل فعل الله حقيقة ، وبذلك كلّهُ يتحصّل أنّه كان له من العلم بالله والارتباط به ما إذا سأل ربّه شيئاً بالنوّه إليه لم يتخلف عن الاستجابة وإن شئت فقل : إذا شاء شاء الله سبحانه .

ويتبيّن ممّا تقدّم أيضاً أنّ هذا العلم لم يكن من سنخ العلوم الفكرية التي تقبل الاكتساب والتعلّم .

وقوله : « أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك » الطرف - على ما قيل - اللحظ والنظر وارتداد الطرف وصل المنظور إليه إلى النفس وعلم الإنسان به فالمراد

أنا آتيك به في أقلّ من الفاصلة الزمانية بين النظر إلى الشيء والعلم به .
وقيل : الطرف تحريك الأجناف وفتحها للنظر ، وارتداده هو انضمامها
ولكونه أمرا طبيعياً غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الردّ فقيل : قبل أن يرتدّ
إليك طرفك ولم يقل : قبل أن يردّ . هذا .

وقد أخطأ الطرف كالتنفّس من أفعال الإنسان الاختيارية غير أنّ الذي
يبحث إليه هو الطبيعة كما في التنفّس ولذلك لا يحتاج في صدوره إلى تروّ سابق كما
يحتاج إليه في أمثال الأكل والشرب فالفعل الاختياري ما يرتبط إلى إرادة الإنسان
وهو أعمّ ممّا يسبقه التروّي ، والذي أوقع هذا القائل فيما وقع ظنّه التساوي بين
الفعل الصادر عن اختيار و الصادر عن تروّ ، ولعلّ النكته في إثبات الارتداد على
الردّ هي أنّ الفعل لعدم توقّفه على التروّي كأنّه يقع بنفسه لا عن مشيئة من
اللا حظ .

والخطاب في قوله : « أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك » لسليمان
عليه السلام فهو الذي يريد الإتيان به إليه وهو الذي يراد الإتيان به إليه .
وقيل : الخطاب للعفريت القائل : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك
والمراد بالذي عنده علم من الكتاب عندهذا القائل هو سليمان ، وإنّما قاله له إظهاراً
لفضل النبوة وأنّ الذي أقدره الله عليه بتعليمه علماً من الكتاب أعظم ممّا ينبجّح به
العفريت من القدرة فالمعنى قال سليمان للعفريت لمّا قال ما قال : أنا آتيك بالعرش
قتل ارتداد طرفك .

وقد أصرّف في التفسير الكبير على هذا القول وأورد لتأنيده وجوها وهي وجوه
ردية وأصل القول لا يلائم السياق كما أوّمانا إليه .

قوله تعالى : « فلمّا رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربّي » إلى آخر
الاية ، أي لمّا رأى سليمان العرش مستقراً عنده قال : هذا أي حضور العرش و
استقراره عندي في أقلّ من طرفة العين من فضل ربّي من غير استحقاق منّي لبيلوني
أي يمتحنني ، أشكر نعمته أم أكفر ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه أي يعود نفعه إليه

لا إلى ربي ومن كفر فلم يشكر فإن ربي غني كريم - وفي ذيل الكلام تأكيد لما في صدره من حديث الفضل - .

وقيل : المشار إليه بقوله : « هذا » هو لتمكّن من إحضاره بالواسطة أو بالذات .

وفيه أن ظاهر قوله : « فلما رآه مستقراً عنده قال » الخ أن هذا الثناء مرتبط بحال الرؤية والذي في حال الرؤية هو حضور العرش عنده دون التمكن من الإحضار الذي كان متحققاً منذ زمان .

وفي الكلام حذف وإيجاز والتقدير فأذن له سليمان في الإتيان به كذلك فأتى به كما قال : « فلما رآه مستقراً عنده » وفي حذف ما حذف دلالة بالغة على سرعة العمل كأنه لم يكن بين دعواه الإتيان به كذلك وبين رؤيته مستقراً عنده فصل أصلاً .

قوله تعالى : « قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون » قال في المفردات : تنكير الشيء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف قال تعالى : « قال نكروا لها عرشها » و تعريفه جعله بحيث يعرف . انتهى .

والسياق يدل على أن سليمان عليه السلام إنما قاله حينما قصدته ملكة سبا وملؤها لما دخلوا عليه ، وإنما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنه أراد بأصل الإتيان به إظهار آية باهرة من آيات نبوته لها ، ولذا أمر بتنكير العرش ثم رتب عليه قوله : « ننظر أتهتدي » الخ والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » أي فلما جاءت الملكة سليمان عليه السلام قيل له من جانب سليمان : « أهكذا عرشك » وهو كلمة اختبار .

ولم يقل : أهذا عرشك بل زيد في التنكير ف قيل : أهكذا عرشك ؟ فاستفهم عن مشابهة عرشها لهذا العرش المشار إليه في هيئته وصفاته ، وفي نفس هذه الجملة نوع من التنكير .

وقوله : « قالت كأنه هو » المراد به أنه هو وإنما عبرت بلفظ التشبيه تحرّزا من الطيش و المبادرة إلى التصديق من غير تثبّت ، ويكنّى عن الاعتقادات الابتدائية التي لم ينتبّت عليها غالبا بالتشبيه .

وقوله : « و أوّتينا العلم من قبلها و كنّا مسلمين » ضمير « قبلها » لهذه الآية أي الإتيان بالعرش أول هذه الحالة أي رؤيتها له بعدما جاءت ، و ظاهر السياق أنها تمتّة كلام الملكة فهي لما رأت العرش و سئلت عن أمره أحسّت أن ذلك منهم تلويح إلى ما آتى الله سليمان من القدرة الخارقة للعادة فأجابت بقولها : « و أوّتينا العلم من قبلها » الخ أي لا حاجة إلى هذا التلويح والتذكير فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآية أو هذه الحالة و كنّا مسلمين لسليمان طائعين له .

وقيل : قوله : « و أوّتينا العلم » الخ من كلام سليمان ، وقيل : من كلام قوم سليمان ، وقيل من كلام الملكة لكنّ المعنى و أوّتينا العلم بإتيان العرش قبل هذه الحال - وهي جميعا وجوه رديّة .

قوله تعالى : « وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنّها كانت من قوم كافرين » الصدّ المنع والصرف ، و متعلّق الصدّ بالإسلام لله وهو الذي ستشهد به حين تؤمر بدخول الصرح فتقول : أسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين ، و أمّا قولها في الآية السابقة : « و كنّا مسلمين » فهو إسلامها و انقيادها لسليمان عليه السلام .

هذا ما يعطيه سياق الآيات وللقوم وجوه آخر في معنى الآية أضربنا عنها .
وقوله : « إنّها كانت من قوم كافرين » في مقام التعليل للصدّ ، والمعنى ومنعها عن الإسلام لله ما كانت تعبد من دون الله وهي الشمس على ما تقدّم في بناء الهدد و السبب فيه أنّها كانت من قوم كافرين فاتبعتهم في كفرهم .

قوله تعالى : « قيل لها ادخلي الصرح » إلى آخر الآية الصرح هو القصر و كلّ بناء مشرف والصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف ، واللجة المعظم من الماء و الممرّد اسم مفعول من التمريد و هو التمليس ، والقوارير الزجاج .

وقوله : « قيل لها ادخلي الصرح » كأنّ القائل بعض خدم سليمان مع حضور

من سليمان ممن كان يهديها إلى الدخول عليه على ما هو الدأب في وفود الملوك و
العظماء على أمثالهم .

وقوله : « فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقبها » أي لما رأت الصرح
ظنت أنه لجة لما كان عليه الزجاج من الصفاء كالماء وكشفت عن ساقبها بجمع
ثيابها لئلا تبطل بالماء أذيالها .

وقوله : « قال إنه صرح ممر من قوارير » القائل هو سليمان نبهها أنه
ليس بلجة بل صرح مملس من زجاج فلما رأت ما رأت من عظمة ملك سليمان وقد
كانت رأت سابقا مارأت من أمر هدهد ورد الهدية والأتان بعرشها لم تشك أن
ذلك من آيات نبوته من غير أن يؤتى بحزم أو تدبير وقالت عند ذلك : رب إنني
ظلمت نفسي الخ .

وقوله : « قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »
استغاثت أولا بربها بالاعتراف بالظلم إذ لم تعبد الله من بدء أو من حين رأت هذه
الآيات ثم شهدت بالإسلام لله مع سليمان .

وفي قوله : « وأسلمت مع سليمان لله » التفات بالنسبة إليه تعالى من الخطاب
إلى الغيبة ووجه الانتقال من إجمال الإيمان بالله إذ قالت : رب إنني ظلمت نفسي
إلى التوحيد الصريح فانها تشهد أن إسلامها لله مع سليمان فهو على نهج إسلام
سليمان وهو التوحيد ثم تؤكد التصريح بتوصيفه تعالى برب العالمين فالرب غيره
تعالى شيء من العالمين وهو توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد العبادة الذي لا يقول
به مشرك .

﴿ كلام في قصة سليمان عليه السلام ﴾

١ - ماورد من قصصه في القرآن . لم يرد من قصصه عليه السلام في القرآن الكريم
إلا نبذة يسيرة غير أن التدبر فيها يهدي إلى عامة قصصه ومظاهر شخصيته الشريفة .
منها : وراثته لأبيه داود قال تعالى : « ووهبنا لداود سليمان » ص : ٣٠ ، وقال
« وورث سليمان » النمل : ١٦ .

ومنها : إيتاؤه الملك العظيم وتسخير الجنّ و الطير والريح له وتعليمه منطق الطير وقد تكرر ذكر هذه النعم في كلامه تعالى كما في سورة البقرة الآية ١٠٢ والأنبياء الآية ٨١ ، والنمل الآية ١٦- ١٨ ، سبأ الآية ١٢-١٣ ص : الآية ٣٥-٣٩ . ومنها : الإشارة إلى قصة إلقاء جسد على كرسيه كما في سورة ص الآية ٣٣ . ومنها : الإشارة إلى عرض الصافنات الجياد عليه كما في سورة ص الآية ٣-٣٣ . ومنها : الإشارة إلى تفهيمه الحكم في الغنم التي نفشت في الحرث كما في سورة الأنبياء الآية ٧٨ - ٧٩ .

ومنها : الإشارة إلى حديث النملة كما في سورة النمل الآية ١٨ - ١٩ .
ومنها قصة الهدهد وما يتبعها من قصته ﷺ مع ملكة سبأ سورة النمل الآية ٢٠ - ٤٤ .

ومنها : الإشارة إلى كيفية موته ﷺ كما في سورة سبأ الآية ١٤ .
وقد أوردنا ما يخصّ بكلّ من هذه القصص من الكلام في ذيل الآيات المشيرة إليها الموضوعة في هذا الكتاب .

٢ - الثناء عليه في القرآن . ورد اسمه ﷺ في بضعة عشر موضعاً من كلامه تعالى وقد أكثر الثناء عليه فسمّاه عبداً أوّاباً قال تعالى : « نعم العبد إنه أوّاب » ص : ٣٠ ، ووصفه بالعلم والحكم قال تعالى : « ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً » الأنبياء : ٧٩ وقال : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً » النمل : ١٥ وقال : « وقال يا أيّها الناس علّمنا منطق الطير » النمل : ١٦ ، وعدّه من النبيّين المهديّين قال تعالى : « وإيّوب ويونس وهارون وسليمان » النساء : ١٦٣ وقال : « ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريّته داود وسليمان » الأنعام : ٨٤ .

٣ - ذكره ﷺ في العهد العتيق : وقعت قصته في كتاب الملوك الأول وقد أطيل فيه في حشمته و جلالة أمره وسعة ملكة ووفور ثروته و بلوغ حكمته غير أنّنا لم يذكر فيه شيء من قصصه المشار إليها في القرآن إلّا ما ذكر أنّ ملكة سبأ لما سمعت خبر سليمان و بناءه بيت الربّ بأورشليم وما أوّتيه من الحكمة أتت إليها

و معها هدايا كثيرة فلاقتها وسألته عن مسائل تمتحنه بها فأجاب عنها ثم رجعت^(١).
وقد أساء العهد العتيق القول فيه عليه السلام فذكر^(٢) أنه عليه السلام انحرف في آخر
عمره عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام فسجد لأوثان كانت تعبدها بعض أزواجه .
و ذكر أن والدته كانت زوج أوريا الحثي فعشقها داود عليه السلام ففجر بها
فحبلت منه فاحتال في قتل زوجها أوريا حتى قتل في بعض الحروب فضمها إلى
أزواجه فحبلت منه ثانيا وولدت له سليمان .

و القرآن الكريم ينزه ساحتهم عليهم السلام من أول الرمينين بما ينزه به ساحة
جميع الأنبياء بالنص على هدايتهم وعصمتهم وقال فيه خاصة : « وما كفر سليمان ،
البقرة : ١٠٢ .

ومن الثانية بما يحكيه من دعائه عليه السلام لما سمع قول النملة : « رب أوزعني
أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي » النمل : ١٩ فقد بيّنا في تفسيره
أن فيه دلالة على أن والدته كانت من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من
النبیین والصديقين والشهداء والصالحين .

٣- الروايات الواردة في قصصه عليه السلام . الأخبار المروية في قصصه وخاصة
في قصة الهدد وما يتبعها من أخباره مع ملكة سبا يتضمن أكثرها أمورا غريبة
قلما يوجد نظائرها في الأساطير الخرافية يأبأها العقل السليم ويكذبها التاريخ
القطعي وأكثرها مبالغة ما روي عن أمثال كعب وهب .

وقد بلغوا من المبالغة أن روي أنه عليه السلام ملك جميع الأرض ، وكان ملكه
سبعمئة سنة ، وأن جميع الإنس والجن والوحش والطير كانوا جنوده ، وأنه
كان يوضع في مجلسه حول عرشه ستمائة ألف كرسي يجلس عليها ألوف من النبيين
ومآت الألوف من أمراء الإنس والجن .

(١) الأصحاب العاشر من الملوك الاول .

(٢) الأصحاب الحادى عشر والثاني عشر من كتاب صموئيل الثانى .

و أن ملكة سبا كانت أمها من الجن ، وكانت قدمها كحافر الحمامة و كانت تسنر قدميها عن أعين النظار حتى كشفت عن ساقها حينما أرادت دخول الصرح فبان أمرها ، وقد بلغ من شوكتها أنه كان تحت يدها أربع مائة ملك كل ملك على كورة تحت يد كل ملك أربع مائة ألف مقاتل ولها ثلاث مائة وزير يدبّرون ملكها و لها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل إلى غير ذلك من أعاجيب الأخبار التي لا يسعنا إلا أن نعدّها من الاسرائيليات ونصفح عنها (١) .

﴿ بحث روائي ﴾

في الاحتجاج روى عبد الله بن الحسن با سنده عن آبائه عليهم السلام أنه لما أجمع أبو بكر على منع فاطمة عليها السلام فدك وبلغها ذلك جاءت إليه وقالت له : يا بن أبي قحافة أ في كتاب الله أن تترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شافرياً أفعلني عمداً تركتهم كتاب الله ونبتموه وراء ظهوركم إذ يقول : وورث سليمان داود . الحديث .
وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل " فهم يوزعون " قال : يحبس أولهم على آخرهم .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال : و النازرة في بعض اللغة هي المنظرة ألم تسمع إلى قوله : « فناظرة بهم يرجع المرسلون » .

وفي البصائر با سنده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن اسم الله الأعظم على ثلاث وسبعين حرفاً وإنما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخرس بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس ثم تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفه عين ، وعندنا نحن من الاسم اثنان وسبعون حرفاً ، وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أقول : وروى هذا المعنى أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام ، ورواه في الكافي عن جابر

(١) وعلى من يريد الوقوف عليها أن يراجع جوامع الاخبار كالدر المنثور والعرائس

والبحار ومطولات التفاسير .

عن أبي جعفر و عن النوفلي عن أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام .

وقوله : « إن الاسم الأعظم كذا حرفا وكان عند آصف حرف تكلم به » لا ينافي ما قد منا أن هذا الاسم ليس من قبيل الألفاظ فإن نفس هذا السياق يدل على أن المراد بالحرف غير الحرف اللفظي والتعبير به من جهة أن المعهود عند الناس من الاسم الاسم اللفظي المؤلف من الحروف المفوطة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « قبل أن يرتد إليك طرفك » ذكر في ذلك وجوه - إلى أن قال - والخامس أن الأرض طويت له وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

أقول : و مارواه من الطي لا يغير ما تقدمت روايته من الخسف .

والذي نقله من الوجوه الأخر خمسة أحدها أن الملائكة حملته إليه . الثاني أن الريح حملته . الثالث أن الله خلق فيه حركات متوالية الرابع أنه انخرق مكانه حيث هو هناك ثم نبع بين يدي سليمان . الخامس أن الله أعدمه في موضعه و أعاده في مجلس سليمان .

وهناك وجه آخر ذكره بعضهم وهو أن الوجود بتجدد الأمثال بايجادهم وقد أفاض الله الوجود لعرشها في سبأ ثم في الآن التالي عند سليمان . وهذه الوجوه بين ممتنع كالخامس وبين ما لا دليل عليه كالباقي .

وفيه وروى العياشي في تفسيره بالإسناد قال : التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى و يحيى بن أكرم فسأله . قال : فدخلت على أخي علي بن محمد عليه السلام إذ دار بيني وبينه من المواقظ حتى انتهيت إلى طاعته فقلت له : جعلت فداك إن ابن أكرم سألني عن مسائل أفتيه فيها فضحك ثم قال : هل أفتيته فيها قلت : لا . قال : ولم ؟ قلت : لم أعرفها قال : ماهي ؟ قلت : قال : أخبرني عن سليمان أكان محتاجا إلى علم آصف بن برخيا ؟ ثم ذكرت المسائل الأخر :

قال : اكتب يا أخي بسم الله الرحمن الرحيم سألت عن قول الله تعالى في كتابه :

« قال الذي عنده علم من الكتاب، فهو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف لكنّه أحبّ أن تعرف أمّته من الجنّ والإنس أنّه الحجّة من بعده وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلاّ يختلف في إمامته و دلّالته كما فهم سليمان في حياة داود ليعرف إمامته ونبوته من بعده لتأكيد الحجّة على الخلق .

أقول : وأورد الرواية في روح المعاني عن المجمع ثمّ قال : و هو كما ترى انتهى ولا ترى لاعتراضه هذا وجهاً غير أنّه رأى حديث الإمامة فيها فلم يعجبه .
وفي نور الثقلين عن الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : كن لما تترجو أرجى منك لما تترجو - إلى أن قال - وخرجت ملكة سبأ فأسلمت مع سليمان عليه السلام .





وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَادَّاهُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ يَوْمَئِذٍ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَانجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) .

﴿ بيان ﴾

إجمال من قصّة صالح النبي ﷺ وقومه ، وجانب الإنذار في الآيات يغلب على جانب التبشير كما تقدّمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا - إلى قوله - يختصمون ، الاختصام والتخاصم التنازع و توصيف التثنية بالجمع أعني قوله : « فريقان ، بقوله : « يختصمون » لكون المراد بالفريقين مجموع الأئمة و « إذا » فجائية .

والمعنى واقسم لقد أرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم ونسبهم صالحاً وكان المرجو أن يجتمعوا على الإيمان لكن فاجأهم أن تفرقوا فريقين مؤمن وكافر يختصمون ويتنازعون في الحق كل يقول : الحق معي ، ولعل المراد باختصاصهم ما حكاه الله عنهم في موضع آخر بقوله : « قال الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أن تعلمون أن صالحاً مرسل من ربّه قالوا إنّنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنّنا بالذي آمنتم به كافرون » الأعراف : ٧٦ .

ومن هنا يظهر أن أحد الفريقين جمع من المستضعفين آمنوا به و الآخر المستكبرون وباقي المستضعفين ممن اتبعوا كبارهم .

قوله تعالى : « قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة » الخ الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة المبادرة إلى سؤال العذاب قبل الرحمة التي سببها الإيمان والاستغفار . و به يظهر أن صالحاً عليه السلام إنما و يخهم بقوله هذا بعد ما عقروا الناقة و قالوا له : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فيكون قوله : « لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون » تحضيضاً إلى الإيمان والتوبة لعل الله يرحمهم فيرفع عنهم ما وعدهم من العذاب وعداً غير مكذوب .

قوله تعالى : « قالوا اطيّرنا بك وبمن معك قال طائر كم عند الله » الخ التطيّر هو التشائم ، وكانوا يتشائمون كثيراً بالطير ولذا سمّوا التشائم تطييراً ونصيب الإنسان من الشر طائراً كما قيل .

فقولهم خطا بالصالح : « اطيّرنا بك وبمن معك » أي تشائمنا بك وبمن معك ممن آمن بك ولزمك لما أن قيامك بالدعوة وإيمانهم بك قارن ما ابتلينا به من المحن والبلايا فلنسألك عنك .

و قوله خطا باللقوم : « طائر كم عند الله » أي نصيبكم من الشر وهو الذي تستوجبونه أعمالكم من العذاب عند الله سبحانه .

ولذا أضرب عن قوله : « طائر كم عند الله » بقوله : « بل أنتم قوم تفتنون » أي تختبرون بالخير والشر ليمتاز مؤمنكم من كافر كم ومطيعكم من عاصيكم .

ومعنى الآية قال القوم : تطيرنا بك يا صالح و بمن معك فلن نؤمن ولن نستغفر قل صالح : طائر كم الذي فيه نصيبكم من الشر عند الله وهو كتاب أعمالكم ولست أنا ومن معي ذوي أثر فيكم حتى نسوق إليكم هذه الابتلاءات بل أنتم قوم تختبرون وتمتحنون بهذه الامور ليمتاز مؤمنكم من كافر كم ومطيعكم من عاصيكم . وربما قيل : إن الطائر هو السبب الذي منه يصيب الإنسان ما يصيبه من الخير والشر ، فإنهم كما كانوا يتشائمون بالطير كانوا أيضاً يتيمنون به والطائر عندهم الأمر الذي يستقبل الإنسان بالخير والشر كما في قوله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً ، أسرى : ١٣ » وإذ كان ما يستقبل الإنسان من خير أو شر هو بقضاء من الله سبحانه مكتوب في كتاب فالطائر هو الكتاب المحفوظ فيه ما قدر للإنسان .

وفيه أن ظاهر ذيل الآية الإسراء أن المراد بالطائر هو كتاب الأعمال دون كتاب القضاء كما يدل عليه قوله : « اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » . وقيل : معنى « بل أنتم قوم تفتنون » أي تعذبون ، وما ذكرناه أولاً أنسب . قوله تعالى : « وكان في المدينة تسعة رهط » الخ قال الراغب : الرهط العصاة دون العشرة وقيل إلى الأربعين انتهى ، وقيل : الفرق بين الرهط والنفر أن الرهط من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة انتهى . قيل : المراد بالرهط الأشخاص ولذا وقع تمييزاً للتسعة لكونه في معنى الجمع فقد كان المتقاسمون تسعة رجال .

قوله تعالى : « قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليته ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون » التقاسم المشاركة في القسم ، والتبييت القصد بالسوء ليلاً ، وأهل الرجل من يجمعه وإياهم بيت أو نسب أو دين ، ولعل المراد بأهله زوجه وولده بقرينة قوله بعد : « ثم نقول لوليته ما شهدنا » ، وقوله : « وإنا لصادقون » معطوف على قوله : « ما شهدنا » فيكون من مقول القول .

والمعنى قال الرهط المفسدون وقد تقاسموا بالله : لنقتلنه وأهله بالليل ثم نقول

لوليّه إذا عتبنا وطلب الثار : ما شهدنا هلاك أهله وإنّا لصادقون في هذا القول ، و نقي مشاهدة مهلك أهله نقي لمشاهدة مهلك نفسه بالملازمة أو الأولويّة ، على ما قيل .

وربّما قيل : إنّ قوله : « وإنّا لصادقون » حال من فاعل نقول أي نقول لوليّه كذا والحال أنّا صادقون في هذا القول لأنّا شهدنا مهلكه وأهله جميعا لا مهلك أهله فقط .

ولا يخفى ما فيه من التكلف وقد وجّه بوجوه أخر أشدّ تكلفا منه ولا ملزم لأصل الحاليّة .

قوله تعالى : « و مكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون » أمّا مكروهم فهو التواطى على تبنيته وأهله والتقاسم بشهادة السياق السابق وأمّا مكروه تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعا بشهادة السياق اللاحق .

قوله تعالى : « فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنّا دمّرناهم و قومهم أجمعين » التدمير الإهلاك ، وضامائر الجمع للرھط ، و كون عاقبة مكروهم هو إهلاكهم وقومهم من جهة أنّ مكروهم استدعى المكر الإلهي على سبيل المجازاة واستوجب ذلك إهلاكهم وقومهم .

قوله تعالى : « فذلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » الخ الخاوية الخالية من الخواء بمعنى الخلاء ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون » فيه تبشير للمؤمنين بالإنجاء ، وقد أردفه بقوله : « و كانوا يتّقون » إذ التقوى كاللجنّ للإيمان وقد قال تعالى : « و العاقبة للمتّقين » الأعراف : ١٢٨ وقال : « و العاقبة للتقوى » طه : ١٣٢ .





وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَأَنْتُمْ
 لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ
 جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسُ
 يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَانْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) .

﴿ بيان ﴾

إجمال قصة لوط عليه السلام وهي كسابقتها في غلبة جانب الإنذار على جانب
 التبشير .

قوله تعالى : « ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون » معطوف
 على موضع « أرسلنا » في القصة السابقة بفعل مضمّر والتقدير ولقد أرسلنا لوطا .
 كذا قيل ، ويمكن أن يكون معطوفا على أصل القصة بتقدير اذكر والفاحشة هي
 الخصلة البالغة في الشناعة والمراد بها اللواط .

وقوله : « وأنتم تبصرون » أي وأنتم في حال يرى بعضكم بعضا وينظر بعضكم
 إلى بعض حين الفحشاء فهو على حدّ قوله في موضع آخر : « وتأتون في ناديكُم
 المنكر » العنكبوت ٢٩ وقيل : المراد إبصار القلب و محصله العلم بالشناعة
 وهو بعيد .

قوله تعالى : « أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم
 تجهلون » الاستفهام للإنكار ، ودخول أداتي التأكيد - إن واللام - على الجملة
 الاستفهامية للدلالة على أن مضمون الجملة من الاستبعاد بحيث لا يصدق أحد
 والجملة على أي حال في محل التفسير للفحشاء .

وقوله : «بل أنتم قوم تجهلون» أي مستمرون على الجهل لا فائدة في توبيخكم والإنكار عليكم فلستم بمرتدعين ، و وضع « تجهلون » بصيغة الخطاب موضع « يجهلون » من وضع المسبب موضع السبب كأنه قيل : «بل أنتم قوم يجهلون فأنتم تجهلون» .

قوله تعالى : «فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون» أي يتنزهون عن هذا العمل وهو وارد مورد الاستهزاء .
قوله تعالى : «فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين» المراد بأهله أهل بيته لقوله تعالى : «فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين» الذاريات : ٢٦ وقوله : «قدرناها من الغابرين» أي جعلناها من الباقيين في العذاب .

قوله تعالى : «وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين» المراد بالمطر الحجارة من سجّيل لقوله تعالى : «وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل» ٧٤ ، فقوله : «مطرا» يدلّ بتنكيره على النوعية أي أنزلنا عليهم مطراً له نبأ عظيم .





قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آلِلَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ
ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَالِلَهُ مَعَ اللّٰهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا
رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ءَالِلَهُ مَعَ اللّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ
يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ءَالِلَهُ مَعَ
اللّٰهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ
يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَالِلَهُ مَعَ اللّٰهِ تَعَالَى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مِنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ءَالِلَهُ
مَعَ اللّٰهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّٰهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلْ
أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَ آَبَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا
هَذَا نَحْنُ وَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تَكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) .

﴿بيان﴾

انتقال من القصص التي قصتها سبحانه وهي نماذج من سنته الجارية في النوع الإنساني من حيث هدايته وإراءته لهم طريق سعادتهم في الحياة وإكرامه من اهتدى منهم إلى الصراط المستقيم بالاصطفاء، وعظيم الآلاء، وأخذه من أشرك به وأعرض عن ذكره ومكر به بعذاب الاستئصال وأليم النكال .

إلى حمده والسلام على عباده المصطفين وتقرير أنه هو المستحق للعبودية دون غيره مما يشركون ثم سرد الحديث في التوحيد وإثبات المعاد وما يناسب ذلك

من متفرقات المعارف الحقّة فسياق آيات السورة شبيه بما في سورة مريم من السياق على مامر .

قوله تعالى : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أم ما يشركون ، لما قص من قصص الأنبياء وأممهم ما قص وفيها بيان سنته الجارية في الأمم الماضية وما فعل بالمؤمنين منهم من الاصطفاء ومزيد الإحسان كما في الأنبياء منهم وما فعل بالكافرين من العذاب والتدمير - ولم يفعل إلا الخير الجميل ولا جرت سنته إلا على الحكمة البالغة - انتقل منها إلى أمر نبيّه بأن يحمده ويشني عليه وأن يسلم على المصطفين من عباده وقرّ أنّه تعالى هو المنعّين للعبادة .

فهو انتقل من القصص إلى التحميد والتسليم والتوحيد وليس باستنتاج وإن كان في حكمه وإلا قيل : فقل الحمد لله الخ أو قاله خير الخ .

فقوله : « قل الحمد لله » أمر بتحميده وفيه إرجاع كل حمد إليه تعالى لما تقرّر بالآيات السابقة أن مرجع كل خلق وتدبير إليه وهو المفيض كل خير بحكمته والفاعل لكل بحيل بقدرته .

وقوله : « وسلام على عباده الذين اصطفى » معطوف على ما قبله من مقول القول وفي التسليم لأولئك العباد المصطفين نفي كل ما في نفس المسلم من جهات التمانع والتضاد ، لما عندهم من الهداية الإلهية وآثارها الجميلة - على ما يقتضيه معنى السلام - ففي الأمر بالسلام أمر ضمني بالتهيؤ لقبول ما عندهم من الهدى وآثاره فهو بوجه في معنى قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » الأنعام : ٩٠ فافهمه .

وقوله : « الله خير أمّا يشركون » من تمام الخطاب للنبي ﷺ والاستفهام للتقرير ومحصّل المراد أنّه إذا كان الثناء كلّّه لله وهو المصطفى لعباده المصطفين فهو خير من آلهتهم الذين يعبدونهم ولا خلق ولا تدبير لهم يحمدون عليه ولا خير بأيديهم يفيضونه على عبّادهم .

قوله تعالى : « أمّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء »

إلى آخر الآية ، الحقائق جمع حديقة وهي البستان المحدود المحوطة بالحيطان وذات بهجة صفة حقائق قال في مجمع البيان : ذات بهجة أي ذات منظر حسن ينتهج به من رآه ولم يقل : ذوات بهجة لأنه أراد تأنيث الجماعة ولو أراد تأنيث الأعيان لقال : ذوات . انتهى .

و أم في الآية منقطعة تفيد معنى الإضراب ، و « من » مبتداء خبره محذوف وكذا الشق الآخر من التردد والاستفهام للتقرير و حملهم على الإقرار بالحق والتقدير على ما يدل عليه السياق بل أمن خلق السماوات والأرض الخ خير أم ما يشركون ، و الأمر على هذا القياس في الآيات الأربع التالية .

و معنى الآية بل أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم أي لنفعمكم من السماء وهي جهة العلوم وهو المطر فأنبتنا به أي بذلك الماء بساين ذات بهجة ونضارة ما كان لكم أي لا تملكون وليس في قدرتكم أن تنبتوا شجرها ، إله آخر مع الله سبحانه - وهو إنكار وتوبيخ .

و في الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب بالنسبة إلى المشركين والنكتة فيه تشديد التوبيخ بتبديل الغيبة حضوراً فإن مقام الآيات السابقة على هذه الآية مقام التكلم ممن يخاطب أحد خواصه بحضرة من عبده المتمردين المعرضين عن عبوديته يثبت إليه الشكوى وهو يسمعونهم حتى إذا تمت الحجة وقامت البينة كما في قوله : « آله خير أمّا يشركون » حاج به الوجد و الأسف فتوجه إليهم بعد الإعراض فأخذ في حملهم على الإقرار بالحق بذكر آية بعد آية وإنكار شرهم وتوبيخهم عليه بعدولهم عنه إلى غيره و عدم علم أكثرهم وقلة تذكرهم مع تعاليه عن شرهم وعدم برهان منهم على ما يدعون .

و قوله : « بل هم قوم يعدلون » أي عن الحق إلى الباطل و عن الله سبحانه إلى غيره و قيل : أي يعدلون بالله غيره ويساوون بينهما .

و في الجملة التفات من الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إلى المشركين و رجوع إلى خطاب النبي ﷺ والإضراب فيه لبيان أن لاجدوى للسير في حملهم على الحق

فإنهم عادلون عنه .

قوله تعالى : « أمّن جعل الأرض قرارا ، إلى آخر الآية ، القرار مصدر بمعنى اسم الفاعل أي القار المستقر ، والخلال جمع خلل بفتحيتين وهو الفرجة بين الشيئين والرواسي جمع راسية وهي الثابتة والمراد بها الجبال الثابتات ، والحاجز هو المانع المتخلل بين الشيئين .

والمعنى بل أمّن جعل الأرض مستقرة لا تميد بكم وجعل في فرجها التي في جوفها أنهارا وجعل لها جبالا ثابتة وجعل بين البحرين مانعا من اختلاطهما وامتزاجهما هو خير أم ما يشركون ؟ والكلام في قوله : « إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » كالكلام في نظيره من الآية السابقة .

قوله تعالى : « أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، إله مع الله قليلا ما تذكرون » المراد بإجابة المضطر إذا دعاه استجابة دعاء الداعين وقضاء حوائجهم وإنما أخذ وصف الاضطراب لينتضح بذلك من الداعي حقيقة الدعاء والمسألة إذ ما لم يقع الإنسان في مضيقه الاضطراب وكان في مندوحة من المطلوب لم يتمحض منه الطلب وهو ظاهر .

ثم قيده بقوله : « إذا دعاه » للدلالة على أن المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه وإنما يكون ذلك عندما ينقطع الداعي عن عامة الأسباب الظاهرية ويتعلق قلبه بربه وحده وأما من تعلق قلبه بالأسباب الظاهرية فقط أو بالمجموع من ربه ومنها فليس يدعو ربه وإنما يدعو غيره .

فاذا صدق في الدعاء وكان مدعوه ربه وحده فإنه تعالى يجيبه ويكشف السوء الذي اضطره إلى المسألة كما قال تعالى : « ادعوني أستجب لكم » المؤمن : ٦٠ فلم يشترط للاستجابة إلا أن يكون هناك دعاء حقيقة وأن يكون ذلك الدعاء متعلقا به وحده ، وقال أيضا : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » البقرة : ١٨٦ ، وقد فصلنا القول في معنى الدعاء في الجزء الثاني من الكتاب في ذيل الآية .

و بما مرّ من البيان يظهر فساد قول بعضهم : إنّ اللام في « المضطر » للجنس دون الاستغراق فكّم من مضطرّ يدعو فلا يجاب فالمراد إجابة دعاء المضطرّ في الجملة لا بالجملة .

وجه الفساد أنّ مثل قوله : « ادعوني أستجب لكم » وقوله : « فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » يأبى تخلف الدعاء عن الاستجابة ، وقوله : كم من مضطرّ يدعو فلا يجاب ، غير مسلمّ إذا كان دعاء حقيقة لله سبحانه وحده كما تقدّم بيانه .

على أنّ هناك آيات كثيرة تدلّ على أنّ الإنسان يتوجّه عند الاضطرار كركوب السفينة نحو ربّه فيدعوه بالأخلاق فيستجاب له كقوله تعالى : « وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » الآية يونس : ١٢ ، وقوله : « حتّى إذا كنتم في الفلك - إلى قوله - وظننوا أنّهم قد أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين » يونس : ٢٢ وكيف يتصور تعلّق النفس بتوجّتها الغريزي الفطريّ بأمر لا اطمئنان لها به فما قضا الفطرة في ذلك إلّا كقضائها عند إدراك حاجتها الوجوديّة إلى من يوجدها ويدبّر أمرها أنّ هناك أمراً يرفع حاجتها و هو الله سبحانه .

فان قلت : نحن كثيرا ما نتوسّل في حوائجنا من الأسباب الظاهريّة بما لا نقطع بفعليّة تأثيره في رفع حاجتنا و إنّما نتعلّق به رجاء أن ينفعنا إن نفع . قلت : هذا توسّل فكريّ مبدؤه الطمع والرجاء وهو غير التوسّل الغريزيّ الفطريّ نعم في ضمنه نوع من التوجّه الغريزيّ الفطريّ وهو التسبّب بمطلق السبب و مطلق السبب لا يتخلف فافهم .

و ظهر أيضاً فساد قول من قال : المراد بالمضطرّ إذا دعاه المذنب إذا استغفره فإنّ الله يغفر له وهو إجابته .

و فيه أنّ إشكال الاستغراق بحاله فما كلّ استغفار يستتبع المغفرة ولا كلّ مستغفر يغفر له . على أنّه لا دليل على تقييد إطلاق المضطرّ بالمذنب العاصي .

و ذكر بعضهم : أن الاستغراق بحاله لكن ينبغي تقييد الإجابة بالمشيئة كما وقع ذلك في قوله تعالى : « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » الأنعام : ٤١ .
 وفيه أن الآية واقعة في سياق لا تصلح معه لتقييد الإجابة في آية المضطر .
 وهو قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » فالساعة من القضاء المحتوم لا يتعلق بكشفها طلب حقيقي ، وأما العذاب الإلهي فإن طلب كشفه بتوبة وإيمان حقيقي فإن الله يكشفه كما كشف عن قوم يونس وإن لم يكن كذلك بل احتيالا للنجاة منه فلا لعدم كونه طلبا حقيقيا بل مكرأ في صورة الطلب كما حكاه الله عن فرعون لما أدركه الفرق « قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » يونس : ٩١ ، وحكى عن أقوام آخرين أخذهم بالعذاب : « قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين » الأنبياء : ١٥ .

وبالجملة فمورد قوله : « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » لما كان مما يمكن أن يكون الطلب فيه حقيقياً أو غير حقيقي كان من اللازم تقييد الكشف والإجابة فيه بالمشيئة فيكشف الله عنهم إن شاء وذلك في مورد حقيقة الطلب والإيمان ولا يكشف إن لم يشأ وهذا غير مورد آية المضطر وسائر آيات إجابة الدعوة الذي يتضمن حقيقة الدعاء من الله سبحانه وحده .

وقوله : « ويجعلكم خلفاء الأرض » الذي يعطيه السياق أن يكون المراد بالخلافة الخلافة الأرضية التي جعلها الله للإنسان يتصرف بها في الأرض وما فيها من الخليقة كيف يشاء كما قال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ .

وذلك أن تصرفاته التي يتصرف بها في الأرض وما فيها بخلافته أمور مرتبطة بحياته متعلقة بمرآته فالسوء الذي يوقعه موقع الاضطراب ويسأل الله كشفه لاحالة شيء من الأشياء التي تمنعه التصرف أو بعض التصرف فيها وتغلق عليه باب الحياة

والبقاء وما يتعلق بذلك أو بعض أبوابها ففي كشف السوء عنه تتميم لخلافته .
ويتضح هذا المعنى مزيد انتضاح لو حمل الدعاء والمسألة في قوله : « إذا دعاه ،
على الأعم من الدعاء اللساني كما هو الظاهر من قوله تعالى : « وآتاكم من كل
ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » إبراهيم : ٣٤ ، وقوله : « يسأله من في
السموات ومن في الأرض ، الرحمن : ٢٩ إذ يكون على هذا جميع ما أوتي الإنسان
ورزقه من النصرفات من مصاديق كشف السوء عن المضطر المحتاج إثر دعائه فجعله
خليفة يتبع إجابة دعائه وكشف السوء الذي اضطره عنه .

وقيل : المعنى ويجعلكم خلفاء من قبلكم من الأعم في الأرض تسكنون
مساكنهم وتنصرفون فيها بعدهم هذا . وما قد مناه من المعنى أنسب منه للمسياق .
وقيل : المعنى : ويجعلكم خلفاء من الكفار بنزول بلادهم وطاعة الله تعالى
بعد شرهم وعنادهم . وفيه أن الخطاب في الآية كسائر الآيات الخمس التي قبلها
للكفار للمؤمنين كما عليه بناء الوجه .

وقوله : « قليلا ما تذكرون » خطاب توبيخي للكفار وقرى ، « يذكرون »
بالياء للغيبة وهو أرجح لموافقته ما في ذيل سائر الآيات الخمس كقوله : « بل هم
قوم يعدلون » « بل أكثرهم لا يعلمون » وغيرهما فإن الخطاب فيها جميعا للذي عليه السلام
بطريق الالتفات كما مر بيانه .

قوله تعالى : « أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر و من يرسل الرياح
بشرا بين يدي رحمته ، الخ والمراد بظلمات البر والبحر ظلمات الليالي في البر
والبحر ففيه مجاز عقلي ، والمراد بإرسال الرياح بشرا إرسالها مبشرات بالمطر
قبيل نزوله ، والرحمة المطر ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « أمّن يبدء الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ،
الخ بدء الخلق إيجاده ابتداء لأول مرة وإعادته إرجاعه إليه بالبعث وتبكيته
المشركين بالبدء والإعادة مع إنكارهم البعث كما سيذكره بقوله : « وقال الذين
كفروا ، الخ بناء على ثبوت المعاد بالأدلة القاطعة في كلامه فأخذ كالمسلم ثم استدرك

إنكارهم له أو شكهم فيه في الآيات التالية .

وقيل : المراد ببده الخلق ثم إعادته إيجاد الواحد من نوعه ثم إهلاكه وإيجاد نظيره بعده وبالجمله إيجاد المثل بعد المثل فلا يرد أن المشركين منكرون للمعاد فكيف يحتج به عليهم . هذا وهو بعيد من ظاهر الآية . وما يتضمنه الآية من لطائف الحقائق القرآنية يظهر أن لا بطلان في الوجود مطلقا بل ما أوجده الله تعالى بالبده سيرجع إليه بالاعادة وما نشاهده من الهلاك فيها فقدان مناله بعد وجدانه .

وأما ما أجمع عليه المتكلمون من امتناع إعادة المعدم في بعض الموجودات كالأعراض و اختلفوا في جواز إعادة بعض آخر كالجواهر ، لارتباط له بمسألة البعث على ما تقرره الآية ، فإن البعث ليس من باب إعادة المعدم حتى يمنع بامتناع إعادته لو امتنعت بل البعث عود الخلق ورجوعه و هو خلق من غير بطلان إلى ربه المبدئ له .

وقوله : «ومن يرزقكم من السماء والأرض» إشارة إلى ما وقع من تدبيره لأمرهم بين البده و العود وهو رزقهم بأسباب سماوية كالأمطار وأسبابها و الأرضية كعامّة ما يتغذى به الإنسان من الأرضيات .

وقوله : «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» لما ذكر سبحانه فصولا مشتملة على عامّة الخلق و التدبير مع الإشارة إلى ارتباط التدبير بعضه ببعض و ارتباط الجميع إلى الخلق وعاد الخلق والتدبير بذلك أمراً واحداً منتسباً إليه قائماً به تعالى و ثبت بذلك أنه تعالى هورب كل شيء وحده لا شريك له وكان لازم ذلك إبطال ألوهية الآلهة التي يدعونها من دون الله .

- و ذلك أن الألوهية وهي استحقاق العبادة تتبع الربوبية التي هي تدبير عن ملك فالعبادة على ما يتداولونها إما لتكون شكراً للنعمة أو اتقاء للنقمة و على أي حال ترتبط بالتدبير الذي هو من شؤون الربوبية .

- وكان إبطال ألوهية الآلهة من دون الله هو الغرض من الفصول الموردة في هذه

الآيات كما يدل على ذلك قوله بعد إيراد كل واحد من الفصول : « ه إله مع الله » .
أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « قل هاتوا برهانكم » أن يطالبهم
بالبرهان على ما يدعونونه من ألوهية آلهتهم ليظهر بانقطاعهم أنهم مجازفون في
دعواهم إذ لو استدلوا على ألوهيتها بشي كان من الواجب أن ينسبوا إليها شيئاً من
تدبير العالم والحال أن جميع الخلق والتدبير له تعالى وحده .

قوله تعالى : « قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون
أيان يبعثون » لما أمره صلى الله عليه وآله وسلم بعد إبطال ألوهية آلهتهم بانتساب
الخلق والتدبير إليه تعالى وحده أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونونه أمره ثانياً أن
يواجههم ببرهان آخر على بطلان ألوهية آلهتهم وهو عدم علمهم بالغيب وعدم
شعورهم بالساعة وأنهم أيان يبعثون مع أنه لا يعلم أحد ممّن في السماوات والأرض
- و منهم آلهتهم الذين هم الملائكة والجن وقد يسوا البشر - الغيب وما يشعرون
أيان يبعثون ، ولو كانوا آلهة لهم تدبير أمر الخلق - و من التدبير الجزاء يوم
البعث - لعلموا بالساعة .

وقد ظهر بهذا البيان أن قوله : « لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا
الله » برهان مستقل على بطلان ألوهية آلهتهم واختصاص الألوهية به تعالى وحده .
و أن قوله : « وما يشعرون أيان يبعثون » من عطف أوضح أفراد الغيب عليه وأهميتها
علماً بالنسبة إلى أمر التدبير .

وظهر أيضاً أن ضميري الجمع في « وما يشعرون أيان يبعثون » لمن في السماوات
لعدم تمام البيان بدونه .

فقول بعضهم : إن الضمير للمشركين وإن كان عدم الشعور بما ذكر عامّاً
لثلايلزم التفكيك بينه وبين الضمائر الآتية الراجعة إليهم قطعاً .
فيه أنه يناق ما سيق له الآية الكريمة من البيان كما قدّمنا الإشارة إليه
والتفكيك بين الضمائر مع وجود القرينة لأبأس به .

قوله تعالى : « بل ادرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها

عمون ، ادّارك في الأصل تدارك والتدارك تتابع أجزاء الشيء. بعضها بعد بعض حتى تنقطع ولا يبقى منها شيء ، ومعنى تدارك علمهم في الآخرة أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في غيرها حتى نفد علمهم فلم يبق منه شيء يدركون به أمر الآخرة على حدّ قوله تعالى : « فأعرض عمن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ، النجم : ٣٠ » وعمون ، جمع عمي .

لما انتهى احتجاجه تعالى إلى ذكر عدم شعور أحد غيره تعالى بوقت البعث وتبكيك المشركين بذلك رجع إلى نبيه ﷺ وذكّره أنهم في معزل عن الخطاب بذلك إذ لا خبر لهم عن شيء من أمور الآخرة فضلا عن وقت قيام الساعة وذلك أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في جهات الحياة الدنيا فهم في جهل مطلق بالنسبة إلى أمور الآخرة بل هم في شك من الآخرة يرتابون في أمرها كما يظهر من احتجاجاتهم على نفيا المبنية على الاستبعاد بل هم منها عمون والله أعمى قلوبهم عن التصديق بها والاعتقاد بوجودها .

وقد ظهر بهذا البيان أن تكرّر كلمة الإضراب لبيان مراتب الحرمان من العلم بالآخرة وأنهم في أعلاها فقله : « بل ادّارك علمهم في الآخرة ، أي لا علم لهم بها كأنها لم تقرر سمعهم ، وقوله . « بل هم في شك منها أي أنه قرع سمعهم خبرها وورد قلوبهم لكنهم ارتابوا ولم يصدقوا بها ، وقوله : « بل هم منها عمون ، أي إنهم لم ينقطعوا عن الاعتقاد بها من عند أنفسهم وباختيار منهم بل الله سبحانه أعمى أبصار قلوبهم فصاروا عمين فبهيات أن يدرکوا من أمرها شيئا .

وقيل : المراد بتدارك علمهم تكامله وبلوغه حدّ اليقين لتكامل الحجج الدالة على حقيقة البعث والجملة مسوقة للتهكم وفيه أنه لا يلائم ما يتبعه من الإضراب بالشك والعمى .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا إذا متنا وكنا ترابا وآباؤنا أناسا مخرجون - إلى قوله - الأولين ، حكاية حجة منهم لنفي البعث مبنية على الاستبعاد أي كيف

يمكن أن نخرج من الأرض بشراً تآممين كما نحن اليوم وقد متنا وكنا تراباً نحن وآباؤنا كذلك ؟

وقوله : « لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل » حجة أخرى منهم مبنية على الاستبعاد أي لقد وعدنا هذا وهو البعث بعد الموت نحن وآباؤنا وُعدوه قبل أن يعدنا هذا النبي* والأذين وعدوا قبلاهم الأنبياء الماضون فهو وعد قديم لم نزل نوعده به ولو كان خبراً صادقاً ووعداً حقاً لوقع إلى هذا اليوم و إذ لم يقع فهو من الخرافات التي اختلقها الأولون و كانوا مولعين باختلاق الأوهام والخرافات والإصغاء إليها .

قوله تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » إنذار وتخويف لهم على إنكارهم وعد الأنبياء بالبعث بأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المجرمين المكذبين للأنبياء المُنذرين لهم بالبعث فإن* في النظر إلى عاقبة أمرهم على ما تدل* عليه مساكنهم الخربة وديارهم الخالية كفاية للمعتبرين من أولي الأبصار ، و في التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين في ترك الجرائم . كذا قيل .

ويمكن أن تقرر الآية حجة تدل* على المعاد وتقريبها أن* انتهاء عاقبة أمر المجرمين إلى عذاب الاستئصال دليل على أن* الإجرام والظلم من شأنه أن يؤخذ عليه وأن* العمل إحساناً كان أو إجراماً محفوظ على عامله سيحاسب عليه و إذ لم تقع عامة هذا الحساب والجزاء - وخاصة على الأعمال الصالحة - في الدنيا فذلك لامحالة في نشأة أخرى وهي الدار الآخرة .

فتكون الآية في معنى قوله تعالى : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ و يؤيد هذا التقرير قوله : « عاقبة المجرمين » ولو كان المراد تهديد مكذبي الرسل وتخويفهم كان الأنسب أن يقال : عاقبة المكذبين ، كما تقدمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون » أي لا يحزنك

إصرارهم على الكفر والجحود ولا يصدق صدرك من مكرمهم لا بطل دعوتك وصدقهم الناس عن سبيل الله فإنهم بعين الله وليسوا بمعجزيه وسيجزيهم بأعمالهم .

فآية مسوقة لتطبيب نفس النبي ﷺ ، وقوله : « ولا تكن في ضيق » الخ معطوف على ما قبله عطف التفسير .

قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » الظاهر أن المراد بالوعد الوعد بعذاب المجازاة أعم من الدنيا والآخرة ، والسياق يؤيد ذلك والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون » قالوا : إن الآثم في « ردف لكم » مزيدة للتأكيد كالباء في قوله : « ولا تملقوا بأيدىكم إلى التهلكة » البقرة : ١٩٨ ، والمعنى تبعكم و لحق بكم ، وقيل : إن ردف مضمّن معنى فعل يعدى بالآثم .

والمراد ببعض الذي يستعجلونه هو عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة فإنهم كانوا يستعجلون إنجاز ما وعدهم الله من الحكم الفصل ، وهو ملازم لعذابهم ، وعذابهم في الدنيا بعض العذاب الذي يستعجلونه باستنجاز الوعد ، ولعل مراد الآية به عذاب يوم بدر كما قيل .

قالوا : إن « عسى ولعل » من الله تعالى واجب لأن حقيقة الترجي مبنية على الجهل ولا يجوز عليه تعالى ذلك فمعنى قوله : « عسى أن يكون ردف لكم » سيرد فكم ويأتيكم العذاب محققاً .

وفيه أن معنى الترجي والتمني ونحوهما كما جاز أن يقوم بنفس المتكلم يجوز أن يقوم بالمقام أو بالسامع أو غيرهما وهو في كلامه تعالى قائم بغير المتكلم من المقام وغيره وما في الآية من الجواب لما أُرْجِعَ إلى النبي ﷺ كان الرجاء المدلول عليه بكلمة عسى قائما بنفسه الشريفة والمعنى قل أرجو أن يكون ردف لكم العذاب .

وفي تفسير أبي السعود : وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم

بها ، وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار ، وإشعاراً بأنّ الرمز من أمثالهم كالتصريح بمنّ عداهم وعلى ذلك مجرى وعد الله تعالى ووعيده انتهى وهو وجه وجيه .

ومعنى الآية قل لهؤلاء السائلين عن وقت الوعد : أرجو أن يكون تبعكم بعض الوعد الذي تستعجلونه وهو عذاب الدنيا الذي يقرّ بكم من عذاب الآخرة ويؤدّ بكم إليه ، وفي التعبير بقوله : « ردف لكم » إيماء إلى قربته .

قوله تعالى : « وإنّ ربّك لذو فضل على الناس ولكنّ أكثرهم لا يشكرون » معنى الآية في نفسها ظاهر ووقوعها في سياق التهديد والنخوف يفيد أنّ تأخيرها تعالى العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلك إنّما هو فضل منه عليهم يجب عليهم شكره عليه لكنّهم لا يشكرونه ويسألون تعجيله .

قوله تعالى : « وإنّ ربّك ليعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون » أي إنّ تأخير العذاب ليس عن جهل منه تعالى بحالهم وما يستحقّونه بالكفر والجحود فإنّه يعلم ما استتره وتخفيه صدورهم وما يظهرونه .

ثمّ أكّد ذلك بأنّ كلّ غائبة - وهي ما من شأنه أن يغيب ويخفى في أيّ جهة من جهات العالم كان - مكتوب محفوظ عنده تعالى وهو قوله : « وما من غائبة في السماء والأرض إلّا في كتاب مبين » .

قوله تعالى : « إنّ هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل - إلى قوله - العزيز العليم » تطيب لنفس النبي ﷺ وتمهيد لما سيذكره من حقيقة دعوته وتقوية لإيمان المؤمنين به ، وبهذا الوجه يتصل بقوله قبلاً : « فلا تحزن عليهم » الخ المشعر بحقيقة دعوته .

فقوله : « إنّ هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » يشير إلى ما يقصّه القرآن من قصص الأنبياء ويبين الحقّ فيما اختلفوا فيه من أمرهم ومنه أمر المسيح عليه السلام ويبين الحقّ فيما اختلفوا فيه من المعارف والأحكام .

وقوله : « وإنّه لهدى ورحمة للمؤمنين » يشير إلى أنّه يهدي المؤمنين بما قصّه

على بني إسرائيل إلى الحقّ وأنتَ رحمة لهم تطمئنّ به قلوبهم ويثبت الأيمان بذلك في نفوسهم .

وقوله : « إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم » إشارة إلى أن القضاء بينهم إلى الله فهو ربّه العزيز الذي لا يغلب في أمره العليم لا يجهل ولا يخطئ، في حكمه فهو القاضي بينهم بحكمه فلترض نفس النبي ﷺ برّبّه العزيز العليم قاضيا حكما ولترجع الأمر إليه كما ينبغي أن تفعل مثل ذلك في حقّ المشركين ولا تحزن عليهم ولا تكون في ضيق مما يمكرون .

قوله تعالى « فتوكل على الله إنك على الحقّ المبين » تفريع على مجموع ما أمر به قبال كفر المشركين واختلاف بني إسرائيل أي إن أمرهم جميعا إلى الله لا إليك فاتخذوه كيلا فهو كافيك ولا تخافن شيئا إنك في أمن من الحقّ .

قوله تعالى : « إنك لا تسمع الموتى » إلى قوله - فهم مسلمون » تعليل للأمر بالتوكل أي إنّما أمرناك بالتوكل على الله في أمر إيمانهم و كفرهم لأنهم موتى وليس في وسعك أن تسمع الموتى دعوتك وإنهم صم لا يسمعون وعمي ضالّون لا تقدر على إسماع الصمّ إذا ولّوا مدبرين - ولعلّه قيّد عدم إسماع الصمّ بقوله « إذا ولّوا مدبرين » لأنهم لو لم يكونوا مدبرين لا يمكن تفهيمهم بنوع من الإشارة - ولا على هداية العمي عن ضلالتهم ، وإنّما الذي تقدر عليه هو أن تسمع من يؤمن بآياتنا الدالة علينا وتهديهم فإنهم لا ذعانهم بتلك الحجج الحقّة مسلمون لنا مصدّقون بما تدلّ عليه .

وقد تبين بهذا البيان أو لا أن المراد بالإسماع الهداية .
وثانياً أن المراد بالآيات الحجج الدالة على التوحيد وما يتبعه من المعارف الحقّة .
وثالثاً أن من تعقّل الحجج الحقّة من آيات الآفاق والأفانفس بسلامة من العقل ثم استسلم لها بالإيمان والانقياد ليس هو من الموتى ولا ممن ختم الله على سمعه وبصره .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « وسلام على عباده الذين اصطفى » قال : هم آل محمد عليهم السلام .

أقول : ورواه أيضا في جمع الجوامع عنهم عليه السلام مرسلا مضمرا ، و قد عرفت فيما تقدّم من البيان في ذيل الآية أنّ الذي يعطيه السياق أنّ المراد بهم بحسب مورد الآية الأنبياء المنتعمون بنعمة الاصطفاء وقد قصّ الله قصص جمع منهم فقوله عليه السلام - لوصحت الرواية - هم آل محمد عليه السلام من قبيل الجري والانطباق .

و نظيرها ما رواه في الدرّ المنثور عن عدّة من أصحاب الكتب عن ابن عباس في الآية قال : هم أصحاب محمد فهو - لوصحت الرواية - إجراء منه وتطبيق . ومنه يظهر ما فيما رواه أيضا عن عبد بن حميد وابن جرير عن سفیان الثوري في الآية قال : « نزلت في أصحاب محمد خاصّة » فلا نزول ولا اختصاص .

وفي تفسير القميّ أيضا في قوله تعالى : « بل هم قوم يعدلون » قال : عن الحق . وفيه في قوله تعالى : « أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه » الآية حدّثني أبي عن الحسن بن عليّ بن فضال عن صالح بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : نزلت في القائم من آل محمد عليه السلام هو الله المضطرّ إذا صلّى في المقام ركعتين ودعا إلى الله عزّ وجلّ فأجابته ويكشف السوء ويجعله خليفة في الأرض .

أقول : و الرواية أيضا من الجري والآية عامّة .

وفي الدرّ المنثور أخرجه الطبراني عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من فارق الجماعة فهو في النار على وجهه لأنّ الله تعالى يقول : « أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » فالخلافة من الله عزّ وجلّ فإن كان خيرا فهو يذهب به وإن كان شرا فهو يؤخذ به ، عليك أنت بالطاعة فيما أمرك الله به .

أقول : الرواية لا تخلو من شيء . فقد تقدّم أنّ المراد بالخلافة في الآية - على

ما يشهده السياق - الخلافة الأرضية المقدرة لكل إنسان وهو السلطة على ما في الأرض بأنواع التصرف دون الخلافة بمعنى الحكومة على الأمة بإدارة رعي مجتمعهم .

ومع الغض عن ذلك فمتن الرواية لا يخلو عن تدافع فإن كان المراد بكون الخلافة من الله تعالى أن سلطانه على الناس بتقدير من الله وبعبارة أخرى انتسابها التكويني إلى الله سبحانه كما ورد في ملك نمرود من قوله تعالى : « أن آتاه الله الملك » البقرة ٢٥٨ ، وقوله حكاية عن فرعون : « أليس لي ملك مصر » الزخرف : ٥١ فمن البين أن الخلافة بهذا المعنى لا تستتبع وجوب الطاعة وحرمة المخالفة وإلا كان نقضا لأصل الدعوة الدينية وإيجابا لطاعة أمثال نمرود و فرعون و كم لها من نظير ، وإن كان المراد به الجعل الوضعي الديني وبعبارة أخرى انتسابها التشريعي إلى الله تعالى ثم وجبت طاعته فيما يأمر به وإن كان معصية كان ذلك نقضا صريحا للأحكام ، وإن كان الواجب طاعته في غير معصية الله لقوله ﷺ : « لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق » جازت مفارقة الجماعة في الجملة وهو يناقض صدر الرواية .

و نظير الإشكال يجري في قوله ذيلًا : « عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله به » فلو كان المراد مما أمر الله به طاعة مقام الخلافة وإن كان في معصية كان نقضا صريحا لتشريع الأحكام وإن كان المراد به طاعة الله وإن استلزم معصية مقام الخلافة كان ناقضا لصدر الرواية .

وقد اتضح اليوم بالأبحاث الاجتماعية أن إمضاء حكومة من لا يحترم القوانين المقدسة الجارية لا يرضى به مجتمع عاقل رشيد فمن الواجب تنزيه ساحة مشرع الدين عن ذلك ، والقول بأن مصلحة حفظ وحدة الكلمة واتفاق الأمة أهم من حفظ بعض الأحكام بالمفارقة معناه جواز هدم حقيقة الدين لحفظ اسمه .

وفي الدر المنثور أيضا أخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت عائشة : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : و ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال : و كنت متكئاً فجلست و قلت : يا أُمّ المؤمنين أنظريني ولا تعجلي عليّ ألم يقل الله : « ولقد رآه في الأفق المبين » « ولقد رآه نزلة أخرى » ؟

فقلت : أنا أول هذه الأمة سأل هذا رسول الله ﷺ فقال : جبريل . لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المراتين رأيته منهبطاً من السماء ساداً أعظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض . قالت : ألم تسمع الله عز وجل يقول : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ؟ أولم تسمع الله يقول : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً - إلى قوله - عليّ حكيم » .

و من زعم أن محمداً كنم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله جل ذكره يقول : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » .

قالت : و من زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول : « قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله » .

أقول : و في متن الرواية شيء أما آيات الرؤية فإنما تنفي رؤية الحس دون رؤية القلب وهي من الرؤية وراه الإيمان الذي هو الاعتقاد وقد أشبعنا الكلام فيها في الموارد المناسبة له .

وأما قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ » الآية فقد أوضحنا في تفسير الآية أنها خاصة غير عامة ولو فرضت عامة فإنما تدل على أن كل ما أنزل إليه مما فيه رسالة وجب عليه تبليغه ومن الجائز أن ينزل إليه ما يختص علمه به ﷺ فيكتمه عن غيره .

وأما قوله : « قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله » فلا يدل إلا على اختصاص علم الغيب بالذات به تعالى كسائر آيات اختصاص الغيب به ، ولا

ينفي علم الغير به بتعليم منه تعالى كما يشير إليه قوله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » الجن : ٢٦ وقد حكى الله سبحانه نحواً من هذا الإخبار عن المسيح عليه السلام إذ قال : « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون » آل عمران : ٤٩ و من المعلوم أن القائل أن النبي ﷺ كان يخبر الناس بما يكون في غد لا ينفي كون ذلك بتعليم من الله له .

وقد تواترت الأخبار على تفرقها وتنوعها من طرق الفريقين على إخباره صلى الله عليه وآله وسلم بكثير من الحوادث المستقبلية .





وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَخَشُّهُم مِّن كُلِّ امَّةٍ فَوْجًا
مِّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِنَا
وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ
بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ
وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ
فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَ
كُلُّ آتَوِهِ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ
السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن
جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَ مَن جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا
أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمَرْتُ أَنْ
أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرْبِّكُمْ
آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) .

﴿بيان﴾

هي من تمام الفصل السابق من الآيات تشير إلى البعث وبعض ما يلحق به من الأمور الواقعة وبعض أشرافه وتختتم السورة بما يرجع إلى مفتحتها من الإنذار والتبشير .

قوله تعالى : « و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » مقتضى السياق - بما أن الآية متصلة بما قبلها من الآيات الباحثة عن أمر المشر كين المعاصرين للنبي ﷺ أو خصوص أهل مكة من قريش وقد كانوا أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ودعوته - أن ضمائر « عليهم » و « لهم » و « تكلمهم » للمشر كين المحدث عنهم لكن لا لخصوصهم بل بما أنهم ناس معنيون بالدعوة فالمراد بالحقيقة عامة الناس من هذه الأمة من حيث وحدتهم فيلحق بأولهم من الحكم ما يلحق بآخرهم وهذا النوع من العناية كثير الورد في كلامه تعالى .

والمراد بوقوع القول عليهم تحقق مصداق القول فيهم وتعيينهم لصدقه عليهم كما في الآية التالية : « ووقع القول عليهم بما ظلموا » أي حق عليهم العذاب فالجملة في معنى « حق عليهم القول » وقد كثر وروده في كلامه تعالى والفرق بين التعبيرين أن العناية في « وقع القول عليهم » بتعيينهم مصداقا للقول وفي « حق عليهم القول » باستقرار القول وثبوته فيهم بحيث لا يزول .

وأما ماهو هذا القول الواقع عليهم فالذي يصلح من كلامه تعالى لأن يفسر به قوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » حم السجدة ٥٣ فإن المراد بهذه الآيات التي سيرهم غير الآيات السماوية والأرضية التي هي بمرأهم ومسمعهم دائماً قطعاً بل بعض آيات خارقة للعادة تخضع لها وتضطرب للإيمان بها أنفسهم في حين لا يوقنون بشيء من آيات السماء والأرض التي هي تجاه أعينهم وتحت مشاهدتهم .

وبهذا يظهر أن قوله: «أنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون» تعليل لوقوع القول عليهم والتقدير لأنَّ الناس، وقوله: «كانوا» لإفادة استقرار عدم الإيقان فيهم والمراد بالآيات الآيات المشهودة من السماء والأرض غير الآيات الخارقة، وقرئ «إن» بكسر الهمزة وهي أرجح من قراءة الفتح فيؤيد ما ذكرناه وتكون الجملة بلفظها تعليلا من دون تقدير اللام.

وقوله: «أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم» بيان لآية خارقة من الآيات الموعودة في قوله: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» وفي كونه وصفاً لمرخارق للعادة دلالة على أن المراد بالخراج من الأرض إما الإحياء والبعث بعد الموت وإما أمر يقرب منه، وأما كونها دابة تكلمهم فالدابة ما يدب في الأرض من ذوات الحياة إنسانا كان أو حيوانا غيره فإن كان إنسانا كان تكليمه الناس على العادة وإن كان حيوانا أعجم كان تكليمه كخروجه من الأرض خرقا للعادة.

ولا نجد في كلامه تعالى ما يصلح لتفسير هذه الآية وأن هذه الدابة التي سيخرجها لهم من الأرض فتكلمهم ماهي؟ وما صفتها؟ وكيف تخرج؟ وماذا تنكلم به؟ بل سياق الآية نعم الدليل على أن القصد إلى الإيهام فهو كلام مرموز فيه. ومحصل المعنى أنه إذا آل أمر الناس - وسوف يؤل - إلى أن كانوا لا يوقنون بآياتنا المشهودة لهم وبطل استعدادهم للإيمان بنا بالتعقل والاعتبار آن وقت أن نريهم ما وعدنا إراءته لهم من الآيات الخارقة للعادة المهيئة لهم الحق بحيث يضطرون إلى الاعتراف بالحق فأخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم.

هذا ما يعطيه السياق ويهدي إليه التدبر في الآية من معناها، وقد أغرب المفسرون حيث أمعنوا في الاختلاف في معاني مفردات الآية وجملا والمحصل منها وفي حقيقة هذه الدابة وصفها ومعنى تكليمها وكيفية خروجها وزمان خروجها وعدد خروجها والمكان الذي تخرج منه في أقوال كثيرة لامعول فيها إلا على التحكم ولذا أضربنا عن نقلها والبحث عنها ومن أراد الوقوف عليها فعليه بالمطولات.

قوله تعالى : «يوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون» الفوج- كما ذكره الراغب - الجماعة المارقة المسرعة ، والإيزاع إيقاف القوم وحبسهم بحيث يردّ أو لهم على آخرهم .

وقوله : «يوم نحشر» منصوب على الظرفية لمقدّر والتقدير و اذكر يوم نحشر و المراد بالحشر هو الجمع بعد الموت لأنّ المحشورين فوج من كل أمة ولا اجتماع لجميع الأمم في زمان واحد وهم أحياء ، و«من» في قوله : «من كل أمة» للتبعض ، وفي قوله : «ممن يكذب» للتبيين أو للتبعض .

والمراد بالآيات في قوله : «يكذب بآياتنا» مطلق الآيات الدالة على المبدء والمعاد ومنها الأنبياء والأئمة والكتب السماوية دون الساعة وما يقع فيها وعند قيامها و دون الآيات القرآنية فقط لأنّ الحشر ليس مقصوراً على الأئمة الإسلامية بل أفواج من أمم شتى .

ومن العجيب إصرار بعضهم على أنّ الكلام نصّ في أنّ المراد بالآيات هنا وفي الآية التالية هي الآيات القرآنية قال : لأنّها هي المنظوية على دلائل الصدق التي لم يحيطوا بها مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لأمثل الساعة وما فيها انتهى . وفساده ظاهر لأنّ عدم كون أمثال الساعة وما فيها مرادة لا يستلزم إرادة الآيات القرآنية مع ظهور أنّ المحشورين أفواج من جميع الأمم وليس القرآن إلّا كتاباً لفوج واحد منهم .

وظاهر الآية أنّ هذا الحشر في غير يوم القيامة لأنّه حشر للبعض من كل أمة لا للجميعهم وقد قال الله تعالى في صفة الحشر يوم القيامة : «و حشرناهم فلم نغادر منهم أحداً» الكهف : ٤٧ .

وقيل : المراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكليّ الشامل للجميع الخلق فهو حشر بعد حشر .

وفيه أنّه لو كان المراد الحشر إلى العذاب لزم ذكر هذه الغاية دفعاً للإبهام كما في قوله تعالى : «يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتّى إذا ما جاؤوها»

حم السجدة : ٢٠ مع أنه لم يذكر فيما بعده هذه الآية إلا العتاب والحكم الفصل دون العذاب والآية كما ترى مطلقة لم يشر فيها إلى شيء يلوّح إلى هذا الحشر الخاص المذكور ، ويزيدها إطلاقاً قوله بعدها : « حتى إذا جاؤا فلم يقل : حتى إذا جاؤا العذاب أو النار أو غيرها .

ويؤيد ذلك أيضاً وقوع الآية والآيتين بعدها بعد نبا دابة الأرض وهي من أشرط الساعة وقبل قوله : « ونفخ في الصور » إلى آخر الآيات الواصفة لوقائع يوم القيامة ، ولامعنى لتقديم ذكر واقعة من وقائع يوم القيامة على ذكر شرعه ووقوع عامة ما يقع فيه فإنّ الترتيب الوقوعي يقتضي ذكر حشرفوج من كلّ أمة لو كان من وقائع يوم القيامة بعد ذكر نفخ الصور وإتيانهم إليه داخرين .

وقد تنبّه لهذا الإشكال بعض من حمل الآية على الحشر يوم القيامة فقال : لعلّ تقديم ذكر هذه الواقعة على نفخ الصور ووقوع الواقعة للإيدان بأنّ كلاماً تضمنه هذا وذاك من الأحوال طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولو روعي الترتيب الوقوعي لربّما توهم أنّ الكلّ داهية واحدة .

وأنت خير بأنّه وجه مختلف غير مقنع ، ولو كان كما ذكر لكان دفع توهم كون الحشر المذكور في الآية في غير يوم القيامة بوضع الآية بعد آية نفخ الصور مع ذكر ما يرتفع به الإبهام المذكور أولى بالرعاية من دفع هذا التوهم الذي توهمه .

فقد بان أنّ الآية ظاهرة في كون هذا الحشر المذكور فيها قبل يوم القيامة وإن لم تكن نصّاً لا يقبل التأويل .

قوله تعالى : « حتى إذا جاؤا قال أ كذّبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون » المراد بالمجيب - بإعانة من السياق - هو الحضور في موطن الخطاب المدلول عليه بقوله : « قال أ كذّبتم » الخ والمراد بالآيات - كما تقدّم في الآية السابقة - مطلق الآيات الدالة على الحق ، وقوله : « ولم تحيطوا بها علماً » جملة حالية أي كذّبتم بها حال كونكم لا تعلم لكم بها لا عراضكم عنها فكيف كذّبتم بما لا تعلمون

أي رميتوها بالكذب وعدم الدلالة من غير علم وقوله : « أم ماذا كنتم تعملون » أي غير التكذيب .

و المعنى حتى إذا حضروا في موطن الخطاب قال الله سبحانه لهم : أكذبتم بآياتي حالكونكم لم تحيطوا بها علما أم أي شيء كنتم تعملون غير التكذيب ، وفي ذلك عتابهم بأنهم لم يشتغلوا بشيء غير تكذيبهم بآيات الله من غير أن يشغلهم عنه شاغل معذر .

قوله تعالى : « وقوع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون » الباء في « بما ظلموا » للسببية و « ما » مصدرية أي وقع القول عليهم بسبب كونهم ظالمين ، وقوله : « فهم لا ينطقون » تفريع على وقوع القول عليهم .

و بذلك يتأيد أن المراد بالقول الذي يقع عليهم قوله تعالى « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » الأنعام : ١٤٤ والمعنى ولكونهم ظالمين في تكذيبهم بالآيات لم يهتدوا إلى ما يعتذرون به فانقطعوا عن الكلام فهم لا ينطقون .

و ربما فسر وقوع القول عليهم بوجوب العذاب عليهم والأنسب على هذا أن يكون المراد بالقول الواقع عليهم قضاؤه تعالى بالعذاب في حق الظالمين في مثل قوله : « ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » الشورى : ٤٥ والمعنى ولكونهم ظالمين قضي فيهم بالعذاب فلم يكن عندهم ما ينطقون به ، والوجه السابق أوجه .

وأما تفسير وقوع القول بحلول العذاب و دخول النار فبعيد من السياق لعدم ملائمته التفريع في قوله : « فهم لا ينطقون » .

قوله تعالى : « ألم يروا أننا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » لما وصف في الآيات السابقة أن كثيرا من الناس في صمم وعمى من استماع كلمة الحق والنظر في آيات الله والاعتبار بهما ، ثم ذكر دابة الأرض وأنه سيخرجها آية خارقة للعادة تكلمهم ثم ذكر أنه سيحشر فوجا من كل أمة من المكذبين فيعاتبهم فتتم عليهم الحجّة بقولهم بغير علم بالآيات لاعراضهم عنها وبخهم في هذه الآية ولامهم على تكذيبها بالآيات مع الجهل أنهم

كانوا يرون الليل الذي يسكنون فيه بالطبع وأنَّ هناك نهارا مبصرا يظهر لهم بها آيات السماء والأرض فلم لم يتبصروا ؟ .

وقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » أي في جعل الليل سكنا يسكنون فيه والنهار مبصرا يبصرون فيه آيات السماء والأرض آيات لقوم فيهم خاصة الإذعان والتصديق للحق اللائح لهم .

والمراد بالآيات العلامات والجهات الدالة فيهما على التوحيد وما يتبعه من حقائق المعارف ومن جملة ذلك دلالتها على أن الإنسان عليه أن يسكن فيما من شأنه أن يسكن فيه ، وهو الليل الذي يضرب بحجاب ظلمته على الأبصار ، ويتحرك فيما من شأنه أن يتحرك فيه وهو النهار المبصر الذي يظهر به الأشياء التي تتضمن منافع الحياة للأبصار .

فعلى الإنسان أن يسكت عما حجبت عنه ظلمة الجهل ولا يقول بغير علم ولا يكذب بما لا يحيط به علما وأن يقول ويؤمن بما تجليه له بينات الآيات التي هي كالنهر المبصرة .

قوله تعالى : « ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات والأرض إلّا من شاء الله وكل أتوه داخرين » النفخ في الصور كناية عن إعلام الجماعة الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعا كالحضور والارتحال وغير ذلك ، والفزع كما قال الراغب - انقباض ونقار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع والدخور الذلة والصغار .

قيل : المراد بهذا النفخ النفخة الثانية للصور التي بها تنفخ الحياة في الأجساد فيبعثون لفصل القضاء ، ويؤيده قوله في ذيل الآية : « وكل أتوه داخرين » والمراد به حضورهم عند الله سبحانه ، ويؤيده أيضا استثناءؤه « من شاء الله » من حكم الفزع ثم قوله فيمن جاء بالحسنة : « وهم من فزع يومئذ آمنون » حيث يدل على أن الفزع المذكور هو الفزع في النفخة الثانية .

وقيل : المراد به النفخة الأولى التي يموت بها الأحياء بدليل قوله : « ونفخ

في الصور فصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ، الزمر : ٦٨ فإن الصعقة من الفزع وقد رتبت على النفخة الأولى و على هذا يكون المراد بقوله : « و كل أتوه داخرين ، رجوعهم إلى الله سبحانه بالموت .

ولا يبعد أن يكون المراد بالنفخ في الصور يومئذ مطلق النفخ أعم مما يمت أو يحيي فإن النفخ كيفما كان من مختصات الساعة ، ويكون ما ذكر من فزع بعضهم وأمن بعضهم من الفزع وسير الجبال من خواص النفخة الأولى وما ذكر من إتيانهم داخرين من خواص النفخة الثانية ويندفع بذلك ما يورد على كل واحد من الوجهين السابقين .

وقد استثنى سبحانه جمعا من عباده من حكم الفزع العام الشامل لمن في السماوات والأرض ، وسيجيء كلام في معنى هذا الاستثناء في الكلام على قوله الآتي : « وهم من فزع يومئذ آمنون » .

و الظاهر أن المراد بقوله : « و كل أتوه داخرين ، رجوع جميع من في السماوات والأرض حتى المستثنين من حكم الفزع وحضورهم عنده تعالى وأما قوله : « إنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين ، الصافات : ١٢٧ ، فالظاهر أن المراد نفي إحضارهم في الجمع للحساب والسؤال لانقي بعثهم و رجوعهم إلى الله وحضورهم عنده فأيات القيامة ناصّة على عموم البعث لجميع الخلائق بحيث لا يشذ منهم شاذ .

و نسبة الدخور والذلة إلى أوليائه تعالى لاتنافي ما لهم من العزة عند الله فإن عزّة العبد عند الله ذلته عنده وغناه بالله فقره إليه نعم ذلة أعدائه بما يرون لأنفسهم من العزة الكاذبة ذلة هوان .

قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خير بما تفعلون » الآية بما أنها واقعة في سياق آيات القيامة محفوفة بها تصف بعض ما يقع يومئذ من الآيات وهو سير الجبال وقد قال

تعالى في هذا المعنى أيضا : « وسيّرت الجبال فكانت سرابا » النبأ : ٢٠ ، إلى غير ذلك .

فقوله : « و ترى الجبال » الخطاب للنبي ﷺ والمراد به تمثيل الواقعة كما في قوله : « و ترى الناس سكارى » الحج : ٢ ، أي هذا حالها المشهودة في هذا اليوم تشاهدها لو كنت مشاهدا ، وقوله : « تحسبها جامدة » أي تظنها الآن ولم تقم القيامة بعد جامدة غير متحرّكة ، والجملة معترضة أو حالية .

وقوله : « وهي تمرّ مرّ السحاب » حال من الجبال و عاملها « ترى » أي تراها إذا نفخ في الصور حال كونها تسير سير السحاب في السماء .

وقوله : « صنع الله الذي أتقن كل شيء » مفعول مطلق لمقدّر رأي صنعه صنعا وفي الجملة تلويح إلى أن هذا الصنع والفعل منه تعالى تخريب للدنيا وهدم للعالم لكنّه في الحقيقة تكميل لها وإتقان لنظامها لما يترتب عليه من إنهاء كل شيء إلى غايته وإيصاله إلى وجهته التي هو مولّيتها من سعادة أو شقاوة لأن ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء فهو سبحانه لا يسلب الإتقان عما أتقنه ولا يسلط الفساد على ما أصلحه ففي تخريب الدنيا تعمير الآخرة .

وقوله : « إنّه خير بما تفعلون » قيل : إنّه تعليل لكون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده صنعا محكما له تعالى فإن علمه بظواهر أفعال المكلّفين وبواطنها ممّا يستدعي إظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب آثارها من الثواب والعقاب عليها بعد البعث والحشر وتسيير الجبال . وأنت ترى ما فيه من التكلف وأن السياق بعد ذلك كلّّه لا يقبله .

وقيل : إن قوله : « إنّه خير بما تفعلون » استئناف في حكم الجواب عن سؤال مقدّر كأنّه قيل : فماذا يكون بعد هذه القوارع ؟ فقيل : إن الله خير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم وفصل بقوله : « من جاء بالحسنة فله خير منها » إلى آخر الآيتين .

وههنا وجه آخر مستفاد من الإمعان في سياق الآيات السابقة فإن الله سبحانه أمر فيها نبيه ﷺ أن يتوكل عليه ويرجع أمر المشر كين وبني إسرائيل إليه فأنه إنما يستطيع هداية المؤمنين بآياته المستسلمين للحق وأما المشر كون في جحودهم وبنو إسرائيل في اختلافهم فإنهم موتى لا يسمعون وصم عمي لا يسمعون ولا يهتدون إلى الحق بالنظر في آيات السماء والأرض والاعتبار بها باختيار منهم .

ثم ذكر ماسيوا جهم به - وحالهم هذه الحال لا يؤثر فيهم الآيات - وأنه سيخرج لهم دابة من الأرض تكلمهم وهي آية خارقة تضطرهم إلى قبول الحق وأنه يحشر من كل أمة فوجا من المكذبين فيتم عليهم الحجّة ، وبالأخرة هو خير بأفعالهم سيجزي من جاء بحسنة أوسية بعمله يوم ينفخ في الصور ففرعوا وأتوه داخرين .

وبالتأمل في هذا السياق يظهر أن الأنسب كون « يوم ينفخ » ظرفاً لقوله : « إنه خير بما يفعلون » وقراءة « يفعلون » بياء الغيبة أرجح من القراءة المتداولة على الخطاب .

والمعنى وإنه تعالى خير بما يفعله أهل السماوات والأرض يوم ينفخ في الصور ويأتونه داخرين يجزي من جاء بالحسنة بخير منها ومن جاء بالسيئة بكب وجوهم في النار كل مجزي بعمله ، وعلى هذا تكون الآية في معنى قوله تعالى : « أفلا يعلم إذا بعثرنا في القبور وحصل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير » العاديات : ١١ وقوله : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » المؤمن : ١٦ ويكون قوله : « من جاء بالحسنة » الخ تفصيلاً لقوله : « إنه خير بما يفعلون » من حيث لازم الخبرة وهو الجزاء بما فعل وعمل كما أشار إليه ذيلاً بقوله : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » والالفتان من الغيبة إلى الخطاب في قوله : « هل تجزون » الخ لتشديد التقرير والتأنيب .

وفي الآية أعني قوله : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » الخ قولان آخران :

أحدهما حملها على الحركة الجوهرية وأن الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها إلى غاية وجودها وهي حشرها ورجوعها إلى الله سبحانه .

وهذا المعنى أنسب بالنظر إلى ما في قوله : « تحسبها جامدة » من التلويع إلى أنها اليوم متحركة ولما تقم القيامة ، وأما جعل يوم القيامة ظرفاً لحسابان الجمود وللمرور كالسحاب جميعاً فمعاً لا يلتفت إليه .

وثانيهما حملها على حركة الأرض الانتقالية وهو بالنظر إلى الآية في نفسها معنى جيد إلا أنه أولاً يوجب انقطاع الآية عما قبلها وما بعدها من آيات القيامة وثانياً ينقطع بذلك اتصال قوله : « إنه خير بما يفعلون » بما قبله .

قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون » هذه الآية وما بعدها - كما تقدمت الإشارة إليه - تفصيل لقوله : « إنه خير بما يفعلون » من حيث أثره الذي هو الجزاء والمراد بقوله : « من جاء بالحسنة فله خير منها » أن له جزاء هو خير مما جاء به من الحسنة وذلك لأن العمل أياً ما كان مقدّمة للجزاء مقصود لأجله والغرض والغاية على أي حال أفضل من المقدّمة .

وقوله : « وهم من فزع يومئذ آمنون » ظاهر السياق أن هذا الفزع هو الفزع بعد نفخ الصور الثاني دون الأول فيكون في معنى قوله : « لا يحزنهم الفزع الأكبر » وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ، الأنبياء : ١٠٣ .

قوله تعالى : « ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » يقال : كبّه على وجهه فانكب أي ألقاه على وجهه فوقه عليه فنسبة الكب إلى وجوههم من المجاز العقلي والأصل فكبتوا على وجوههم .

وقوله : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » الاستفهام للإنكار والمعنى ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذي عملتموه ظهر لكم فلزمكم فلا ظلم في الجزاء ولا جور في الحكم .

والآيتان في مقام بيان ما في طبع الحسنة والسيئة من الجزاء فقيهما حكم من جاء بالحسنة فقط ومن أحاطت به الخطيئة واستغرقته السيئة وأما من حمل حسنة

وسيتعلم بذلك حكمه إجمالاً وأما التفصيل ففي غير هذا الموضع .

قوله تعالى : « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ » الآيات الثلاث - من هنا إلى آخر السورة - ختام السورة يبين فيها أن هذه الدعوة الحقّة تبشير وإنذار فيه إتمام للحجّة من غير أن يرجع إليه صلى الله عليه وآله وسلم من أمرهم شيء و إنما الأمر إلى الله وسيرهم آياته فيعرفونها ليس بغافل عن أعمالهم .

وفي قوله : « إِنَّمَا أُمِرْتُ » الخ تكلم عن لسان النبي ﷺ فهو في معنى قل إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ، والمشار إليها بهذه الإشارة مكّة المشرفة ، وفي الكلام تشريفها من وجهين : إضافة الرب إليها ، وتوصيفها بالحرمة حيث قال : ربّ هذه البلدة الذي حرّمها . وفيه تعريض لهم حيث كفروا بهذه النعمة نعمة حرمة بلدتهم ولم يشكروا الله بعبادته بل عدلوا إلى عبادة الأصنام .

وقوله : « وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ » إشارة إلى سعة ملكه تعالى دفعاً لما يمكن أن يتوهم أنه إِنَّمَا يملك مكّة التي هو ربّها فيكون حاله حال سائر الأصنام يملك الواحد منها على عقيدتهم جزءاً من أجزاء العالم كالسما والارض و بلدة كذا وقوم كذا وأُسرة كذا ، فيكون تعالى معبوداً كأحد الآلهة واقعا في صفّهم و في عرضهم .

وقوله : « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أي من الذين أسلموا له فيما أراد ولا يريد إلّا ما يهدي إليه الخلقة ويهتف به الفطرة وهو الدين الحنيف الفطريّ الذي هو ملّة إبراهيم .

قوله تعالى : « وَأَنْ أُنْزِلَ الْقُرْآنَ فَمَنْ أِهْتَدِيَ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ » معطوف على قوله : « أَنْ أَعْبُدَ » أي أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ والمراد تلاوته عليهم بدليل تفرّيع قوله : « فَمَنْ أِهْتَدِيَ » الخ عليه .

وقوله : « فَمَنْ أِهْتَدِيَ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » أي فَمَنْ أِهْتَدِيَ بهذا القرآن

فَالَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ هُوَ نَفْسُهُ وَلَا يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَيَّ .

و قوله : « و من ضلّ فقلّ إنّما أنا من المُنذرين » أي و من لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربّه و هو الضلال فعليه ضلاله و وبال كفره لاعليّ لأنّي لست إلّا منذرا مأمورا لذلك و لست عليه و كيلا والله هو الوكيل عليه .

فالعُدول عن مثل قولنا : و من ضلّ فإنّما أنا من المُنذرين وهو الَّذي كان يقتضيه الظاهر إلى قوله : « فقلّ إنّما أنا من المُنذرين » لتذكيره ﷺ بما تقدّم من العهد إليه أنّه ليس إلّا منذرا وليس إليه من أمرهم شيء فعليه أن يتوكّل على ربّه ويرجع أمرهم إليه كما قال : « فتوكّل على الله إنّك على الحقّ المبين إنّك لا تسمع الموتى » الخ فكأنّه قيل : و من ضلّ فقلّ له قد سمعت أنّ ربّي لم يجعل عليّ إلّا الإِذار فلست بمسؤول عن ضلال من ضلّ .

قوله تعالى : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها و ما ربّك بغافل عمّا تعملون » معطوف على قوله : « فقلّ إنّما أنا من المُنذرين » وفيه انعطاف إلى ما ذكره بعد أمر نبيّه ﷺ بالتوكّل عليه في أمرهم من أنّه سيجعل للمشركين عاقبة سوء و يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه ويريه من آياته ما يضطرّون إلى تصديقه ثمّ يجزيهم بأعمالهم .

و محصل المعنى و قل الثناء الجميل لله تعالى فيما يجريه في ملكه حيث دعى الناس إلى ما فيه خيرهم و سعادتهم و هدى الذين آمنوا بآياته و أسلموا له و أمّا المكذّبون فأما قلوبهم و أصمّ آذانهم و أعمى أبصارهم فضّلوا و كذبوا بآياته .

و قوله : « سيريكم آياته فتعرفونها » إشارة إلى ما تقدّم من قوله : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض » و ما بعده ، و ظهور قوله : « آياته » في العموم دليل على شموله لجميع الآيات التي تضطرّهم إلى قبول الحقّ ممّا يظهر لهم قبل قيام الساعة و بعده .

و قوله : « و ما ربّك بغافل عمّا تعملون » الخطاب للنبيّ ﷺ وهو بمنزلة

التعليل لما تقدمه أي إن أعمالكم معاشر العباد بعين ربك فلا يفوته شيء مما تقتضيه الحكمة قبل أعمالكم من الدعوة والهداية والإصلاح وإراءة الآيات ثم جزاء المحسنين منكم والمسيئين يوم القيامة .

و قرئ « عما يعملون » بياء الغيبة ولعلها أرجح ومفادها تهديد المكذابين وفي قوله : « ربك » بإضافة الرب إلى الكاف تطيب لنفس النبي ﷺ وتقوية لجانبه .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم » الآية حدَّثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : انتهى رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملا ووضع رأسه عليه فحرَّكه برجله ثم قال : قم يا دابة الأرض فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله أيسمي بعضنا بهذا الاسم ؟ فقال : لا والله ما هو إلا له خاصة وهو الدابة الذي ذكره الله في كتابه فقال : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » .

ثم قال : يا علي إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعداءك .

فقال رجل لأبي عبد الله عليه السلام : إن العامة يقولون : إن هذه الآية إنما تكلمهم فقال أبو عبد الله عليه السلام : كلمهم الله في نار جهنم إنما هو تكلمهم من الكلام .

أقول : و الروايات في هذا المعنى كثيرة من طرق الشيعة .

وفي المجمع وروى محمد بن كعب القرظي قال : سئل علي عن الدابة فقال :

أما والله ما لها ذنب وإن لها للحية .

أقول : وهناك روايات كثيرة تصف خلقها تتضمن "عجائب وهي مع ذلك متعارضة متدافعة من أرادها فليراجع جوامع الحديث كالدر المنثور أو مطولات النفاس كروح المعاني .

وفي تفسير القمي "حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما يقول الناس في هذه الآية «يوم نحشر من كل أمة فوجاً» ؟ قلت : يقولون إنه في القيامة . قال : ليس كما يقولون إنها في الرجعة أيحشر الله في القيامة من كل أمة فوجاً ويدع الباقيين ؟ إنما آية القيامة «وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً» . **أقول :** وأخبار الرجعة من طرق الشيعة كثيرة جداً .

وفي المجمع في قوله تعالى : «ونفخ في الصور» : واختلف في معنى الصور - إلى أن قال - وقيل : هو قرن ينتفخ فيه شبه البوق وقد ورد ذلك في الحديث . وفيه في قوله تعالى : «إلا من شاء الله» قيل : يعني الشهداء فإنهم لا يفزعون في ذلك اليوم وروي ذلك في خبر مرفوع .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : «صنع الله الذي أتقن كل شيء» قال : فعل الله الذي أحكم كل شيء .

وفيه في قوله تعالى : «من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار» قال : الحسنة والله ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والسيئة والله عداوته .

أقول : وهو من الجري وليس بتفسير وهناك روايات كثيرة في هذا المضمون ربما أمكن حملها على ماسياتي .

وفي الخصال عن يونس بن طبيان قال : قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام : إن الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه : فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة

الحرصاء و هو الطمع ، وآخرون يعبدونه فرقا من النار فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة ، ولكنني أعبده حباً له فتلك عبادة الكرام و هو الأمان لقوله تعالى : «وهم من فزع يومئذ آمنون» ، ولقوله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » فمن أحب الله أحببه الله ومن أحببه الله كان من الآمين .

أقول : لازم ما فيه من الاستدلال تفسير الحسنة في الآية بالولاية التي هي عبادته تعالى من طريق المحبة الموجهة لفناء إرادة العبد في إرادته وتوحيده تعالى بنفسه أمر عبده وتصرفه فيه وهذا أحد معنيي ولاية علي عليه السلام فهو عليه السلام صاحب الولاية و أول فاتح لهذا الباب من الأمة وبه يمكن أن يفسر أكثر الروايات الواردة في أن المراد بالحسنة في الآية ولاية علي عليه السلام .

وفي الدال المنثور أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وآله في قول الله : « من جاء بالحسنة فله خير منها » يعني بها شهادة أن لا إله إلا الله ، ومن جاء بالسيئة يعني بها الشرك يقال : هذه تنجي و هذه تردني .
أقول : : وهذا المعنى مروي عنه عليه السلام بألفاظ مختلفة عن طرق شتى وينبغي تقييد تفسير الحسنه بالإله إلا الله بسائر الأحكام الشرعية التي هي من لوازم التوحيد و إلا لفي تشريعها و هو ظاهر .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إنما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ » هذه البلدة الذي حرّمها قال : مكّة .

وفيه عن أبيه عن حماد بن عيسى عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله مكّة يوم افتتحها فتح باب الكعبة فأمر بصور في الكعبة فطمست فأخذ بعضادتي الباب فقال : ألا إن الله قد حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة لا ينقر صيدها ولا يعصدها ولا يخلخلها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد .

فقال العباس : يا رسول الله إلا الأذخر فإنه للقبر والبيوت فقال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم : إِلَّا الْأَذْخَر .

أقول : وهو مروي من طرق أهل السنة أيضاً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال :

« ما كان في القرآن دوماً الله يغافل عما تعملون ، بالتاء ، وما كان دوماً ربك بغافل عما يعملون ، بالياء .

تم والحمد لله



رقم الاية	عنوان البحث	نوع البحث	رقم الصحيفة
سورة المؤمنون	كلام في معنى تأثير الايمان	اجتماعي	٤
١١ - ١			
»	بحث حقوقي اجتماعي	حقوقي اجتماعي	١٤
سورة النور	في معنى عليته تعالى للاشياء	فلسفي	١٤٩
٤٦ - ٣٥			
سورة الشعراء	في ارتباط الاشياء بعلمه تعالى	فلسفي	٢٧٥
٩ - ١			
٢٢٧ - ٩٢	في معنى نفى الظلم عنه تعالى	عقلي	٣٥٥
سورة النمل	كلام في قصة سليمان عليه السلام	قرآني تاريخي	
٤٤ - ١٥			
»	١ - ماورد من قصصه في القرآن	»	٤٠١
»	٢ - الثناء عليه في القرآن	»	٤٠٢
»	٣ - ذكره في العهد العتيق	»	»
»	٤ - الروايات الواردة في قصصه	»	٤٠٣



ص	س	الخطاء	الصواب	ص	س	الخطاء	الصواب
٧	٢٢	عن	من	١٥١	٦	اذ	ان
٢٥	٤	فجعلناكم	فجعلناهم	١٥٢	٢	عن جابر	عن جابر عن
٢٩	٢١	جبل	جبل في الحقيقة	١٦٢	١	فتلخروج	فالخروج
٤٧	١٥	لذلك	كذلك	١٧٦	١٣	السوأة	السوأة
٤٨	٢٣	ينتهي	تنتهي	١٨٠	١٩	فلكل	فكل
٦٤	٣	يمنعه	يمنعه مانع	١٩٥	٦	في النبي	وفي النبي
٦٦	٢٠	استعلاء	الاستعلاء	١٩٨	٥	لامساغ	ولامساغ
٦٨	٩	قرره	قرره	١٩٩	١٦	للاهور	للاهور
٦٨	٢٠	تريني	ترني	٢٠٢	٢٤	يمشي	تمشي
٧٥	١٠	يكذبون	يكذبون	٢٠٣	١٦	الا أنهم	الا أنهم
٧٦	١٧	عن	من	٢٠٣	٢١	عليه فيهم	لهم
٧٨	١٧	ارمة	ازمة	٢٠٩	١٣	كثيرا	كثيرا
٧٨	٥	الا يامي	الا يامي	٢٠٩	١٥	وان	وإذ
٧٨	١٣	بين المشرك	بين المؤمن و	٢٠٩	١٨	أنهم	إنهم
		المؤمنة والمشرک		٢١٠	١٣	أنزل	أنزله
٨٨	١٤	المعنوية	المعنونة	٢١٤	٦	يتصف	ويتصف
١٠١	١٤	لا يخلو	ولا يخلو	٢١٧	١٠	الموت	يوم الموت
١٠٤	١١	بخبيثهم	بخبيثهم	٢٢١	١٩	الكلام	لكلام
١٢٧	٢١	الجزء	في الجزء	٢٣٣	٢٤	او مفيدتان	أومفيدتان له
١٣٤	٩	ولم تمسه	ولو لم تمسه	٢٣٧	٥	الآية	الآية ظاهر
١٤٧	١	الرحمة	الرحمة	٢٥١	٢	توكيل	بوكيل
١٤٩	١٦	وحدها	وحده	٢٥٢	١٣	هو	وهو
١٤٩	٢٢	نسبنا	نسبناه	٢٥٩	١٤	يُلقون	يُلقون
				٢٦١	٢٠	الواسط	الوسط

ص	س	الخطاء	الصواب	ص	س	الخطاء	الصواب
٢٦٤	٢٢	يبدل	تبدل	٤٠١	٢٤	سليمان	سليمان داود
٢٦٥	١٧	كانها	كانه	٤٠٢	٣	سبا	وسبا
٢٧٥	١٨	فيها	فيما	٤٠٢	٣	ص	وص
٢٨٤	١٥	فقرت	فقررت	٤٠٢	٥	٣٣-٣	٣٣
٢٨٥	١٧	الافدام	الاقدام	٤٠٢	٢٢	ملكة	ملكه
٣٠٩	١٠	كان	كاف	٤٠٦	٧	ولاترى	ولانرى
٣٠٩	١٢	والذي هو	والذي	٤١٤	١٢	قصتها	قصتها
٣١٠	١٧	قولى	لى	٤٢٠	١٨	والمراد	المراد
٣٤٧	٤	برجاء	برحاء	٤٢١	١٨	الى الخلق	بالخلق
٣٤٧	٩	على شيء	بشيء	٤٣٧	٢١	بهما	بها
٣٦٧	٢٣	ابن شيبة	ابن ابي شيبة	٤٣٧	٢٤	تكذيبها	تكذيبهم
٣٨٧	١٢	يستعد	تستعد	٤٤٤	٤	لذلك	بذلك
٣٩٧	٢٤	وصل	وصول	٤٤٧	١٣	عن	من

